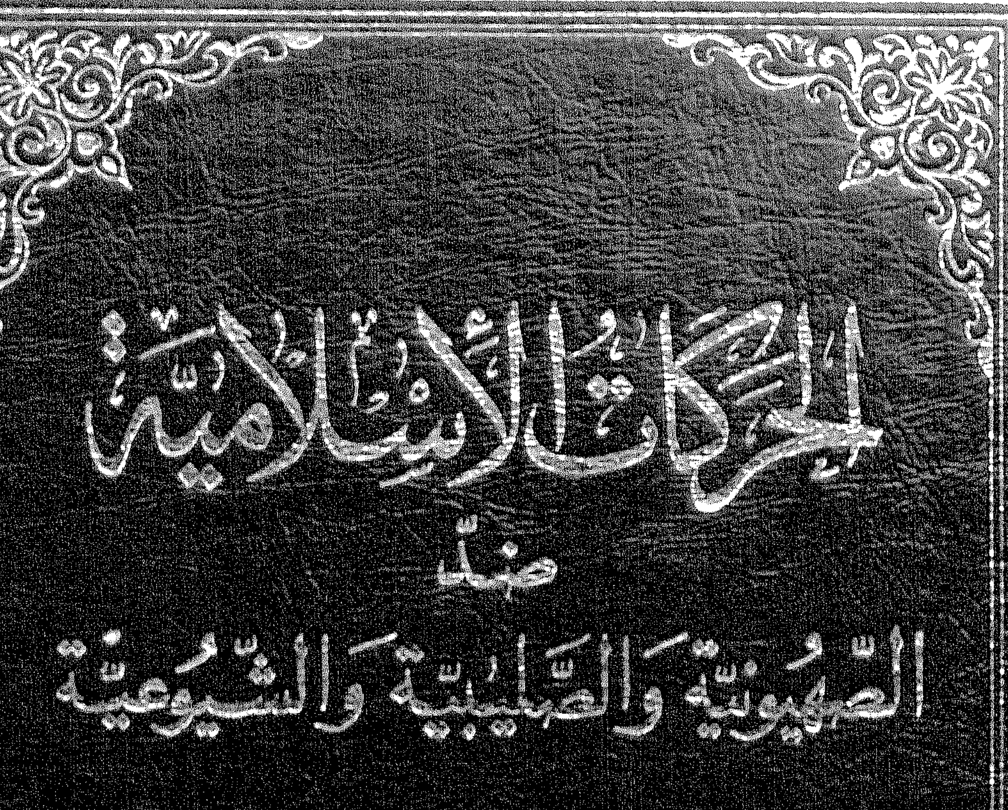


تأليف

نبيل زكريا عبد ربه

نشر وتوزيع
دار الثقافة
قطر - الدوحة - ص.ب ٢٢٣







الحركات الإسلامية

ضدّ

الصّهيونيّة والصّليبيّة والشّيوعيّة



الحركات الإسلامية
ضدّ
الصّهيونيّة والصّليبيّة والشّيوعيّة

تأليف
نبيه زكريّا عبد ربّه

نشر وتوزيع
دار الثقافة
قطر - الدوحة - ص.ب ٣٢٣

الطبعة الأولى

١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

ص.ب ٣٢٣ - الدوحة - قطر

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم، وبه أستعين، وأصلي وأسلم على إمام المجاهدين وقائد الغر الميامين الذي أنزل الله عليه ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾.

كان للعالم الغربي الصليبي أطماع اقتصادية في العالم الإسلامي، نظراً لموقعه الاستراتيجي وأرضه الخصبة المتنوعة المناخ ووفرة المواد الخام فيه، وأطماع دينية باعتبار أن القدس مهد المسيحية ومسقط رأس المسيح عليه السلام. أما اليهود فقد كانوا يشاطرون الصليبيين أطماعهم الدينية والاقتصادية أيضاً، ففلسطين بالنسبة لهم أرض الميعاد وهي موطئ قدم لهم لتحقيق دولتهم من الفرات إلى النيل، كما تتمتع هذه المنطقة بموقع استراتيجي يمكن من يستولي عليها أن يفرض سلطانه على كل من حولها. وهكذا اتفقت أهداف الصليبية واليهودية في العالم الإسلامي. فكانت الحروب الصليبية التي حرض عليها ودعم جيوشها بالمال التجار اليهود في أوروبا، وكان الهدف منها انتزاع فلسطين من أيدي المسلمين. بالإضافة إلى الأهداف الاقتصادية الأخرى، وقد آتت الجهود الصليبية اليهودية ثمارها في القرن العشرين حينما استعمر الصليبيون العالم الإسلامي.وأقاموا دولة إسرائيل في فلسطين.

لقد أدركت الصليبية واليهودية بعد اندحارها في الحروب الصليبية، رغم تفوقها في العدد والعدة أن قوة المسلمين تكمن في سمو عقيدتهم وقوة وحدتهم وأخوتهم، ولهذا أخذوا يخططون لتقويض مصدر هذه القوة قبل أن يدخلوا مع المسلمين في مواجهة حاسمة مرة أخرى، وقد قامت مخططاتهم منذ القديم على الأسس التالية:

١ - تشكيك المسلمين في عقيدتهم وسلخهم من دينهم وتشويه تاريخهم

فقد شنوا على الإسلام هجمة فكرية وعقائدية وتبشيرية استهدفت إقناع المسلمين بأن هذا العصر عصر العلم، وأن أوربا لم تنهض من سباتها إلا حينما تركت دينها واتخذت من العلم ديناً لها، هذا بالإضافة إلى الغزو التبشيري والعقائدي والتنصيري الذي شنوه على العالم الإسلامي فأدخلوا المبادئ المادية الهدامة كالقومية والعلمانية والشيوعية والاشتراكية في محاولة منهم لتحل محل العقيدة الإسلامية في نفوس المسلمين.

يقول الدكتور (صموئيل زويمر) رئيس المبشرين في الشرق الأوسط:
« إن مهمة المبشرين أن يخرجوا المسلمين من الإسلام ليصبحوا مخلوقات لاصلة لها بالله، وبالتالي لاصلة لها بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها، وبذلك تكونوا أنتم بعملكم هذا طلائع الفتح الاستعماري في الممالك الإسلامية ».

ويقول أيضاً في كتابه (أشعة الشمس في الحريم):
« إننا قد تعلمنا أن هناك خططاً أخرى غير الهجوم المباشر على الإسلام، والضرب العشوائي على الحائط الصخري، وأصبح علينا أن نتحسس الثغرة في الجدار ونضع فيه البارود، فقد عرفنا أن الثغرة تقع في قلوب نساء الإسلام، فالنساء هن اللواتي يصنعن أولاد المسلمين ».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٢- القضاء على الخلافة الإسلامية وعدم السماح بقيام أية دولة إسلامية

بعد أن استطاع المخطط اليهودي الصليبي إسقاط الخلافة الإسلامية في تركيا حرص على أن لاتقوم في أية بقعة في العالم الإسلامي دولة إسلامية عقائدية يكون لها قادة مخلصون يعملون على تطبيق الإسلام الشامل فيها، ولهذا حاربوا كل حركة تعمل على ارجاع دولة الخلافة، وحرصوا أن يتولى قيادة العالم الإسلامي قادة علمانيون لا يؤمنون بتطبيق الإسلام في مجتمعاتهم بل يؤمنون بضرورة فصل الدين عن الدولة.

يقول اللورد (كرومر) في كتابه (مصر الحديثة):

« إن بريطانيا على أتم الاستعداد لمنح جميع مستعمراتها الحرية السياسية حينما يظهر جيل من المفكرين والسياسيين المصطبغين بقيم التمدن الإنجليزي، ويصبحون على استعداد للتسليم بهذا التمدن، ولكن الحكومة البريطانية لن تتسامح ولا تحت أي ظرف من الظروف ولا إلى لحظة واحدة بأن تقوم دولة إسلامية مستقلة ».

وقد نشرت صحيفة (الواشنطن بوست) أن البيت الأبيض أمر وكالة الاستخبارات الأميركية بإجراء دراسة الحركات الإسلامية في العالم كله لئلا تؤخذ الولايات المتحدة على حين غرّة بقوة الحركات الإسلامية في أجزاء أخرى من العالم.

٣- الابقاء على العالم الإسلامي في حالة تفرقة وعدم استقرار

فقد عملوا على القضاء على الأخوة الإسلامية بإثارة النعرات القومية والعنصرية والدينية وتقوية الأقليات الدينية غير الإسلامية والتي تنتسب ظاهراً إلى الإسلام كالقاديانية والبهائية، وتعميق الخلاف بين السنة

والشيعة، هذا بالإضافة إلى قيام الكثير من المسيحيين واليهود بإنشاء الأحزاب القومية والشيوعية والاشتراكية في العالم الإسلامي، والهدف منها تفتيت الشعب وتعميق الخلافات الفكرية والعقائدية فيه، وتوزيع انتمائه بين الشرق والغرب. واستنفاد طاقات المسلمين في حروب أهلية ومعارك جانبية، المستفيد الأول والأخير منها الصليبيون واليهود الذين يسيطرون على مصادر التسليح والتموين، كما أنهم قسموا العالم الإسلامي إلى دويلات بينها من الخلاف أكثر مما بينها من الوفاق. وأخيراً أقاموا دولة إسرائيل في قلب العالم الإسلامي لتكون مصدر قلق واضطراب دائمين لكل الدول المحيطة بها تدعمها الدول الغربية بالسلاح والمال والدعم السياسي والمعنوي بينما يدعمها الاتحاد السوفياتي بالرجال الخبراء المدربين.

يقول رادولف تشرشل في كتابه (الأيام الستة).

«لقد كان إخراج القدس من سيطرة الإسلام حلم النصارى واليهود على السواء، وإن سرور النصارى لايقل عن سرور اليهود، وإن القدس قد خرجت من أيدي المسلمين، ولن تعود إليهم في أية مفاوضات مقبلة».

٤ - الإبقاء على العالم الإسلامي مصدراً للمواد الخام وسوقاً للبضائع الغربية

ولهذا نجد أن العالم الغربي يضن بالتكنولوجيا والتقنية الصناعية على العالم الإسلامي بينما نجده يمنحها لكل دول العالم غير الإسلامي كاليابان وإسرائيل وجنوب إفريقيا، ولهذا نجد أن العالم الإسلامي متأخر صناعياً كما أنه لازال يعتمد غذائياً على الدول الصليبية وخاصة أميركا مع أن الأرض في البلاد الإسلامية خصبة ومتنوعة المناخ، ويصدر من العالم الإسلامي المواد الخام إلى الدول الغربية والشرقية بأبخس الأثمان وتصنع هذه المواد وتعود إلى أسواقنا لتباع لنا بأغلى الأثمان، حتى يبقى المسلمون

عالة على الغرب والشرق حتى في غذائهم وسلاحهم.

والذي يستعرض حالة العالم الإسلامي منذ بداية القرن العشرين لايجدها تخرج عن هذا المخطط، فقد بدأت انجلترا وفرنسا وإيطاليا بتطبيقه ثم ورثته عنهم كل من أميركا وروسيا.

لقد كان ضعف الخلافة العثمانية ثم إلغاؤها صدمة عنيفة للعالم الإسلامي، فقد شعر المسلمون بفقدان الراعي الذي يرعاهم والحارس الذي يحرسهم، والقائد الذي يوجه طاقاتهم. وكان يزيد من حدة هذه الصدمة ما تعرض له المسلمون من هجمة عقائدية تمثلت في الاستشراق والتغريب والتبشير استهدفت دينهم وعقيدتهم، وهجمة عسكرية استعمارية استعمرت بلادهم وسرقت ثرواتهم وقطعت أوصالهم، ولهذا قام القادة المخلصون في العالم الإسلامي بحركاتهم الثورية لتحرير بلادهم من المستعمرين وإعادتها إلى حظيرة الإسلام. والمسلمون في كل زمان ومكان لاينقصهم الرجال ولكن ينقصهم القادة المخلصون، والإسلام قادر على صنع هؤلاء القادة في كل وقت في السراء والضراء، ما عادوا إلى ربهم وتمسكوا بسنة نبيهم، لأن مدرسة محمد ﷺ تصنع في الرجال أرواحهم وتربي نفوسهم وتقيم عقائدهم فيستعلون بإيمانهم على هذه الدنيا، وتصغر في عيونهم زخارفها، ويصبحون ليس لهم هدف في الحياة إلا أحد أمرين: إما النصر والسيادة أو الموت والشهادة، وفي الأولى يعتبرون السيادة للإسلام وليست لأشخاصهم وفي الثانية يطمحون أن ينالوا عند الله أعلى الدرجات.

لقد أوجد الإسلام الرجال المؤمنين والقادة المجاهدين في كل عصر ومصر في الشرق وفي الغرب، وكانت تجمع بينهم صفات واحدة، لأنهم كانوا يصدرون عن مشكاة واحدة هي كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، كما

كانت تظهر فيهم خصال واحدة في السلم والحرب لأنهم خريجو مدرسة النبوة يلتزمون بمبادئها ويحافظون على عهودها ومواثيقها، ويحرصون دائماً على تحكيم الله ورسوله في شؤونهم بدل أن يحكموا أهواءهم وأطماعهم. وصدق الله العظيم ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلًا﴾ (٢٣ الأحزاب).

ولكننا حينما ندرس تاريخنا نجد أنه يعرض علينا بشكل مشوه وخاصة تاريخ أعلام القادة المجاهدين الذين وقفوا في وجه الاستعمار الشرقي والغربي وقدموا للإسلام خدمات جلى، ذلك لأن تاريخنا من تأليف أعدائنا وتوجيههم بحيث يعرضون للبقع السوداء فيه فيبرزونها على قلتها وكأنها هي تاريخنا كله، بينما يطمسون الصفحات البيضاء - وما أكثرها في تاريخنا - فلا يتعرضون لها وإن فعلوا فبشيء من التلميح والإيجاز، بينما نجدهم يبرزون أعلام الغرب ورجالاته على أنهم القدوة التي يقتدى بها، وهم الأفذاذ الذين لن يجود التاريخ بمثلهم، وهذه خطة الغزو الفكري التي اعدها المستعمرون لتكون بديلًا أطول عمراً من الاستعمار المادي والعسكري.

وفي هذا المؤلف ترجمة لتسعة عشر قائداً من قواد الجهاد الإسلامي، قاموا بحركاتهم الجهادية لصد المستعمرين عن بلاد الإسلام والعمل على تقوية الخلافة الإسلامية حينما كانت موجودة، ثم العمل على إرجاعها بعد أن تمكن الصليبيون واليهود من إلغائها. والترجمة لهؤلاء القادة لاتهدف التأريخ الشخصي لهم إلا بمقدار ما يكون مدخلًا للتأريخ العقائدي والحركي، ولهذا حاولنا تحليل حركاتهم، ورصد ما لها وما عليها، حتى يتسنى للمسلمين أن يستفيدوا من حسنات من سبقهم ويتجنبوا أخطاءهم ويبدؤوا من حيث انتهى أسلافهم.

والـذي يمعن النظر في التاريخ الحركي والعقائدي لهؤلاء القادة المجاهدين يجد أن بينهم صفات متشابهة رغم اختلاف أقطارهم وأزمانهم، ولكن هذا ليس غريباً فما داموا يصدرون عن الإسلام فالإسلام هو الذي وحّد بين قلوبهم وحركاتهم. ويمكن القول بأن هؤلاء القادة كانوا يشتركون في الصفات التالية.

١- إنهم جميعاً حفظوا القرآن وتربوا تربيـة إسلامية منذ نعومة أظفارهم.

٢- إنهم قاموا جهاداً في سبيل الله، وتحت راية لا إلّه إلا الله، ليحرروا العالم الإسلامي من المستعمرين، ويعيدوا دولة الخلافة كفريضة شرعية على كل مسلم.

٣- إنهم اعتمدوا العمل الجماعي كأسلوب لتحقيق الأهداف الكبرى للإسلام، لأن العمل الفردي أعجز من أن يقوم بمثل هذه المهمة.

وهذا يؤكد أن الإسلام (محرر الشعوب) لا كما يقول الملاحدة الشيوعيون بأنه (أفيون الشعوب). يقول (شارون) وزير الدفاع الإسرائيلي السابق:

« ما من قوة في العالم تضاهي قوة الإسلام من حيث مقدرته على اجتـذاب الجماهـير المسلمـة، فهو يشكـل القاعـدة الوحيـدة للحريـة الإسلامية ».

والفضل ما شهدت به الأعداء.

ولأن اتفق هؤلاء القادة المجاهدون في الهدف فإنهم قد اختلفوا في الأسلوب والطريق لتحقيقه. فبعضهم رأى أن الوصول إلى الهدف يتم عن طريق الإصلاح والجهاد (من القمة إلى القاعدة) أي الجهاد حتى إقامة دولة

الإسلام وهي بدورها تقوم بإصلاح الشعب وتطبيق الإسلام عليه. ورأى البعض الآخر أن الإصلاح يجب أن يتم من (القاعدة إلى القمة) وذلك بايجاد قاعدة صلبة للحركة من الطليعة المؤمنة وتربيتها تربية عقائدية حركية، وايجاد رأي عام إسلامي مؤيد لأهداف الإسلام في إقامة دولته وتطبيق شريعته. ولكل من الأسلوبين حسناته وسيئاته، فالأسلوب الأول أسرع ولكنه أقل ثباتاً وخاصة في هذا الوقت الذي كثر فيه الأعداء الذين يعملون على الحيلولة دون إقامة دولة للإسلام، أما الأسلوب الثاني فهو يحتاج إلى مدة أطول ولكن أكثر ثباتاً وأعمق جذوراً. وقد اجتهد كل واحد من هؤلاء المجاهدين ولكل مجتهد أجره فإن أصاب فله أجران وإن اخطأ فله أجر واحد، ولا ينتقص من فاعلية وقيمة ثوراتهم وحركاتهم أنهم لم يحققوا أهدافهم أو أنهم حققوها ولم يستطيعوا أن يثبتوا أركانها، لأن قوة العدد والعدة عند الأعداء كانت تتغلب على قوة الإيمان والشجاعة عند المؤمنين.

وحينما انتهيت من هذا المؤلف احترت في تسميته فاقترح عليَّ بعض الإخوة تسميته (الجهاد الإسلامي) واقترح البعض الآخر تسميته (الثورات الإسلامية) واقترح فريق ثالث تسميته (من أعلام المجاهدين). وقد استبعدت التسمية الأولى لأنني خشيت أن ينصرف ذهن القارئ لغلاف الكتاب أنه يبحث في موضوع فقهي كتب عنه الكثيرون، واستبعدت التسمية الثالثة، لأنني لا أؤَرخ للتاريخ الشخصي لهؤلاء المجاهدين بل أؤرخ للتاريخ العقائدي والحركي لهم، ومع أنني أعتقد أن تسمية الكتاب (الجهاد الإسلامي) أفضل لأن هذا الاصطلاح إسلامي بحت ويعني (الجهاد في سبيل الله بينما كلمة (الثورات) اصطلاح مستحدث يعني أشياء كثيرة قد لا توافق منهج الإسلام، فإذا أضفنا إليها صفة (الإسلامية) فإنها تعني ما يعنيه

الجهاد من التغيير الجذري للأنظمة والشرائع الجاهلية وإحلال منهج الإسلام وشريعته مكانها.

إن معركتنا مع أعدائنا معركة عقائدية، انهزمنا فيها حينما خضناها تحت رايات مستوردة كالقومية والاشتراكية والشيوعية ولم نخضها تحت راية أمتنا الأصيلة راية (لا إلّه إلا الله محمد رسول الله) فأعداؤنا لايخافون منا إذا كنا قوميين أو علمانيين ولكنهم يخافون منا إذا أصبحنا مسلمين منظمين، إنهم يخافون من الإسلام هذا العملاق الذي بدأ يتململ ويتحرك ويخرج من قمقمه، وقد عبّر بعض قادة الأعداء عن هذه الحقيقة بأقوال كثيرة منها:

يقول بن غوريون:

« نحن لانخشى الاشتراكيات ولا الثورات ولا القوميات في المنطقة، وإنما نخشى الإسلام، هذا المارد الذي بدأ يتململ في المنطقة ».

ويقول أيضاً:

« إن أخشى ما نخشاه أن يظهر في العالم العربي محمد جديد ».

ويقول شمعون بيريز:

« إنه لايمكن أن يتحقق السلام في المنطقة مادام الإسلام شاهراً سيفه، ولن نطمئن على مستقبلنا حتى يغمد الإسلام سيفه إلى الأبد ».

ويقول (بيجن):

« إن ظاهرة انبعاث الإسلام ليست ظاهرة منعزلة تخص منطقة معينة وإنما تنسحب آثارها على منطقة الشرق الأوسط بأسرها مما يحتم على العالم الديمقراطي اليقظة والحذر في مواجهة هذه الظاهرة المخيفة ».

وقد وجه الرئيس الأميركي السابق (نيكسون) رسالة إلى (الرئيس ريجان) في بداية ولايته الثانية جاء فيها:

«إن الخطر الذي تتعرض له المنطقة الآن لايأتي من قبل الثورة الشيوعية، بل يأتي من قبل التوجه الديني المتزمت في المنطقة».

وصدق الله العظيم:

﴿ولايزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا﴾.

وبعد...،

فليس الذي يقرأ كالذي يكتب... فرب قارئ أوعى من كاتب... ولكني حين بدأت بكتابة هذا الكتاب سألت الله أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يكون في ميزان حسناتي يوم القيامة. وكنت أردد في نفسي قول القائل:

كتبت وقد أيقنت يوم كتابتي — بأن يدي تفنى ويبقى كتابها
فإن فعلت خيراً ستجزى بمثله — وإن فعلت شراً عليها حسابها

والخير أردت... وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المؤلف

ثورة الإمام
محمد بن عبد الوهاب

١ - المقدمة

الجزيرة العربية مهد الإسلام وحصنه، ففيها ولد المصطفى ﷺ، ومنها انبعث نور الحق ليعم ارجاء الأرض كلها، وبعد ان تحولت عاصمة الخلافة من المدينة المنورة إلى دمشق زمن الأمويين وإلى بغداد زمن العباسيين وإلى القاهرة زمن الفاطميين وإلى استنبول زمن العثمانيين، انزوت الجزيرة العربية عن صنع احداث التاريخ الإسلامي، حتى كاد التاريخ يقول ان الجزيرة العربية عجزت عن ان تلد امثال صلاح الدين والظاهر بيبرس وقطز ومحمد الفاتح، كما عجزت أن تلد مثل ابطال الإسلام الأوائل الذين تربوا في مدرسة محمد ﷺ، ولكن الجزيرة العربية اثبتت للتاريخ انها لا تزال مهد الأبطال وانها قادرة على انجاب المجددين حينما انجبت رجلًا غيّر وجه التاريخ في هذه الجزيرة، بل واحدث ثورة قرآنية في معظم ارجاء العالم الاسلامي، حتى كان قدوة لمعظم المصلعين الاسلاميين الذين جاءوا من بعده، ذلك هو العالم الفاضل والشيخ الجليل محمد بن عبد الوهاب.

٢ - حياته

ولد محمد بن عبد الوهاب التميمي النجدي الحنبلي في بلدة العيينة بنجد سنة ١٧١٣ الموافق ١١١٥م وكان ابوه رجلاً صالحاً عالماً، فأخذ الابن عن ابيه الفقه على مذهب الامام احمد بن حنبل، وحفظ القرآن الكريم ولم يتجاوز العاشرة من العمر، ثم رحل لطلب العلم فتوجه نحو مكة عام ١٧٢٣ ومنها توجه إلى المدينة فمكث فيها مدة من الزمن حتى اتم تعليمه فيها، ثم رحل إلى البصرة واقام فيها اربع سنوات، ثم رحل إلى بغداد ومكث فيها خمس سنوات، ثم رحل إلى كردستان فأقام فيها سنة واحدة، ثم رحل إلى همذان وأقام فيها سنتين، ثم رحل إلى اصفهان ودرس فيها فلسفة الإشراق والتصوف، ثم رحل إلى قم وأقام بها مدة من الزمن، وبعد هذه الرحلة العلمية الطويلة عاد الشيخ محمد إلى(حريملاء) التي انتقل إليها والده وأقام فيها.

تأثر الشيخ محمد بابن تيمية وبدعوته الإصلاحية، فدرس كتبه ورسائله الإصلاحية منذ بداية حياته، ويوجد في المتحف البريطاني بعض رسائل ابن تيمية بخط الشيخ، كما تأثر بما رآه من احوال قبائل نجد التي انتشرت فيها البدع والانحرافات عن عقيدة الإسلام الصحيحة، كالتبرك بالأشجار والقبور والاستعانة بالموتى من الصالحين لقضاء الحاجات وتفريج الكربات، وغيرها من الآثام والكبائر. ولقد أثارت هذه الردة عن الإسلام في نفس الشيخ ثورة عارمة، ورغبة أكيدة في إصلاح قومه ودعوتهم إلى الإسلام الصحيح عقيدة وشريعة ونظاماً، وإبعادهم عن البدع والضلالات، والعودة بهم إلى العقيدة الصحيحة كما فهمها رسول الله ﷺ وأصحابه.

لقد استفاد الشيخ محمد من ابن تيمية كل الاستفادة، ولكنه لم يقف عند الحدود التي وقف عندها ابن تيمية بل تخطاها إلى العمل الإيجابي

والفكر الجهادي، فقد قارع ابن تيمية العلماء من أهل الكلام والمنطق وتصدي لهم ودافع عن عقيدة الإسلام النقية وعرضها كما نزلت على قلب محمد ﷺ، وكذلك فعل محمد بن عبد الوهاب، وتعدى ذلك إلى الدخول في واقع المسلمين الاجتماعي الذي كانت تشوبه الكثير من البدع والشبهات.

وإن كان ابن تيمية قد ارتضى لنفسه الجهاد بالكلمة لتغيير الواقع السياسي في بلاد المسلمين فإن محمد بن عبد الوهاب قد تجاوز ذلك إلى الجهاد بالسيف حتى أقام دولة الإسلام، وإن كان ابن تيمية رحمه الله قد أقام مدرسة في الفقه والمنطق تستمد اصولها من الكتاب والسنة. فإن الشيخ محمد قد أقام دولة إسلامية عقائدية تستمد اصولها من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. وهكذا أتبع الشيخ محمد بن عبد الوهاب القول بالعمل. وجاهد باللسان وبالسنان، وأقام مدرسة عقائدية وأسس دولة إسلامية. فعمل للإسلام بشكل متكامل ولا يصلح لهذا الدين إلا من أحاطه من كل جوانبه.

وقد تأثر بدعوة الشيخ الكثير من رجال الإصلاح في العالم الاسلامي. فظهر (الالوسي) الكبير في بغداد، وجمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده بمصر، وجمال الدين القاسمي بالشام، وخير الدين التونسي بتونس، وصديق حسن خان في بهوبال، وأمير علي في كلكته. وسمي من تابع الشيخ بأهل التوحيد (إخوان من أطاع الله) وسماهم خصومهم بالوهابية نكاية وافتراء، وأخطأ البعض فجعلهم مذهباً خاصاً في الاسلام، وأحفاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب اليوم يعرفون بالسعودية (بآل الشيخ) ولهم مقام رفيع عند آل سعود.

٣- دعوته

وقبل أن يجهر الشيخ بدعوته أراد أن يعد نفسه لها، فاعتكف في داره

بعيداً عن أهل بلدته حوالى ثمانية أشهر، كتب خلالها رسالته الشهيرة (التوحيد الذي هو حق الله على العبيد) أكد فيها الشيخ أنه لا يدعو إلى مذهب جديد في الإسلام، واتجاهه متبع وليس مبتدع، يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، كما يدعو إلى الأخذ بسنة نبيه محمد ﷺ. وَدَلَّلَ على ما يدعو إليه بأيات وأحاديث كثيرة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وأخذ ينكر على قومه التوجه إلى أصحاب القباب والقبور، والتوسل بالأولياء والأنبياء في قضاء الحاجات، وما إلى ذلك من بدع كان ابن تيمية قد انكرها وحث المسلمين على تركها والعودة إلى المنبع الصافي للإسلام وعقيدته.

حارب الشيخ محمد بن عبد الوهاب الجاهلية، بمختلف مظاهرها وألف بذلك رسالته (مسائل جاهلية) كما تجد ذلك واضحاً في كتابه (الدرر السنية) ولقد نبه- رحمه الله- المسلمين الغافلين إلى العلاقة الوثيقة بين العقيدة والسياسة كتشريع وتنفيذ، واعتبر الحاكمية أخص خصائص الألوهية، فالكفر بالطاغوت يعني عنده بغض ومحاربة الحاكم الذي لا يحكم بما أنزل الله، وتجد هذا واضحاً في رسالته السابعة الموجودة في (تسع رسائل).

لقد اعتبر الشيخ محمد العمل شرطاً أساسياً في ادعاء الإسلام، ورفض الادعاء بالإسلام ما دام المرء يزاول الإعتداء على حق من حقوق الله تعالى، ويوزع ولاءاته لغير الله. ولم يقبل مقولة (لا إلّه إلا الله) مجردة عن المظاهر التي تدلل على الإخلاص لها والعمل بمتطلباتها، ويسرد الشيخ في كتابه (مختصر سيرة الرسول ﷺ) سبعة أدلة من أفعال السلف الصالح تحقيقاً لاجتهاده في هذا المجال وتبياناً لرأيه.

لقد كان الشيخ من أوائل من وضح حقيقة الالوهية والربوبية

والعبودية والدينونة بأسلوب عصري واقعي، بل إن هذه القضية أخذت مساحات واسعة في رسائله وكتبه، ومن خلال سطورها يشعر القارئ بنبض التوحيد متدفقاً في كل كلمة يكتبها.

ومحمد بن عبد الوهاب من أبرز رجال التاريخ المعاصر الذين خرجوا على السلطان المنحرف عن منهج الله، إذ أن كل من يخرج عن منهج الله طاغوت يجب محاربته، ويرى أن هذا هو مذهب أفاضل السلف رضوان الله عليهم كالحسين بن علي وابن الزبير وابن جرير وغيرهم من علماء السلف الصالح. ولما أخذت الدولة العثمانية تنحرف عن منهج الله وتقلد الغرب في كثير من مناحي الحياة، خرج الشيخ محمد على السلطان العثماني (عبد الحميد خان الأول) وعلى السلطان (سليم خان الثالث) وحارب أتباعه ولاة السلطان في جميع الجزيرة العربية والعراق والشام حتى اسقطوهم.

٤ - مصنفاته

وللشيخ العديد من المصنفات غير ما ذكرنا سابقاً - أكثرها رسائل، منها (كتاب التوحيد) و(رسالة كشف الشبهات)، و(تفسير سورة الفاتحة)، و(أصول الإيمان) و(تفسير شهادة إن لا إله إلا الله) و(معرفة العبد ربه ودينه ونبيه) و(المسائل التي خالف بها الرسول ﷺ أهل الجاهلية) وهي أكثر من مئة مسألة، و(فضل الإسلام) و(نصيحة المسلمين) و(معنى الكلمة الطيبة) و(الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) و(مجموعة خطب) و(مفيد المستفيد) ورساله (في أن التقليد جائز لا واجب) و(كتاب الكبائر) وأكثر هذه الكتب والرسائل مطبوع ومتداول، وفي تاريخ (ابن غنام) رسائل بعث بها الشيخ إلى أهل البلاد النجدية والأقطار الإسلامية.

٥- مرحلة الدعوة

بدأ محمد بن عبد الوهاب دعوته في (حريملاء) بالحكمة والموعظة الحسنة، ثم أخذ يكتب إلى أمراء الحجاز والجزيرة يدعوهم إلى الله ونصرة دعوته، وقد كان لدعوة الشيخ في بلدة أثر كبير في نفوس الناس فيها، وقد ساعد الشيخ على هذا النجاح أنه دعا قومه، وهم أهل بادية لا زالت فطرتهم سليمة ولا يجمدون على رأي واحد، فيكون اقناعهم بالعدول عن الخطأ اسهل واجدى، ولهذا تبع دعوته عدد كبير من أهل حريملاء فتركوا الشرك والفجور والبدع وأخذوا يتخلقون بأخلاق الإسلام ويعتقدون عقيدته. ومن الطبيعي أن تجد كل دعوة لله أعداء متربصين، ممن لا يستطيعون العيش في كنف الإسلام، أو يعتقدون بأن مصالحهم ستتعطل وتجارتهم سوف تكسد، وكان في حريملاء جماعة العبيد العتقاء يسمونهم (الحميان) أو (المحميين) كانوا على جانب كبير من الانحطاط الخلقي، وكانت مهمتهم في البلد ممارسة الرذائل والمنكرات، فلما هدى الله الكثير من أهل حريملاء إلى الإسلام ولبوا دعوة الشيخ، كسدت بضاعة هؤلاء الحميان، فحقدوا على الشيخ واحاطوا ببيته يريدون قتله، فهب أتباعه للدفاع عنه، ولكنه آثر الرحيل عن حريملاء درءاً للفتنة وحقناً للدماء، وقد ترك الشيخ حريملاء عام ١٧٤٠ وتوجه نحو العيينة. يمم الشيخ محمد وجهه شطر (العيينة) لأنه كان يعلم أن فيها حاكماً على جانب كبير من الأخلاق الفاضلة، عثمان بن حميد بن معمر فاستقبل الشيخ أحسن استقبال، وزوجه أخته (جوهرة) فوجد الشيخ في العيينة الأمان والاطمئنان، مما شجعه على نشر دعوته، وتنفيذ معتقداته، فدعا الناس إلى التوحيد الحق والأخلاق الحميدة فتبعه جل أهلها، وأزال بفأسه شجرة كان يغرسها الجهلة من المسلمين، كما هدم قبر الصحابي الجليل (زيد بن الخطاب) شهيد حروب الردة وسواه

بالتراب ليثبت للذين كانوا يقدسونه بأن القبر لا يضر ولا ينفع، وقد حضر لمشاهدة هدم القبر عدد كبير من أهل العيينة ومنهم حاكمها وتوقعوا بالشيخ شراً بسبب هدمه للقبر ولكن لم يصب الشيخ بأي أذى، فزاد إيمان الناس بدعوته، لا سيما بعد أن رأوه في اليوم التالي معافى من كل سوء، مما شجعه على تنفيذ أحكام الشريعة الإسلامية بينهم.

وكما تربص الفاسدون بالشيخ ودعوته في حريملاء لأنهم وجدوا فيها خطراً على مصالحهم ومفاسدهم كذلك هال أمير الأحساء (سليمان بن غرير) أمر الشيخ محمد حينما سمع بانتشار دعوته والتفاف الناس حوله، وخشي بذلك على نفسه وحكمه، ولهذا أرسل إلى حاكم العيينة يهدده ويطلب منه قتل الشيخ محمد أو طرده من بلاده، وإلا منع عنه المعونة الشتوية التي كان يمده بها (ومقدارها ١٢٠٠ قطعة ذهبية نقداً وما يساويها من المواد الغذائية) فلم يسع حاكم العيينة إلا الاستجابة لحاكم الأحساء، فأحضر الشيخ وأبلغه بكل ما حصل وأحسن وداعه كما أحسن استقباله من قبل، حينما خيره في أن يذهب إلى الجهة التي يرغب فيها دون أن يمسه أحد بأذى، فاختار الشيخ محمد الرحيل إلى الدرعية قرب الرياض. كان الشيخ يعتقد بأن الحق لا يصلح وحده، ولكن لا بد له من قوة تحميه وتعمل على نشره وإعلاء رايته، ولهذا كان يدعو الأمراء عله يجد فيهم من يتبنى هذه الدعوة ويحميها، وقد آثر الشيخ الرحيل إلى الدرعية لأنه كان يعرف أن فيها حاكماً صالحاً يمكن أن يصلح بصلاحه خلق كثير، ولهذا حينما وصل الشيخ الدرعية عام ١١٥٧ هـ الموافق ١٧٤٥ م، التقى بأميرها محمد بن سعود، وشرح له ما يدعو إليه فاقتنع الأمير بضرورة هذه الدعوة وعاهد الشيخ على الإخلاص لدين الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، والقتال في سبيل الله لإحقاق الحق وإعادة المسلمين إلى روح الإسلام الصحيح.

٦- مرحلة الدولة

انتقلت الدعوة الوهابية بتبني الأمير محمد بن سعود لها من مرحلة الدعوة إلى مرحلة الدولة، ومن مرحلة التخطيط إلى مرحلة التنفيذ، لأنها وجدت القاعدة الأمينة التي تأوي إليها وتنطلق منها، كما وجدت القوة التي تحميها، ولهذا انطلق المجاهدون ينشرون دعـوة الله في جميع ارجاء الجزيرة العربية، فلم تمض على ذلك سوى مدة صغيرة حتى كانت معظم الجزيرة العربية تدين بالولاء والطاعة للشيخ محمد والأمير محمد، كما ترددت اصداؤها في جميع الوطن العربي والعالم الإسلامي، وبهذا قرت عين الشيخ حينما وجد للإسلام دولة تطبق شرعه وتذود عن حياضه، ولكن المنية ما لبثت أن عاجلت الأمير محمد بن سعود فتوفي عام ١٧٦٥ للميلاد.

خلف عبد العزيز بن محمد بن سعود أباه في إمارة الدولة الجديدة، وكان رجلاً ذكيـاً شجاعاً مؤمناً صادقاً، ولهذا انتشرت الدعوة في عهده، وازدادت مساحة البقعة التي تحكمها، فقد غزا الأمير عبد العزيز الأحساء والقطيف، وبسط نفوذه على بلدان ساحل الخليج وعمان، وغزت قواته بقيادة ابنه سعود العراق وكربلاء، فهدموا الأضرحة المقدسة لدى الشيعة، مما كان له اسوأ الأثر في نفوس الشيعة، فتسلل احدهم إلى الدرعية، وبينما كان الأمير عبد العزيز ساجداً في صلاته وثب عليه وطعنه بخنجره، فأسلم الروح وكانت وفاته سنة ١٨٠٣ للميلاد.

ترددت اصداء الحركة الوهابية في العالم الإسلامي كله، حتى بلغت مسامع السلطان العثماني وقام بعض الفاسدين بتحريض السلطان على الحركة وصوروها له بأنها ان قويت وثبتت اقدامها فإنها سوف تنازعه ملكه، ولهذا امر السلطان ولاته على العراق بالتصدي لغزوات الوهابيين، فجهز سليمان باشا حملة كبيرة وصلت الاحساء، ولكنها وصلت منهـكة القوى غير

قادرة على الدفاع عن نفسها، ولهذا هاجمتها قوات عبد العزيز واحاطت بها من كل جانب، مما دفع قائدها إلى طلب الأمان وتعهد بالانسحاب من الاحساء فعادت الحملة من حيث أتت سنة ١٧٩٩ ميلادي.

رغم الانتشار الواسع الذي حققته الدعوة الوهابية في عهد الأمير عبد العزيز بن سعود، فقد اصيبت بصدمتين شديدتين، كانت الأولى وفاة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، فقد توفي رحمه الله في الدرعية عام ١٢٠٦ للهجرة، الموافق ١٧٩١ للميلاد، وكان طيلة اقامته في الدرعية قائم بحق الدعوة حق قيام ناصحاً ومرشداً لأميرها، عاملاً على تطبيق شرع الله في كل مرافق الحياة، وكانت الصدمة الثانية هي وفاة الأمير عبد العزيز غيلة فقد كان رحمه الله مؤمناً مصلحاً، يهتم بأمور رعيته، ويقيم العدل بينهم وينفذ شرع الله على جميع الناس حتى أعزهم عنده فقضى على البدع والخرافات، كما قضى على قطاع الطرق ونشر الأمن في ارجاء دولته وحمى حدودها. كما كان رحمه الله مجاهداً شجاعاً امتدت دولته من شواطئ الفرات إلى حدود عمان، ومن الخليج العربي إلى حدود الحجاز وعسير.

٧- الدعوة بعد الشيخ محمد

وإذا كانت الدعوات العقائدية تتأثر بعض الشيء بوفاة قائدها إلا ان هذه الآثار تبدو ضئيلة وسلبية إذا ترك هذا القائد رجالاً مؤمنين، يقتفون اثره وينسجون على منواله ويدعون إلى ما دعا إليه، ولقد ترك الشيخ محمد بن عبد الوهاب أمثال هؤلاء الرجال الذين كانوا يجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، ويعملون على رفع راية الحق فوق اشلائهم ودمائهم، ولهذا ما إن ولي الإمارة الأمير سعود بن عبد العزيز (١٨٠٣- ١٨١٤) حتى استطاع فتح الحجاز كلها عام ١٨٤٠ وهاجم العراق، وسار شمالاً نحو حدود الشام حتى وصلت جيوشه البتراء والكرك وحوران، كما

هزم جيوش محمد علي والي مصر في معركة بدر هزيمة منكرة.

خشيت الدول الأوربية الاستعمارية على اطماعها في العالم الإسلامي، حينما سمعت بقوة الحركة الوهابية وانتشار سلطانها، وكانت تخشى أن تقوم في الجزيرة العربية دولة إسلامية قوية تعيد أمجاد الدولة الإسلامية الأولى، ولهذا أخذت هذه الدول تضغط على السلطان العثماني لكي يقضي على الحركة الوهابية، موهمة اياه بأنه إذا قامت للحركة الوهابية دولة في البلاد العربية فإنها ستعمل على الاستقلال عن الخلافة العثمانية وتقيم خلافة عربية إسلامية.

ولهذا طلب السلطان من محمد علي أن يقضي على الوهابيين، فجهز حملة بقيادة ابنه أحمد طوسون ابحرت من السويس إلى ينبع سنة ١٨١١ إلا أنها هزمت أمام الوهابيين في معركة بدر، ولما توفي الأمير سعود وخلفه ابنه عبد الله عام ١٨١٤، قاد محمد علي الحملة بنفسه قاصداً الدرعية، ولكنه اضطر إلى إيقاف زحفه والعودة إلى مصر نظراً لما حصل فيها من قلاقل، وترك القيادة لابنه أحمد طوسون فهاجمه الوهابيون وانزلوا به هزيمة منكرة مما اضطر أحمد أن يعقد مع الأمير عبد الله معاهدة سنة ١٨١٥.

لم ترق نصوص المعاهدة محمد علي، ولكنه وافق عليها على أساس أنها اجراء مؤقت، حتى تحين الفرصة المواتية لنقضها وشن حرب جديدة على الحركة الوهابية، وفعلاً وجد محمد علي الفرصة مواتية عام ١٨١٦، فجهز حملة كبيرة بقيادة ابنه إبراهيم وصلت إلى المدينة المنورة، ثم تابعت زحفها إلى نجد، واحتلت الرس وعنيزة وبريدة عام ١٨١٨، وركزت هجومها على الدرعية، وصمد المجاهدون صموداً عظيماً واشتد الحصار. إلا أن التفوق في العدد والعدة التي كان يتمتع به الجيش الغازي أدى إلى سقوط الدرعية

في أيلول سنة ١٨١٨، بعد ان كلف سقوطها جيش محمد علي أكثر من عشرة آلاف قتيل، فدمرها الجيش تدميراً كاملًا، وبذا تكون الدولة الوهابية الأولى قد انتهت من الناحية الرسمية بينما بقيت آثارها حية في النفوس اجيالًا وأجيال.

لقد كان للشيخ محمد عبد الوهاب رحمه الله آثار عظيمة في العديد من النواحي العقائدية والاجتماعية والسياسية ليس فقط في الجزيرة العربية بل وفي العالم الإسلامي كله، فقد عمل على القضاء على البدع والخرافات التي كانت منتشرة في كثير من ارجاء العالم الإسلامي، وحل محلها الفهم الصحيح للإسلام، وأعاد للتوحيد صفاءه وللعقيدة نقاءها كما عمل على إقامة دولة عقائدية عملت على تنفيذ الشريعة الإسلامية في كل البلاد التي وقعت تحت سلطانها. أما على المستوى الإسلامي، فقد أحدثت دعوة الشيخ يقظة فكرية وإيمانية بين علماء المسلمين، فظهر بعض المصلحين وأخذوا يدعون إلى الأخذ بالإسلام الصحيح وتطبيق الشريعة الإسلامية تطبيقاً كاملًا. لقد كان رحمه الله مجدداً بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معاني، فقد ازال الركام عن العقيدة الصحيحة وأظهرها ناصعة البياض، وخلص الإسلام من شوائب البدع والشبهات، وأقام دولة للإسلام تطبق شرعه وتلتزم بمنهجه، لأنه آمن (ان الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن).

رحم الله الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيراً، فقد كان أمة وحده.

المصادر

١ - «الأعلام» خير الدين الزركلي.
٢ - «المجددون في الإسلام» عبد المتعال الصعيدي.

ثورة المجاهد
عمـــر المختـــار

١ - المقدمة

ليبيا جزء من العالم الإسلامي الذي كان يستظل بظل الخلافة العثمانية، وكان واليها المهدي السنوسي، إلا أن الدولة العثمانية بدأت تضعف في نهاية القرن الماضي نظراً لتكاتف وتضامن الدول الغربية الصليبية ضدها، وطمعهم في إسقاط الخلافة الإسلامية والاستيلاء على العالم الإسلامي وخيراته.

فلقد تآمرت الماسونية اليهودية مع الصليبية الغربية على الخلافة الإسلامية للاستيلاء على العالم الإسلامي، وحتى تقع فلسطين في يد دولة صديقة لليهود تمنحهم إياها وتساعدهم على إقامة وطن قومي لليهود فيها. ولقد كانت ليبيا (طرابلس الغرب) واحدة من بلدان العالم الإسلامي التي وقعت في مخالب الايطاليين المستعمرين بمؤامرة خبيثة دبرها الماسوني اليهودي (متر سالم) الحائز على الدرجة الثالثة والثلاثين في الماسونية.

لقد ذهب مترسالم إلى إيطاليا وقابل رئيس بلدية روما اليهودي، والحائز على الدرجة الثالثة والثلاثين في الماسونية، ورسما الخطط اللازمة

ودفعت الخزينة الإيطالية الملايين من الليرات الذهبية إلى اليهودي مترسالم لقاء إقناعه الدولة العثمانية بضرورة سحب الأسلحة والعتاد من طرابلس الغرب إلى استانبول بحجة التعمير والإصلاح، وبمساعي الماسونيين أيضاً سيقت قطاعات الجيش إلى اليمن، وهكذا سلمت ليبيا لقمة سائغة للطليان، ولقد أدرك (طلعت باشا) رئيس وزراء الحكومة العثمانية آنذاك، والذي خدعه الماسونيون بأن انتخبوه رئيساً للمشرق الأعظم العثماني الماسوني، أدرك أبعاد المؤامرة التي حاكها الماسون ضد بلاده. ولكن ذلك كان بعد فوات الأوان، وكانت مكافأة الماسون لطلعت باشا أنهم دبروا مؤامرة لاغتياله، ومات فعلًا برصاص الماسونية اليهودية.

هاجم الأسطول الإيطالي ميناء بنغازي، وأخذت السفن الحربية الإيطالية تقذف المدينة بقذائف مدفعيتها الثقيلة مما أدى إلى ترويع السكان الآمنين وتدمير الكثير من البيوت ودفن العديد من الأهالي تحت الأنقاض، ولهذا هب الليبيون في وجه الغزاة المستعمرين واستولوا على بعض أسلحة الجيش العثماني وأخذوا يحاربون الإيطاليين، ولكن هؤلاء المجاهدين كانوا بحاجة إلى قيادة حكيمة مؤمنة تلم شعثهم وتوحد صفوفهم، وأخيراً وجدوا هذه القيادة في شخص المجاهد الكبير عمر المختار.

٢- حياته

هو عمر مختار بن عمر المنفي، أشهر مجاهدي طرابلس الغرب في حربهم مع المستعمرين الإيطاليين، نسبته إلى قبيلة (المنفة) من قبائل بادية برقة، ولد في البطنان (ببرقة) لأبوين كريمين عام ١٨٦٢م وقد توفي والده وهو في طريقه إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، فأوصى به وبأخيه محمد أحد أصدقائه، فذاق عمر المختار مرارة اليتم منذ صغره، وتعلم في الزاوية

السنوسية (بالجغبوب) وأقامه محمد المهدي الإدريسي شيخاً على (زاوية القصور) بالجبل الأخضر بقرب المرج، وسافر معه إلى السودان سنة ١٣١٢ هـ، فعين بها شيخاً لزاوية (كلك) وبقي فيها حتى عام ١٣٢١ هـ، ثم عاد إلى برقة شيخاً لزاوية القصور، فأقام فيها حتى احتل الطليان مدينة بنغازي سنة ١٣٢٩، فكان في طليعة المجاهدين، وبقيت منطقة المختار ثابتة ومنيعه في وجه الطليان، وتهادن الإيطاليون والطرابلسيون سنة ١٣٤٠ هـ، ودب الخلاف بين زعماء طرابلس وبرقة، ونفض الأدارسة يدهم من حرب الطليان فتولى عمر المختار قيادة المجاهدين، واتفقت القبائل على تعيينه القائد العام والرئيس الأعلى للمجاهدين، واتخذ من الجبل الأخضر مركزاً لقيادته.

نشأ عمر المختار نشأة دينية إسلامية، وحفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب ولم يتجاوز عمره الثالثة عشرة، وعكف على دراسة الشريعة الإسلامية، كما تعمق في دراسة سير أبطال الإسلام كعمر وخالد وسعد بن أبي وقاص وعلي بن أبي طالب، وعرف طيلة حياته بالتقوى والصلاح كما عرف بغيرته الإسلامية وروحه القتالية، ولهذا عينه والي ليبيا المهدي السنوسي قاضياً لزاوية القصور فاشتهر بالعدل والنزاهة.

٣ - جهاده

لم تقلل الوظيفة من روح عمر الإسلامية، بل أخذ وهو في السودان يتصل ببعض المجاهدين الليبيين في كل من السودان ومصر، وكانوا يتدارسون أوضاع العالم الإسلامي بشكل خاص وليبيا بشكل عام، ولما سمع عمر بهجوم الأسطول الإيطالي على بنغازي ترك منصبه في السودان، وطالب الزعماء الليبيين في كل من السودان ومصر بأن يلتقوا به وهرعوا

جميعاً لتأدية واجبهم نحو وطنهم، وعلم الايطاليون بتوجه عمر المختار وجماعته إلى ليبيا فأرسلوا لهم قوة مدرعة مع كميات كبيرة من الجنود اعترضت طريقهم وخاضت معهم معركة رهيبة أبلى بها عمر المختار وجماعته بلاءً حسناً، حتى قتلوا عدداً كبيراً من الجنود الإيطاليين كما اختار الله منهم بعض الشهداء، ومن حسن حظ الثورة أن الله سبحانه وتعالى قد نجى عمر المختار من أيدي الايطاليين فوصل سالماً إلى ليبيا.

أدرك عمر المختار أن الثورة العسكرية لابد لها من قاعدة شعبية واعية تتبناها وتتجاوب معها، والقواعد الشعبية لاتقوم إلا بنشر الوعي الإيماني في صفوف الشعب لايجاد رأي عام مؤيد للثورة، ولهذا أخذ عمر يتنقل بين الناس يتصل بهم تارة ويخطب بهم تارة أخرى ويذكي في صدورهم جذوة الإيمان ويشجعهم على مواصلة القتال ضد المستعمرين الإيطاليين، والتف حول القائد عدد كبير من المجاهدين الليبيين أخذ عمر يربيهم التربية الإسلامية ويبث فيهم روح الجهاد والقتال، ويشجعهم على الاستشهاد في سبيل الله، ولهذا اندفع هؤلاء المجاهدون لقتال الجيش الإيطالي اندفاع الأبطال لايبتغي أحدهم إلا إحدى الحسنيين النصر والسيادة أو الموت والشهادة.

لقد أدرك عمر المختار بفطرته الروحية وحنكته العسكرية أن فصائل المجاهدين لاتستطيع أن تدخل مع الجيش الإيطالي في مواجهة مكشوفة، ولهذا وضع لجماعته استراتيجية عسكرية تقوم على أساس حرب العصابات، ينظمهم إلى مجموعات صغيرة تهاجم القوات الإيطالية في مواقعها وأماكن تجمعاتها ومراكز تموينها وجميع المراكز الحساسة التي تتواجد فيها، وقد اختار عمر منطقة (الجبل الأخضر) كقاعدة لإدارة عملياته الحربية لما تتمتع به هذه المنطقة من استراتيجية خاصة تمنع الجيش الإيطالي من

الوصول إليها نظراً لكثرة الجبال الوعرة فيها وكثافة الغابات التي تتخللها الكهوف والمغر، وقد حاولت المدرعات الإيطالية، عشرات المرات الإغارة على مركز قيادة المجاهدين في الجبل الأخضر إلا أنها كانت في كل مرة تبوء بالفشل وتتكبد الخسائر الفادحة في الأرواح والمعدات.

وكانت هذه الهجات فرصة للمجاهدين يستولون فيها على الكثير من الأسلحة يصوبونها من جديد إلى صدور أعدائهم الصليبيين.

لم يقعد المختار كبر سنه عن أن يخوض المعارك بنفسه، فقد ضعف بصره حتى أنه وضع على عينيه نظارتين طبيتين كان لا يستطيع الرؤية بدونها، ومع ذلك اشترك بنفسه في عدد كبير من الغزوات كان النصر حليفه فيها، وأهم هذه المعارك معركة (البريقة) ومعركة (الرحيبة) و(عقيرة المطمورة) و(كرسة) وهي أسماء أماكن في الجبل الأخضر نسبت إليها تلك المعارك، ويقول (غراسياني) القائد العام الإيطالي في بيان له عن المعارك التي نشبت بين جنوده وجنود عمر المختار: (إنها كانت ٢٦٣ معركة في خلال عشرين شهراً) هذا عدا ما خاضه المختار من المعارك خلال عشرين سنة قبلها.

حشد الإيطاليون أكثر من خمسة آلاف جندي مسلحين بأحسن السلاح يدعمهم سلاح المصفحات الثقيلة وقرروا مهاجمة المجاهدين واستئصال شأفتهم، في عملية تمشيط كاملة ضد معاقل المجاهدين، وكان همُّ إيطاليا في الدرجة الأولى الحصول على رأس عمر المختار حياً أو ميتاً.

حملت العيون والأخبار إلى القائد المسلم أنباء الحشود الإيطالية، فما فل ذلك في عضده ولا أرهبه بل استحضر قول الله تعالى ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء...﴾ فزادته هذه

الجموع الصليبية إيماناً وثباتاً، وفتح الله على بصيرته وألهمه خطة عسكرية تعتبر من أنجح الخطط والتي يعجز عن تنفيذها اكفأ القواد. كان سلاح المجاهدين السلاح الأبيض من سيوف وخناجر وحجارة، مع بعض الأسلحة الحديثة، بينما الجيش الايطالي مدجج بأحدث الأسلحة ويفوق المجاهدين عدداً وعدة، ولهذا لجأ عمر المختار إلى الحيلة والخدعة، والحرب خدعة كما يقول المصطفى ﷺ.

ولهذا قسم جيشه إلى قسمين، تمركز أحدهما في قمم جبال تشرق على واد سحيق، وأوهم القسم الثاني الإيطاليين بأنهم سوف يهاجمونهم من ناحية الشرق، وفعلاً استدرج هذا القسم الإيطاليين إلى ذلك الوادي فهاجمهم المجاهدون من كل جانب وكانوا قد أعدوا كتلاً كبيرة من الحجارة يدحرجونها على دباباتهم، وفوجئ الإيطاليون بالمجاهدين يعملون بهم السيف من كل جانب، فساد صفوفهم الهرج والمرج ودبت فيهم الفوضى والارتباك، فانقض عليهم عمر المختار والمجاهدون وقتلوا منهم أعداداً كبيرة ومن بقي منهم على قيد الحياة فر في كل اتجاه، وغنم المجاهدون بعد هذه المعركة كميات كبيرة من الأسلحة الحديثة كانت لهم عوناً على محاربة الإيطاليين.

وجد الإيطاليون أن المجابهة المسلحة قد فشلت في القضاء على عمر المختار والمجاهدين وأنها أوجدت التلاحم بينهم وبين القواعد الشعبية، ولهذا لجأوا إلى أسلوب المراوغة والخداع، فأخذوا ينشرون الشائعات الكاذبة ضد عمر المختار في محاولة للنيل من سمعته ونزاهته. ولكنهم فشلوا في ذلك فشلاً ذريعاً، وحاولوا أن يرشوا عمر المختار شخصياً فعرضوا عليه تعيينه نائباً للحاكم الإيطالي، وإعطائه مرتباً شهرياً كبيراً يقدر بمئة ألف من الفرنكات وأن يبنوا له قصراً فخماً تحيط به حديقة كبيرة، ولكن

القائد المسلم آثر الآخرة الباقية على الدنيا الفانية، ورفض كل هذه العروض باباء وشمم وكان هؤلاء المستعمرون هدفهم إجهاض الثورة وشق صفها ونزع الثقة التي أعطاها المواطنون لها، وعندها يسهل القضاء عليها. أو تسير في ركابهم.

لجأ الإيطاليون إلى أسلوب آخر، فطلب قائد الجيش الإيطالي من عمر المختار أن يعقد معه هدنة مؤقتة يجري خلالها بعض المفاوضات بين الطرفين للوصول إلى اتفاق سلام بينهما، لكن عمر والمجاهدين كانوا لايعرفون الحل الوسط، فهم يريدون عزة دينهم وتحرير وطنهم ولهذا فرضوا شروطاً قاسية ما لبث الإيطاليون أن رفضوها، فقد اشترطوا أن تعترف إيطاليا باللغة العربية كلغة رسمية للبلاد، وأن تعترف بالدين الإسلامي بأنه الدين الرسمي للدولة، وأن يكون قواد الجيش الليبي من الليبيين.

وفشلت لغة الكلام واستمرت لغة الحرب مرة أخرى.

كانت أخبار المجاهدين تصل تباعاً إلى الصحافة الأوروبية، وكانت تنقل للأوربيين صور البطولة والفداء التي يبديها عمر المختار وإخوانه المجاهدون في حربهم ضد القوات الإيطالية مما أضاع هيبة إيطاليا في أوربا، وجعل حكومتها تستشيط غضباً على الجيش الإيطالي في ليبيا، ولهذا أخذت الامدادات تصل تباعاً من الخارج للجيش الإيطالي في محاولة لاجتثاث جذور الثورة الإسلامية فيها والقضاء عليها نهائياً.

٤ - استشهاده

بدأ الجيش الإيطالي بأخذ مواقعه حول منطقة الجبل الأخضر، وحاصر

المنطقة حصاراً شديداً ليمنع وصول الامدادات والمؤن للمجاهدين، ومع ذلك كانت تخرج فصائل الإيمان لتهاجم الجيش الايطالي ليلاً وتغنم من قوته وعتاده، وكان عمر المختار يخرج كل ليلة مع بعض رجاله ليدرسوا أحوال القوات المحاربة كما يدرسون إمكانات صمود جيوشهم وما عسى أن يوجد فيها من ثغرات أو نقاط ضعف، وفي إحدى الليالي كان عمر المختار قد خرج كعادته مع فصيلة من المجاهدين لتفقد الحدود بناحية (سلقطة) بالجبل الأخضر، وكان الإيطاليون يرصدون تحركاته، فلما تيقنوا من خروجه هاجمته وجماعته فصيلة من الجيش الإيطالي، وبالرغم أن عمر المختار والمجاهدين قد استبسلوا وأبلوا بلاء حسناً إلا أن رصاصة أصابت رأس الجواد الذي كان يركبه المختار، فسقط القائد عن فرسه وطارت نظارته عن عينيه فلم يعد يرى شيئاً، فأحاط به الإيطاليون من كل جانب ووقع القائد المسلم في الأسر. ولم يعرفه الجنود الإيطاليون في بادئ الأمر، ثم عرف بعد ذلك وأرسلوه إلى (سوسة) ومنها أركب الطراد (أوسيني) إلى بنغازي، وسجن فيها أربعة أيام، ولما سئل عن الأعمال التي قام بها أجاب بالايجاب غير هياب، وقال للجنود الطليان: إن القبض علي إنما حدث تنفيذاً لإرادة المولى عز وجل، وإني قد أصبحت أسيراً بأيديكم فالله تعالى وحده يتولى الأمر، أما أنتم فبإمكانكم أن تفعلوا بي ما تشاءون، وليكن معلوماً لديكم إني ما كنت في يوم من الأيام لأسلم لكم طوعاً.

وعُرض عليه بعد الأسر عفو شامل لقاء أن يكتب بتوقيعه نداء خطياً إلى المجاهدين يدعوهم فيه إلى الكف عن القتال، ويطلب إليهم تسلم أنفسهم وأسلحتهم للحكومة، ولكنه رحمه الله رفض بإباء وفضل الموت على أن يكون سبباً في إيقاف الجهاد في سبيل الله. وجيء به رحمه الله مكبلاً بالحديد إلى قاعة المحكمة وحوله الحراسة المشددة من كل جانب

وقد اقترح محامي الدفاع أن يحكم عليه بالسجن مدى الحياة لكبر سنه وشيخوخته، ولكن رئيس المحكمة ضرب بالقيم الإنسانية عرض الحائط وأصدر حكماً بالإعدام على (عمر المختار) فلما سمع الحكم تقبله بصدر رحب ورباطة جأش وقال: «إنا لله وإنا إليه راجعون». فرح الإيطاليون فرحاً عظيماً بأسر عمر المختار، بل اعتبروا ذلك بداية النصر لهم وحاولوا أن يساوموا القائد المسلم على حساب دينه ووطنه ولكنه رفض كل عروضهم بإباء وكبرياء، رغم أنه يعرف المصير المحتوم. ولما يئسوا منه قدموه إلى محاكمة صورية، كان الخصم فيها هو الحكم وصدر الحكم على المجاهد الكبير والقائد الفذ عمر المختار بالإعدام شنقاً في مركز (سلوق) في بنغازي.

وانتشر الخبر في العالم انتشار النار في الهشيم وفي ليبيا على وجه الخصوص، وَوَدَّ كل رجل أن يفتدي عمر بنفسه وولده، وودت كل امرأة أن تفتدي هذا القائد العظيم بكل غال وثمين، ولكن عمر كان في نظر الإيطاليين أثمن من كل شيء وأغلى من الجميع. ولهذا، نصبوا له المشنقة في ميدان عام حتى يراه الجميع وحتى يكون عبرة لكل من تسول له نفسه بالخروج على سلطة الإيطاليين، وجاء اليوم الموعود وامتلأت ساحة الميدان بالجيوش الإيطالية المدججة بالسلاح والدبابات الضخمة المسلحة بالمدافع الثقيلة. حتى إذا ما جاءت ساعة الصفر، ظهر أمام الجموع رجل كهل يلبس على رأسه عمامة يشع من وجهه نور الإيمان، وتنتظر روحه الطاهرة ملائكة الرحمة. تقدم هذا القائد الفذ نحو حبل المشنقة بخطى ثابتة رافع الرأس ينظر بتفاهة إلى هؤلاء الجبناء الذين لم يستطيعوا النيل منه في ميدان القتال، حتى نالوا منه وهو أعزل من السلاح. وقبل أن يوضع حبل المشنقة في رقبة القائد المسلم نظر إلى بني قومه وقال لهم: «لا تيأسوا أيها المجاهدون من رحمة الله فإن الله سينصركم على هؤلاء المستعمرين الغاصبين

وينصر الإسلام بكم، إن حياتي ستكون أطول من حياة الذين سيشنقونني »
وفي الساعة التاسعة من صباح يوم الأربعاء ١٦ سبتمبر (أيلول) ١٩٣١م نفذ الإيطاليون حكم الأعدام شنقاً في البطل الشهيد، وكان وهو يضع حبل المشنقة في رقبته يردد الشهادتين، أشهد أن لا إلّه إلا الله وأشهد أن محمد رسول الله. وقد ذكر أن أعداء الله والإنسانية قد أعدموا الشيخ الشهيد بطريقة متوحشة ولم يرحموا سنه التي نيفت على التسعين. وقد استطاعت إيطاليا بعد استشهاد المختار أن تبسط نفوذها على ليبيا حتى عام ١٩٤٢.

وقد رثاه المرحوم أحمد شوقي بقصيدة عصماء ورد فيها:

ركزوا رفاتك في الرمال لواءً   يستنهض الوادي صباح مساءَ
يا ويحهم نصبوا مناراً من دم   يوحي إلى جيل الغد البغضاء
خُيرت فاخترت المبيت على الطوى   لم تبن جاهًا ولم تلمّ ثراء
تسعون لو ركبت مناكب شاهق   لترجلت هضباته إعياء
يا أيها الشعب الغريب أسامع   فأصوغ في عمر الشهيد رثاء
ذهب الزعيم وأنت باق خالد   فانقذ رجالك واختر الزعماء

وصعدت روحه الطاهرة إلى بارئها لتستقر في رحابه في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

المصادر

١ - «أسرار الماسونية» للجنرال جواد رفعت آتلخان
٢ - «الأعلام» لخير الدين الزركلي.
٣ - «عمر المختار» للسيد أحمد محمود.

ثورة الشيخ الشهيد
أحمد بن عرفان

١ - مقدمة

فتح الهند القائد المسلم محمد بن القاسم الثقفي بين سنتي ٨٩- ٩٤ للهجرة الموافق (٧٠٧ - ٧١٢) للميلاد، وبقي المسلمون هم أصحاب السلطة والمنعة في شبه القارة الهندية أكثر من ألف عام، وكانت الهند تابعة للخلافة الإسلامية، فالأموية، فالعباسية، ثم قامت بها أول دولة إسلامية محلية فيها حينما ضعفت الخلافة في بغداد وهي الدولة الغزنوية. ونظراً لبعد الهند عن مهبط الوحي، ونظراً لكثرة العقائد والأجناس واللهجات فيها، فقد شاب عقيدة التوحيد شوائب كثيرة وخاصة في القرن الثالث الهجري، فضعف حال المسلمين من الناحيتين المادية والعقائدية، فقد وقعت الهند تحت نير الاستعمار المسيحي (الإنجليزي) الهندوسي، وأصبح المسلمون مستضعفين ليس لهم أية مكانة سياسية، لأن المستعمرين أوقعوا الخلافات بينهم من جهة بإيجاد الطوائف والجماعات المختلفة، كما أوقعوا بينهم وبين السيخ فكان بين الطرفين حروب دامية امتدت سنوات طويلة وتشوهت .. العقيدة الاسلامية في نفوس الهنود حتى لم يبق منها سوى شعائر مشوهة كما

انتشرت بينهم عبادة القبور والأضرحة، كما انتشرت بينهم العادات الجاهلية فلم يبق هناك فرق بين الحلال والحرام ولم يعد لشعائر الإسلام في نفوس المسلمين أية قيمة عملية.

في مثل هذه الأحوال يتجلى الله على عباده برحمته، ولا يضن عليهم بهدايته، فيرسل لهم من يجدد أمر دينهم، ويردهم إلى الصراط المستقيم، وفي الحديث الذي يرويه أبو داود أنه قال: «يبعث الله على رأس كل مئة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها».وكما كان الشيخ محمد بن عبد الوهاب مجدداً في بلاد العرب فقد كان الشيخ أحمد بن عرفان الشهيد مجدداً في بلاد العجم.

٢ - حياته

ولد السيد أحمد بن عرفان الشهيد في قرية من قرى (رأى بريلي) والتي تعرف الآن باسم (تكية) في شهر صفر عام ١٢٠١ للهجرة، ويرجع في نسبة إلى الإمام الحسن بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وكان جده الأعلى السيد قطب الدين محمد الحسيني قد هاجر إلى الهند من غزنة برفقة عدد من أصحابه وأتباعه سنة ٦٠٧ هـ أيام السلطان قطب الدين أيبك، والسلطان شمس الدين الأتمش، فنال منهما حفاوة بالغة وبالغا في إكرامه، ولما استقر العيش بالسيد قطب الدين في دهلي توجه إلى شرقي الهند ووصل إلى قرية (كرا) من أعمال (الله أباد) وقد كانت عاصمة حكومة مستقلة آنذاك فحمل عليها وفتحها والمدن والقرى المحيطة بها وضمها إلى الدولة الإسلامية.

نشأ السيد أحمد الشهيد في أسرة فقيرة إذ أن والده كان قد توفي وهو لايزال طفلاً، ولكن ذلك لم يمنعه أن يدخل إلى (الكتاب) في الرابعة من

عمره ويتعلم العلوم الابتدائية، وشغف منذ نعومة أظفاره بتلاوة القرآن والعبادة والذكر والنوافل حتى سبق الكثير من النساك والمتصوفة، وكان يرى أن الإعداد الروحي هو وسيلة لغاية أكبر منها هي الجهاد في سبيل الله، ولهذا فإن تربيته الروحية ما كانت لتقعده عن الاستعداد للجهاد الأكبر، ولهذا، أقبل على الألعاب الرياضية منذ صغره وأخذ يتمرن على الطعان والجلاد، وبقية فنون الحرب، وكان من عادته اليومية أن يشتغل بالرياضة الجسمية يتمرن ساعات فيها على طرق متعددة من الرياضات كالرماية والمصارعة وحمل الأثقال والجري والسباحة وما إلى ذلك.

ولما اشتد انشغال السيد أحمد بالتدريب على فنون الحرب وأساليبها حتى استغرقت جل وقته، شعر أتباعه بأن ذلك يكون على حساب العبادة والسلوك، فكلمه جماعة من مريديه في ذلك فقال لهم: «نحن الآن بصدد عمل أفضل من السلوك، وأجد قلبي مشغولاً بذلك، وهو الاستعداد للجهاد في سبيل الله والجهاد لايعدله شيء مما تريدونه وتطلبونه، فإن ذلك يعني اكتساب علم السلوك - تابع لهذا العمل الجليل، وإذا كان هناك رجل يصوم النهار ويقوم الليل إلى أن تتورم قدماه، ورجل آخر يطلق البندقية ويتعلم فنون الحرب كي يقوم في وجه الكفار ويحاربهم في سبيل الله، فلا شك أن الثاني أفضل من الأول ولا يستطيع الأول أن يبلغ منزلة الثاني إذ يتقدم هذا العمل (الجهاد) على عمل السلوك، وما نلمسه منذ أسبوعين من لذة غريبة وحلاوة في الصلاة والعبادة فذلك من أثر هذا العمل الجليل فقط ويعني به الجهاد في سبيل الله.

ولما شب السيد أحمد الشهيد اضطر بحكم وفاة والده أن يكون رب أسرة عليه أن يفكر في معاشها ولهذا سافر برفقة جماعة من أقربائه إلى (لكهنؤ) لعله يجد فيها عملاً يقيم أوده، ثم ساقة القدر إلى (دهلي) حيث أسرة الشيخ

ولي الله الدهلوي التي كانت منارة نور ومعرفة للطلاب والعلماء، فتعرف إلى الشيخ عبد العزيز بن ولي الله الدهلوي، فلما عرف نسبه وأسرته، احتفى به حفاوة بالغة، وأخذ السيد أحمد يتتلمذ على يد الشيخ عبد العزيز وأخيه الشيخ عبد القادر حتى استطاع في مدة قليلة أن يحرز مكانة عالية في العلوم الباطنية والروحية، كما درس القرآن بتدبر وتعمق وفقه.

٣- مبادئ دعوته

عاد السيد أحمد بعد ذلك إلى وطنه (راي بريلي) وأقام فيها عامين، ولكن لم ترق له الإقامة في وطنه فعاد أدراجه إلى دهلي مرة أخرى، ومكث مدة في ولاية تونك، ساعد حاكمها (نواب أمير خان) على محاربة الإنجليز فأقام في جيش أمير خان أكثر من ست سنوات يربي الجيش تربية روحية، ويدربهم على الجهاد والقتال ويشير على الأمير بتدابير الحرب ومهام القتال، ثم رجع بعد ذلك إلى دهلي، فصار منزله مركزاً عظيماً يأوي إليه الناس ويلتفون حوله للاقتباس من علومه ومعارفه، وقد حضره هذه المرة الشيخ إسماعيل الشهيد، والشيخ عبد الحي، وطلبا مبايعته فبايعهما ولازماه مدة من الزمن وخاصة الشيخ إسماعيل الشهيد الذي لم يفارقه حتى آخر لحظة في حياته، ثم رجع السيد أحمد إلى وطنه، وأخذ يتجول في المدن والقرى داعياً إلى الله هادياً الناس إلى الصراط المستقيم، فالتف حوله الناس وأصبح صاحب حركة إسلامية لها أهدافها وأساليبها التي تنبع من كتاب الله وسنة رسوله.

كان السيد أحمد يرى أن سبب انحطاط المسلمين هو عدم وجود دولة إسلامية قوية ترعاهم وتحافظ على عقيدتهم، كما كان يرى أن ما بالمسلمين من داء لايشفيه الوعظ والإرشاد ومجالس التزكية الروحية فحسب ولكن

يحتاج أيضاً إلى دولة قوية تطبق شرع الله وترعى دينه وأمته، وقد ترجم هذه الأفكار أحد مريديه حين قال: « إن بقاء الدين بالدولة وإن الأحكام الدينية والقوانين التي لها علاقة بالدولة لايمكن العمل بها إذا لم تكن للإسلام دولة، وإن المسلمين لايذوقون الذل والنكبة على أيدي الكفار، وإن شعائر الدين لاتداس كرامتها، وإن المساجد لاتهدم وتخرب إلا لكون الإسلام في هذه الديار ليس لديه دولة مستقلة ».

وكان رحمه الله يرى أنه لايقيم دولة الإسلام إلا الجهاد في سبيل الله، فما ذل المسلمون إلا عندما قعدوا عن الجهاد وعطلوا هذه الفريضة، فهو يقول « أما إذا كان القتال لنصرة الدين وإعلاء كلمة الله ونشر سنة النبي محمد ﷺ فهو ما يسمى في مصطلح الشريعة باسم الجهاد وهو أفضل من جميع العبادات وأكملها ولا تعدله عبادة في رفع الدرجات وتكفير السيئات » ويقول « وبما أن الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف لايكتملان بدون الجهاد والقتال في ساحة الحرب، أمر الله سبحانه إمام الهداة وسيد الدعاة محمد ﷺ بأن يقاتل الكفار، فظهر دين الله وشريعته على سائر الأديان والشرائع، وعلى ذلك ألهمني الله تعالى بأداء هذه العبادة والحصول على هذه السعادة، إن الله علام الغيوب شهيد على أن دافع الجهاد الذي يعيش في نفسي ويقلقني ليس إلا لوجه الله تعالى وإعلاء كلمته دون أن يخطر على بالي شيء من الجاه والعز والسيادة والحكم، والمال والصيت، والفضيلة على الناس فهذا نوع من الأماني الكاذبة والأحلام الضائعة والله على ما نقول وكيل ».

وقبل أن يبدأ السيد أحمد في تحقيق أهدافه رأى أن يستكمل فرائض دينه، فألهمه الله أن يزور الحرمين قبل أن يبدأ الجهاد في سبيل الله، فلعل هذه الرحلة الشاقة إلى بيت الله الحرام تكون نوعاً من الاستعداد الروحي

والجسمي للجهاد والنزال. ولهذا أعلن في الناس أنه يريد الحج وأهاب بمن يرغب في أداء هذه الفريضة أن يلحق به، وفي غرة شوال سنة ١٣٣٧ وبعد أن صلى السيد أحمد صلاة العيد مع الجماعة بدأ رحلته الميمونة إلى بيت الله الحرام وخرج معه أربع مئة نفر، وكان كلما مر في مدينة أو قرية يلحق به بعض أهلها حتى اجتمع معه خلق كثير، وكان أثناء رحلته داعياً إلى الله هادياً إلى صراطه المستقيم، إذ كلما كان ينزل في مدينة أو قرية يحرص على تعليم الناس أمور دينهم، ويصحح لهم عقيدتهم، حتى قيل إنه كان يبايعه ويتوب على يديه أكثر من ألف نفس كل يوم، كما كان يعتنق الإسلام كل يوم من عشرة إلى خمسة عشر رجلاً. وبعد أن أدى السيد أحمد مناسك الحج وزار قبر المصطفى ﷺ ارتحل راجعاً إلى الهند ووصل إلى وطنه في ٢٩ شعبان سنة ١٢٣٩ حيث استغرقت رحلته حوالى ثلاث سنوات.

٤ - جهاده

شعر السيد أحمد بأنه لم يعد لديه عذر في بدء العمل على تحقيق أهدافه وهي الجهاد في سبيل الله وإقامة الدولة الإسلامية القوية التي تطبق شرع الله، وخاصة بعد أن أعد نفسه الإعداد الروحي والجسمي والحربي وخاصة بعد أن كثر أتباعه. والواقع يحدثنا أن فكرة الجهاد قد نشأت في نفس السيد ورضع لبانها منذ نعومة أظفاره، فقد نشب ذات يوم صراع بين المسلمين والهنادك في قرية مجاورة لقرية السيد، فقام يستأذن أمه للجهاد في سبيل الله فأذنت له بذلك، ولكنه ما إن وصل إلى تلك القرية حتى كانت الحرب قد وضعت أوزارها بين الفريقين. وكفى الله المؤمنين القتال.

كانت (البنجاب) كلها تحت حكم (السيخ) وكان الإنجليز يحكمون معظم الهند، ويحاربون الإسلام والمسلمين فيها حرباً صليبية، يحاولون تشويه معالم الإسلام، وإثارة الشبهات حوله، ويتبعون سياسة « فرق تسد » بين المسلمين بحيث استطاعوا تفريقهم إلى فرق متعددة وجماعات متنافرة، ولما سمع السيد باضطهاد السيخ لمسلمي البنجاب وما يقع بينهم من حروب دامية غير متكافئة كان يزداد شغفاً في الجهاد وشوقاً إلى لقاء الأعداء، وكان كلما رأى رجلًا قوياً وشاباً نشيطاً يدعوه إلى الله ويقول « هذا ممن نريده لعملنا » ولهذا قرر السيد بأن يبدأ عمله في البنجاب لأن المسلمين فيها إذا بقوا على ما هم عليه من ضعف في الدين والدنيا فإن مصيرهم الردة إلى الشرك أو إلى الجاهلية.

بعث السيد أحمد كُلًّا من الشيخ محمد إسماعيل الشهيد، والشيخ عبد الحي، إلى نواح متفرقة من الهند ليبلغا الناس عزم السيد على الجهاد في سبيل الله، ويحثهم على الهجرة في سبيل الله للانضواء تحت راية السيد، وفي الوقت نفسه فتح السيد أبواب زاويته للمجاهدين يعكفون فيها على تعلم الفنون الحربية والمران والطعان والرماية والطراد، وكان السيد أحمد يحرص على أن يضم إلى صفوفه الشباب المؤمن المتحمس لفكرة الجهاد، فقد زاره أربعة شبان أقوياء من إحدى القرى المجاورة، ففرح بهم وقال لهم: « إن حاجتنا إلى مثل هؤلاء الشبان أكثر من حاجتنا إلى الشيوخ » فأثرت كلمة السيد في نفوس هؤلاء الشبان وقالوا له: نحن رجال فقراء لا نستحق منك كل هذا المدح، فأجابهم السيد قائلًا: إن الله تعالى اختاركم لعمله (أي الجهاد في سبيل الله). وفعلًا كان هؤلاء الشباب عند حسن ظنه، فقد استشهد ثلاثة منهم في أول وقعة وقعت بين الكفر والإيمان، أما الرابع فقد بقي ملازماً للشيخ في حله وترحاله.

اجتمع حول السيد أحمد جمع غفير من المجاهدين، فقرت عينه بهم وعزم على الجهاد في سبيل الله، وفي عام (١٢٤١) ودع السيد أحمد أهله ووطنه وسار بالمجاهدين نحو مقاطعة (تونك) بدعوة من حاكمها الأمير مـير خان، فأحسن الأمير وفادة الشيخ وجهز المجاهدين بكثير من الأسلحة والحوائج، ثم سافر الجميع إلى (حيدر أباد سند) فاستقبل فيها استقبال الفاتحين، ثم سافر إلى مدينة (سكاربور) فأمده سكانها بالمال والسلاح، ثم سافر إلى كابل ومكث فيها حوالى شهر ونصف، ولما وصل (بشاور) تهافت عليه الناس وبايعوه على الجهاد، وأقام أياماً في (نوشهره) ومن أهم أعماله فيها أنه بعث رسالة إلى حكومة البنجاب يدعوها فيها الإسلام أو الجزية أو القتال، ولكن الحكومة فيها أبت إلا القتال وجهزت جيشاً كثيفاً في ساحة (ألوره) التي تبعد عن (نوشهره) نحو عشرين كيلومتراً.

٥- إقامة دولة الإسلام

جهز السيد جيشه الإسلامي ونظمه للقتال، والتحم الفريقان في معركة ضارية قتل فيها من الأعداء خلق كثير وأسر خلق كثير، ولم يستشهد من المسلمين سوى ٣٧ رجلًا وجرح ٣٥، وانهزمت فلول الأعداء بعد أن لاحقهم المسلمون، وبويع السيد أحمد على الإمامة والإمارة، فأخذ ينظم أمور جيشه وإمارته، فأعلن وجوب الطاعة للأمير والعمل بتعاليم الإسلام وأحكام الشرع، والامتناع عن المعارضة والتظاهر بما لاتسيغه الشريعة الإسلامية، وطبقت الشريعة الإسلامية في المحاكمات والمعاملات، وخاض الجيش الإسلامي معارك عديدة مع السيخ حتى نجح في فتح بشاور، ودخلها السيد فاستقبل استقبال الفاتحين وبويع بالإمارة فيها، ومنذ لحظة دخوله عمل على استتباب الأمن، وأزال مظاهر الشرك والمعاصي، ونفذ القانون

الإسلامي وأقيمت حدود الشريعة وأنفذ فيها نظام الإسلام المالي والعدلي، فقامت دولة الإسلام ونعم أهل بشاور في ظلها بالأمن والأمان والإسلام.

ولكن أهل بشاور وخاصة علماء السوء منهم الذين شعروا بأن السيد قد نازعهم سلطانهم في المدينة وأصحاب المصالح المادية الذين أخضعهم السيد لحكم الشريعة، وأصحاب النوايا الفاسدة الذين لا يستطيعون العيش إلا في ظل المعاصي، حرضوا الناس على السيد أحمد وجماعته، وأخذوا ينشرون الإشاعات المغرضة ضدهم، وأخيراً قاموا بمهاجمة رجال السيد وفتكوا بهم وقتلوا عدداً منهم. فحزن السيد لذلك حزناً شديداً وعزم على ترك بشاور إلى بلد آخر، وفي شهر رجب ١٢٤٦ غادر السيد أحمد البنجاب مرتحلًا إلى كشمير فغادرها الأمن والأمان والاطمئنان، وما ان غادر السيد بشاور حتى هاجمها السيخ ففتكوا بأهلها وأحرقوا البيوت والمنازل فيها وهتكوا الحرمات والأعراض.

وصل السيد والمجاهدون إلى قرية (بالاكوت) ونزلوا في منطقة جبلية منها على بعد أربعة فراسخ من جيوش الأعداء، وأخذ السيد ينظم جيشه، وحشد (شير سنغ) جيشه ومدافعه على بعد فرسخين من (بالاكوت) وحرس المجاهدون الممرات الرئيسية المؤدية إلى مدافعهم حتى لا يأخذهم العدو على حين غرة، ورأوا معالم النصر بادية وعلامات الفتح قريبة، ولكن حصل ما لم يكن في الحسبان فقد خان الله رجل ممن كانوا يحرسون الطريق وأفضى إلى (سير سنغ) بسر الطريق وأحوال المسلمين، ودل رجاله على الطريق، فهاجم رجال سير سنغ حراس ذلك الطريق واستولوا على الممر، وانتشر جنوده في الجبال والطرقات المحيطة بجيش المسلمين، واستعد المسلمون للحرب، ونزل قادتهم إلى ساحة القتال ينظمون الجيش ويبثون في جنده روح الحرب والاستشهاد، حتى واجه الجميع العدو بشجاعة نادرة

وبسالة منقطعة النظير، فأبلى الشيخ إسماعيل الشهيد في القتال بلاء حسناً وقاتل الأعداء قتالاً مريراً حتى تحققت أمنية طالما دعا الله أن ينالها، واستشهد رحمه الله في سبيل الله فنال خيري الدنيا والآخرة.

وحمي وطيس المعركة واشتد أوارها، وقاتل السيد أحمد قتالاً عظيماً وأبلى بلاء حسناً، وصبر وصابر حتى اختاره الله شهيداً في سبيله فاحتضنت أرض بالاكوت بطلاً عظيماً من أبطال الإسلام ومجاهداً فذاً قل أن يجود التاريخ بأمثاله وكان ذلك يوم ٢٤ ذى القعدة ١٢٤٦ للهجرة.

المصادر

اعتمدنا في هذا الموضوع على كتاب السيد سعيد الأعظمي الندوي، وهو بعنوان (أحمد بن عرفان، الإمام المجاهد الشهيد).

ثورة الأمير عبد القادر الجزائري

١ - المقدمة

الإسلام مصنع الرجال، حقيقة يؤيدها التاريخ، وتؤيدها البطولات العظيمة التي تجسدت في رجال مؤمنين تربوا في مدرسة الإسلام، ورضعوا لبان الشجاعة والإقدام في قلعة الإيمان، رجال صنعهم الإسلام في كل وقت في السراء والضراء، في المدينة وفي الصحراء، وفي كل أرض فيها مسلم يقول (لا إلّه إلا الله)، لأن الإسلام يصنع في الرجال أرواحهم، ويربي نفوسهم، حتى تستقيم عقيدتهم، ويستعلي إيمانهم، فتصغر الدنيا في عيونهم، ويكون لهم هدفان لا ثالث لهما، إما النصر والسيادة، وإما الموت والشهادة، وفي الأولى يعتبرون السيادة للإسلام وليست لأشخاصهم، وفي الثانية ينالون أعلى الدرجات وأعظم المنازل في رحاب الله في مقعد صدق عند مليك مقتدر، وصدق الله العظيم ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلًا ﴾ (٢٣ / الأحزاب). لقد أوجد الإسلام الرجال المؤمنين والقادة المجاهدين في كل عصر ومصر، في الشرق والغرب في آسيا وأفريقيا ولكن مع ذلك كانت تجمع بينهم جميعاً

صفات واحدة، لأنهم كانوا يصدرون عن مشكاة واحدة، هي كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، كانت تظهر فيهم خصال واحدة في السلم والحرب لأنهم خريجو مدرسة النبوة، ولأنهم أصحاب رسالة يلتزمون بمبادئها، ويحافظون على عهودها ومواثيقها ويحرصون دائماً على تحكيم الله ورسوله في شئونهم بدل أن يحكموا أهواءهم واطماعهم.

٢- اسرته

وكما وجد في الشرق خالد وعمرو بن العاص وسعد بن أبي وقاص وأبو عبيدة بن الجراح وصلاح الدين، فقد وجد في الغرب، وفي الجزائر بالذات رجل مؤمن وقائد فذ هو الأمير عبد القادر الجزائري. هو عبد القادر بن محي الدين بن مصطفى الحسني الجزائري، كان عبد القادر سليل أسرة كلها علم وإيمان وجهاد، فقد كان والده السيد محي الدين، عالماً فقيهاً متبحراً في العلوم الإسلامية، مرجعاً موثوقاً في الأحاديث النبوية الشريفة، كما كانت له مكتبة عظيمة تحوي الآلاف من المجلدات في مختلف العلوم والفنون يؤمها الناس للمطالعة فيها والتزوذ بالعلم النافع، كما كان بيت السيد محي الدين مفتوحاً للعلماء والفقهاء، كما خصص في بيته قاعة كبرى كانت تعقد فيها الندوات العلمية والفقهية، وكما كان السيد محي الدين فقهياً وعالماً فقد كان كذلك مجاهداً شجاعاً، فقد جاهد الفرنسيين وجالدهم بسيفه حتى شهد له الجزائريون بذلك، جاهدهم قبل أن يشب ابنه عبد القادر وبعد ذلك. حتى أن الجزائريين تقديراً منهم لهذا البطل العظيم فقد اجمعوا أمرهم في ٢١ نوفمبر ١٨٣٢ م لمبايعة السيد محي الدين أميراً على الجزائر.

-وكما كان لعبد القادر والد عظيم كذلك كانت له أم عظيمة أيضاً، فقد كانت- رحمها الله- قوية الشخصية عظيمة الأخلاق، متواضعة للفقراء

والمحتاجين، كريمة النفس والقلب، وكان بيتها ملجأ لليتامى والفقراء تحنو عليهم وتمنحهم المال والهدايا كما كانت موئلاً لكل مظلوم تدافع عن حقه حتى ترفع الظلامة عنه، فكان لهذه الأخلاق الكريمة أثر في شخصية عبد القادر إذ رضع لبانها منذ نعومة أظفاره، فقد كانت تشجعه على العلم وتيسر له سبله وأسبابه، وتربيه التربية الإيمانية الجهادية وتغرس في نفسه حب الشهادة في سبيل الله، ولهذا كان عبد القادر شديد الحب والاحترام والوفاء لوالدته، حتى قال عنها مرة «لا أرى أجمل من أمي، لأن المراد في الجمال جمال الأخلاق، والمرأة التقية غنية إذ لا غنى إلا غنى القلب» والسيدة إذا كانت على ذلك الغنى وذلك الجمال، فلا شك في أنها تملأ العيون والقلوب بفضائلها وكمالها. لأن والدته رافقته رحلة العمر في سرائها وضرائها فقد صحبته وهو أمير، لا يعدم منها نصيحة ولا تضن عليه برأي صائب، كما رافقته في المنفى فكانت نعم المرأة المسلمة الأبية.

فحينما حددت فرنسا إقامة الأمير عبد القادر في مدينة (أمبواز) في مقاطعة (أورليان) بفرنسا لم يسمح الفرنسيون إلا لأمه بمرافقته، ولما تولى الحكم في فرنسا نابليون الثالث، عرف قيمة عبد القادر في المنفى، فأقام مأدبة فاخرة له ودعا إليها والدته، وذهبت إلى الحفل بملابسها الوطنية ولما مد نابليون الثالث يده ليصافحها رفضت مد يدها إليه، فتأثر نابليون بقوة شخصيتها وانحنى على يدها وقبلها احتراماً فارتسم على وجهها الغضب، ولكنها سرعان ما أدركت أن ذلك من تقاليد الغربيين، ولقد توفيت رحمها الله سنة ١٢٧٣ هـ ودفنت في مقبرة (الدحداح) في الشام، فحزن عليها عبد القادر حزناً شديداً، وكان دائم الزيارة لقبرها، كما كان لا يكف عن ذكرها في أحاديثه ويعدد ما لها من أياد بيضاء عليه وعلى شخصيته وأعماله.

وكما رزق عبد القادر بأم تقية صالحة، كذلك رزقه الله امرأة تقية صابرة، شاركته حلو الحياة ومرها، فقد عرفت هذه الزوجة الصالحة ملامح شخصية زوجها، كما عرفت الغذاء الروحي والعقلي والنفسي الذي يجب أن تقدمه له، فنجحت بذلك في إسعاد زوجها وبناء أسرتها وتربية أولادها على اخلاق والدهم وسيرته، لقد أحب عبد القادر زوجته حباً كبيراً، وذكرها في الكثير من شعره، ويعترف لها التاريخ بأنها كانت أماً مثالية، لأنها كانت سلوى زوجها في السراء والضراء، كما نجحت في تربية أولادها تربية جيدة، رغم الظروف القاسية التي كادت أن تعصف بأسرتهم، ولما لم تسمح الحكومة الفرنسية لزوجته باصطحابه في الأسر فقد بقيت زوجته نعم الزوجة التي تحفظ زوجها في عرضه وماله وعياله.

٣- حياته

ولد عبد القادر الجزائري في قرية (القيطنة) من أعمال وهران سنة ١٢٢٢ هـ الموافق ١٨٠٧ ميلادية، من أبوين صالحين كما أسلفنا، ومن أسرة عريقة بالعلم والإيمان والجهاد، فكان لأبيه ووالدته تأثير كبير في توجيهه وتنميته وبناء شخصيته، فقد كان أبوه يحثه على طلب العلم وييسر له سبله وأسبابه، وقد شجع والده على ذلك ما بدا على عبد القادر منذ نعومة أظفاره من حدة الذكاء والميل الفطري إلى الاستماع والقراءة، ولهذا حفظ عبد القادر القرآن الكريم عن ظهر قلب ولم يتجاوز الثامنة من العمر، كما حفظ أيضاً الأحاديث النبوية الواردة في (صحيح البخاري) وبقي يعتز بهذا الحفظ ويفخر به طيلة حياته، كما قرأ الكثير من سير العظماء المسلمين وأكثر من قراءة كتب التصوف، كما كان شاعراً مجيداً وكاتباً عظيماً، ومن أشهر مؤلفاته كتاب (المواقف) الذي ترجم إلى بعض

اللغات الأجنبية وهو في ثلاثة أجزاء في التصوف و(ذكرى العاقل) و(رسالة في العلوم والأخلاق) كما أن له ديوان شعر مطبوع.

لقد أثرت التربية الإسلامية في شخصية عبد القادر وظهرت ملامحها عليه منذ طفولته، فقد كان حسن الخلق، كريم النفس، عزيز القلب، متواضعاً مع الجميع يخصف نعله بنفسه ويخيط ثوبه بإبرته، ويملأ فراغه بالقراءة أو الكتابة أو الشعر أو بالجهاد وآلات الحرب، كما كان يحب الشورى في كل أموره، ويسع صدره القريب والبعيد والعدو والصديق، كما كان يحب الطرفة في الرأي ويكره الرياء والمواربة، كما اشتهر بشدة غيرته على الإسلام، ودفاعه عن تعاليم القرآن، حتى ارسل رسالة إلى الجنرال (دوما) الذي هاجم الإسلام لأنه يسمح بتعدد الزوجات، فأرسل إليه رسالة صريحة أفهمه كل شيء عن هذا الموضوع، فأفحم الجنرال بمنطق عبد القادر واعترف بإحدى رسائله بأنه أساء فهم هذه النقطة، ولم يعرفها على حقيقتها إلا من تلك الرسالة.

٤ - جهاده

كان عبد القادر يرى أن الجهاد فريضة ماضية إلى يوم القيامة، وأن على المسلم أن يجاهد أعداء الله بماله ونفسه وكل ما يملك، ولهذا أتبع القول بالعمل، فربى نفسه تربية روحية، وأغرق في التصوف والزهد في الدنيا، وأخذ يجاهد الفرنسيين الغازين لبلاده، واستمرت الحرب بينه وبينهم أكثر من ستة عشر عاماً، كان لا يملك هو وجيشه الصغير إلا السيوف وبعض الأسلحة الحديثة، يواجهون بها جيوش فرنسا الجرارة والمدججة بالسلاح والعتاد، وكثيراً ما كان النصر حليفه في معظم المعارك التي خاضها. ومن أبرز المعارك التي خاضها عبد القادر ضد الفرنسيين معركة (سيدي

إبراهيم) في الثالث والعشرين من شهر ايلول ١٨٤٥ ميلادية، قتل فيها من الفرنسيين خلق كثير وهزم فيها الجيش الفرنسي هزيمة ساحقة كما وقع في الأسر عشرات من الضباط ومئات من الجنود، وكادت الجزائر كلها تصبح تحت سيطرته بعد هذه المعركة، ولما بنى حصناً منيعاً في ناحية (طازة) ليأمن غارات الفرنسيين المفاجئة، أمر بأن تنقش على باب الحصن هذه الأبيات:

الله أعلم أن هذا لم يكن منى على الأمد الطويل دليلا
كلا وإن منيتي لقريبة منى، وأصبح في التراب جديلا
ورضا الإله هو المنى ويكون من بعدى انتفاع الخلق ثم طويلا

وأتخذ من مدينة (معسكر) عاصمة لحكومته، وطلب تجنيد القبائل في جيش الثورة، فلبى الجميع نداءه.

ولقد بايعه الجزائريون أميراً للجهاد، فقام بهذه المهمة خير قيام وقاتل الفرنسيين سبعة عشر عاماً ضرب في أثنائها نقوداً سماها (المحمدية) وأنشأ معامل للأسلحة والأدوات الحربية والعتاد وملابس الجند.

كان رحمه الله يواجه الفرنسيين في المعارك بنفسه شاهراً سيفه، وكان إذا أراد الهجوم على الأعداء صاح بصوت جهوري: « الله أكبر، الله على الظالم، الله ينصر من ينصره، إن ينصركم الله فلا غالب لكم، الله أكبر، الله أكبر ». فكانت هذه الكلمات تنتشر في أرواح جنوده انتشار النار في الهشيم، فتدب فيهم شجاعة الإيمان، ويقاتلون ببسالة واقدام، حتى أن أحد قادة الفرنسيين كان يقول إن الجندي الواحد من جنود عبد القادر يضاهي مئتين من جنود الفرنسيين.

على أثر ذلك طلب الجنرال ميشال دي ميشال قائد القوات الاستعمارية

التفاوض مع عبد القادر، واعتبرت حكومة باريس ذلك هزيمة لمشروعها الاستعماري ونذيراً بطرد قواتها فاستبدلته بالجنرال تريزل الذي جمع خلاصة القوات الفرنسية وهاجم الثوار محاولا الاستيلاء على مناطقهم إلا أنه مني بهزيمة مطبقة في ١٦ تموز ١٨٣٥ عند نهر المقطع على أثر معركة دامية استمرت يومين كاملين انسحب من بعدها (تريزل) وجنوده فتعقبتهم قوات الثوار حتى احكموا تطويقهم وقضوا عليهم قضاءً كاملًا باستثناء عدد قليل من الجنود انقذ حياتهم عبد القادر وأطلق سراحهم ليعودوا إلى زملائهم حاملين أنباء الهزيمة. وجن جنون حكومة باريس فحشدت كل شبابها للخدمة العسكرية وأرسلت بهم إلى الجزائر بقيادة الجنرال (كلوزويل) الذي تمكن من إجلاء عبد القادر عن مدينة معسكر وحين حاول التقدم بجنوده إلى ما بعد معسكر هزمه عبد القادر وأجبره على التقهقر، فنحته حكومته وعينت بدلًا منه الجنرال (دانريمون) الذي قام ومعه الجنرال بوجو القائد العام الجديد للحملة الفرنسية بالجزائر على رأس قوات ضخمة العدد والعدة، وزحف إلى حيث التقى القائد العام.

هذه الروح القتالية العالية اقنعت الفرنسيين بأن المواجهة مع عبد القادر خسارة لهم، ولهذا رأت فرنسا أن تلجأ إلى الحيلة والخدعة والتفرقة، لعلها بواسطة هذه المسائل الشيطانية تصل إلى غايتها، لهذا عقدت مع عبد القادر معاهدة (التفنا) وقعها معه نيابة عن فرنسا الجنرال (بيجو) في ٣٠ مارس ١٨٣٧ م.

اعترفت فرنسا بها بسلطة الأمير عبد القادر على كل أراضي الجزائر باستثناء منطقة (قسنطينة) التي وضعت تحت سيطرة (الداي) واحتفظ الفرنسيون لأنفسهم ببعض المناطق الصغيرة. ولما كانت هذه المعاهدة في

نظر الفرنسيين خطوة لما بعدها، لهذا كان في نيتهم أن ينقضوها في الوقت الذي يرونه مناسباً.

٥- نقض المعاهدة

لم تقر حكومة فرنسا المعاهدة التي قبلها قائد حملتها فاستؤنف القتال من جديد بعد أن عين الجنرال (دانريمون) قائداً عاماً بدلاً من (بوجو)، وفي آخر سبتمبر ١٨٣٧ زحف دانريمون إلى مدينة قسنطينية وبدأ يضربها بالمدافع الثقيلة في ٦ أكتوبر وحدد ستة أيام لاحتلال المدينة وسقوطها في يده، إلا إنه سقط صريعاً خلال إحدى المعارك التي كانت تدور على أبواب المدينة وخلفه في القيادة الجنرال (قاليه) الذي اشتد في الهجوم على المدينة فانتقلت المعارك من ساحاتها الخارجية إلى أبوابها فمداخلها وطرقاتها وميادينها حتى سقطت في ١٣ أكتوبر وتم للقوات الفرنسية احتلالها. وعلى الأثر عمل الفرنسيون في أهلها وممتلكاتها ابشع ما يمكن للعقل البشري أن يتصور من جرائم وحشية، وبعد أن سقطت قسنطينية في أيدي المستعمرين تقدمت قواتهم إلى حيث استكملت سيطرتها على كل الجزائر، فاحتلوا مدينة (بليدا) التي عبثاً حاولوا غزوها في بداية الاحتلال وخلال ذلك هاجمت قوات الثوار مدينة (متيجه) لتخليصها من الفرنسيين وبعد أن أحرزت انتصاراً أولياً تمكن قاليه في النهاية من هزيمة عبد القادر في معركة شفة ثم احتل (المديه) في ١٨ مايو ١٨٤٠ وفي أواخر ذلك العام عين بوجو من جديد حاكماً عاماً للجزائر، وفي ربيع عام ٤١ التقى بالثوار حول مدينة (تاكدمت) التي كان عبد القادر قد اتخذها عاصمة لحكومته الوطنية. وبعد قتال بطولي مجيد خاض غماره الثوار سقطت هذه المدينة في أيدي الفرنسيين. وفي يونيو ١٨٤٢

تمكن بوجو من احتلال (تلمسان) وفي ٩ فبراير سقطت في يده أقوى مراكز الثوار باحتلاله مدينة (سبدو) وعقب ذلك بدأت الثورة الوطنية تنزل عليها ضربات الاستعمار حيث تمكن الدوق دوبل من مباغتة الثوار بعد سبدو وقضى على أربعة آلاف منهم راحوا ضحية العدوان الاستعماري وشهداء الوطنية وتمكن عبد القادر من الفرار بأعجوبة حيث لجأ إلى مراكش، وقد طالب بوجو سلطان مراكش بتسليم عبد القادر ولكن السلطان رفض تسليمه واعتبره لاجئاً سياسياً، فتحرك بوجو على رأس قواته وعبر الحدود الجزائرية المراكشية بينما تحركت ثمانٍ وعشرون بارجة حربية فرنسية إلى ميناء (طنجة) وانذرت السلطان بتسليم قائد الثورة الجزائرية ولما أصر على الرفض قذفت البوارج مدينة طنجة بقنابل مدافعها، وانزلت جنودها لاحتلاله فتصدت لمقاومتهم الحامية المراكشية التي كانت مرابطة بذلك الميناء، وظلت تقاوم الغزاة إلى أن استشهد جميع جنودها وضباطها البواسل. وفي ٤ (اكتوبر) ١٨٤٤ التحم الجيشان المراكشي والفرنسي عند وادي (ايسلى) وأسفرت المعركة عن انتصار بوجو وعندئذ أعلن السلطان استعداده لعقد الصلح وإبرام معاهدة طنجة مع فرنسا في ٢٦ اكتوبر ١٨٤٤ وكان أهم نصوصها: حل الجيش المراكشي المرابط على الحدود الجزائرية المراكشية واعتبار الأمير عبد القادر خارجاً على القانون والقبض عليه أو تسليمه أو منعه من دخول الأراض المراكشية وأخيراً معاملة فرنسا معاملة الدولة الأكثر رعاية في الشؤون التجارية والسياسية.

٦- استئناف القتال

وعلى الرغم من هزيمة الجيش المراكشي وتوقيع هذه المعاهدة فقد تابع

الوطنيون الجزائريون مقاومتهم للقوى الاستعمارية في الأراضي المراكشية حيث هاجم عبد القادر القوات الفرنسية وهزمها في معركتي قصر بنى سنان وسيدي إبراهيم وفيها خسر الفرنسيون آلافاً من أرواح جنودهم وسلاحهم، وبعد ذلك النصر الذي احرزه الثوار الجزائريون المطاردون عادوا إلى الجزائر وغيروا من تكتيكات معاركهم حيث قصروا قتالهم هذه المرة على شن حرب العصابات على مراكز القوات الاستعمارية وقد ازعجت هذه الهجمات العصابية إلى حد كبير قوات الاستعمار حتى أن بوجو اضطر إلى أن يسير على رأس ١٨ فرقة تعداد كل فرقة ١٥ ألف جندي لمطاردة عبد القادر وجنوده وقد استمرت المعارك والالتحامات دائرة الرحى بين هذا الجيش الضخم والثوار طوال عام كامل من ١٨٤٥ إلى ١٨٤٦ وفي نهايتها لم تستطع اللحاق بعبد القادر وجنوده رغم وحشية القمع والإبادة التي عمد إليها بوجو حيث أحرق كل ما صادفه من قرى ودمر بيوتها فوق أهليها.

٧- استسلامه

أخذ الفرنسيون يزرعون بذور الفتنة وعدم الثقة بين عبد القادر وبين الدول العربية المحيطة بالجزائر والتي كانت تمده بالمال والسلاح، فقد نجحت في إيهام ولاة الأمور في مراكش أن الأمير عبد القادر يطمع في أن يبسط سيطرته على مراكش، كما اقنعت الداي بأن عبد القادر يريد أن يسيطر على قسنطينية واقنعوا الباب العالي في تركيا بأن سبب هزيمة حاكم وهران أمام الفرنسيين هو رفض عبد القادر مساعدته، وهكذا استطاعت فرنسا عزل عبد القادر عن كل من كان يساعده، فلم يجد سلاحاً مناسباً يحارب به، كما لم يجد ذخيرة للسلاح بعد أن انقطعت مساعدات الأتراك

والمراكشيين عنه، عندها رأت فرنسا أن الوقت مناسب لنقض المعاهدة، فهاجمت الجيوش الفرنسية الجرارة الجزائر، وصمد لها عبد القادر صمود الأبطال ولكنه وجد في النهاية أن لا جدوى من استمرار القتال، لأنه أصبح لا يملك السلاح ولا العتاد، لهذا فقد لجأ عبد القادر بجنوده مرة ثانية إلى مراكش وفي هذه ضغط الاستعمار على السلطان لينفذ معاهدة طنجة فوجه الجيش المراكشي لمطاردته، وفي ٢١ ديسمبر عبر الثوار وقائدهم نهر (ملويه) على الحدود تحت نيران الجيش المراكشي المغلوب على أمره، فقابلتهم الجيوش الفرنسية من الضفة الأخرى وتمكنت بذلك من تطويقهم.

ولهذا أرسل إلى قائد الجيوش الفرنسية الجنرال (لامورسيير) رسولاً يطلب الاستسلام فلم يصدق القائد الفرنسي أقوال هذا الرسول وحسبها خدعة جديدة، ولكن لما تيقن من عزم عبد القادر على الاستسلام فرح فرحاً عظيماً، وخلع الجنرال سيفه الخاص وسلمه إلى رسول الأمير ليقدمه له هدية ثم سلمه ورقة بيضاء ختمها بختم القيادة الفرنسية ومهرها بإمضائه وقال للرسول: قل لسمو الأمير أن يكتب ما يشاء من شروط على هذه الورقة، وأنا على استعداد تام لتنفيذها، وقد وقعت بإمضائي سلفاً على الموافقة فاستسلم عبد القادر أخيراً في ٢٣ ديسمبر ١٨٤٦ بعد قتال استمر سبعة عشر عاماً.

٨- نفيه ووفاته

ولكن فرنسا لم تف بوعودها، فبدل ان تذهب البارجة الحربية بالأمير عبد القادر إلى عكا أو الإسكندرية حسب الأتفاق اتجهت به إلى ميناء طولون بفرنسا حيث حددت إقامته الجبرية في مدينة (امبواز) بفرنسا وبقي في المنفى حتى اعتلى عرش فرنسا الأمبراطور نابليون الثالث، الذي

كان يعرف الكثير عن اخلاق الأمير الجزائري كما يعرف الكثير عن شجاعته وكرمه في معاملة الأسرى الفرنسيين، ولهذا زار الأمبراطور بنفسه الأمير عبد القادر في مدينة (امبواز) واعتذر له ثم قال: «لا تعتبر نفسك أسيراً لدينا، بل أنت ضيف كريم وعزيز علينا، وسأعوضك عن كل شيء، ولك أن تختار البلد الذي تريد الذهاب إليه». ودعا الأمبراطور إلى حفل كبير في باريس لوداع الأمير عبد القادر قدم الأمبراطور له فيه سيفه كهدية، وسافر بعدها عبد القادر إلى دمشق فوصلها عام ١٨٥٦ ميلادية فاستقبل فيها استقبال الأبطال ودخل دمشق في موكب رائع تتقدمه الموسيقى العسكرية، وفي دمشق قضى الأمير المجاهد البقية الباقية من حياته حتى وافته المنية فيها عام ١٨٨٣ ميلادية، ودفن بتصريح من الباب العالي في مقبرة الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي، ولما نجحت الثورة الجزائرية لم تنس فضل هذا القائد العظيم، فنقلت رفاته عام ١٩٦٦ إلى الجزائر حيث دفن هناك في احتفال شعبي ورسمي عظيم.

لقد كان للروح العظيمة التي بثها الأمير عبد القادر الجزائري في الشعب الجزائري الأثر العظيم على بقاء المقاومة المسلحة ضد الفرنسيين، فقد استمرت المقاومة بعد نفي الأمير عبد القادر حتى شملت الثورات جميع انحاء الجزائر، وكانت تستلهم في اعمالها سيرة ذلك البطل العظيم الذي حمل الراية وذاد عن حمي الوطن حتى وقع في الأسر مكرهاً غير راض.

لقد مضت عشر سنوات على هزيمة الثورة الجزائرية الأولى التي قادها الأمير الثائر عبد القادر. استجمع خلالها الشعب أنفاسه ليعاود ثورته من جديد عام ١٨٥٧، وكان زعيم هذه الثورة الوطنية المسلحة امرأة جزائرية خلدت كفاح المرأة الوطني هي السيدة «لالا فاطمة» وقد بلغ من قوة الثوار وتتابع انتصاراتهم على القوات الاستعمارية أن اضطر الحاكم العام،

« راندون » أن يخرج لقتالهم بنفسه على رأس جميع قواته. وتمكن بعد عدة معارك دامية أن يهزم الثوار وأن يأسر الزعيمة الوطنية الثائرة « لالا فاطمة » وبذلك اخمدت الثورة الوطنية الجزائرية الثانية التي كانت ابرز صفاتها اشتراك المرأة والرجل جنباً إلى جنب في ميدان المعركة التحريرية ولكن إلى حين.

ولم تمض سنوات قليلة حتى جَمّعت الجماهير خلالها قواها ونظمت صفوفها فثارت مرة ثالثة في فبراير ١٨٦٤ بزعامة « سي سليمان » وفي هذه المرة تحركت القوات الفرنسية بقيادة الجنرال « بوبريتر » متجهة نحو جنوب الجزائر حيث كانت معاقل الثوار. وفي الطريق كمن له الثوار وطوقوا جنوده ودارت معركة حامية قضى في نهايتها الثوار على جميع جنود وضباط القوة الفرنسية وعلى رأسهم القائد الجنرال بوربريتر. وكان سي سليمان قد خف إلى حيث كان القائد الفرنسي يرقد غارقاً في دمائه ويلفظ أنفاسه الأخيرة وقبيل أن تخمد أنفاسه إلى الأبد تمكن أن يطلق الرصاص على زعيم الثورة فاستشهد سي سليمان وخلفه في القيادة شقيقه « سي الأزرق » وكان لأنتصار الثوار وفتكهم بجميع جنود القوة الفرنسية التي كانت قد وجهت للقضاء عليهم، كان لذلك الانتصار الساحق دويه الهائل في كل من الجزائر وفرنسا ففي الأولى انتشرت الثورة في جميع مناطق الجزائر، وفي الثانية جن جنون نابليون الثالث فأسرع بإرسال أقوى فرقة إلى الجزائر لإخماد الثورة التي استهلت بدايتها بالفتك بجنوده، وتوالت الإشتباكات بين الثوار والقوات الفرنسية كما توالت الإمدادات بالرجال والسلاح على القوات الاستعمارية حتى جردت لإخماد هذه الثورة جميع جنود فرنسا. ورغم ذلك، رغم الجنود النظامية الفرنسية المدربة على أحدث تكتيكات الحرب والمزودة بأحدث الأسلحة فقد استمرت المعارك

والاشتباكات الدموية بين الثوار وهذه الجيوش عشرين عاماً، شمل القتال خلالها كل أرض الجزائر، واستطاع الثوار المسلحون بأسلحة قديمة وبتلك التي كانوا يستولون عليها من الجنود الفرنسيين خلال المعارك، استطاعوا أن يصمدوا في المقاومة عشرين عاماً، تمكنت في نهايتها المدافع الفرنسية الثقيلة من إخماد الثورة الوطنية الجزائرية الثالثة وذلك عام ١٨٨٤، واستشهد خلالها زعماؤها «سي سليمان- سي الأزرق- والمقراني-وأبي عمامة» ومئات الألوف من الوطنيين، وأهم ما يميز ثورة ١٨٧٤- ١٨٨٤ طول المقاومة واستمرارها وشمولها جميع مدن وقرى الجزائر من البحر شمالاً إلى الصحراء جنوباً ومن الحدود التونسية شرقاً إلى الحدود المراكشية غرباً. وبعد هذه الثورة تم للاستعمار السيطرة الكاملة على الجزائر، وبلغ مجموع من استشهدوا من المواطنين في الدفاع عن بلادهم ومقاومة الغزو الأجنبي خلال نصف قرن مليون شهيد، سطروا بدمائهم المقاومة البطولية الوطنية للشعب الجزائري وعدم خضوعه للغزو الاستعماري.

استقرت الأمور للغزاة بعد ان أصبحت البلاد خراباً واستشهد في مقاومتهم أكثر من نصف الشعب الجزائري، وبدأت عمليات تنظيم سرقة موارد وثروات هذا الشعب ومحاولة محو قوميته من الوجود، تلك القومية التي مكنت من مقاومة الغزاة على نحو لم يسبق ولن يلحق له مثيل في الشعوب الأخرى، بدأ الأستعمار ينظم سرقة كل ما تصل إليه يده من موارد وثروة الشعب الجزائري ويتخذ كل ما من شأنه عدم السماح للقومية الجزائرية باليقظة والثورة، ولكن هل انتهت المقاومة وخضع الشعب.. لا.. لم يخضع الشعب الذي فقد نصف تعداده وكل موارده الحية، لم تخمد المقاومة الوطنية، فبعد أن توقفت المقاومة المسلحة، بدأت المقاومة السياسية والفكرية، مقاومة المشروعات الاستعمارية التخريبية. مقاومة

القضاء على اللغة العربية والتقاليد القومية والتمسك بكل ما يشعر المواطنين بعروبتهم، والتذكير دائماً بملايين الأرواح التي أزهقها الاستعمار، التذكير بالآباء والأجداد الشهداء، والأملاك المغتصبة والدماء التي أبداً لن تجف حتى يثأر لها الأبناء، كم من ألوف النساء والأطفال والشيوخ قتلهم الغزاة انتقاماً من مقاومة الثوار لعدوانهم واغتصابهم بلادهم، كل هذه المعاني كانت تلقنها الأمهات والآباء للأبناء حتى ظل الضمير الوطني يقظاً جريحاً متحفزاً، وفي عام ١٩٣٠ خرج بين الجماهير زعيم وطني هو حفيد الزعيم الثائر عبد القادر. ظهر الزعيم «خالد الجزائري» الذي بث الوعي في الجماهير وحرك العزائم وحفر في القلوب شعار «الجزائر عربية ولن يقر لأهلها قرار إلا بعد تحررها من الاستعمار» وبعد وفاته خلفه في رسالته الوطنية «مصالي الحاج» الذي كون حزب الأمة الجزائري فلما ان حلته السلطات الاستعمارية كون حزب الانتصار للحريات الديمقراطية والذي حلته السلطات الاستعمارية وألقت بأكثر أعضائه وبزعيمه في السجن.

والذي يمكننا في النهاية أن نؤكده أن عمليات القمع والقهر والإرهاب والكبت التي اتخذتها القوات الاستعمارية ضد شعب الجزائر. لم تعمل على خفت ضميره الوطني بل قوت من حميته وألهبت وطنيته وأيقظت جميع مشاعره الكفاحية الثورية، إن الشعب الجزائري من استقراء تاريخه، ينضج وعيه ويزداد تمسكاً بقوميته وإصراراً على حريته خلال آلامه وبين أنات جراحه، ولم يتوقف الكفاح الوطني لحظة واحدة... وآلاف المعتقلين السياسيين والشهداء الذين سجلتهم إحصائيات الحكومة الاستعمارية الذين امتلأت بهم السجون والمعتقلات وروت دماؤهم أرض الجزائر خلال سنوات ما قبل الثورة الحاضرة، دليل على هذه المقاومة الوطنية التي لم

تنضب أبداً، فلم يتوقف الكفاح الوطني بشتى صوره لحظة واحدة رغم القوى الإرهابية الاستعمارية الفاشية التي سخرت للقضاء على ذلك الكفاح بأبشع صور القمع والوحشية، فرغم كل هذه القوى الإرهابية نما الكفاح الوطني وتعاظم واتسع وتطور نطاقه، حتى وصل إلى مرحلته الأخيرة في عام ١٩٥٤، حين اتخذ شكلًا إيجابياً مسلحاً، ولا يزال حامي الوطيس حتى، اختتمت هذه المرحلة من الكفاح بالتحرير الوطني الكامل.

ومن أشهر الثورات التي حصلت ثورة «بيلسية» عام ١٨٤٩، وقد وقعت جنوب وهران، ومعارك «الأغوات» عام ١٨٥٢، وثورة الشهيد المقراني عام ١٨٧١، ثم تلك الثورة التي تزعمها الأمير خالد أحد أحفاد الأمير عبد القادر الجزائري، ثم ثورة قسنطينة التي ذهب ضحيتها أكثر من أربعين ألفاً من الشهداء الجزائريين الأبرار، وبقيت هذه الثورات تترى وتتتابع حتى كانت ثورة المليون شهيد والتي اندلعت في أول نوفمبر عام ١٩٥٤ والتي أجبر فيها الجزائريون الأبطال الفرنسيين على الانسحاب من الجزائر والاعتراف باستقلالها.

رحم الله عبد القادر الجزائري وكتبه في زمرة المجاهدين الأبرار.

المصادر

١ - «الأعلام» لخير الدين الزركلي.
٢ - «اعتمدنا في هذا البحث على كتاب الأمير عبد القادر الجزائري، لمحمد كامل حسن المحاك.

ثورة الشيخ
جمال الدين الأفغاني

١- مقدمة

تعرض العالم الإسلامي بشكل عام والهند بشكل خاص في القرن التاسع عشر الميلادي إلى هجمة استعمارية شنها عليه الاستعمار الأوربي، وكان المسلمون هناك في حال لايحسدون عليها من تفرقة وضعف في الدين والدنيا، ولكن أمام ضربات الاستعماريين ووطأتهم أخذوا يشعرون بضرورة العودة إلى الإسلام والنهل من معينة الصافي: كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فهو مصدر عزتهم وقوتهم ووحدتهم، كما أخذوا يشعرون بضرورة تناسي الخلافات الداخلية والمذهبية والعمل على نشر روح التضامن والوحدة الإسلامية، بين أقطار العالم الإسلامي، وهذا يقتضي بالإضافة إلى وجود دعاة على مستوى المعركة، أن تكون هناك خلافة إسلامية قوية تجمع شمل المسلمين وتوحد كلمتهم، وتوحد طاقاتهم وإمكاناتهم للذود عن حياض الإسلام وبلاد المسلمين، وكما نشأ في البلاد العربية العديد من المصلحين والمجددين فقد نشأ في شبه القارة الهندية العديد من المصلحين. ومن هؤلاء السيد جمال الدين الأفغاني.

٢- حياته

هو محمد جمال الدين بن السيد صفتر الحسيني الأفغاني، ولد من عائلة كبيرة غنية معروفة باسم (سادات كنتر) وكانت هذه العائلة من العائلات القوية الغنية، وكان ملوك الأفغان يصاهرونهم ويزوجونهم بناتهم، ولقد نبغ من هذه العائلة العديد من الرجال في مجال الجهاد الوطني وفي إدارة الحكم والعلم والأدب. ولد جمال الدين عام (١٨٣٩ - ١٢٥٤ هـ) في (أسعد أباد) إحدى نواحي (كنر) في المديرية الشرقية لأفغانستان المعروفة باسم (ننكرهار) وقضى في قريته السنوات الثماني الأولى من عمره، ثم انتقل به والده مع عائلته إلى كابل لغرض سياسي. وفي كابل تلقى معظم علومه الأولية، وبدأ يتطلع إلى الحياة الاجتماعية والسياسية.

درس جمال الدين علومه الأولية في كابل، والتحق بمسجد (جودري) الذي كان معهداً كبيراً للدراسات الإسلامية العالية وقتئذ، درس خلالها اللغة العربية والتاريخ والعلوم الدينية والفلسفية، ثم رحل إلى الهند حيث درس بعض العلوم الحديثة كالرياضة واللغة الإنجليزية وبذا يكون قد جمع بين الثقافة الإسلامية والثقافة الأوربية، وقد استنفد جمال الدين طاقاته في الدعوة إلى الوحدة ومحاربة الاستعمار، وليس له كتب مطبوعة سوى كتابه (الرد على الدهريين) وبعض مقالاته في مجلة العروة الوثقى.

كان الجو في شبه القارة الهندية مشحوناً ضد الاستعماريين، الذين استولوا على البلاد، وأشاعوا التفرقة والفساد بين العباد، وقد شاهد الأفغاني المعركة الرهيبة التي جرت قرب كابل بين المجاهدين الأفغانيين وبين الجيش البريطاني والتي قضى فيها المجاهدون على عشرين ألف جندي بريطاني وأنهوا بذلك الوجود والأطماع البريطانية في أفغانستان، وبقيت

المقاومة الشعبية بعد ذلك رمزاً لمحاربة الاستعمار والمستعمرين، ولقد ارتبط جمال الدين منذ شبابه بالعلماء والسياسيين الذين حاربوا الاستعمار البريطاني أمثال المجاهد نجم الدين العالم، والمجاهد واخندزاده سوات، والمجاهد ملامشك عالم. وبهذا يكون الأفغاني منذ شبابه قد انضم إلى الجبهة الإسلامية المناوئة للاستعمار البريطاني.

٣- جهاده وأسفاره

كانت نظرة الأفغاني إلى العالم الإسلامي نظرة شاملة، فلم يكن يريد الخير والسعادة للهند لوحدها، بل كان يرجو القوة والعزة لجميع أقطار العالم الإسلامي، وقد رأى بأم عينه ضعف الخلافة العثمانية، وتفرق كلمة العرب والدعوات القومية التي كانت تهيب بهم للانفصال عن تركيا، كما كان يرى ذلك الأخطبوط الاستعماري الذي كان يمد أذرعه إلى الأقطار الإسلامية فيبتلعها واحدة بعد الأخرى، ولهذا يمم وجه شطر الحجاز فوصل مكة سنة (١٢٧٣ = ١٨٥٧) وأخذ يدعو إلى فكرة الجامعة الإسلامية، ويحاول إيقاظ المسلمين من غفلتهم وتنبيههم إلى الخطر المحدق بهم، وأنشأ في مكة جمعية سماها (جمعية أم القرى) وكان أعضاؤها من جميع الأقطار الإسلامية، ثم أنشأ لها مجلة سماها (مجلة أم القرى).

وبعد أداء فريضة الحج عاد الأفغاني إلى أفغانستان، فعمل في سلك رجال الحكومة في عهد الأمير دوست محمد خان، وسار معه لفتح مدينة هرات، وفي عهد محمد أعظم خان ارتفعت منزلة الأفغاني حتى عينه رئيساً لوزرائه، ولكن الإنجليز كانوا له بالمرصاد، فأثاروا الفتن في أفغانستان، وألبوا العائلة الحاكمة على محمد أعظم حتى عزلوه وولوا أميراً آخر بدلاً منه، فبقي جمال الدين في كابل يعمل على إثارة الشعب الأفغاني ضد

الإنجليز والأمراء المستبدين ويبث فيهم روح الحرية والمساواة، ثم أخذ يجوب شبه القارة الهندية داعياً إلى ثورة إسلامية عامة ضد المستعمرين، فأحاطه الإنجليز بجواسيسهم، وأخذوا يحصون عليه حركاته وسكناته ثم اضطروه للرحيل عن الهند، فأبحر منها إلى مصر فوصلها سنة (١٢٨٦ = ١٨٧٠) وبقي في القاهرة أربعين يوماً كان خلالها يتردد على الأزهر ويتصل برجال الفكر والدعوة الإسلامية، ثم رحل بعد ذلك إلى استانبول عاصمة الخلافة العثمانية بدعوة من السلطان عبد العزيز، فقربه وأمر بتعيينه عضواً في مجلس المعارف.

وفي استانبول استغل الأفغاني دعم السلطان له فقام بالعديد من الإصلاحات في الدولة، وأخذ ينبه المسلمين من غفلتهم مما أثار عليه رجال الدين الجامدين الذين أخذوا يناهضونه ويطعنون في عقيدته، وخاصة شيخ الإسلام حسن فهمي أفندي، وأخيراً رأت الحكومة أن لاسبيل إلى تهدئة هذه الفتنة إلا بالطلب من الأفغاني الرحيل عن استانبول، فرحل عنها عام (١٢٨٨ = ١٨٧١) بعد أن مكث فيها ستة أشهر فقط. ولما وجد في مصر الترحاب من حكومتها ورئيس وزرائها عزم على الاستقرار فيها.

احتفل الخديوي إسماعيل ورئيس وزرائه رياض باشا بالأفغاني حينما حط رحاله في القاهرة، وشجعاه على الاستقرار فيها، ومكنا له من القيام بدعوته الإصلاحية، فاتصل به الكثير من أنصار هذه الدعوة، فعمل على تدريس بعض العلوم الإسلامية والعقلية فترة من الزمن التف حوله الكثير من الطلاب الذين أصبحوا قادة مصر فيما بعد، ولما شاهد الأفغاني بأم عينه فرض الوصاية الأجنبية على مصر سنة١٨٧٦ وهيمنة الاستعمار الاقتصادي الأوربي عليها، بدأ يعمل سراً وعلناً لمقاومة الاستعمار، وخاض مع الإنجليز معركة سياسية عنيفة، أسس خلالها (الحزب الوطني) ليقوم

بالدعوة والإصلاح ويقاوم نفوذ الأجانب في مصر، وكان إسماعيل باشا يدعمه في دعوته سراً ويتغاضى عن تصرفاته، ليساعده على التخلص من النفوذ الأجنبي، ولكن هؤلاء الأجانب سعوا عند السلطان حتى حملوه على عزل إسماعيل باشا وتولية ابنه توفيق باشا مكانه، فأصدر هذا الأخير أمراً بنفي جمال الدين من مصر فغادرها إلى الهند عام (١٢٩٦ = ١٨٧٩) بعد أن مكن لدعوته فيها وترك رجالاً يعتمد عليهم أمثال الشيخ محمد عبده.

٤ - الاهتمام بالإعلام:

كانت دعوة الأفغاني السياسيّة في مصر تقوم على أساس المبادئ الإسلامية الصحيحة، فكان يطالب بأن يشارك الشعب حكامه في أمور الدولة الداخلية والخارجية، وأن يمارس سيادته بمجلس للنواب منتخب من قبل الشعب، وكان يرى أن إصلاح الدولة يساعد على إصلاح بقية أركان المجتمع ومؤسساته، ولكن إذا لم تصلح الدولة فإنه يحتاج إلى مدة طويلة لإصلاح المجتمع وكان يؤمن بأثر الإعلام على إيجاد رأي عام مؤيد لدعوته، ولهذا كان وراء إصدار العديد من المجلات والصحف في مصر، كجريدة (مصر) وجريدة (التجارة) و(كوكب الشرق) ثم صحيفة (أبو نضارة).

لبث الأفغاني في بومباي ثلاث سنوات بعد نفيه من مصر، آثر خلالها الاشتغال بالعلم، فألف كتابه (الرد على الدهريين) ولما بلغه أن المعارضة المصرية اتحدت في مصر تحت لواء أحمد عرابي، وأن هذا الأخير قام بثورة ضد توفيق باشا، وأن الإنجليز يريدون استغلال هذه الثورة للاستيلاء على مصر، أراد الأفغاني أن يشغلهم عن مصر بالقيام بثورة في الهند، ولكن الإنجليز أدركوا مقصده ففرضوا عليه الإقامة الجبرية في (كلكتا) ولم

يسمحوا له بمغادرة الهند إلا بعد أن تغلب الإنجليز على ثورة عرابي واستولوا على مصر، فسمحوا له بالذهاب إلى أوربا فأقام في لندن ومنها سافر إلى باريس.

٥- العروة الوثقى

بعد أن تغلب الانجليز على ثورة عرابي نفوا الشيخ محمد عبده إلى بيروت، فلما علم الأفغاني بذلك استدعاه إلى باريس فوصلها سنة (١٣٠٢ = ١٨٨٤)، وكانت بداية نشاطها المشترك، إنشاء جمعية في باريس من مسلمي الأقطار المختلفة سمياها (جمعية العروة الوثقى) ثم أنشأ لها مجلة سميت (مجلة العروة الوثقى)، لتدعو المسلمين إلى النهوض في دينهم ودنياهم، وتحرضهم على المستعمرين والإنجليز منهم بشكل خاص، وكانت إنجلترا تعمل لهذه المجلة ألف حساب فمنعتها من دخول مصر والشام والهند، لأن قادة الفكر والمثقفين كانوا يتلقفونها تلقفاً، وتآمر الإنجليز وعملاؤهم على هذه المجلة حتى قضوا عليها بعد ظهور عشرة أجزاء منها، فعاد الشيخ محمد عبده إلى مصر، وبقي الأفغاني يتنقل في البلاد الأوربية داعياً بلسانه حينما منعه المستعمرون من الجهاد بقلمه.

دعاه سلطان فارس ناصر الدين شاه الأفغاني في طهران، ولما وصلها في (١٣٠٣ = ١٨٨٦) استقبله السلطان أحسن استقبال وعينه وزيراً للحربية ثم رئيساً للوزراء، فقام الأفغاني بدعوته الإصلاحية فأخذ يدعو إلى حكم دستوري يكون فيه الشعب مشاركاً لحكامه في الحكم، فكثر أنصاره والتف حوله المثقفون، مما دفع العلماء الجامدين إلى مناجزته ومناهضة دعوته، وأخذوا يخوفون السلطان من دعوته ومبادئه، حتى خاف السلطان منه على سلطانه، فنفاه من طهران، فقصد البصرة في العراق ومنها سافر إلى

انجلترا حيث أنشأ مجلة سماها (ضياء الخافقين) ونهج منها منهج مجلة العروة الوثقى فحمل فيها على ناصر الدين شاه، وأخذ يؤلب الأحرار في بلاده عليه حتى قتله أحدهم غيلة.

٦- وفاته

ويبدو أن الخليفة العثماني قد ضاق ذرعاً بتحركات الأفغاني ونشاطاته، فأراد أن يسجنه سجناً أدبياً، فاستدعاه إلى استانبول سنة (١٣١٠= ١٨٩٢) فقربه إليه وجعل يستشيره في شؤون دولته، لكي يمنعه من أي نشاط في تركيا، لكن الأفغاني أدرك أن السلطان إنما دعاه ليكون تحت مراقبته خوفاً من انضمامه إلى حزب تركيا الفتاة، الذي كان يطالب بإصلاحات دستورية، وبقي الأفغاني على هذه الحال حتى وافته المنية في الآستانة في ٩ مارس ١٨٩٧ م= ١٣١٤ هـ.

٧- دعوته

ولد الأفغاني رحمه الله رجلًا ثورياً، فقد كان يستند إلى عائلة قوية غنية، كما كان يتمتع بشخصية قيادية قوية، يزينها علم غزير جمع بين العلوم الإسلامية والعلوم الحديثة، كما كان يتمتع بنشاط متنوع وشجاعة نادرة، وفصاحة لاتبارى في الخطابة والكتابة، وبمظهر أخاذ مهيب، أدرك مواطن الداء الذي يعاني منه المسلمون، فأراد لهم أن يتمسكوا بعقيدتهم، وأن يأخذوا الحضارة عن العرب كما كان رحمه الله أول من فضح وقاوم مؤامرة الدول الأوربية على الإسلام، فقد أدرك أن هدف الاستعمار الغربي هو إضعاف قوة الإسلام السياسية، ونشر الكفر والإلحاد والزندقة بين الشعوب الإسلامية لإضعاف العقيدة في نفوسهم، وعندها يسهل لهؤلاء

المستعمرين السيطرة عليهم، وكان يؤمن أنه إذا ما تحررت البلاد الإسلامية من سيطرة الاستعمار وأمكن تكييف المجتمع الإسلامي مع متطلبات الحياة العصرية مع تمسكه بقيمة ومبادئة فإن الشعب الإسلامي يستطيع أن يوجد نظاماً فريداً جديداً دونما تقليد أو اعتماد على الشعب الأوربي، وكان العلاج في نظره هو وحدة وتضامن المسلمين ورجوعهم إلى إسلام السلف الصالح الذي يمثل نظام حياة ونظام دولة والذي يستطيع بما أوتي من مقومات ربانية أن يواجه ويجد الحلول لجميع المشكلات الحديثة. ومن هنا كرس جهده للدعوة إلى توحيد المسلمين، وإقامة الجامعة الإسلامية وحاول إزالة الخلاف بين السلطان العثماني وشاه إيران وخديوي مصر، وطالب الحكام بمنح شعوبهم رسائل مكتوبة واضحة تحدد العلاقة بين الحاكمين والمحكومين على أساس حرية الرأي والشورى في الإسلام.

لقد كانت دعوة الأفغاني دعوة ذات طابع سياسي أكثر منها ذات طابع ديني تربوي فكان يرى أن الإصلاح من القمة إلى القاعدة أجدى وأسرع من الإصلاح من القاعدة إلى القمة، ولهذا ركز جهوده على إصلاح الخلفاء والملوك ولم يبذل الجهد الكافي لإيجاد القاعدة الشعبية القوية، بل بذر بذور الإصلاح في كل مكان نزل فيه، ولعل كثرة التنقل بين البلدان هي التي لم تتح للأفغاني أن يوجد القواعد الشعبية ويقوم على رعايتها وتنشئتها، ولهذا كان الأفغاني أشبه ما يكون بالواعظ المتجول والكاتب الجريء الذي عاش قائداً بلا جنود، فلما توفي ترك أمته جنوداً بلا قيادة.

تحدث الأفغاني عن الأمة الإسلامية، وإصلاح نظام الحكم على أساس الإسلام ومقاومة الاستعمار الغربي أكثر من تحدثه عن مقاومة البدع والخرافات والتصدي للفرق الإسلامية، بل تصدى للدهريين لأنه كان يعتبرهم رأس حربه للمستعمرين يعملون على إثارة الخلافات بين صفوف

الأمة، والطعن في عقيدتها وقيمها، وقد انتشر هذا المذهب في الهند سنة ١٨٧٩ وكان هدفه تفرقة المسلمين إلى طائفتين طائفة القديم وطائفة الجديد، ولكن كان أساس دعوته ونشاطه هو القرآن الكريم فتجده يقول في مجلة العروة الوثقى: «لا ألتمس في قولي هذا – في الدعوة إلى الوحدة أن يكون مالك الأمر في الجميع شخصاً واحداً، فإن هذا ربما كان عسيراً، ولكني أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن، ووجهة وحدتهم الدين، وكل ذي ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الأمر ما استطاع، فإن حياته بحياته وبقاءه ببقائه».

مات الأفغاني رحمه الله بعد صراع عنيف مع الاستعمار الغربي استمر قرابة ثلاثين عاماً، ولكن دعوته لم تمت بموته، بل كانت شرارة انطلقت في كل قطر من أقطار المسلمين ثم ما لبثت أن تحولت إلى جذوة متقدة، فانتشرت أفكاره ومبادئه في جميع أنحاء العالم الإسلامي، فقد ظهر محمد عبده ومدرسته السلفية في مصر، وظهر المرحوم عبد الحميد بن باديس (المتوفى سنة ١٩٤٠) فأسس في الجزائر (جمعية العلماء) وتجسدت دعوته في أندونيسيا في حركة تجديد (المنار) وفي الهند في جماعة أهل الحديث وفي ندوة العلماء وفي مدرسة دار العلوم (بديوبند). كما كان لحركته آثار أخرى في مختلف البلاد العربية والإسلامية.

يتحدث الأفغاني عن الدين الإسلامي فيقول في كتابه «الرد على الدهريين» إن الدين الإسلامي في مقدمة الأديان من حيث حاجة البشرية له بأن له مزايا ليست متوفرة في دين آخر:

أولاً: صقل العقول بصقال التوحيد، وطهرها من لوث الأوهام، وذلك ليحول دون اعتقاد أن كائناً من الكائنات له تأثير النفع أو الضرر، كما

يحول دون اعتقاد أن الله يظهر بلباس البشر أو حيوان آخر، أو أن تلك الذات المقدسة نالت شديد الألم لمصلحة أحد من الخلق، كما توجد تلك الأوهام في ديانات البراهمة في الهند وبوذا في الصين، وزرادشت في بقايا الفارسيين.

ثاني: محو امتياز الأجناس وتفاضل الأصناف، وقرر المزايا البشرية على قاعدة الكمال العقلي والنفسي لاغير، فالناس إنما يتفاضلون بالعقل والفضيلة، وقد لانجد من الأديان ما يجمع أطراف هذه القاعدة فالبراهمية قسمت الناس إلى طبقات واليهودية فضلت شعب إسرائيل على بقية الشعوب.

ثالثاً: جعل العقيدة قائمة على الإقناع، لاعلى التقليد واتباع ما كان عليه الآباء، والدين الإسلامي كلما خاطب العقل، يكاد يكون متفرداً بتقريع المعتقدين بلا دليل وتوبيخ المتبعين للظنون.

رابعاً: نصب المعلم ليؤدي عمل التعليم، وأقام المؤدب الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾، فإن قال قائل: إن كانت الديانة الإسلامية على ما بينت فما بال المسلمين على ما ترى من الحال السيئة والشأن المحزون، فجوابه، إن المسلمين كانوا كما كانوا وبلغوا بدينهم ما بلغوا، والعالم يشهد، وأكتفي الآن من القول بهذا النص الشريف ﴿إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾.

ويستحث همم المسلمين على محاربة الاستعمار فيقول:

«ومع أن دينهم يرسم عليهم أن لا يدينوا لسلطة من يخالفهم، بل

الركن الأعظم لدينهم طرح ولاية الأجنبي عنهم، وكشفها عن ديارهم، بل منازعة كل ذي شوكة في شوكته، هل نسوا وعد الله بأن يرثوا الأرض وهم العباد الصالحون؟ هل غفلوا عن تكفل الله لهم بإظهار شأنهم على سائر الشعوب ولو كره الكافرون؟ هل سهوا عن أن الله اشترى منهم لإعلاء كلمته أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة؟ لا .. لا، إن العقائد الإسلامية مالكة لقلوب المسلمين، حاكمة في إرادتهم، وسواء في العقائد الدينية والفضائل الشرعية عامتهم وخاصتهم». (مجموعة العروة الوثقى ٧٤).

رحم الله جمال الدين الأفغاني فقد كان أمة وحده.

المصادر

١ - نشأة باكستان لشريف الدين بير زاده.
٢ - الفكر الإسلامي وصلته بالاستعمار الغربي لد. محمد البهي.
٣ - أفغانستان بين الأمس واليوم لأبو العينين فهمي محمد.
٤ - المجددون في الإسلام لعبد المتعال الصعيدي.
٥ - الأعلام للزركلي.

ثورة الشاعر الإسلامي
محمد إقبال

١ - مقدمة

لما ضعف سلطان المسلمين في الهند هاجمها المستعمرون الإنجليز لاستعمارها واستغلال خيراتها، وكانت تسمى فعلًا «درة التاج البريطاني» واستعمل الإنجليز سياسة «فرق تسد» بين شعوب وطوائف الهنود، ولم يتصد لهم فعلياً وأعلن الجهاد ضدهم سوى المسلمين، ولهذا أخذ الإنجليز يقربون الطوائف غير الإسلامية كالسيخ والهنادكة، ويضعونها في المراكز الحساسة بينما لا يصل إلى هذه المراكز من المسلمين إلا العدد القليل، وبعد أن تثبت عمالتهم للمستعمرين، ولهذا أصبح حال المسلمين في الهند سيئاً فقد استطاع الإنجليز أن يفرقوا صفوفهم بإيجاد الثغرات العنصرية بينهم وإيجاد المذاهب الوضعية «كالقاديانية» كما أنهم أصبحوا يشكلون القاعدة الشعبية الفقيرة، فقام المصلحون والمفكرون المسلمون في الهند لوضع حد لهذا التدهور، ولإيجاد صيغة من الوفاق بين المسلمين وبين الفئات والمذاهب الأخرى، فاقترح أن يكون في الهند اتحاد تكون كل طائفة فيه لها استقلالها الذاتي، ويكون للمسلمين دولة ضمن هذا الاتحاد.

وكان (محمد إقبال) واحداً من هؤلاء المصلحين الذين أسهموا بقلمهم وفكرهم في هذا المجال.

٢ - حياته وعلومه

هو محمد إقبال بن محمد نور بن محمد رفيق، يرجع نسبة إلى سلالة البراهمة، وان أحد أجداده قد أسلم قبل ثلاثة قرون في عهد الدولة المغولية على يد الشيخ « شاه حمداني » أحد أئمة المسلمين في ذلك العصر، ولا يزال حتى اليوم فرع من أسرته يقيم في كشمير ويعرف باسم « سايرو » وهي لفظة تعني « العصامي ».

وكان جده « محمد رفيق » يقيم في قرية « لوهر » في كشمير، هاجر منها إلى « سيالكوت » في ولاية البنجاب طلباً للرزق، وقد هاجر معه إخوته الثلاثة ومنهم الشيخ « محمد رمضان » وكان صوفياً وله الكثير من الكتب الإسلامية باللغة الفارسية، وعمر والده « محمد نور » زهاء مئة سنة، وكف بصره وهو في سن الثمانين وتوفي في ١٧ آب ١٩٣٠، ويومها كتب إقبال جملة نقشت على ضريح والده قال فيها « والد اقبال ومعلمه رحل من هذا العالم وكلنا راحلون نحو الأبدية ».

توفيت أمه في ١٤ تشرين الثاني ١٩١٤ وهي في الثامنة والسبعين.

كان إقبال يحب أمه حباً جماً، ولذلك فقد حزن عليها حزناً شديداً حينما توفيت ورثاها بقصيدة رائعة بعنوان « في ذكرى أمي التي شملها الله برحمته ». ولد إقبال في الرابع والعشرين من ذى الحجة ١٢٨٩ هـ، (٢٢ شباط ١٨٧٧ م)، في مدينة « سيالكوت » من والدين صالحين تقيين، فأبوه كان متصوفاً إلا أنه كان كادحاً يأكل من عمل يده، وكانت أمه كذلك امرأة تقية ورعة، حتى أنها كانت تتحرج أن تأكل من الطعام

الذي يحضره زوجها لأنها كانت تعلم أنه كان يعمل عند شخص عرف بأكل الرشوة، ويروى أن والده رأى قبل مولده حمامة بيضاء تطير فتقع في حجره وتسكن إليه فأول الرؤية بأنه سيرزق ولداً عظيماً.

بدأ إقبال تعليمه في طفولته على يد أبيه، فأخذ يحفظه القرآن ويفقهه فيه، ثم أدخله كتاباً ليتعلم القرآن. ويؤثر عن والده أنه لما رأى كثرة إقباله على قراءة القرآن قال له «يا بني إن أردت أن تفقه القرآن فاقرأه كأنه أنزل عليك» ثم يستشهد بقول الله تعالى ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾.

ولا ريب أنه حفظ الكثير من كتاب الله تعالى لأنه تعلم القرآن في صغره كما كثر اقتباسه منه في شعره، مما يؤكد على أن القرآن الكريم كان في قلبه وعلى لسانه، ثم التحق بمدرسة البعثة الاسكتلندية في سيالكوت، وقد امتاز إقبال منذ نعومة أظفاره بذكائه وجده فلاحظ ذلك صديق والده «مير حسن»- وكان أستاذاً أديباً متضلعاً في الأدب الفارسي عارفاً باللغة العربية- وينسب إلى آل البيت وقد أراد والد إقبال أن يخرجه من المدرسة ليعلمه الدين فقال مير حسن لوالد إقبال «هذا الصبي ليس لتعليم المساجد وسيبقى في المدرسة» فعني أستاذه بتلقينه الدين والعربية والفارسية، ولما رأى موهبته الشعرية نصحه أن ينظم الشعر بالأردية بدل البنجابية، وأنهى إقبال دراسته في الكلية الاسكتلندية عام ١٨٩٥م، بدرجة امتياز وعمره اثنتين وعشرين سنة ثم دخل كلية الحكومة في لاهور واتصل بالأستاذ الإنجليزي «أرنولد» صاحب كتاب «دعوة الإسلام» وبالأستاذ عبد القادر المحامي الأديب الشهير، أتم دراسته وحصل على درجة (B.A.) ثم درجة (M. A) منها، وعين بعد ذلك مدرساً لتدريس التاريخ والفلسفة في الكلية الشرقية في لاهور، ثم اختير لتدريس الفلسفة واللغة الإنجليزية بكلية الحكومة التي تخرج منها. وفي عام ١٩٠٥م، سافر

إقبال إلى بريطانيا والتحق بجامعة « كمبردج » ونال من هذه الجامعة درجة علمية في فلسفة الأخلاق ثم سافر إلى المانيا حيث التحق بجامعة « ميونخ » حيث حصل على درجة الدكتوراه في الفلسفة، وكان موضوع رسالته « الفلسفة العقلية في فارس » وفي عام ١٩٠٨م، عاد إقبال إلى لندن حيث حصل على درجة علمية في القانون واجتاز امتحان المحاماة، والتحق بمدرسة العلوم السياسية زمناً، ولكن آثر بعد ذلك أن يعود إلى وطنه بعد أن لبث في أوروبا زهاء ثلاث سنوات.

عاد إقبال إلى لاهور فعمل في التدريس في كلية الحكومة التي تخرج منها فعلم الفلسفة والأدب العربي والأدب الإنجليزي، ثم استقال من التدريس بعد أن أمضى فيه نحو سنة ونصف وامتهن المحاماة، وما زال يعمل فيها حتى سنة ١٩٣٤م، أي قبل وفاته بأربع سنوات حين اضطره المرض إلى تركها.

عاش إقبال عيشة بسيطة أبية قنوعة فقد كان فقيراً ولكن لم يمد يده إلى أحد بل كان بابه مفتوحاً للجميع دائماً، فالفقر عنده ليس محصوراً في الحدود المادية، ولكنه محصور في حدوده الروحية، فهو يقول:

قوة الدين وتشييد علاه ... في تسامي الفقر عند ذل الحياه
كل من آمن بالله الأحد ... لا يذل النفس لا يوما لأحد

وقال أيضاً:

فقري لخلاقي غنى خلقه ... فأنا الغني وإن بدوت فقيرا
وأرى فناء العيش خير للفتى ... من أن يعيش على الفناء أسيرا
أقبل الهم ولا تأكل طعاما ... من يد تطعمك الهم دوما
إن يكن عيشك من طول الكدر ... فيه مر الجوع فالبذل أمر

الـدواء المر للعقـل الكبـير	فاترك الحلوى إلى الطفل الغرير
خرقـة الزاهـد عبء للفقير	كن عفيف القلب وانعم باليسير
فـاز حر جعل الحق مصيره	لم يبـع يومـاً لمخلوق ضمـيره
من وفــى لله روحــاً ودمـا	صـان عن قيد سواه القدما
ليس كـل الخلق أهلًا للعهود	لا يبـــح بالسر إلا للأسود

وكان قنوعاً في رزقه يعمل في المحاماة ليجد ما يقيم به أوده، ولهذا كان يسأل وكيله كم عندك من المال؟ فإن عرف ان عنده ما يكفي للانفاق إلى آخر الشهر لم يرغب في قبول قضايا جديدة حتى الشهر التالي وأنه كان لا يقبل وكالة في قضية إلا إذا تأكد له أن موكله على حق وانه يستطيع أن يأخذ له حقه. وقد عمل بالإضافة إلى ذلك كمستشار في الأمور التربوية فلم تنقطع صلته بجامعة الحكومة رغم امتهانه للمحاماة- فقد لبث سنين عميداً لكلية الدراسات الشرقية ورئيساً لقسم الدراسات الفلسفية، كما كان ذا صلة دائمة بالكلية الإسلامية بلاهور، كما كان كثير الاهتمام بالجامعة الملية في دهلي، كما عمل في لجان لإصلاح التعليم في الهند، وفي عام ١٩٣٣م، تلقى دعوة من «نادر شاه» ملك الأفغان لزيارة افغانستان وللنظر في أمور التعليم فيها وخاصة في نظام جامعة كابل، فسافر إليها وقدم التوصيات اللازمة لذلك.

ويروى إن صحافياً بريطانياً اقترح على حكومة البنجاب أن تمنح إقبال لقب «سير» ولما وافقت الحكومة على هذا الاقتراح ذهب هذا الصحفي ليبلغ النبأ إلى إقبال، ولكن النفس الكبيرة تأبى الصغائر، فرفض إقبال الدعوة كما رفض كذلك اللقب، وهو لقب عظيم يتمنى أن يحصل عليه عظماء القوم، ولكن الصحفي البريطاني الح عليه وأصر عليه بعض أصدقائه للذهاب إلى دار الحاكم، وبعد تردد اشترط إقبال أن يمنح

استاذه « مير حسن » لقب « شمس العلماء » اعترافاً له بالفضل، ووفاء للعهد، ولكن استاذه ليس ذائع الصيت حتى يمنح مثل هذا اللقب ولكن إقبال أصر على ذلك فما كان من الحاكم إلا أن وافقه على رأيه.

٣- وفاته

أخذ المرض طريقه إلى جسم إقبال منذ عام ١٩٣٥ م، فأصيب بمرض في كليته، إلا أنه شفي منه، ولكن زوجته قد توفيت في هذا العام فوقع موتها على نفسه وقعاً عظيماً وزاد ذلك من آلامه وأحزانه، وترادفت عليه بعد ذلك العلل حتى وصلت إلى قلبه، فبدا جسمه يضعف شيئاً فشيئاً، ولكن عقله وروحه لم تعرف الكلل أو الضعف وابتداء من عام ١٩٣٨ م، بدا إقبال يشعر بأنه أصبح ضعيفاً على هذه الدنيا، وان مقامه فيها أيام معدودة أو أشهر محدودة فقد كتب إلى أحد أصدقائه قبل وفاته بأيام « إني مسلم لا أرهب الموت، إذا جاء الموت لقيته مبتسماً ». وفي العشرين من نيسان دخل عليه أبنه « جاويد » وكان في سن الثالثة عشرة، فقال له إلي يا بني واجلس بجانبي، وقال له: يا بني لا أدري لعلي ضيف لبضعة أيام، فقال له أحد الحاضرين انه صغير السن وسيفزعه مرضك، فرد عليه إقبال قائلاً: أريد من ابني أن يلقى كل حدث لقاء الرجال. وفي تلك الليلة سئل عن صحته فقال: أريد الخلاص من هذه المشقة فوراً، ويروى أنه أنشد قبل موته بنحو عشر دقائق البيتين التاليين بالأردية وترجمت إلى العربية بما يلي:

نغمات مضين لي هل تعود؟ أنسيم من الحجاز يعود؟
أذنت عيشتي بوشك رحيل هل لعلم الأسرار قلب جديد؟

ثم وضع يده على قلبه وقال « الآن بلغ الألم إلى هنا » وتأوه وأسلم

الروح إلى خالقها والابتسامة تعلو وجهه ومحياه وكان ذلك في الحادي والعشرين من شهر نيسان عام ١٩٣٨م، وتوفي رحمه الله عن عمر يناهز السابعة والستين.

شاع النبأ الفاجع في طول البلاد وعرضها، فكان الأسى يعلو وجوه كل من عرف إقبال، فعطلت الدواوين والمتاجر وذهب الناس زرافات ووحداناً إلى «جاويدمنزل» وهي دار إقبال فنعاه الخطباء ورثاه الشعراء، واتفق أولو الرأي في لاهور على تكريم إقبال بعد مماته كما كرموه في حياته، فدفنوه في ساحة المسجد الجامع «شاهي مسجد» بلاهور، ثم أمر «محمد نادر شاه» ملك الأفغان بأقامة ضريح جميل متواضع فوق قبره وكتب على شاهده «إن محمد نادر شاه ملك الأفغان أمر بصنع هذا الضريح اعترافاً منه ومن الأمة الأفغانية بفضل الشاعر الكبير». وقال «محمد على جناح» مؤسس دولة باكستان الإسلامية في رثاء إقبال:

«كان شاعراً منقطع النظير، طبق صيته الآفاق، وستبقى كلماته حية أبداً، وإن مساعيه لأمته وبلده لتضعه في صف أكبر كبراء الهند، وإن وفاته اليوم لخسارة كبيرة للهند عامة وللمسلمين خاصة».

وكتب محمد جناح إلى ابن إقبال بعد وفاته:

«كان لي صديقاً ومرشداً وفيلسوفاً، وكان في أحلك الساعات التي مرت بالرابطة الإسلامية راسخاً كالصخرة لم يزلزل لحظة واحدة قط»

وقال «طاغور» الشاعر والفيلسوف الهندوكي:

«تركت وفاة إقبال في أدبنا خلاء يشبه جرحاً مهلكاً، ولن يملأ إلا بعد مدة مديدة، إن مكانة الهند في العالم ليست مكينة، فموت شاعر عالمي كإقبال مصيبة لاتحتملها البلاد».

ولعل خير ما نختتم به الحديث عن حياة إقبال هذا الدعاء العظيم الذي كان يردده في حياته، ويرجو أن تكون حياته كذلك:

فاطر الأكوان قيوم السماء   إن أمالي تجلت في دعائي
فأدم صفو حياتي في ارتقائي   شمعة ترسل في الكون ضيائي
وتجلي ظلمة الليل البهيم
فلتكن دنياي نوراً فوق نور   بالجهاد الحر والعزم الجسور
حلية الأوطان في كل العصور   مثلما يزدان روض بالزهور
حلية يزكو بها عطر النسيم
وليفز بالعلم قلبي وضميري   كفراش طاف بالضوء المنير
ربي واجعلني معيناً للفقير   ومجيراً للضعيف المستجير
واهدني نهج الصراط المستقيم

٤- آثاره

لقد كان إقبال رحمه الله شاعراً فذاً، لأنه كان ينفث في شعره من روحه السامية وينفث فيه من ثقافته المتنوعة الواسعة، فقد جمع إلى جانب الثقافة الإسلامية الواسعة ثقافة غربية متزنة بالإضافة إلى معرفة عميقة بالتاريخ والفلسفة والتصوف والآداب العالمية والأفكار المعاصرة، هذا بالإضافة إلى اتقانه العديد من اللغات كالأردية والفارسية والإنجليزية، ولهذا نظم إقبال الشعر بالأردية لغته الأصلية وبالفارسية ولكن لم ينظم الشعر بالعربية مع أنه كان متأثراً بروعة معانيها وسحر بيانها فهو يقول في إحدى قصائده:

أنــــا أعجمي لكن خمرتي   صنع الحجاز وكرمها الفينان
قد كان لي نغم الهنود ولحفهم   لكن هـذا السحر من عدنان

ترك إقبال العديد من المؤلفات بالأردية والفارسية والإنجليزية، وترجمت مؤلفاته إلى العديد من اللغات ومن أشهرها منظومته المعروفة بـ« أسرار الحياة » أو « أسرار الذاتية » التي يبرهن فيها إقبال على أن الكون يخضع لإرادة الله، وأن تحقيق الذات والمعرفة بها هو هدف الحياة، ولقد تأثر بهذه المنظومة بالقرآن الكريم فكان يرى أن أمر الله للملائكة بالسجود لآدم هي حقيقة تؤكد أن الإنسان الذي خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه جدير بخلافة الله في الأرض، وجدير بخلافة علم الله في الأرض، وفي القسم الثاني من هذه المنظومة يبرهن إقبال على أن الطريقة الإسلامية في الحياة هي أفضل نهج للسلوك من أجل حياة الأمة، وإذا كان إقبال يؤكد على استقلالية الإنسان الفرد إلا أن ذلك لا يجب أن يكون على حساب الأمة التي هي أهم وأبقى من الفرد فهو يقول:

معيشة الفرد خيـــــال والبقـــــــاء للأمم
فكن فـداء المبـدأ الأعلى إذا نـــادى العــلم

ويقول في منظومته هذه « أرى الحوادث المقبلة جلية أمامي والحقائق المختبئة خلف ستار المظاهر تتراءى بعيني، وفي طيات شعري تختبئ الأزهار، ولكن قومي بعيدون عن دقائق بياني، وعندما يتحررون من قيد العبودية سيدركون مرامي، وإني أترقب طليعة الفدائيين الذين هم ظماء لحديثي ».

ولقد ترجم الأستاذ « بيكالمون » هذه المنظومة عن الفارسية فكان تعريفاً بإقبال إلى الجمهور في أوربا وأميركا.

أما كتابه « رسالة الشرق » أو « بيام مشرق » والذي كان جواباً على الديوان الغربي للشاعر الألماني « غوته »: فقد كان إقبال يرى أن الشرق

الإسلامي بدأ يصحو، ولكن عليه أن يدرك أن الثورة في المحيط الخارجي لا تتحقق ما لم تسبقها ثورة في النفوس فالله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وكان «غوته» يتألم حينما يرى الغرب مغرقاً في نظراته المادية، ويتوقع أن ينهض الشرق برسالة روحية، فكتب إقبال يذكر أهمية الأخلاق والدين في الحضارة والحياة ومما قاله:

تئن الخلائـق في الأرض طرا وقد سامها الغرب عسفا وجورا
فيـا أمم الشرق فـيم التواني لقد آن أن يصبح الشرق حرا
لقـد آن للروح أن تستفيق وللشرق أن يستبين الدليـلا
ليجعـل أنقـاض هذا البناء عـلى الظالمين كثيبـاً مهيـلا

ومن مؤلفاته الأدبية رسالته للدكتوراه «الفلسفة العقلية في فارس» وست محاضرات ألقاها في مدارس حيدر آباد ونشرت بعد ذلك في كتاب بعنوان «إصلاح الفكر الديني في الإسلام».

ثم بدأ العهد الأخير الذي انتهى إلى وفاته، وقد ازداد فكره نضجاً، وأُفق معارفه اتساعاً، وقد اتضحت رسالته فنشر عـدة كتب بالفارسية، وقد آثر اللغة الفارسية لشعره لأنها أوسع من الأُردية، ونشر مجموعتين بالأُردية، فأما الدواوين الفارسية فهي: «أسرار خودي» يعني «أسرار معرفـة الـذات» و«رموز بيخودي» «أسرار فناء الذات» و«بيام مشرق» «رسالة الشرق» في جواب كتاب «غوته» «تحية الغرب» و«زبور عجم» و«جاويد نامه» و«بس جه بايد كرد» أي أقوام الشرق «ماذا ينبغي أن تعمل الشعوب الشرقية» و«مسافر» و«ارمغان حجاز» هدية الحجاز، وبالأُردية «بال جبريل» جناح جبريل» و«ضرب كليم» وغير هذه الكتب محاضرات ألقاها في مدينة «مدراس» ومحاضرات ألقاها

في جامعة كامبردج. وقد اعتنى بهذه المحاضرات المستشرقون وعلماء الفلسفة والدين، وعلقوا عليها أهمية كبيرة.

وترجم أكثر كتبه إلى الإنجليزية والفرنسية والألمانية والطليانية والروسية، وانتخب رئيساً لحفلة الرابطة الإسلامية السنوية التي عقدت في سنة ١٩٣٠ في « الله آباد » وعرض في خطبته فكرة باكستان أول مرة. وانتخب عضواً في المجلس التشريعي في بنجاب، واختير ممثلاً للمسلمين في مؤتمر المائدة المستديرة الثاني سنة ١٩٣١ - ١٩٣٢م.

ولقد كانت أمنية إقبال أن تترجم أشعاره إلى العربية، وقد تحقق جزء كبير من هذه الأمنية بالترجمات التي قام بها المرحوم الدكتور عبد الوهاب عزام والسيدة نور الدين، والدكتور حسيب مجيب المصري، والأستاذ الصاوي شعلان، والمرحوم الشاعر محمد محمود الزبيري، إلا أن الترجمة إلى العربية لم تكن لتستطيع إظهار البلاغة والعمق والشفافية التي كانت تحتويها أشعار إقبال، يقول الشاعر الزبيري « كنت أشعر وأنا أترجم بعض المعاني ترجمة حرفية بأنني أظلم إقبال وأنتزع روح شعره من جثمانها ثم أرغمها على أن تسكن جثماناً آخر » ويكفي إقبال فخراً أن يشهد له الشاعر والفيلسوف الهندوكي « طاغور »- والفضل ما شهدت به الأعداء- حين قال وهو يرثيه: « ويؤسفني أن بعض النقاد وضع أدبي وأدب إقبال في ميزان المنافسة، وجهدوا أن يشيعوا أغلاطهم في هذا الشأن، وهذا عمل لايليق بالأدب الفسيح الذي يخاطب النوع الإنساني كله، لأن في ساحة الأدب العالمي يقوم الشعراء وأولو الفن في صف واحد من الأخوة الإنسانية ».

٥- أفكاره ومبادئه

فهم إقبال الإسلام على حقيقته كما أنزل على رسول الله ﷺ، فهم على

أنه رسالة شاملة لكل جوانب الحياة وعمارة للدارين، وقوة للمسلمين بالوحدة الكاملة، فدعا إلى استقلالية الفرد بالإيمان، وإلى يقظة الوعي الإسلامي عن طريق الثورة والجهاد وكان ذلك في كتابه « باك درا » أو « صلصة الناقوس » كما دعا إلى توثيق الأخوة الإسلامية في الشرق عن طريق التوحيد والتعاون في ديوانه « بيام مشرق » رسالة الشرق.

لقد كان إقبال صاحب رسالة، عرف في العالم عن طريق رسالته وفكرته أكثر مما عرف عن طريق شعره وفلسفته، وكما قيل إذا كان حسان بن ثابت شاعر الرسول فإن محمد إقبال كان شاعر الرسالة ولهذا سخر شعره لخدمة رسالته، وسخر أدبه لخدمة قضية دينه وأمته، لقد كان شعره دعوة عزة وحرية وكرامة، وكانت فلسفته فلسفة أمل وعمل وجهاد وإقدام، ولهذا كان شعره وما يزال أناشيد مسلمي الهند المجاهدين، فقد أشعل في نفوسهم الثورة ضد الإنجليز المستعمرين.

ألقى إقبال أولى قصائده في جمع حاشد في الحفل السنوي لجماعة حماية الإسلام في لاهور سنة ١٨٩٩ وكان عنوانها « أنين يتيم » وفي السنة التالية أنشد في حفل هذه الجماعة قصيدة يخاطب فيها « هلال العيد » ولما سافر إلى أوربا، كان حيث نزل يتحدث ويحاضر عن الإسلام وكانت تنشر محاضراته الصحف الكبرى في أوربا وقد عمل في السياسة إلا أنه كان مصلحاً اجتماعياً أكثر من سياسياً، فكان عماداً قوياً لحزب الرابطة الإسلامية الذي كان يرأسه محمد علي جناح ونجح سنة ١٩٢٦ في انتخابات الجمعية التشريعية في البنجاب واشترك في مؤتمر الطاولة المستديرة خلال الأعوام ١٩٣١ - ١٩٣٢ - ١٩٣٣، وحضر المؤتمر الإسلامي الذي عقد في بيت المقدس عام ١٩٣٣، وتكلم فيه ودافع عن شعب فلسطين، وزار القاهرة وقرطبة عام ١٩٣٣، فاستأذن حكومة إسبانيا أن يصلي في الجامع الكبير

فيها فسمح له، فأذن في المسجد وأقام الصلاة وصلى فيه، ثم قال قصيدة عصماء يرثي فيها قرطبة وأمجاد العرب والمسلمين فيها:

إبـك أيها الرجل دماً لا دمعاً فهذا مدفن الحضارة الحجازية

كان إقبال أول من نادى بضرورة انفصال المسلمين عن الهندوس، وبوجوب تكوين دولـة إسلامية فيها ليظهروا روعة الإسلام، وأن يحيوا الحياة التي تتمشى مع الدين الإسلامي ومنذ أعلن إقبال هذه الفكرة عام ١٩٣٠ أصبحت الهدف الذي يجاهد في سبيله مسلمـو الهند إلى أن تم لهم ذلك في أوغسطس ١٩٤٧ فقامت جمهورية إسلامية في باكستان فكتب إلى محمد علي جناح يقول « إن خير وسيلة إلى السلام في الهند في هذه الأحوال أن تقسم البلاد على قواعد جيشية ودينية ولغوية ».

في خضم جهاد إقبال المرير في الهند لم ينسه ذلك مشاكل العالم الإسلامي وخاصة قضية فلسطين فقد دافع عن الشعب الفلسطيني بشعره ونثره وخطبه وحضر المؤتمر الإسلامي الذي عقد في القدس عام ١٩٣٣ وكان يقول: « إن قضية فلسطين ليست قضية فئة ولا جماعة ولا مقاطعة، بل قضية العرب والعالم الإسلامي بأسره، في كل مكان في الدنيا، وهي كذلك قضية التاريخ البعيد، إن شأن اليهود في فلسطين قد انتهى وانطوت صفحاته إلى الأبد منذ الساعة التي دخل فيها الخليفة عمر بن الخطاب بيت المقدس، وان أحداً من المسلمين لم يكره اليهود على مغادرة فلسطين، ولكنهم اختاروا بأنفسهم ترك هذه البلاد وتفرقوا بين الأقطار بمحض إرادتهم حتى أن معظم صحائفهم الدينية دونت خارج فلسطين، إن مطامع الاستعمار والرأسمالية لم يكشف عنها النقاب إلا بعد تقرير لجنة التقسيم، وما كان إعلانهم عن الوطن القومي لليهود في فلسطين إلا وسيلة لإخفاء مطامع الاستعمار في استغلال مواطن المسلمين وتمزيقها ».

كان إقبال صاحب رسالة يرجو أن تنهض أمته على أساسها إلا وهي رسالة القرآن، ولهذا تجده يقول:

أيهـــا الشادي بقرآن كريم   وهو في ركن من البيت مقيم
قم وابلـــــغ نوره للعالمين   قم واسمعــه البرايا أجمعين

ولهذا يهيب بأمته بأن تعيد أمجاد المسلمين وتسير على نهجهم فيقول:

أمـة الصحراء يا شعب الخلود   من سواكم حـل أغلال الورى
أي داع منـكم في ذا الوجود   صاح لاكسرى هنا ولا قيصرا
فكروا في عصركم واستبقوا   طالمـــا كنتم جمالا للعصرا
واملأوا الصحراء عزماً واخلقوا   مرة أخرى بهـا روح عمر

وأول خطوات الطريق الثقة بالله، والثقة بنصر الله، يقول إقبال:

ثقـــة المؤمن بـــالله عتـــاد   فتوكـل واعتزم بنحو المراد
نظرة المؤمن مصبـاح منير   فهو بالخــير وبالشر بصــير
كن مـع الكل على هدى الإله   وبـدون الكل لاترجو سواه
شيمـــة المؤمن عزم وثقـــة   حيــنما هم بأمر حققـــه
هكـذا المؤمن رمز التضحيات   يتفانى في اقتنـاء الباقيات

ويقول أيضاً:

سبيـل الفوز إخلاص وصدق   تسود بـه حيـاة المخلصينا
ومن أم الطريـق بلا ارتياب   يكون وليـه الروح الأمينا

والخطوة التالية في هذا الطريق هي وحدة الصف ونسيان جميع الخلافات المذهبية والقومية والعنصرية، يقول إقبال:

أرى الأطماع فرقت البرايا   إلى شيـع كقطعان البوادي

يمزق بعضهم في الحرص بعضاً وكلهم لكلهم أعـــــــادي
فجـــدد للتقــارب والتآخي نـــدا يمـلأ الدنيـا صـداه
وقـل مـا قـال سلمان وكرر أبي الإسلام لا أب لي سواه

ويقول أيضاً:

حريـة الأوطان ينمو غرسها في الاتحاد وعلى هدى الإيمان
من ضمـير الشعب من إيمانه تنبـــت الثورة في وجدانـه
كـل من تحت الفضاء الأزرق لم يجاهـد فكأنـه لم يخلـق

والطريق إلى الاستقلال لا يكون إلا بالجهاد والكفاح يقول إقبال:

الشعـب يبـني عزه بكفاحـه ليشيـد مجـداً ثابت الأركان
المؤمن المقـــدام يمضي قاهراً بالعز والإقـــدام دون توانِي
وإذا ارتضى للذل أمسى كافراً بالله أو بكرامة الأوطان

وكان إقبال في الوقت الذي يبني لأمته طريق الخلاص ويوضح لهم محاسن الإسلام، كان كذلك ينتقد الحضارة الغربية المادية ويبين مساوئها، فتراه يقول للغربيين «يا معشر الغرب إن الله ليس مصرفاً ولا بيتاً للتجارة» ولهذا تجده يصف مدنية الغرب فيقول:

أرى مدنية الغرب استفاضت بفعـــــل الرأسماليين سموا
ريـاء خـادع وبريـق زيـف سيكشف عنه يوم الفصل سترا
ضيـاع الأمن في شرق وغرب شيوع الفرقـة في عبد ومولى
عقـاب الفطرة العليـا أليـم إذا لم تحسنوا في الناس عدلا

ويحمل إقبال على استعمار واستبداد الغاصبين المستعمرين فيقول:

صور الغاصب عـدلاً ظلمـه مـا هو التفسير للعدل الجديد
زاد في التحرير معنـى أنـه يحكم القيـد لتحرير العبيـد

ثم يقول:

الاستبـــداد لا يمحــى بسحر | من التعبـير أو حكم تقال
بإيمــان الفــتى لا بالتمــني | مراقي العز في الدنيا تنال

وحين مر إقبال بقرطبة وصلى في مسجدها شاهد بين جوانبه عظمة المسلمين، ورأى على جدرانه حضارة المسلمين، وسمع في أرجائه عدل المسلمين، فتفتقت قريحته الشعرية عن قصيدة عصماء قال فيها:

ضريح العلا ها هنا ماثل | ومثوى حضــارة أم القرى
وللعرب كانــت هنــا دولة | تنــال براحتهــا الفرقــدا
عمالقة البيد خاضوا البحار | فكانت لأسطولهم ملعبا
كأن البروق بأسيافهم | بنـت عشها مثل سرب القطا
مبادؤهم أنشأت عالمــــــا | قوى البنـــاء سني الحـــلى
كـــأن رماحهم المشرعـــات | قـد التهمت كل عصر مضى
بصحبتهم حين دوى الأذان | أفاقت شعوب طواها الكرى
أنــاروا الشعوب بتحريرهــا | وبالعــلم فهو سبيــل الهدى
فـلا ظـلم بـاغ يذل الشعوبْ | ولا الوهم فيهـا يقتل الحجا
تغنــــــى العصور بآثارهم | فمنهــا لكــل زمـان صـدى
فما بــال تكبيرهم صامتــا | أيبقى على الصمت طول المدى؟

٦- من أقواله

« إن المسلم كالشمس إذا غربت من جهة، طلعت من جهة أخرى، فلا تزال طالعة أبداً »، « اعلم أن الوطن جسد من تراب والدين هو الروح، ولا حياة للإنسان إلا بارتباط الروح والجسد ».

وكان إقبال يرى أن الحضارة الغربية غير قادرة على إسعاد المسلمين فهو يقول « إن الحضارة التي أشرفت على الموت لاتستطيع أن تحيي غيرها ».

وقال في كتابه « جاريب ناما » « إن الذين يدعون إلى تجديد كل شيء، ويريدون محو كل أثر قديم أو تراث، يجهلون أن الكعبة لاتجدد وتعود لها الحياة إذا جلبوا لها أصناماً جديدة من أوروبا، فهؤلاء الذين ليس في صدورهم نفس حقيقي، وليس في ضمائرهم نبض حقيقي لايقاومون وهج المدنية الغربية، إنما يذوبون مثل الشموع ويفقدون شخصيتهم ».

وفي ديوان « أرمغان حجاز » أي « تحفة الحجاز » تصور الشاعر مؤتمراً حضره شياطين العالم وأشرف عليه إبليس بنفسه واستعرض المؤتمر الأخطار التي تهدد مملكة البشر من الاتجاهات والحركات والمذاهب السياسية، وختم إبليس المؤتمر بقوله:

إبليس: الإسلام هو الذي يخيفني.

وإن ليل الشرق داكن مكفهر، ولكن الخوف أن يستيقظ يوماً على الإسلام، والويل لنا يوم تتنبه هذه الأمة، الويل لنا من الإسلام.

وقال: « إن الإسلام يدرك الارتباط بين المثاليات والحقائق، ويقول نعم للعالم المادي ويحدد الطريق الذي يمكننا من استجماعه من أجل اكتشاف الأسس للتنظيم الواقعي للحياة، والإسلام في الوقت ذاته لايرضى بالتنسك والزهد في الحياة ».

إن الإسهام العظيم الذي قام به إقبال هو تنبيه المسلمين وفي الوقت الصحيح حتى لاينجذبوا إلى بريق الحضارة الغربية التي أسست على النظرية المادية والقومية الإقليمية بغض النظر عن كل القيم الأخلاقية.

وقد ناقش إقبال المشكلة برمتها من زاوية جديدة في مؤلفه الضخم « إعادة بناء الفكر الديني في الإسلام »، وفي فصل الثقافة الإسلامية من هذا الكتاب على وجه الخصوص قدم شرحاً كاملاً لما يجب أن يكون عليه موقفنا، ورأى إقبال أن الخطر العظيم على المسلمين هو أن يفتنوا بسحر الغرب، والقومية الإقليمية في نظر إقبال هي سبب كل الشرور الاجتماعية والسياسية، انها تضع الأمم في مواجهة بعضها البعض وتؤدي إلى أسوأ معاناة للبشرية كلها. وقال إقبال « إن الإسلام منذ بداياته الأولى مجتمع متحضر تلقى من القرآن مبادئ شرعية بسيطة تحمل كما أثبتت التجربة قوى عظيمة من التعبير والتطور عن طريق التفسير، فنظرية القومية على ذلك « نظرية مضللة تدعو إلى الإزدواجية وليس لها وجود في الإسلام ».

كان إقبال أول مفكر مسلم في العصر الحديث أظهر للعالم الإسلامي بكل وضوح أن الولاء الإقليمي هو لعنة السياسة في الأمة الإسلامية، كانت نظرة إقبال لاتحدها الحدود الجغرافية وتظهر فكرة توحد المسلمين كقوة عالمية في شعر إقبال واضحة حين قال:

« من ضفاف النيل إلى نهاية..... كأشجار
دع كل المسلمين يتحدون
يحموا حرماتهم ».

إن حماس إقبال المتقد للإسلام وإيمانه اللامحدود أضاء نوراً جديداً في الأفق المظلم للعالم الإسلامي.

وما دمت بصدد الكتابة عن فكر إقبال، فلعله من المناسب أن أنقل رسالة مهمة قالها إقبال قبل وفاته بثلاثة شهور: « هناك شكل واحد من أشكال الوحدة يمكن الاعتماد عليه هو وحدة الاخوة بين البشر، والتي هي

فوق الجنس واللون والقومية واللغة، وطالما بقي ما يسمى بالديمقراطية وطالما بقيت لعنة القومية وذل وهوان الاستعمار، وطالما ظل البشر يبرهنون بأعمالهم على عدم إيمانهم بأن العالم أسرة واحدة، وطالما بقيت التفرقة على أساس الجنس واللون والقوميات الجغرافية فإن البشر لن يمكنهم العيش بسعادة ورضى في هذا العالم وسوف تظل المثل العليا الجميلة من الاخاء والحرية والمساواة بعيدة عن التحقيق».

رحم الله محمد إقبال وجزاه خيراً عن الإسلام والمسلمين، وحشره في زمرة الشهداء والصالحين. في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

المصادر

١ - كتاب محمد إقبال سيرته وفلسفته للدكتور عبد الوهاب عزام.
٢ - كتاب محمد إقبال نشر سفارة باكستان في القاهرة عام ١٩٥٦ م.
٣ - كتاب «حصاد الموسم الثقافي»، الذي أصدرته وزارة التربية والتعليم بدولة قطر عام ١٣٩٧ - ١٣٩٨ هـ، والتي احتفلت بذكرى مرور مئة سنة على مولد إقبال.

ثورة الشيخ
عز الدين القسام

١ - المقدمة

فلسطين أرض عربية إسلامية سكنها العرب الكنعانيون منذ الألف الخامس قبل الميلاد وفتحها العرب المسلمون في القرن السادس الميلادي وبقيت أرضاً عربية إسلامية حتى غزاها الإنجليز الصليبيون عام ١٩١٧، وأخذوا يعدونها لتكون وطناً قومياً لشتات اليهود في العالم. ولقد سكن اليهود فلسطين مدة وجيزة ثم دالت دولتهم فيها وطردهم منها الرومان بقيادة (تيطس) في عام (٧٠م) ولم يعد لهم فيها أي وجود أو حق، وفي القرن العشرين التقت مصالح الدول الاستعمارية كانجلترا وفرنسا مع مصالح اليهود، وتعاونوا على أن تقام في فلسطين دولة تكون جسماً غريباً في قلب العالم الإسلامي وفي موقع استراتيجي من العالم، لتكون دائماً عاملاً من عوامل عدم الاستقرار في بلاد العرب والمسلمين.

ولقد زادت كثافة الهجرة اليهودية إلى فلسطين في عهد الانتداب، وكلها من الشباب العسكري المدرب والذي كان يتدرب ويجمع العتاد والسلاح تحت سمع سلطات الانتداب وبصرها. بينما كانت بريطانيا تحكم

بالاعدام على كل عربي وجد عنده سلاح، وفي الجانب الآخر كانت الوكالة اليهودية بمساعدة الجهود البريطانية والأموال الأميركية تعمل على شراء أو الاستيلاء على أكبر قدر ممكن من الأراضي الجيدة في فلسطين وتقيم فيها المستعمرات والمشاريع الزراعية والصناعية، وقد أثارت هذه الظاهرة الشعب الفلسطيني، فنهض يدافع عن وطنه وأرضه وقامت العديد من الثورات، وحصلت الكثير من الاشتباكات بين العرب واليهود، كان الجيش البريطاني فيها نصير اليهود رغم انهم هم المعتدون المغتصبون، ولقد قاد هذه الثورات مجموعة من الرجال المخلصين المؤمنين، ووقفوا في وجه الأمبراطورية البريطانية وجيوشها واليهودية العالمية وامكاناتها، رغم قلة عَددهم وعُددهم، ولكن الكثرة الباغية المدججة بالسلاح استطاعت أن تتغلب عن القلة المجردة من السلاح، ولكن الحق سيعود يوماً إلى نصابه وتعود الغلبة للحق وأهله، مهما طال الزمن، وتغيرت الأحوال.

ومن هؤلاء الرجال المؤمنين الذين قادوا ثورة الشعب الفلسطيني ضد قوى الظلم والبغي والاستعمار كان الشيخ عز الدين القسام، رحمه الله وأسكنه فسيح جناته.

٢ - حياته

هو محمد عز الدين عبد القادر القسام، ولد في «جبلة» من أعمال اللاذقية، في أسرة فقيرة مما اضطره للعمل في الصباح منذ سن الثامنة ليعين أباه في تحصيل الرزق، بينما تجده في المساء يذهب إلى (كتّاب) الشيخ محمود ليتعلم تلاوة القرآن الكريم مقابل أجر يومي مقداره (رغيف وبيضة). وفي عام ١٨٨٥ استطاع والده أن يرسله إلى الأزهر الشريف ليتلقى دراساته الشرعية فيه. وهناك احتك برجال الفكر وتتلمذ على

كل من الشيخ جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ولما عاد إلى بلدته عيِّن واعظاً ومدرساً في جامع البلدة الكبير، فكان يعلم صغار أهل القرية وكبارها اللغة العربية وتلاوة القرآن الكريم وعلوم الدين.

كانت جذوة الثورة لله ورسوله متقدة في نفس عز الدين، ولهذا حينما أحتل الفرنسيون ساحل سوريا في نهاية الحرب العالمية الأولي سنة ١٩١٨، تصدى لهم الشيخ بمجموعة من طلابه ومريديه، فطارده الفرنسيون إبان الحكم الفيصلي فقصد دمشق، ولما استولى عليها الفرنسيون عام ١٩٢٠، حكموا عليه بالاعدام غيابياً، وأخذوا يبحثون عنه حتى انهم هاجموا بيته في جبله وأحرقوا معظم أثاثه، ولكنه بقي متخفياً حتى عام ١٩٢٢.

ولما اشتدت ملاحقة الفرنسيين للشيخ أجرى مراسلات مع صديق قديم له في فلسطين هو الشيخ (كامل القصاب) استطاع بعدها أن يهاجر إلى فلسطين عن طريق تركيا في الخامس من شباط عام ١٩٢٢ حيث نزل قرية «الياجور» قرب مدينة حيفا يرافقه اثنان من زملاء الجهاد هما الشيخ محمد حنفي من مصر، وعلي الحاج عبيد. فاحتفى به أهل القرية وأفردوا له ولزميليه منزلاً خاصاً، وحاولوا تأمين مخصصات شهرية لهم، لكن الشيخ وزميليه رفضوا ذلك. وأصروا على أن يعيشوا من عمل أيديهم، فعمل الشيخ مدرساً في جامع النصر بحيفا، بينما عمل زميلاه في الزراعة. ولما استقر به المقام هناك أرسل إلى عائلته فلحقت به، ويقول ابنه (محمد) أنهم حينما وصلوا إلى البيت في حيفا لم يكن فيه من أثاث سوى الحصير.

شعر الفلسطينيون بما تنطوي عليه شخصية الشيخ من إيمان واخلاص، وعلم وجهاد، فعين خطيباً في جامع الاستقلال، وهو أكبر جوامع حيفا، وانتخب رئيساً لجمعية الشبان المسلمين عام ١٩٢٧، وتعاون مع الشيخ محمد

كامل القصاب في تأليف كتاب (النقد والبيان) وقاد الثورة الفلسطينية حتى استشهد رحمه الله في ١٩ نوفمبر (تشرين الثاني) عام ١٩٣٥، ودفن في قرية (الشيخ) بجوار حيفا.

٣- صفاته وميوله

وصفه أحد معاصريه من العلماء الذين عرفوه عن كثب وشاركوه مؤونة الجهاد وهو الشيخ عبد الرؤوف العبوشي فقال: «كان ربعة من الرجال، حاد النظرة، مستدير الوجه، ذا طلعة مهيبة ولحية يحفها الوقار، ولا يتكلف في حديثه وينطلق على البديهة، وإذا تكلم انهمر كالسيل وخصوصاً إذا تحدث في الأمور الدينية والوطنية، كان جهير الصوت في خطبه، متوقد الذكاء، شديد الوطأة على أعداء الله، وكان بيته موئل المجاهدين ومجمع الزائرين، إنني لم أر مثله علو همة وقوة حجة وثورة متأججة على الاستعمار والصهيونية، وكان يرى في مهادنة اليهود والصهاينة خنوعاً وجبناً، ديدنه الجهاد والحديث عنه، لا يبالي بالمصائب ولا ترهبه النوائب وكان يحدث كل من يتصل به بهذه المعاني ولا يكتم منها شيئاً. كان رحمه الله شديد الغيرة على الدين وثيق الصلة بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وكان على صلة بمجموعة من العلماء ومنهم الشيخ رشيد رضا رحمه الله».

٤- الأستعداد للثورة

كان الشيخ يرى أنه لن يردع اليهود والانجليز إلا ثورة عارمة تحطم كبرياءهم وتعطل مخططاتهم، وكانت في نفس الوقت تجول في مخيلته الثورة السورية ضد الفرنسيين والأسباب التي أدت بها إلى الفشل، ولهذا كان

حريصاً على الإعداد والتنظيم الكامل للثورة، وعدم إطلاق الرصاصة الأولى إلا بعد أن يتأكد أن كل شيء أعد حسب الخطة المرسومة. لقد حدد الشيخ أهداف الثورة منذ بدايتها بثلاثة أهداف: طرد الاستعمار البريطاني من فلسطين، ومنع إقامة دولة يهودية في فلسطين، وإقامة دولة عربية مؤقتة تعمل على تحقيق الوحدة العربية، أما الوسيلة لذلك فقد حددها الشيخ بقوله: «إن علينا، عرب فلسطين، الاعتماد على النفس وعلى إمكاناتنا الذاتية لا ننتظر حتى تهبط علينا النجدات من السماء، ولا حتى تصلنا الإمدادات من وراء الحدود». وقد اعتمد السرية المطلقة في إعداده للثورة، كما اعتمد على الكيف دون الكم عند اختيار الأنصار من الرجال والنساء، كما اعتمد على التنظيم والتكتيك في العمل، فكان لا يختار لحركته إلا الرجال الأشداء المؤمنين، كما كان يخضع الشخص الذي يقع عليه الاختيار لتجربة ومراقبة قاسية حتى يثبت إخلاصه وقدرته على حفظ السر، وكان شرط العضوية عنده، أن يشتري العضو سلاحه على حسابه، وأن يدفع اشتراكاً شهرياً لصندوق المجاهدين، وكان ينظم أتباعه كل خمسة أعضاء في مجموعة يعهد بإدارتها لشخص واعٍ ومثقف يكون حلقة الاتصال بينهم وبين القيادة، كما كان يسمي أتباعه (بأسماء حركية) كنوع من السرية والتمويه، وكثيراً ما تتخصص مجموعة أو أكثر في مهام محدودة، كالرصد والاستطلاع والمخابرات، وشراء العلاج والسلاح، وصناعة الأسلحة والقنابل، فقد كان الشيخ ناجي أبو زيد يرأس جهاز المخابرات في الحركة. كما كان الشيخ حسن الباير والشيخ نمر السعدي يرأسان جهاز جمع الأموال والتسليح. وكان يرأس العمل الجماهيري الشيخ محمود المخزومي، وكان يرأس مجموعة التدريب الشيخ جلادات وهو ضابط عثماني، أما حاجات أسر الشهداء فكانت تتولاها مجموعات النساء. وقد أطلق الشيخ على حركته اسم (الجهادية) ولم يحن عام ١٩٣٠ حتى بلغ

أعضاء هذه الحركة العاملين أكثر من مئة بينما كان الأنصار بالمئات.

عمل الشيخ في المدرسة الإسلامية والتي أسستها الجمعية الإسلامية في حيفا، وكانت مدرسة خاصة غير تابعة لإدارة المعارف، وفي هذه المدرسة وجد الشيخ المركز الذي ينطلق منه، والبيئة الصالحة لتنشئة جيل من الشباب مشبع بالروح الإسلامية والأفكار التحريرية يحمل أعباء الجهاد ضد الصليبية واليهودية. ثم عين خطيباً لمسجد الاستقلال فكان يبث من خلال خطبه روح الجهاد والتضحية والثبات في نفوس الشعب الفلسطيني، وانتخب رئيساً لجمعية الشبان المسلمين في حيفا، فكانت بيئته صالحة للاتصال بالشباب وأهل الرأي، كما كان يحرص على نشر روح المحبة والتآلف بين المواطنين لأنه يعلم أن سياسة الاستعمار هي (فرق تسد) وان الشعب إذا اتحد وتآلف وتعاون فقد ربح نصف المعركة أو أكثر، ولم ينسَ الشيخ بأن يتصل بأعداء بريطانيا كإيطاليا وتركيا من خلال قنصل كل من الدولتين وذلك من أجل دعم الحركة بالسلاح، كما كانت له اتصالات مع الوطنيين والمخلصين في كل من مصر وسوريا حيث استطاعت حركته أن تقيم في اللاذقية قاعدة للتسليح والتدريب. وتقدم بطلب لتعيينه مأذوناً شرعياً حتى يستطيع بحكم وظيفته أن يتصل بأهل القرى دون أن تدور حوله أية شبهة، كما كان لا يحب أن يتصل (بالأفندية) لأنه كان يعتقد أن هؤلاء لا يشكلون قاعدة قوية للثورة، لأنهم مشغولون بأموالهم ووظائفهم، والثورات دائماً تقوم على اكتاف الكادحين، وإن كان هؤلاء يمكن أن تستغل إمكاناتهم فيما بعد لدعم الثورة وتمويلها.

بدأ الشيخ بنفسه فاشترى بندقية، وأحضر مدرباً اسمه (محمد أبو العيون) لكي يدربه وجماعته، وأخذ يركز في خطبه على ذروة الإسلام وسنامه إلا وهو الجهاد في سبيل الله، فكانت خطبه تهز مشاعر المخلصين

وتشحـذ عزائمهم، مما حمل الكثير من طلابه ومؤيديه على أن يلتفوا حوله ويبايعوه على العمل، كما أن التبرعات أخذت تنهال على حركته مما مكنها أن تشتري المزيد من العتاد والسلاح.

هذه التحركات جعلت سلطات الاحتلال البريطاني تتابع نشاطات الشيخ وترصد تحركاته وتبث الجواسيس حوله، وفي أحد الأيام استدعاه ضابط التحقيق البريطاني واتهمه بأنه يحرض الجماهير بخطبه على الجهاد، فكان جواب الشيخ (إنني لم أقل شيئاً من عندي ولم أتحدث إلا بالإسلام) ثم أخرج من جيبه مصحفاً صغيراً وقال للضابط إن ما قلته هو آيات من هذا القرآن العظيم، فأسقط في يد الضابط الإنجليزي، وأطلق سراحه خشية أن يثير اعتقاله غضب الجماهير التي كانت تواكب تحركات القسام. وقد سجنه الإنجليز ذات مرة بتهمة مقاومة الاحتلال، ولكن أفرجوا عنه مقابل غرامة مالية. وقد استطاعت المخابرات البريطانية أن تكتشف أتباع الشيخ وهم يشترون السلاح والعتاد حتى هاجموا مستودعاً للذخيرة في قرية (لوبيا) واستولوا على ما فيه.

٥- عقبات في طريق الثورة

الحديث عن العقبات الخارجية للثورة يطول لأن الإنجليز والصهاينة حينما أحسوا بجدية حركة الشيخ أخذوا يضيقون عليهم الخناق ويحصون عليهم تحركاتهم، وكان يمكن التغلب على هذه العقبات بالعزيمة والصبر والتنظيم ولكن العقبات الداخلية هي التي تؤثر على بنية الثورة ومسيرتها، فقد كان الشيخ يؤمن أنه لا يجب عليه أن يبدأ بالقتال إلا بعد أن يشعر أن حركته قد نضجت وأعدت لكل شيء عدته، حتى لا يصيبها الفشل كما أصاب غيرها من الحركات. ولهذا كان يتريث في إعلان الجهاد، ولكن

بعض المخلصين في حركته والذين يرون الهجرة اليهودية تزداد كثافة، والاعتداءات اليهودية على العرب تزداد شراسة، كانوا يضغطون على الشيخ لإعلان الثورة وبدء القتال، ومن هؤلاء خليل محمد عيسى (أبو إبراهيم الكبير) الذي أصر على إعلان الجهاد، وفعلاً قام هو وبعض مؤيديه بتنفيذ بعض العمليات التي كان يتهم بها الشيخ القسام. وبالرغم أن هذه الخلافات بقيت داخلية ولم يستطع الإنجليز معرفتها أو استغلالها إلا أنها أثرت على بنية الحركة الداخلية، كما ضغطت على الشيخ لإعلان الجهاد وبدء الثورة.

٦- الثورة

في أوائل تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٥ دعا القسام رجال قيادته وتدارس معهم الموقف على الصعيدين الداخلي والخارجي للحركة، وكان رأي المجموع بضرورة بدء الثورة وإعلان الجهاد. وقد أصدر القسام الأمر القيادي الأول للمجاهدين في حركته وكان نصه (ليتوجه كل واحد إلى أهله يستودعهم الله ويعاهدهم على اللقاء في الجنة. والتجمع في بيت القائد محمود سالم المخزومي) كما أرسل أنصاره إلى القرى والمدن لكي يشرحوا أهداف الثورة ويدعوا الناس إلى تأييدها. واختار القسام مجموعة من المؤمنين لتكون في مركز القيادة، وهم الشيخ محمد حنفي أحمد، والشيخ يوسف الزيباوي، والشيخ نمر السعدي، والشيخ حسن الباير، والشيخ أحمد عبد الرحمن جابر، والشيخ أسعد مفلح، والسيد عربي البدوي، ومحمد يوسف، والشيخ ناجي أبو زيد، ومحمود الحلحولي، ومصطفى الزيباوي، وأحمد بو قاسم خلف، وداود الخطاب، ومحمود الجابر. واتخذ من المنطقة الجبلية في قضاء جنين منطلقاً لثورته ومركزاً لقيادتها وهي تبعد عن

حيفا حوالى ٤٠ كلم، ووزع رجاله على القرى المحيطة فيها مثل يعبد، وكفر دوان، وفقوعة، وقباطية، وصندلة، واليامون، وبرقين، والبارد وغيرها.

كانت خطة الشيخ بأن يبدأ ثورته بعملية عسكرية تستهدف هدفاً كبيراً حتى يلفت الأنظار على المستويين العالمي والمحلي للثورة، وكان يرى أن يتم احتلال مدينة حيفا لمدة ثلاثة أيام، لكي يسمع صوت الثورة للعالم ولكي يستنهض الدول العربية لدعم الثورة، ولكي يقنع الأحزاب والقيادات الفلسطينية أن طريق الاحتجاج والمذكرات والوفود طريق عقيم، وإن عليهم أن يوحدوا جهودهم ويدعموا الثورة.

ولكن الرياح لم تجر بما تشتهي السفن، ففي ١٤ تشرين الثاني ١٩٣٥ كان أحد المجاهدين وهو المرحوم محمد سالم المخزومي يقوم بنوبة حراسة على مقر قيادة القسام قرب قرية فقوعة، فمرت به دورية من ثلاثة جنود إنجليزي ويهودي وعربي ومعهم كلب أشر، فأطلق النار على الدورية فقتل الشاويش الإنجليزي وهرب الاثنان الآخرون، وأبلغا قيادتها بما حدث، ومنذ تلك اللحظة أدرك الشيخ ان ثورته قد كشفت وان الإنجليز لا بد أن يهاجموا مواقعهم، وفعلاً كان، فقد بدأت الجيوش البريطانية تصل إلى المنطقة بكثافة وضربت حصاراً قوياً حولها وحول القرى المحيطة بها، حتى بلغ عدد هذا الجيش ستة آلاف جندي وضابط مدججين بأحدث الأسلحة والعتاد.

٧- المعركة والاستشهاد

لم يكن حول الشيخ في مركز القيادة إلا عدد محدود من المجاهدين لا يزيدون كثيراً عن العشرة، ومنع الحصار الذي ضربه الإنجليز حول المنطقة

من وصول إمدادات الرجال والسلاح إليهم، وتصور معركة غير متكافئة ماذا سيكون مصيرها، ومع ذلك أصر الشيخ على القتال ووزع رجاله في الأماكن الصخرية الحصينة ولما بدأ هجوم الأعداء عليهم بقوا صامدين رغم قلة عددهم وعُددهم. وأخذ الأعداء يحكمون حولهم الحصار وكان بإمكانهم أن ينسحبوا ولكنهم فضلوا الشهادة على الهزيمة والانسحاب، وحاول القائد الإنجليزي ترغيبهم فصرخ فيهم أن من يستسلم منكم ينجو بنفسه ولكنهم قرروا أيضاً عدم الاستسلام، وكانت نتيجة المعركة استشهاد الشيخ القائد وأربعة من رفاقه هم الشيخ يوسف عبد الله، ومصطفى الزيباوي، ووصفي عطية أحمد، وحمد بو قاسم خلف، وجرح ثلاثة آخرون هم: عربي البدوي، وأحمد جابر، ومحمود يوسف ووقع في الأسر الشيخ نمر السعدي، وداود خطاب، ومحمود الزرعيني، ومحمود جابر، واستطاع من بقي الانسحاب من المعركة. وكانت هذه المعركة في الثلث الأخير من شهر تشرين الثاني ١٩٣٥.

٨- خاتمة الشهيد

نقل جثمان الشهيد القسام إلى حيفا مع من استشهد من إخوانه وجرى لهم احتفال مهيب حضره أكثر من ثلاثين ألفاً، وكان ممن استشهد معه الشهيد المرحوم حنفي أحمد عطية وهو مصري، ويوسف الزيباوي وهو سوري، ودفن القائد، الشهيد في قرية (الياجور) أو (الشيخ) بجوار حيفا. واحتفلت حيفا في الخامس من شهر كانون الثاني ١٩٣٥ لتأبينه وتأبين رفاقه بمناسبة مرور أربعين يوماً على استشهادهم، فجاءت الوفود من جميع أنحاء فلسطين، وبعد انتهاء الاحتفال توجهت هذه الجموع غاضبة إلى مركز البوليس ودوائر الحكومة في المدينة وقذفت من فيها من الإنجليز

واليهود بالحجارة، لتعرب عن سخطها واستنكارها لما تقوم به انجلترا واليهود من أعمال بربرية..

وبعد احتلال اليهود لفلسطين سارعوا بنسف قبر الشهيد القسام ظناً منهم أنهم بعملهم هذا سيزيلون ذكراه من النفوس، متحدين بذلك كل القيم والأعراف الإنسانية.

٩- الثورة بعد القسام

يعتبر الكثير من المؤرخين ثورة القسام على أنها أول ثورة في فلسطين لها مقومات الثورة من حيث الإعداد والتنظيم، كما أنها لفتت أنظار العالم إلى مأساة القضية الفلسطينية، التي طرد فيها شعب من أرضه ليحل فيها شتات من شعوب لا أرض لها ولا وطن، كما ان هذه الثورة كان لها الفضل الأكبر في تنبيه الشعب العربي بشكل عام والفلسطيني بشكل خاص إلى المؤامرة الكبرى التي تحيكها الصهيونية بالتعاون مع الصليبية والاستعمار، ولا شك أن استعدادات القسام وثورته والمعركة الفاصلة التي خاضها مع الجيوش البريطانية كانت بمثابة الشرارة التي فجرت الثورة الكبرى عام ١٩٣٦ حيث قال أحد المجاهدين (إن كل رصاصة نطلقها هي ثأر لدم القسام).

لم تمض إلا أيام قليلة على استشهاد الشيخ حتى قام أحد أنصاره وهو الشيخ فرحان السعدي على رأس مجموعة من أنصاره ورابطوا في جبال صفد يقارعون اليهود والإنجليز ويتصدون لمؤسساتهم، وبعد عدة أشهر نصب السعدي ومحمود الديراوي وأنصارهم كميناً لقافلة مكونة من (١٥) سيارة على طريق طولكرم، كان معظم ركابها من اليهود فاستولوا عليها، وفي شهر نيسان ١٩٣٦ توجه العمال العرب إلى عمارة تبنى بأيدي اليهود

وأموالهم في يافا وهاجموا من فيها من اليهود، ومن يافا انطلقت الثورة المسلحة لتشمل كل فلسطين، وكان في طليعتها الكوادر القسامية، فقد قاد أتباع القسام الجموع الفلسطينية للثورة، ولم تصمد هذه الثورة الشهور الطويلة إلا بما كانت تتمتع به من إيمان وإخلاص وتنظيم وجهاد.

لقد أحب القسام فلسطين حباً جماً، لأنها أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ومسرى رسول الله ﷺ ومعراجه، وإنها جزء من بلاد المسلمين اعتدى عليه أهل الكفر والاستعمار وأرادوا اغتصابه، فالجهاد هو الوسيلة الوحيدة لاسترجاع الحق المغتصب، أما المهادنة والسلام فليس لهما محل في قاموس الإسلام.

لقد ترك القسام غلاماً ذكراً وثلاث بنات وزوجة صابرة قاسمته حلو الحياة ومرها واحتضنت حركة القسام عائلته من بعده، وبقيت في فلسطين حتى عام ١٩٤٨، ثم هاجرت من فلسطين لتعود ثانية إلى بلدة الشيخ في (جَبلة) في سوريا، ولكن علاقة آل الشيخ لمْ تنته بفلسطين باستشهاده أو بالهجرة من فلسطين، بل توثقت بعد ذلك أكثر، حينما تزوجت بناته الثلاث من شباب فلسطينيين وعشن معهم في مواقع عملهم إحداهن في قضاء حيفا في مخيم اليرموك والاثنتان الباقيتان تعيشان في (الزرقاء). أما زوجة الشهيد فقد سهرت على تربية أولاده من بعده، وكانت تعلمهم كيف يعملون لفلسطين وكانت تقول لهم دوماً، إن والدكم لم يكن يحلم بغير الجهاد، وكان يرفض أن يرفع سلاحه في وجه عربي حتى ولو اعتدى عليه، وقد توفيت رحمها الله عام ١٩٧٤.

ولم يجهض هذه الثورة إلا تآمر الزعماء العرب في ذلك الوقت عليها،

حينما وجهوا نداء إلى الفلسطينيين في التاسع من اكتوبر ١٩٣٦ (يدعونهم فيه لوقف الثورة وحل الأحزاب، والاعتماد على النيات الطيبة لصديقتنا بريطانيا العظمى التي أعلنت أنها ستحقق العدالة). فوقع الفلسطينيون في الفخ الذي نصب لهم، فقد اسلموا أمورهم لمن لا يستطيع أن يدبر أمورهم وقعدوا عن العمل، بينما كان اليهود يعملون بمساعدة الإنجليز ليلاً نهاراً لبناء دولة اسرائيل.

١٠ - دروس وعبر

كانت الثورات في العالم الإسلامي تقوم على أساس الإيمان والجهاد في سبيل الله وتحت راية (الله أكبر ولا إله إلا الله) قوادها العلماء المجاهدون وجنودها المخلصون المؤمنون، ولهذا كانت ثورات نظيفة، تعمل لأهداف محددة ولا تساوم على ذرة من وطنها أو تراثها، ولا ينتقص من قيمة هذه الثورات وقدرها أنها لم تحقق أهدافها، فكثرة العدو وتنوع عَدده وعُدده كانت أحد الأسباب التي أجهضت الكثير من الثورات في العالم الإسلامي، ولكنها خطوات على الطريق، يمد فيها الشهداء من أجسامهم جسوراً يعبر عليها من خلفهم إلى النصر، وتبقى دماؤهم وأرواحهم منارات يهتدى بها في ظلمات اليأس والإحباط، والمهم في الأمر ان المؤمن عليه أن يعمل وليس عليه أن يحقق النصر، فإن الله لن يسأله يوم القيامة لماذا لم تنتصر، لأن النصر من عند الله ومن عند الله وحده، ولكنه سبحانه سيسأله لماذا لم تعمل؟ ولماذا لم تكن مخلصاً في عملك؟

لقد ذكرنا القسام بثورته أشياء كثيرة في كتاب الله أنسانيها الشيطان: ذكرنا أن اليهود والنصارى بعضهم أولياء بعض، وأنه يجب علينا أن لا

نتولاهم ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض، ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ (المائدة ٥١) ﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون، ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾ (المائدة ٥٥- ٥٦) وعليه فإن الاستعمار والصهيونية عدو واحد يجب التخلص منهما معاً لا فرق في ذلك بين بريطانيا التي زرعت اسرائيل وبين امريكا التي أمدتها بأسباب الحياة والقوة.

ذكرنا القسام رحمه الله ان معركتنا مع اليهود والصليبيين معركة عقائدية دينية فهذا الجنرال أللنبي حينما أحتل فلسطين قال (الآن انتهت الحروب الصليبية) ولا يفكر أحد ان الكيان اليهودي يقوم على أساس استغلال الدين لإيجاد الوطن القومي لليهود في فلسطين. ولهذا فإن معركتنا مع اعدائنا يجب أن لا تكون تحت أية راية غير راية لا إلّه إلا الله. وقد جربنا الرايات الاشتراكية والقومية والوطنية والعلمانية وكلها زادتنا هزيمة وانتكاساً وانحساراً.

لقد ذكرنا القسام ان الاحتجاج والاحتجاج الشديد اللهجة والمفاوضات والخطب الرنانة هي سلاح الضعيف المهزوم نفسياً قبل أن يهزم عسكرياً، وانه لا يفل الحديد إلا الحديد وان السيف والقرآن نزلا من السماء معاً لكي يكونا جنباً إلى جنب في حماية الحق والذود عن حياضه، وان الجهاد في سبيل الله هو الوسيلة الوحيدة لإحقاق الحق، وإرجاع الحق إلى نصابه، وإن الثورة ليست كلمات تقال أو مظاهر تستعرض أو طفرة تحدث ولكنها تعبئة للجماهير تعبئة إيمانية وتنظيمها وتسليحها.

لقد علمنا القسام ان الاعتماد على النفس هو أول طريق النجاح للثورات، فلا ننتظر من أحد أن يدافع عن حقنا إن لم ندافع عنه نحن، ولا ننتظر من إنسان يضحي من أجلنا وهو يرانا لا نضحي من أجل أنفسنا، ولا يمكن أن نفرض حقنا واحترامنا على العالم إلا إذا كلنا لأعدائنا الصاع صاعين، معتمدين في ذلك على إمكاناتنا الذاتية فإن أيدنا العرب والمسلمون وأحرار العالم بعد ذلك فبها ونعمت، وإلا فإنه لا يوصلنا إلى حقنا إلا المواجهة مع أعدائنا والصبر والمصابرة مهما طالت المدة، وقل الزاد، وعز الصديق، ووعرت الطريق..

لقد علمنا القسام بضرورة أن نربي ابناءنا على حب أوطانهم كجزء من حبهم لدينهم وقيمهم، وأن نرضعهم لبان العزة والكرامة وروح الجهاد منذ نعومة أظفارهم، وأن نعلمهم بأن هدف المسلم في هذه الحياة واحد من اثنين، إما النصر والسيادة أو الموت والشهادة، وفي كلا الأمرين سيكون من الفالحين دنيا وأخرى، فإن فعلنا ذلك سينشأ جيل من الأشبال المؤمنين يرفعون رايات النصر، ويقفون أمام المسجد الأقصى وهم يردون نحن هنا أيها الأجداد المجاهدون، ونحن على دربكم سائرون.

الآن أنتهت الهجمة الصهيونية الصليبية على العالم الإسلامي.

رحم الله القسام، وأجزل له المثوبة، وأكرم مثواه مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

ولقد رثاه الشاعر فؤاد الخطيب فقال..

أولت عمامتك العمائم كلها ... شرفاً تقصر عنده التيجان
إن الزعامة والطريق مخوفة ... غير الزعامة والطريق أمان

ما كنت أحسب قبل شخصك أنه — في بردتين يضمهـا إنسان
يا رهط عز الدين حسبك نعمة — في الخلد لا عنت ولا أحزان
شهداء بدر والبقيع تهللت — فرحاً وهش مرحباً رضوان

المصادر

١ - الأعلام للزركلي.
٢ - عز الدين القسام لعبد العزيز السيد أحمد.
٣ - فلسطين المجاهدة لصلاح الدين العباسي.

ثورة الأمير
محمد عبد الكريم الخطابي

١ - المقدمة

على أثر ضعف الدولة العثمانية في نهاية القرن التاسع عشر، بدأت بعض بلدان العالم العربي قطع صلاتها بالدولة، وإعلان الحكم الذاتي أو المستقل، وكانت الدول الأوربية في كثير من الأحيان هي المحرض لهذه الدول ضد الدولة العثمانية، وما أن يعلن أي بلد قطع صلاته بالعثمانيين حتى تقوم إحدى الدول الاستعمارية بالانقضاض عليه، فقد استولت فرنسا على الجزائر عام ١٨٣٠ وعلى تونس عام ١٨٨١ وعلى مراكش عام ١٩١٢، وتم الاتفاق بين فرنسا وإسبانيا على تنظيم مصالحهما الاستعمارية في المغرب العربي وخاصة مراكش، فوضعت المنطقة الواقعة جنوب نهر (اللقس) تحت الحماية الفرنسية بينما وضعت المنطقة جنوب هذا النهر تحت الحماية الإسبانية، وكانت تنقسم إلى منطقتين الأولى وكانت خاضعة لسلطة الريسولي وتسمى جبالية وعاصمتها (تازوت) والثانية كانت خاضعة لسلطة الأمير محمد بن عبد الكريم وتسمى (الريف) وعاصمتها (أجدير).

وقبل أن نتكلم عن الأمير محمد يجدر بنا أن نتكلم عن زعيم المنطقة المجاورة له والخاضعة لحكم (الريسولي).

هو أحمد بن محمد الريسولي الزعيم المراكشي المعروف والمولود سنة ١٢٨٤ - ١٨٦٧ ، فلما شب أخذ يغزو جيرانه، فلما تفاقم شره قبض عليه السلطان وسجنه خمس سنين، فلما خرج من السجن خطف مراسل جريدة التايمز في طنجة وعدد من الأشخاص ولم يطلق سراحهم إلا بعد أن أطلق السلطان ستة عشر من رجاله كانوا في السجن، كما خطف عام ١٩٠٤ عدداً من الأميركيين ولم يطلق سراحهم إلا بفدية قدرها ١١ ألف جنيه وعينه السلطان حاكماً لمنطقة طنجة ولكن السلطان أقاله فاختطف عام ١٩٠٧ السير هنري ماكلين الانجليزي قائد جيش سلطان مراكش، ولم يطلق سراحه إلا بفدية قدرها عشرون ألف جنيه، وقد حاول الإسبان استغلاله لكي يحارب الأمير محمد الخطابي وذلك بأن يعينوه خليفة للسلطان في المنطقة الإسبانية ولكنه رفض ذلك بإباء، وفي عام ١٩٢٥ هاله النجاح المستمر الذي يلاقيه الأمير محمد فحاول مناوأته فهاجم منطقة الريف إلا أنه هزم هزيمة كبيرة فأسره رجال الأمير محمد ومات في الأسر.

٢- حياته

أما عن الأمير محمد، فهو محمد بن عبد الكريم الخطابي ولد في مدينة (أجدير) قرب الحسيمة، في أوائل القرن الرابع عشر الهجري، وهو سليل أسرة انتهت إليها زعامة الريف المغربي منذ مدة طويلة بشكل عام، وقبيلة (بني ورياغل) بشكل خاص. وقد اشتهر كثير من أفراد هذه العائلة في قتال المستعمرين ونخص بالذكر السيد (أحمد أمزيان) بطل معركة مليلة التي وقعت سنة ١٣٢٩ = ١٩١١ ضد المستعمرين الإسبان، أما والده الأمير عبد الكريم الخطابي، فقد كان عالماً وقاضياً شرعياً بمدينة مليلة وهو من المعروفين بالعلم والتقوى والنزاهة وكما كان زعيماً لقبيلته كان حاكماً لمنطقة

الريف كله، وفي عام ١٩١٨ طلب الجنرال الإسباني من الأمير عبد الكريم أن يحضر بنفسه إلى قيادة الجيش الإسباني ليقدم الولاء والطاعة للجنرال، فرفض الأمير عبد الكريم هذا الطلب بإباء. فما كان من الجنرال إلا أن ألقى القبض على ولده الأمير محمد وزجه في سجن « كالرزا » سنة ١٩٢٠ فقطع الأمير عبد الكريم علاقاته مع السلطات الإسبانية، وبدأ يستعد للمعركة الفاصلة معها ولكن المنية عاجلته قبل أن يحقق ما أراد، فتولى ابنه الأمير محمد قيادة الثورة من بعده، بعد أن أطلقت السلطات الإسبانية سراحه.

نشأ الأمير محمد في مدينة مليلة في رعاية والده العالم الفاضل فدرس في مدارسها مبادئ العلوم الأولية وحفظ القرآن ثم سافر إلى القرويين بفاس ونال من مدارسها إجازة العلوم الدينية، ثم حصل على دبلوم المدارس الثانوية وسافر لإسبانيا للدراسة الجامعية فحصل على شهادة الحقوق والآداب، وعين قاضياً في بلدة مليلة، ولما أعلنت الحرب العالمية أرسلت ألمانيا وتركيا سنة ١٩١٦ فرقة من الضباط نزلت في أحد موانىء الريف الإسبانية لإثارة القلاقل ضد الحلفاء فانضم الأمير محمد إلى هذه الفرقة وأخذ يثير القلاقل والاضطرابات ضد فرنسا وإسبانيا، فاعتقله الإسبان مدة ثم أطلقوا سراحه وعينوه ضابطاً في وزارة الحربية، ثم استقال من عمله في الجيش وعاد إلى منصبه في القضاء، وقد توصل في الجيش إلى مرتبة « كابتن- رئيس ».

٣- انطلاق الثورة

كان الأمير محمد حدباً على قومه يتوق إلى اليوم الذي يخلصهم فيه من الاستعمار ويكون لهم دولة مستقلة، وكانت فترة انخراطه في الجيش التركي

والإسباني فترة إعداد وتدريب أعدته ليكون قائداً عسكرياً محنكاً، وكان يشعر بآلام قومه وما يعانونه من استعلاء المستعمرين الإسبان عليهم، واتفق مرة أنه كان يسير في أحد شوارع مليلة فرأى شاويشاً إسبانياً يضرب أحد المواطنين بالكرباج ضرباً مبرحاً بدون سبب، ولما لم يستطع أن يردع الإسباني ذهب تواً إلى مقر القائد العام وطالبه أن يؤدب ذلك الشاويش على فعلته، فما كان من القائد الإسباني إلا أن قال له: ألا تدري أن الإسباني مهما كانت منزلته ووظيفته هو سيد هذه البلاد؟ فرد عليه الأمير محمد بكلمته المشهورة «ألا تدري أن هذا الكرباج سيكلف إسبانيا ثمناً باهظاً ويحملها عبئاً ثقيلاً؟».

ترك الأمير محمد القائد الإسباني وتوجه إلى مقر قبيلته (بني ورياغل) وأخذ يتصل سراً بالشباب ويدعوهم للالتفاف حوله للقيام بالثورة ضد إسبانيا فلبى دعوته عشرة منهم، وتجهز كل منهم ببندقية خرتوش وبعض السلاح الأبيض، واعتصموا بأكمة من الآكام وانطلقت الرصاصة الأولى في ١٤ ذو القعدة ١٣٣٩ هـ «٢٠ يوليو ١٩٢١ ميلادي» وهزموا الإسبان في معركة (أنوال) من جبال الريف واحتل (شفشاون) عام ١٩٢٥.

وكانت خطة الأمير عبد الكريم أن يحصل على سلاحه من الجيش الإسباني نفسه ولهذا كان يهاجم أماكن تجمع الجيش الصغيرة ويستولي على أسلحتها وعتادها ويوزعها على أتباعه الجدد وما هي إلا أشهر حتى زاد أتباعه على خمسمائة جندي.

أراد الأمير محمد أن يبني قاعدة شعبية تعتمد عليها الثورة حتى يكون هناك، انسجام وتكامل بينها وبين جميع الشعب، ولهذا دعا الناس إلى مؤتمر عام عقد في معسكره فوقف فيهم الأمير محمد خطيباً وبيَّن لهم أهداف الثورة وحثهم على الجهاد لتحرير بلادهم من المغتصبين، فاتفق الجميع على

تشكيل مجلس عام يكون المرجع الأعلى لشئون الثورة، ويضع لها الخطط الذي يسير بها نحو النجاح، كما أنيط بهذا المجلس موضوع تأليف حكومة وطنية لإدارة شئون البلاد ووضع الأنظمة والقوانين اللازمة لذلك.

٤ - تأسيس الدولة

عقدت الجمعية الوطنية الريفية اجتماعها الأول في ١٥ محرم ١٣٤٠ «١٩ سبتمبر ١٩٢١» واتخذت قرارات أهمها: إعلان استقلال البلاد، وتشكيل حكومة دستورية جمهورية يرأسها الأمير محمد، ووضعت بعد ذلك دستوراً للبلاد يقوم على أساس سلطة الشعب، وأنيطت بالجمعية العمومية السلطتان التشريعية والتنفيذية، فاختارت هذه الجمعية علماً لجمهوريتها الفتية يتكون من اللون الأحمر وفي وسطه نجمة خضراء سداسية ضمن هلال في رقعة بيضاء ونص الدستور على أن تكون «أجدير» عاصمة للجمهورية الريفية. واهتمت الجمعية الوطنية بالجيش اهتماماً عظيماً لأنه الدرع الذي يحمي جميع القرارات التي اتخذتها، ولهذا أقرت نظام التجنيد العام بحيث أصبح كل رجل في الريف مكلفاً بالدفاع عن بلده بدون أجر، وخولت الأمير محمد بوضع نظام للجيش، ولهذا قام الأمير بوضع هذا النظام حدد فيه القادة وأفراد الجيش، وجعل الخدمة إجبارية لمدة أسبوعين في ساحة الحرب لكل فرقة ثم يعود أفرادها إلى أعمالهم، أما الصبية والشيوخ فهم الخط الخلفي الذي يساعد المقاتلين، وكذلك النساء يشجعن الرجال ويعن الجيش ويشتركن في القتال إن استطاعن، وقد قدر جيش الجمهورية الفتية بحوالى مائة وثلاثين ألف لديهم من الأسلحة الخفيفة والثقيلة ما يكفي الدفاع والهجوم عند الضرورة، كما قام الأمير محمد بتنظيم مصلحة الاستخبارات العامة.

٥- الحرب مع إسبانيا

من الطبيعي أن لاترضى إسبانيا عن الإجراءات التي اتخذها الأمير محمد، ولهذا أخذت تحشد جيوشها لتصفيته، وبدأت الحرب بين الطرفين بشكل غير منتظم وبشكل حرب عصابات، وقد استفاد الجيش الريفي من هذه الحرب إذ كانت تمده بما يحتاجه من الأسلحة والذخائر، وبدأت إسبانيا حربها ضد الأمير محمد في يوليو ١٩٢١ في ضواحي (مليلة) وكان عدد الجيش الإسباني لايقل عن ثلاثين ألف مقاتل بكامل أسلحتهم الخفيفة والثقيلة، ولم يتجاوز عدد الجيش الريفي السبعة آلاف مقاتل، ومع ذلك فقد انهزم الإسبان هزيمة منكرة وقتل قائد الحملة الجنرال سلفستر،أما الجيش فقد كان بين قتيل وجريح وأسير، وقد غنم الجيش الريفي بعد هذه المعركة أسلحة وعتاداً كثيراً ومتنوعاً دعم موقفهم العسكري في وجه الجيش الإسباني.

ولقد حصلت بعد ذلك عدة معارك بين الطرفين كان النصر فيها حليف الأمير محمد وجيشه، ففي أوئل سنة ١٩٢٢ تقدم حوالى مئة ألف جندي وضابط إسباني نحو مليلة بكامل عدتهم وعتادهم ولكن الجيش الريفي حمل عليهم حملة صادقة فردهم عنها بعد أن كبدهم خسائر فادحة، فاضطرت الحكومة الإسبانية إلى تغيير قيادة الجيش واستبدالها بقيادة جديدة، فشن القائد الجديد هجوماً قوامه خمسين ألف جندي على مواقع الجيش الريفي واشتدت المعركة حول (الحسيمة) فانهزم الإسبان وفتك بهم الجيش الريفي فتكاً ذريعاً، وأصيب القائد الجديد إصابتين مباشرتين وقتل من جيشه حوالى خمسة آلاف جندي وضابط وأسر حوالى ثلاثة آلاف.

ولما لم تفلح الحكومة الإسبانية في تصفية الأمير محمد وجيشه طلبت

التفاوض معه، وفعلاً كان. وبعد عدة اجتماعات بين مندوبين عن الطرفين وقعت الهدنة بينهما ووقف القتال بشرط أن يفك الأسرى الإسبان مقابل مبلغ أربعة ملايين (بسيطة) (عملة إسبانية تساوي فرنكاً) وتسريح جميع أسرى الريف والمساجين الموجودين لدى إسبانيا، وأن تعترف إسبانيا بالاستقلال التام لجمهورية الريف، وفي الوقت الذي قبلت إسبانيا الشروط الأولى للهدنة إلا أنها لم توافق على شرط الاستقلال، وأصرت على منح الريف استقلالاً داخلياً فقط مما أدى إلى فشل المعاهدة.

بقيت المعارك مستمرة بين جمهورية الريف والجيش الإسباني حتى عام ١٩٢٥، دون أن تستطيع إسبانيا هزيمة الأمير محمد وجيشه، بل على العكس كانت القوات الإسبانية تتكبد خسائر فادحة في كل هجوم تشنه على منطقة الريف أهمها المعركة التي جرت حول مدينة (داغيت) والمعركة التي جرت حول مدينة (تيفارين) التي اشترك فيها النساء بالقتال لأول مرة، والمعركة التي دارت رحاها حول مدينة مليلة في شعبان ١٣٤٢، وغيرها من المعارك الحاسمة التي كانت تدعم موقف الجيش الريفي العسكري والمعنوي، حتى اضطرت الحكومة الإسبانية إجراء تغييرات متعددة في قيادة الجيش الإسباني وبين المندوبين الساميين، وأخيراً عرضت الحكومة الإسبانية على الأمير محمد الهدنة، فوافق الأمير على ذلك، وجرت مفاوضات بين مندوبين من الطرفين كان المفاوض الريفي خلالها يفاوض من مركز القوة لأنه يعتبر جمهوريته قد انتصرت على إسبانيا، ولهذا كانت شروط الأمير محمد قاسية مما اضطر إسبانيا لرفضها وهكذا فشلت الهدنة مرة أخرى.

٦- تآمر إسبانيا وفرنسا

فشلت إسبانيا في القضاء على الجيش الريفي، ولهذا استعانت بفرنسا،

فقام المقيم العام الفرنسي بإرسال تحذير إلى الدول الأوربية من خطر انتصار المسلمين في إفريقيا، وان ثورة الأمير محمد خطر على مصالحهم فيها، ولهذا ألقت فرنسا بثقلها في المعركة ضد الريفيين، فأرسلت إلى مراكش ١٥٨ ألف جندي و١٣٢ طائرة، بالإضافة إلى القوات الإسبانية التي كانت تزيد على ١٢٠ ألف جندي، ووضع لهذه الحملة أشهر القادة الفرنسيين. وبالرغم أن الأمير محمد حاول التفاهم مع الفرنسيين حتى لايفتح على نفسه أكثر من جبهة، ولكن هؤلاء رفضوا ذلك وأخذوا يراوغونه ريثما يكملون استعدادتهم، ولكن الأمير محمد أدرك خطتهم فباغت قواتهم بهجوم عنيف عام ١٩٢٥، تمكن فيه من اختراق الجبهة الفرنسية، وأنزل بالقوات الفرنسية هزائم ساحقة، مما دعا الحكومة الفرنسية إلى إرسال المارشال (بيتان) إلى مراكش لإنقاذ الموقف.

أخذ المارشال بيتان يعد قواته لهجوم عام على الجمهورية الريفية، وبعد أن أتم استعدادات جيشه، قام الفرنسيون في أيلول ١٩٢٥ بهجوم عام بدأوه بدك المواقع الحصينة بالطائرات، وأخذت بعد ذلك جيوشهم تزحف تحت حماية المعدات الآلية الضخمة ومع أن إمكانات الجيشين غير متكافئة، إذ كان الفرنسيون أضعاف الريفيين من حيث العدد والعدة، إلا أن قوات الأمير محمد تمكنت من الصمود من شهر سبتمبر ١٩٢٥ إلى شهر مايو ١٩٢٦، حين قام الجيشان الفرنسي والإسباني بهجوم كاسح على جميع المراكز والمناطق الريفية، وبالرغم أن الجيش الريفي صمد لهذا الهجوم الكثيف إلا أنه أضطر للتراجع عن خطوطه الأمامية التي استولت عليها قوات الجيوش الغازية، وهذا شجع القوات الحليفة إلى مهاجمة العاصمة أجدير، ولما لم يجد الأمير محمد أية وسيلة للمقاومة اضطر للاستسلام للقوات الغازية بعد أن استنفد جميع الوسائل الدفاعية، كان ذلك في يوم

٢٥ مايو ١٩٢٦م وقد وعدته فرنسا بإطلاق سراحه ولكنها لم تف بوعدها، فنفته فرنسا إلى جزيرة «ريفيون» في المحيط الهندي وبقي فيها حتى سنة ١٩٤٧، وحينما أرادت فرنسا أن تنقله من منفاه وبلغ «السويس» كانت مجموعة من الشباب المغاربة قد هيأت له أسباب الفرار من الباخرة، وفعلاً كان، فقد استطاع الفرار واللجوء إلى مصر والاستقرار في القاهرة حيث مات فيها بالسكتة القلبية.

بقي الأمير محمد يحارب إسبانيا ثم فرنسا حوالى سبع سنوات، استطاع خلالها أن يثبت أن النصر سيكون حليفاً لأصحاب الحق الشرعيين مهما كثرت قوة الغاصبين وتنوعت أسلحتهم، ومنذ بداية ثورته أعلن الجهاد لتحرير بلاده والانتقام من الإسبانيين الذين قتلوا إخوانه المسلمين في الأندلس، ولهذا كان كثيراً ما يختار شهر ربيع الأول لشن الهجوم على الإسبان لأن هؤلاء ما فتئوا يقيمون في هذا الشهر منذ احتلالهم للأندلس عام ٧٩٧ هـ الحفلات والمواكب بمناسبة انتصارهم على المسلمين، ولهذا كان يقصد من هجومه التنغيص عليهم في أعيادهم والانتقام لإخوانه الأندلسيين، وفي رسالة بعث بها الأمير محمد عبد الكريم إلى رئيس الوزراء البريطاني آنذاك جاء فيها «إننا نعرض عليكم باسم الإنسانية أن تخابروا الدولة الإسبانية لكي تسحب جنودها من بلادنا الريفية، فإذا أبت فإن السيف بيدنا والنصر بيد الله يؤتيه من يشاء».

لم تمت الثورة باستسلام الأمير محمد ونفيه، ولكنها بقيت متأججة في النفوس تنتظر ساعة الانطلاق، وخاصة أن فرنسا أخذت تتبع سياسة «فرق تسد» بين العرب والبربر كما أخذت تحارب الدين الإسلامي عقيدة وشريعة كما تحارب اللغة العربية، فثارت ثائرة المسلمين وقامت المظاهرات الصاخبة في فاس والرباط، وشكلت لجان الدفاع عن «الدين واللغة

والكيان » ونشأ عن هذه اللجان حزب مغربي عام ١٩٣٤ عرف باسم « كتلة العمل المغربية » برئاسة الزعيم المغربي المرحوم علال الفاسي، وعدد من إخوانه، فقام الجنرال الفرنسي باعتقال علال الفاسي، فأعلن الإضراب العام، واصطدم الشعب بالشرطة مما اضطر المقيم الفرنسي للتراجع فأطلق سراح المعتقلين، وفي عام ١٩٣٧ حلت السلطات الفرنسية هذا الحزب، فقام خطباء المساجد بالتنديد بالفرنسيين الاستعماريين، وشنوا حملة عنيفة على المقيم الفرنسي، فقامت السلطات الفرنسية بحملة اعتقالات واسعة في فاس والرباط حتى اعتقلت جميع المصلين في أحد جوامع فاس. ونشبت الحرب العالمية الثانية ولازالت فرنسا تمارس سياسة الإرهاب الاستعماري ضد الوطنيين المغاربة.

المصادر

١ - « الأعلام » للزركلي.
٢ - د. جلال يحيى كتابه « عبد الكريم الخطابي ».
٣ - الحركات الاستقلالية في المغرب العربي لعلال الفاسي.

ثورة الإمام الشهيد
حسن البنا

كان الشيخ عبد الرحمن البنا- جد حسن البنا- من وجهاء وأغنياء قرية (شمشيرة) مركز (فوه- غربية) في مصر، وكان له ولدان: أحمد ومحمد، أما أحمد فقد تفرغ لطلب العلم في الأزهر. وأما محمد فعمل في القرية في أملاك أبيه، لما توفي والدهما حصل بينهما خلاف في الإرث وخاصة بالنسبة للأرض إذ أن محمد أراد أن ينال حصة الأسد من الأرض باعتبار أنه عمل فيها، وكادت تحصل بين الأخوين خصومة شديدة ولكن أحمد حسم هذاالنزاع وترك الأرض كلها لأخيه، وهجر قريته، وهاجر إلى المحمودية وأقام بها.

أقام الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا- والد حسن البنا- في المحمودية، يعمل سحابة نهاره في صناعة الساعات وتجليد الكتب، ويقضي ما يبقى في دراسة العلوم الإسلامية، وكانت له مكتبة قيمة تضم مختلف العلوم والفنون الإسلامية، ولما بنى أهل المحمودية مسجداً فيها كلفوه بالقاء أول خطبة جمعة فيه، فنال إعجاب الجميع لعلمه وفصاحته، واستمر بعد ذلك يعمل إماماً وخطيباً لذلك المسجد، فكان يقسم وقته بين الدراسات الإسلامية، وصناعة الساعات.

عكف الشيخ أحمد على دراسة الفقه على المذاهب الأربعة من كتب الحديث الرئيسية فدرس « موطأ مالك »، « ومسند الشافعي »، وألف كتباً عدة منها، بدائع المنن في جمع وترتيب مسند الشافعي والسنن » وعلق عليه وشرحه، ورتب جزءاً من مسانيد الأئمة الأربعة، كما رتب مسند الإمام أحمد وسماه « الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام أحمد الشيباني » وشرحه بأسم « بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني ». وتزوج الشيخ أحمد من امرأة تقية من عائلة « أبو قورة » ورزق منها خمسة ذكور وبنتين وهم: حسن، وعبد الرحمن، فاطمة، محمد، عبد الباسط، جمال، فوزية، ثم تزوج مرة ثانية فرزق أنثى أسماها « فريدة ».

كان « حسن البنا » أكبر أولاد الشيخ « أحمد البنا » ولد في المحمودية- محافظة البحيرة- على بعد تسعين ميلاً شمال غرب القاهرة- في أكتوبر ١٩٠٦، ولما تجاوز سن الطفولة وجهه والده إلى « الكُتَّاب » ليحفظ القرآن الكريم تمهيداً لإلحاقه بالأزهر، ثم التحق بمدرسة الرشاد الدينية، وفي الثانية عشرة من عمره التحق « حسن » بالمدرسة الإعدادية، ولما قرر مجلس مديرية البحيرة إلغاء نظام المدارس الإعدادية، لم يكن أمامه إلا أن يختار بين أن يتقدم إلى المعهد الديني بالإسكندرية ليكون أزهرياً، أو إلى مدرسة المعلمين الأولية بدمنهور ليصبح مدرساً، وأخيراً قبل في مدرسة المعلمين الأولية، وهو لا يزال في منتصف سن الرابعة عشرة من العمر، وقد استغرقت الدراسة في مدرسة المعلمين ثلاث سنوات كانت نتيجته في إمتحان الكفاءة الأولى « الأول » على مدرسته والخامس على القطر المصري، وقد أهلته نتيجته الجيدة هذه لأن يقبل في « دار العلوم » بالقاهرة ولم يتجاوز من العمر السادسة عشرة، ودار العلوم تعتبر أول محاولة مصرية لتقديم تعليم عصري عالي، بالإضافة إلى العلوم الأزهرية،

فانتقل إلى القاهرة، وهناك كان يقسم وقته بين الدراسة وبين الدعوة إلى الله، كما كان في العطلة يساعد والده في صناعة الساعات. وفي يونيه عام ١٩٢٧ حصل حسن البنا على «دبلوم دار العلوم» وعمره (٢١) عاماً. وكانت نفسه مترددة بعد ذلك بين الاستزادة من العلوم بأن يتقدم بطلب بعثة إلى الخارج، أو أن يعمل مدرساً، وأخيراً عين مدرساً للغة العربية بإحدى المدارس الابتدائية الحكومية في الإسماعيلية، وظل يعمل في حقل التدريس تسعة عشر عاماً، حتى استقال منه في عام ١٩٤٦م.

وفي ١٩ سبتمبر ١٩٢٧، سافر «حسن البنا» إلى الإسماعيلية ليتسلم فيها عمله الجديد، فكان مخلصاً في عمله ينتزع إعجاب جميع رؤسائه، ومنذ الأيام الأولى في الإسماعيلية، بدأ يحقق وعداً قطعه على نفسه حينما كان في دار المعلمين، بأن يعلم الأولاد في النهار، ويعلم الآباء في الليل، والغريب أنه لم يختر المساجد لتعليم الآباء ووعظ عامة الناس، ولكنه اختار المقاهي، فقد سبق له أن خاض هذه التجربة يوم كان طالباً بدار العلوم في القاهرة فنجحت نجاحاً عظيماً، فعزم بعد ذلك على الاستمرار بنفس الأسلوب، هذا بالإضافة إلى أن جمهور المساجد كانت تتوزعهم الخلافات الحزبية وتسيطر عليهم الخلافات الفقهية، وكان هدف البنا من الخروج بالدعوة من المساجد إلى المقاهي، أن يتصل بجميع الناس فيلمّ شتاتهم ويوحد صفوفهم.

لم يكتف البنا بالوعظ والإرشاد، للتعريف بالدعوة وإيصالها إلى الناس، ولكنه أراد أن ينتقل بدعوته خطوة أخرى «باختيار الأنصار» فاختار زاوية صغيرة تدعى «زاوية الحاج مصطفى» بالعراقية فكان يعظ مريديه من المغرب إلى العشاء، ويعلمهم عملياً إقامة الشعائر الإسلامية، وأخذ عدد المريدين يزداد يوماً بعد يوم، وقد ساعد

على انتشار الدعوة في الإسكندرية أسلوب البنا الفريد، الذي كان يتصف بالسهولة والبعد عن الخلافيات، والتركيز على نقاء العقيدة وخلوها من الشوائب، كما ساعد على ذلك وجود الأجانب في الأحياء الراقية في الإسكندرية، والجيش البريطاني المستعمر في المعسكرات، وكان هؤلاء جميعاً يعيشون عيشة الترف والبذخ على حساب الشعب المصري، بينما يعيش عامة الشعب عيش الكفاف.

كان هدف البنا من كل هذا دراسة مجتمع الإسماعيلية فاستطاع بذكائه أن يحدد العوامل التي تؤثر في هذا المجتمع، ومشايخ الطرق والأعيان والأندية، كما أدرك أنه لا يستطيع أن يصل بدعوته إلى عامة الناس إلا بمهادنة هذه القوى وكسب ودها، وإلا حاربته وأبعدته عن هدفه قبل أن يكثر أتباعه أو يشتد عوده، وفعلاً استطاع البنا بذكائه ولباقته أن يكسب ود هذه القوى جميعاً، وأن ينفذ من خلالها إلى صفوف العامة فكان يملك أن يخاطب كل فريق باللغة التي تعجبه دون أن يخرجه ذلك عن آداب الإسلام، فبالصداقة والهدايا كان يكسب ود العلماء وثناءهم، وبمخاطبة رجال الطرق الصوفية بلسان الطريقة والتأدب بآدابها كان يكسب محبتهم وتأييدهم، وبالتقرب إلى الأعيان ومحاولة الإصلاح بينهم كان ينال إعجابهم، وبارتياد الأندية وإلقاء المحاضرات المشوقة فيها يستقطب المسؤولين عنها إلى صفه.

وكان من نتيجة الجهود المباركة أن التف حول البنا جمع غفير من مختلف الطبقات وخاصة الطبقة الكادحة، ولكنهم كانوا يسألونه في خلواتهم هذا السؤال: ولكن ما السبيل؟ وأخيراً زاره في منزله ستة من المؤمنين وهم: حافظ عبد الحميد (نجار) أحمد الحصري (حلاق)، فؤاد إبراهيم (مكوجي)، عبد الرحمن حسب الله (سائق)، إسماعيل عز (جنايني)،

وزكي المغربي (عجلاتي)، وطلبوا منه أن يحدد لهم الطريق العملي لاستعادة مجد الإسلام وعزة المسلمين، وعرضوا عليه ما يملكون من مال بسيط، وحملوه تبعه أمرهم، فشكر لهم هذه الروح الطيبة، وطلب منهم أن يبايعوا الله على أن يكونوا جنوداً لدعوة الإسلام، وكانت بيعة.. وكان قسماً أن تحيا هذه الطليعة المؤمنة لله عاملة لدينه ودعوته مجاهدة في سبيله، وبعد مشاورة على تحديد اسم لهذه المجموعة، قال لهم البنا «نحن إخوة في خدمة الإسلام، فنحن إذاً الإخوان المسلمون» وكان ذلك في شهر ذي القعدة عام ١٣٤٧ للهجرة الموافق (مارس ١٩٢٨ م).

استأجر البنا واخوانه حجرة واحدة سموها «مدرسة التهذيب»، كان يتلقى فيها الرعيل الأول من الإخوان دروسهم في القرآن الكريم والسنة المطهرة، ويتمرنوا داخلها على الخطابة والتدريس، ولم تمض شهور حتى زاد عددهم على السبعين أخاً، فشعر الإخوان أن هذه الحجرة لم تعد تكفي لهم، ولهذا أخذوا يفكرون في بناء دار للإخوان المسلمين، وفي الخامس من محرم ١٣٤٨ هـ، وضع الحجر الأساسي لهذه الدار، وقد اشتملت بعد اكتال بنائها على مسجد ومدرستين إحداهما للبنين والأخرى للبنات، فسميت الأولى «معهد حراء الإسلامي» وسميت الثانية «مدرسة أمهات المؤمنين» وتوالى بعد ذلك افتتاح شعب الإخوان في منطقة الإسماعيلية والسويس.

ومنذ وضع «حسن البنا» الحجر الأساسي لجماعة الإخوان المسلمين، ارتبط تاريخه بتاريخها ارتباطاً عضوياً ومصيرياً، وارتبط تاريخها معاً بتاريخ العقيدة الإسلامية، وأيقن حسن البنا منذ بداية عمله في حقل الدعوة أنه يخوض معركة هي جزء لا يتجزأ من المعركة الأزلية بين الحق والباطل، وأن كفة الباطل كانت قد رجحت في ذلك الوقت، لتفرق

أصحاب الحق عن حقهم وبعدهم عن ربهم، ولهذا فهو يحتاج إلى بذل جهود جبارة حتى يعلى كلمة الحق في هذه الأرض وخاصة أن أعداء الله كثير عددهم عظيمة إمكاناتهم، وعلى مستوى جيد من التنظيم والتخطيط، ولهذا أخذ البنا يعمل لدعوته بغير ضوضاء أو ضجيج، فلم يترك ساعة من وقته لا يعمل فيها لدعوته، حتى عطلته الأسبوعية كان يقضيها داعياً إلى الله في المناطق القريبة أما العطلة الصيفية فيخصصها للمناطق البعيدة، فلم يترك قرية ولا بلدة ولا كفراً إلا زاره واجتمع بأهله في مساجدهم وبيوتهم، ولكن المسجد كان مقره الأول، فكان معظم الذين استجابوا له من طبقة العمال الكادحين فهم عماد الدعوات، ولهذا كان يوصي اخوانه بقوله « اكثروا من أصحاب الأيدي الخشنة »، وقد أثمرت هذه الجهود عن افتتاح شعبة في كل من أبو صوير وبورسعيد والبلاح، ولم يمض على انطلاقة الدعوة في الإسماعيلية أربع سنوات حتى بلغ عدد الشُّعَب في منطقة السويس عشر شعب.

لقد أعجب أهل الإسماعيلية بحسن البنا ايما إعجاب، وخاصة المؤمنين منهم، وكان من بين هؤلاء « الحاج حسين الصولي » من وجهاء الإسماعيلية الذين وقفوا إلى جانب الأستاذ البنا وشدوا أزره في كثير من الأمور والأحيان، وكان له عدد من الأبناء الشباب كلهم من الإخوان المسلمين، فأحب الحاج حسين أن تتم الألفة بينهم وبين حسن البنا، فزوجه من إحدى بناته. وكان زواجه من « لطيفة » ابنة الحاج حسين ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان عام ١٣٥١ هـ، فكانت امرأة مؤمنة محتسبة، صبرت مع الأستاذ البنا في السراء والضراء، وهذه سنة الله إن (الطيبات للطيبيّن)، وقد رزقه الله منها خمس بنات وولد ذكر واحد وهم: سناء، وفاء، رجاء، هاجر، استشهاد، وهي التي ولدت بعد استشهاده أما الغلام

فهو « أحمد سيف الإسلام » الذي حرم من جميع الوظائف الحكومية، وحكم عليه بالسجن لمدة « ٢٥ سنة » لا لشيء إلا لأنه ابن حسن البنا.

لقد بدا واضحاً بعد النجاح السريع الذي حققه حسن البنا لدعوته، أن أعداء الدعوة الإسلامية لا يرصدون الجماعة التي تحملها، ولكن يرصدون كل فرد حركي قيادي يعمل فيها، ففي عام ١٩٣٠ بدأت المشاعر العدائية للبنا ودعوته تطفو على السطح بشكل اتهامات وإشاعات، فقد اتهم البنا بأنه شيوعي، كما اتهم بأنه وفدي يعمل ضد الحكومة، كما اتهم بأنه جمهوري يعمل ضد النظام الملكي، فلما لم تجد هذه الإتهامات نفعاً قدمت ضده الشكاوى التي تتهمه بأنه انتهك شروط الوظيفة التي تحظر جمع الأموال واستخدامها لأغراض غير قانونية، وقد تم التحقيق مع البنا من قبل وزارة المعارف بناء على طلب من رئيس الوزراء، إلا أنه بريء من جميع التهم التي نسبت إليه. وكانت هذه الشكاوى بتحريض من بعض المسيحيين الذين أزعجهم أن يصبح للدعوة الإسلامية جماعة وأنصار، وقد يكون هؤلاء القفازات التي تتحرك من خلفها الأيدي الاستعمارية الخبيثة.

كان حسن البنا يرى أن العمل في الإسماعيلية منتج، ولكنه سيكون أكثر إنتاجاً واتساعاً إذا انطلق من القاهرة نظراً لأنها عاصمة البلاد، بل مركز العالم العربي في ذلك الوقت، ولهذا كان على صلة وثيقة « بجماعة الثقافة الإسلامية » في القاهرة التي كان يرأسها « عبد الرحمن البنا » أحد أشقائه، كما كان على صلة مع جمعية الشبان المسلمين وجريدة الفتح في القاهرة أيضاً، ولهذا لما اطمأن على وضع الدعوة في الإسماعيلية طلب في إجازة صيف عام ١٩٣٢ نقله إلى القاهرة، فنقل إليها، ودخلت الدعوة بنقله طوراً جديداً، إذ اندمجت جماعة الثقافة الإسلامية بجماعة الإخوان

المسلمين، وكونتا معاً أول شعبة للإخوان في القاهرة، وبالرغم ان الأستاذ البنا قد استمر في نهجه القديم القائم على أساس العمل بهدوء والتنظيم بسرية ودون أي ضجيج أو دعاية، إلا أنه اضطر أن يظهر هو وجماعته ضمن مجموعة الجماعات الإسلامية في القاهرة، ولكن استمر في تأسيس الشُّعَب وكسب الأنصار وتجمعهم حتى ذكر في إحدى مقالاته المنشورة سنة ١٩٣٤، انه بعد مضي عام واحد على إقامته في القاهرة فقد انتشرت فكرة الإخوان فيما يزيد على خمسين بلداً وقرية من القطر المصري.

استطاع حسن البنا بذكائه وعمله المتواصل أن يثبت وجود الإخوان المسلمين في بلد كالقاهرة مليء بالمتناقضات الاجتماعية والمنافسات الحزبية والخلافات الدينية، فأخذ ينظم جبهته الداخلية بتنظيم الشعب تنظيماً هرمياً، وإن يعقد لها كل فترة مؤتمراً عاماً يكون بمثابة نهاية لمرحلة سابقة وبداية لمرحلة جديدة في الدعوة، يحدد فيه المجتمعون الإيجابيات والسلبيات، التي اتصفت بها المرحلة السابقة، ومدى تأثير كل منها على المرحلة المقبلة، كما كانت المؤتمرات مجالاً لتعرف العاملين بعضهم على بعض ورفعاً للروح المعنوية عند عامة الإخوان، وقد ترأس البنا المؤتمر الأول الذي عقد في مايو ١٩٣٣م، والذي بحث مشكلة البعثات التبشيرية، وأساليب مواجهتها، وأرسل خطاباً إلى الملك فؤاد أعرب فيه عن اعتقاده بضرورة إخضاع نشاط هذه البعثات للرقابة الحكومية. أما المؤتمر العام الثاني الذي ترأسه البنا أيضاً فقد عقد في نهاية عام ١٩٣٣م، والذي بحث وسائل الدعاية والإعلام وأقر تأسيس شركة لإنشاء مطبعة خاصة بالجماعة، وأوصى بإصدار بعض الصحف والمجلات، فصدرت مجلة «الإخوان المسلمون»، الأسبوعية ثم مجلة «النذير»، كما قامت المطبعة بطبع رسائل المرشد التوجيهية للإخوان وعقد المؤتمر العام الثالث في مارس ١٩٣٥م

وقد نوقشت فيه الأمور التنظيمية للجماعة وتشكيل فرق الجوالة الخاصة بالجماعة. وانعقد المؤتمر الرابع في عام ١٩٣٦م، فأرسل الأستاذ البنا خطاباً إلى الملك فاروق ورئيس الحكومة مصطفى النحاس وجميع حكام العالم الإسلامي آنذاك، وكثير من الزعماء الدينيين والسياسيين فيه، يدعوهم فيه إلى طريق الإسلام ويبين لهم قواعد هذا الطريق وأصوله وقد طبع هذا الخطاب فيما بعد وحمل اسم رسالة «نحو النور».

كان أهم المؤتمرات العامة التي عقدها الإخوان «المؤتمر الخامس» الذي عقد في يناير ١٩٣٩م، (١٣ ذي الحجة ١٣٥٧ هـ) بمناسبة الذكرى العاشرة لتأسيس الجماعة لأن البنا رحمه الله قد حدد في هذا المؤتمر المبادئ الأساسية التي تقوم عليها دعوة الإخوان، كما حدد الإستراتيجية التي تتحرك في إطارها، فالإسلام في نظر الإخوان نظام كامل شامل لكل نواحي الحياة قابل للتطبيق في كل زمان ومكان، نابع من مصدريه الأساسيين كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. وقد حدد البنا طبيعة الجماعة بأنها «هيئة سياسية» بالإضافة إلى كونها (دعوة سلفية وطريقة سنية وحقيقة صوفية وجماعة رياضية، وشركة اقتصادية، وفكرة اجتماعية، ورابطة علمية) وهذا التحديد كان يعكس وضعاً قائماً إذ أن الجماعة بدأت بالتحرك السياسي في القضايا الداخلية والخارجية منذ عام ١٩٣٦م، حينما دعمت اضراب الفلسطينيين واستنكارهم للسياسة البريطانية اليهودية في بلادهم، وجمع الأموال لمساعدتهم على الاستمرار في الإضراب، والقيام بالمظاهرات وتوزيع الكتيبات والقاء الأحاديث والمحاضرات التي تشرح القضية الفلسطينية وتحذر المسلمين من المخططات الاستعمارية بريطانية كانت أم صهيونية، كما عارض الإخوان معاهدة عام ١٩٣٦، مع بريطانيا، ولما صرح رئيس وزراء مصر الوفدي (مصطفى النحاس) وأعرب عن اعجابه

بمصطفى أتاتورك وبتركيا الجديدة، وجه اليه حسن البنا خطاباً هاجم فيه أتاتورك لإلغائه الخلافة الإسلامية، مؤكداً ضرورة العودة للحكم الإسلامي.

كانت بريطانيا - كعادتها - ترصد تحركات الإخوان وخاصة حسن البنا، وقد اقلقها النجاح العظيم الذي حققوه في عشر سنوات، فأرسلت بريطانيا مذكرة إلى وزارة حسين سري للتضييق على الإخوان والحد من نشاطهم واتهمتهم بأنهم يعملون مع دول المحور، وفعلاً وفي (٢٠ مايو سنة ١٩٤١) نقل حسن البنا من القاهرة إلى قنا، وصودرت مجلتا الإخوان الأسبوعيتين (التعاون والشعاع) كما صودرت المجلة الشهرية (المنار) ومنعت الحكومة طبع رسائلهم وأغلقت مطبعتهم ومنعت اجتماعاتهم واعتقلت بعضهم، ولكن النقل إلى الريف لم يؤثر على انتشار الدعوة فقد اتخذ البنا من مكان عمله الجديد مقراً للجماعة، وعلى أثر بعض الضغوط البرلمانية أعيد البنا إلى القاهرة مرة أخرى، وفي تقديري أن هدف بريطانيا من نقل الأستاذ البنا والإفراج عنه بعد مدة وجيزة، كان كنوع من جس النبض عند الإخوان وعامة الشعب المصري، وقياس مقدار رد الفعل عندهم فيما لو حاولت البطش بالجماعة، ولهذا ففي اكتوبر ١٩٤١، ألقي القبض على الأستاذ البنا وعدد من إخوانه وصودرت صحفهم ومجلاتهم، كما منعت الصحف المحلية نشر أي خبر عنهم، ولكن بريطانيا اضطرت للإفراج عن الإخوان نتيجة ضغوط شعبية وبرلمانية على الحكومة.

وقد اتخذ المؤتمر الإخواني العام السادس الذي عقد في يناير ١٩٤١ قراراً بتقديم مرشحين عنهم في أي انتخابات قادمة، فلما حل النحاس البرلمان في ٧ فبراير ١٩٤٢، ودعا إلى إنتخابات عامة، رشح الإخوان الأستاذ البنا عن دائرة الاسماعيلية كممثل للإخوان في البرلمان، ولكن

الإنجليز قد أزعجهم ترشيح البنا فأوعزوا إلى النحاس ليطلب من البنا سحب ترشيحه، وقد استجاب البنا إلى ذلك مقابل السماح للجماعة بمزاولة نشاطاتها العادية، واتخاذ إجراءات رسمية لحظر ممارسة الدعارة وبيع المشروبات الكحولية. فكان لهذه المناورة أثر في بروز شخصية البنا كرجل يضحي بالمكاسب السياسية في سبيل جماعته وأمته.

ولكن يبدو أن حكومة النحاس ومن خلفها كان هدفهم من هذه المناورة منع الأستاذ البنا عن ترشيح نفسه للبرلمان، ففي نهاية عام ١٩٤٢ أغلق النحاس شُعَب الإخوان ما عدا المركز العام، إلا ان الجناح اليميني في حزب الوفد بزعامة فؤاد سراج الدين كان يرى ان وجود الجماعة ضرورة في مواجهة الحركات الشيوعية التي بدأت تنتشر في مصر وخاصة أثناء الحرب العالمية الثانية، ولذلك كان يرى مساعدتهم والابقاء عليهم، ففي بداية عام ١٩٤٣ زارت مجموعة من أعضاء حزب الوفد البارزين مقر الجماعة وكان معظمهم من الوزراء وبعد أن استمعوا إلى حديث الثلاثاء الذي ألقاه الأستاذ البنا أعلنوا ولاءهم للفكرة التي يمثلها الإخوان. ومع ذلك فقد كانت تنتاب العلاقة بين الإخوان وحكومة الوفد فترات من الود والعداء، وفترات من الرقابة والمتابعة الصارمة تتلوها فترة من الحرية النسبية حتى اقيلت حكومة الوفد في اكتوبر ١٩٤٤.

حاول الإنجليز أن يشتروا الأستاذ البنا بالمال تارة وبالمنصب تارة أخرى، إلا أنهم فشلوا في ذلك فشلاً ذريعاً، مما اضطرهم إلى اللجوء إلى اسلوب النفي والاعتقال والتضييق على البنا وإخوانه، لكن هذا الأسلوب لم يجد نفعاً مع هذه الجماعة، مما اضطر السفارة البريطانية في القاهرة إلى معاودة الإتصال بالبنا وذلك في نهاية عام ١٩٤١، ولكن هذه المحاولة أيضاً قد باءت بالفشل ولم تسفر عن أية نتائج إيجابية، ولهذا حرضت بريطانيا

حكومة الوفد على الإخوان، حتى تأكد للإخوان أن عداء البريطانيين لهم عداء ثابت، حتى إن الأستاذ البنا كتب رسالة وداع إلى إخوانه في منتصف عام ١٩٤٣ لاقتناعه بأن المخابرات البريطانية تلاحقه وتعمل جاهدة على نفيه خارج مصر أو التخلص منه بالتصفية الجسدية.

وفي يناير ١٩٤٥ اتخذت حكومة (أحمد ماهر) الاجراءات اللازمة لانتخابات عامة جديدة في مصر، فاختار الإخوان الأستاذ البنا وخمسة من إخوانه كمرشحين عنهم، وخاضوا المعركة الانتخابية على أساس « برنامج إسلامي » إلا أن الحكومة ومن خلفها بريطانيا كان يزعجها أن ينجح ستة من الإخوان في البرلمان، فعمدت إلى تزييف الانتخابات، مما أدى إلى عدم نجاح الأستاذ البنا وإخوانه جميعاً، في الدوائر التي كانوا على يقين تام من نجاحهم فيها، وفي أعقاب اغتيال أحمد ماهر على يد الحزب الوطني اعتقل الأستاذ البنا وبعض إخوانه ثم أفرج عنهم، ولما تولى رئاسة الحكومة محمود فهمي النقراشي زاره البنا وعزاه في أحمد ماهر ولكن النقراشي رد على هذه البادرة الطيبة بإصدار أوامره بفرض رقابة مشددة على الإخوان وتنظيماتهم وشعبهم، وبقي النقراشي على هذه السياسة حتى نهاية حكمه في ٤ فبراير ١٩٤٦.

لقد وجد البنا منذ انعقاد المؤتمر العام الخامس للاخوان ان الإخوان يجب أن يخطوا خطوة جديدة في مجال التنفيذ، والوصول إلى الأهداف، وحدد إن الإخوان سيستعملون القوة حيث لا يجدي غيرها، ولكنهم يتدرجون في ذلك فيوفرون أولاً قوة العقيدة والأيمان ثم قوة الوحدة والارتباط ثم قوة الساعد والسلاح، وما دام المستعمرون وأذنابهم لا يكنون لهم إلا العداء، بل ويعملون على تصفيتهم والقضاء عليهم، فإن الإعداد لمواجهة هؤلاء للدفاع عن النفس أمر أوجبه الدين على كل مسلم، ولهذا

أخذ البنا كعادته يعمل بالسر لإيجاد قوة للاخوان تدفع عنهم وتكيل لأعدائهم الصاع صاعين، وقد سلك في سبيل ذلك سبيلين متوازيين ينحصر الأول في إيجاد قوة ذاتية للاخوان وهو ما سمي فيما بعد « الجهاز الخاص »، أما السبيل الثاني فينحصر في إيجاد تحالفات بين مجموعات الإخوان في الجيش مع مجموعات « الضباط الأحرار » للتنسيق والتعاون فيما بينهم لتحقيق الأهداف المشتركة. وقد عمل البنا بجد للوصول إلى هذين الهدفين، إلا إن الأعداء كانوا يرقبون حركاته وسكناته، ولهذا عملوا للقضاء على أهدافه قبل أن تنضج وتوشك أن تؤتى أكلها، وهكذا بينما كان إعداد القوة الذاتية للأخوان لا يزال في المراحل الأولى، والاتصالات مع مجموعة الضباط الأحرار كانت غير مستقرة كما كانت في بداية مراحلها، وجه الإنجليز وحلفاؤهم وأذنابهم ضربة قوية للاخوان، جعلتهم في موقف الدفاع بعد أن كانوا في موقف الهجوم.

لم يعد البنا في عام ١٩٤٦م، قائداً لجماعة محدودة، بل أصبح قائداً شعبياً لمصر كلها، بل أصبح حسن البنا القائد الذي يلوذ بكنفه معظم قادة حركات التحررالعربية والإسلامية،وهذه المنزلة التي وصل إليها البنا فيها الخطر الجسيم على مصالح المستعمرين وأذنابهم في مصر، فهم يدركون أن المسلمين لا تنقصهم الكفاءات ولكن تنقصهم القيادة المؤمنة المخلصة، ولهذا كان من الأسس الرئيسية التي كانت تقوم عليها مخططاتهم التخلص من كل فرد يصل إلى مركز الزعامة على المستوى القومي أو الإسلامي، وكانت وسائلهم في التخلص من الزعامة بمحاولة شرائهم بالمال أو تطويعهم بالمنصب والجاه، فإذا لم تجد هذه الوسائل فالتصفية الجسدية نهاية المطاف، وقد فشل الإنجليز وأذنابهم في شراء البنا أو تطويعه، فلم يبق أمام الأيدي الاستعمارية المجرمة إلا التخلص منه بالتصفية الجسدية. وقد حصلت من

شباب الإخوان بعض التصرفات كقتل أحمد الخازندار والنقراشي، ولكن ذلك كان بسبب الضغط الشديد والطرق التعسفية التي كانت تتبعها مع الإخوان، وقد كان ذلك من باب الدفاع عن النفس، ولكن الحكومة اتخذت من هذه الحوادث الفردية ذريعة لضرب الإخوان والقضاء على حسن البنا.

لقد عارض الإخوان وجود أي اتفاق بين مصر وإنجلترا، ودخلت قواتهم فلسطين لتحارب اليهود، وكانت حاشية الملك تزين له أن حسن البنا هو الوحيد القادر على تنحيتك عن العرش، والأحزاب المصرية قد ساءها المنزلة الشعبية العظيمة التي وصلت إليها دعوة الإخوان في فترة محدودة، ولهذا كان لهؤلاء جميعاً مصلحة مباشرة أو غير مباشرة في ضرب الإخوان والقضاء عليهم، وقد ساعد هؤلاء جميعاً في تبرير قرار حل الإخوان من خلال التشهير بهم وكيل مزيد من الاتهامات لهم وقد بدأت الحكومة هجومها على الإخوان بإلصاق كل حادثة تحدث في مصر بهم، بل أخذت تفتعل بعض الأحداث وتتهم الإخوان بها، كل ذلك توطئة لإيجاد مبرر قانوني لضرب الإخوان، وقد حاول (أحمد ماهر) من قبل الحصول على فتوى من شيخ الأزهر (الشيخ المراغي) تعلن بأن هناك عدداً أكثر من اللازم من الجماعات الإسلامية في مصر، وكان واضحاً أن هذا الإجراء كان الهدف منه إيجاد مبرر شرعي لحل الإخوان والقضاء عليهم.

بدأت محنة الإخوان الكبرى بإلقاء القبض على الأستاذ البنا في ٢٨ نوفمبر ١٩٤٨م، فور عودته من الحج ثم اغلقت صحيفة الجماعة، وفي ٨ ديسمبر ١٩٤٨م، أصدر وزير الداخلية الأمر بحل جماعة الاخوان المسلمين بكل فروعها، وقد علقت مجلة آخر ساعة الناطقة بلسان الحكومة السعدية على قرار الحل بقولها «لقد تخلصت الحكومة من جماعة يمكن

اعتبارها أقوى خصومها، وهذه الجماعة لم تكن مجرد حزب بل كانت تشبه دولة كاملة بأسلحتها ومستشفياتها ومدارسها ومصانعها وشركاتها ». ولقد حاول الأستاذ البنا إيجاد نوع من التفاهم مع الحكومة إلا ان اغتيال النقراشي بيد أحد الإخوان لم يفسح مجالاً لأي تفاهم، فقد كان أتباع النقراشي يهتفون وهم يحملون جثمانه (الموت لحسن البنا).

لم يكن الهدف من كل ما حصل حل الإخوان أو التضييق عليهم، ولكن الهدف الرئيسي كان التخلص من حسن البنا، فقد كان من الواضح لدى البنا نفسه أن هناك مؤامرة تحاك للقضاء عليه، ولهذا حينما حاصر البوليس المركز العام اعتقل كل من فيه باستثناء الأستاذ البنا وحده. ولهذا أصدر البنا كراسة صغيرة بعنوان (القول الفصل) وزعت على الإخوان سراً، رأى فيها أن الأسباب الحقيقية لحل الجماعة إنما تتمثل في الضغط الأجنبي والاستعداد للتفاوض مع الإنجليز والصهاينة، والرغبة في لفت الانتباه بعيداً عن الفشل الذريع للدول العربية في فلسطين، وكانت هذه الكراسة آخر أعمال البنا المكتوبة، ففي وقت متأخر من بعد ظهر يوم ١٢ فبراير ١٩٤٩ دعي حسن البنا إلى لقاء بالمركز العام لجمعية الشبان المسلمين، وبينما كان خارجاً من المبنى ويتأهب ليستقل سيارة تاكسي، أُطلق عليه الرصاص فأصيب بجروح بليغة إلا أنه لم يمت إلا حينما نقل إلى أحد المستشفيات ولم يلق أية عناية حتى نزف معظم دمه وأسلم روحه إلى بارئها، وكان البنا رحمه الله يقول لإخوانه إن عدم قيام الحكومة بالقبض عليه هو دليل رسمي على نيتها قتله والقضاء عليه.

وفي نهاية هذا الموضوع نجد من يسأل: من الذي قتل البنا؟ ومن الذي حل جماعة الإخوان المسلمين؟ قلت إن حل الجماعة وقتل الإخوان كان فيه

مصلحة لجميع الفئات التي يحزنها أن ترى لمصر زعيماً مؤمناً قوياً وأن ترى مصر والعالم الإسلامي قد تحرر من الاستعمار والصهيونية وأذنابهم. وإلا لماذا انصب قرار الحل على الإخوان وحدهم مع أن في مصر العديد من الأحزاب المناوئة للحكومة كالوفد والحزب الوطني والشيوعيين، وكل هؤلاء شاركوا في أعمال عنف أكثر مما شارك الإخوان، وإذا كانت الحكومة السعدية هي اليد المنفذة، فإن اليهود وانجلترا كانوا المحرضين الرئيسيين على قرار الحل، فاليهود كانوا يرون في مجاهدي الإخوان في فلسطين عقبة كأداء تحول دون تحقيقهم لأهدافهم، إذ هزم اليهود في معظم المعارك التي خاضوها ضد مجاهدي الإخوان وبقيت المنطقة التي تتمركز فيها كتائبهم خارج نطاق الخطر اليهودي في فلسطين.

أما الإنجليز فقد كانوا اليد التي يستطيع اليهود الضغط بها على الحكومة السعدية، وقد أثبتت بعض الوثائق التي نشرت فيما بعد بالانجليزية ان هناك اتصالات متبادلة بين السفارة الإنجليزية والحكومة السعدية، وان السفارة الإنجليزية طالبت باسم السفارتين الأميركية والفرنسية بحل الجماعة، ففي نوفمبر سنة ١٩٤٨ عقد اجتماع في (فايد) بين سفراء كل من انجلترا وفرنسا واميركا، وطلبوا من السفير البريطاني أن يطلب من النقراشي إصدار قرار بحل جماعة الإخوان، وإن الماجور ج. أوبرايان السكرتير السياسي للقائد العام للقوات البرية البريطانية في الشرق الأوسط، أرسل خطاباً من مقره في (فايد) إلى ادارة المخابرات التابعة للقيادة العامة للقوات البريطانية في مصر يخطره فيها بما دار في اجتماع السفراء، واخطرها بأنه ستتخذ الإجراءات اللازمة بواسطة السفارة البريطانية في القاهرة لحل الجماعة بأقرب فرصة مستطاعة.

واغتالت الأيدي الآثمة حسن البنا لأنه كان أمل الشرق في صراعه مع

المستعمر وأنا أفهم جيداً أن الشرق يطمح إلى مصلح يضم صفوفه ويرد له كيانه، غير انه في اليوم الذي بات فيه هذا الأمل قاب قوسين أو أدنى، انتهت حياة- حسن البنا- على وضع غير مألوف وبطريقه شاذة[1] لقد كان حسن البنا شوكة في حلق فاروق وزبانيته وصخرة شامخة في وجه الاستعمار وعملائه، ولهذا كان لا بد أن يُجمع هؤلاء جميعاً على التخلص منه، ومات حسن البنا وهو في عمر الزهور كما مات الكثير من الشهداء المسلمين واغتال أعوان الاستعمار والصهيونية حسن البنا ليفوزوا بفلسطين وليقيموا عليها دولة اسرائيل وكان ذلك مستحيلاً إذا بقي حسن البنا على قيد الحياة.

نشرت جريدة (الكتلة) التي كان يصدرها الأستاذ مكرم عبيد وصفًا لحادث دفن المرحوم الشيخ حسن البنا وما رافقه من أحداث، وهو مستقى من أقوال والده فضيلة الشيخ أحمد البنا: «نقلت جثة حسن البنا إلى بيته في سيارة تحرسها سيارات مملوءة بفريق من رجال البوليس المسلحين وقد أنساهم هول الجريمة ان الموتى لا يتكلمون ولا ينطقون، وفي أحد شوارع الحلمية وقفت القافلة ونزل الجند فأحاطوا ببيت الإمام الفقيد ولم يتركوا ثقباً ينفذ إليه إنسان إلا سدوه بجند وسلاح، لقد كان والد الفقيد هو الذي يعلم بوفاته، لأن بقية أشقائه كانوا في المعتقلات والسجون، وفتحوا الباب وأدخلوا الجثة، ونشج الوالد بالبكاء فقالوا له: لا بكاء ولا عويل بل ولا مظاهر حداد، ولا أحد يصلي عليه سواك، فقام الوالد بإعداد الجثة للدفن ووضعت في النعش، ولما سألتهم من يحمله إلى مثواه الأخير، قال: فلتحمله النساء، وخرج نعش الفقيد محمولاً على أكتاف النساء حتى وصل إلى جامع قيسون للصلاة عليه، وقد طرد البوليس كل من في المسجد

(١) عن «حسن البنا الرجل القرآني» للكاتب الأمريكي روبير جاكسون.

حتى الخدم، وصلى الوالد وحده على جثمان ولده ثم واراه التراب في مدافن الإمام، ولم يحضر أحد من المقربين لأن الجنود منعوا الناس من الدخول إلا شخصاً واحداً هو (مكرم عبيد باشا) ولقد اشيع بعد ذلك ان أصدقاء الشيخ اعتزموا اختطاف جثته من قبره لدفنها في مكان يليق بمقامه فضاعفت الحكومة الحراسة على مقابر الإمام الشافعي وعلى القبر الذي دفن فيه حسن البنا، وفي الليلة التي ظنوا انها حُدِّدت لخطف الجثة امتلأت المقابر بالبوليس المدجج بالسلاح والذين أرهبهم حسن البنا بعد موته كما أرهبهم وهو حي، ولمح نفر من البوليس بعض الناس يحملون نعشاً ويسيرون به إلى المقابر، فحاصر البوليس النعش وأمر المشيعين بوضعه على الأرض، وسلط أحد الجنود مصباحه الكهربائي على وجه الميت، فلما ثبت له أنه ليس حسن البنا، سمح لأهله بحمله والمضي به إلى مثواه الأخير[1].

لم يمت حسن البنا، وإنما انطلقت مبادئه من إطارها الذي التزمته حيناً، وتحررت الفكرة الإسلامية من نطاق اللحم والدم لتواصل أمرها في أجيال أخرى، انطلقت الفكرة من قلب واحد لتحل في ملايين القلوب التي آمنت بالمبادئ التي دعا إليها البنا دون أن تراه ودون أن تسمع له، أما الجسد الطاهر فقد خرج من هذه الدنيا متواضعاً يسير المظهر كما دخلها، فقد حرمت الحكومة على المشيعين أن يقربوا جثمانه، ورأى الناس يومئذ عجباً في الجنازات، رأوا نعشاً يحمل لأول مرة على أعناق النساء، وفي مقدمتهم فتاة صبور تهتف بأبيها: قر عيناً يا ابتاه، فلن نتخلف عن رسالتك، وليهنئك قدومك على الله مقدم الشهداء، ولئن منعت الحكومة من يشيع جثمانك، فحسبنا عزاء وجزاء في ان ملائكة الرحمن، تشيعك

---

(١) راجع التفاصيل في كتاب «حسن البنا مواقف في الدعوة والتربية» للأستاذ عباس السيسي.

وأرواح الشهداء تمشي معك، ويشيع أهل السماء ما عجز أهل الأرض عن تشييعه. وفي وحشة الشارع المقفر من الغادي والرائح، إلا من هذه الجنازة الفريدة، ارتجت المنازل على الجانبين، وأجهشت النوافذ والشرفات بالبكاء، وهم يرون حسن البنا العظيم يحمل على كتف زوجته وابنته إلى مقره الأخير.

واستشهد حسن البنا، وبقيت دعوة الله بعده، وقد زادها استشهاده أنصاراً، كما زادها صلابة وقوة، وذهب فاروق وزبانيته، وبقيت دعوة الله صامدة شامخة.

ولما نجحت الثورة في مصر عام ١٩٥٢ أعيد التحقيق في مقتل الإمام الشهيد، وأدين القتلة، وتوفيت زوجة الأمام الشهيد في عام ١٩٧٠، ومنعت حكومة عبد الناصر المشي في جنازتها إلا من بقي من بناتها وأخواتها، لا لشيء إلا لأنها زوجة حسن البنا.

وفي ١٢ فبراير ١٩٥٣ احتفل الأخوان بالذكرى الرابعة لاستشهاد الإمام الشهيد، فذهب اللواء محمد نجيب وبصحبته جمع من الوزراء وضباط الثورة إلى قبره، وبعد أن قرأوا الفاتحة على روحه الطاهرة، وعزوا الإخوان بوفاته، ارتجل اللواء محمد نجيب كلمة بهذه المناسبة جاء فيها:

« إن الإمام حسن البنا أحد أولئك الذين لا يدرك البلى ذكراهم، ولا يرقى النسيان إلى منازلهم لأنه رحمه الله لم يعش لنفسه بل عاش للناس، ولم يعمل لمنفعته الخاصة بل عمل للصالح العام ».

واقتصرت برامج الإذاعة المصرية في ذلك اليوم على قراءة القرآن والأخبار، وترديد كلمات الرثاء التي قيلت بمناسبة الذكرى الرابعة لاستشهاده.

رحم الله الإمام الشهيد، فقد كان أمة وحده، وأسكنه فسيح جناته، في مقعد صدق عند مليك مقتدر، وصدق الله العظيم.

﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلًا﴾.

ثورة الشهيد
سيد قطب

١- مقدمة

شهد النصف الثاني للقرن العشرين نهضة إسلامية عامة كانت ردة فعل على إسقاط الخلافة الإسلامية في تركيا، وانتشار العلمانية والشيوعية في البلاد العربية والإسلامية، وقيام بعض مدعي الوطنية بالدعوة إلى التغريب وتقليد الغرب في كل شيء وترك الإسلام جانباً، كما كانت هذه النهضة الإسلامية ردة فعل إيمانية على التبشير والغزو الفكري والعقائدي للعالم الإسلامي، والذي يعتبر مقدمة للغزو العسكري والاقتصادي، وتصدى لهذه الأفكار الدخيلة الكثير من أئمة المسلمين ومفكريهم بكل ما أوتوا من قوة وحيلة، ولكن هذه الأفكار كانت تدعمها مؤسسات قوية تستند إلى دول لها مصالح خاصة بانتشارها، ولهذا كان الصراع في البداية غير متكافئ، إلا أنه ظهر في النهاية إفلاس هذه الأفكار جميعها واندحارها بالمعركة مع الإسلام رغم ما كان المستعمرون وأذنابهم يهيئون لها من أسباب الإغراء والدعم المادية والمعنوية.

ومن الطبيعي أن يلجأ هؤلاء المستعمرون وأذنابهم إلى استعمال قوتهم

المادية بعد أن فشلوا في الصراع العقائدي والفكري مع الإسلام، فأخذوا يتربصون الدوائر بالإسلام ودعاته والذائدين عن حياضه، وأخيراً نفد صبرهم، وظهر عداؤهم لهذا الدين، ففتحوا أبواب السجون والمعتقلات للمؤمنين الصادقين، وأذاقوهم فيها جميع أصناف العذاب التي لاتمت إلى الإنسانية بصلة، لاذنب لهم إلا أنهم قالوا ربنا الله، وأنهم لن يحنوا رؤوسهم لغير الله، ولا يحتكمون لغير كتابه وشرعه، ومكث دعاة الإسلام في سجون مصر من عام ١٩٥٤، إلى عام ١٩٦٥ حاول أذناب المستعمرين خلالها أن يصفوهم جسدياً ومادياً، ولكن ثبت لهم أن بين ثنايا هذا الجسم المادي قلب وعقل لاسلطان لأحد عليها سوى خالقها، فخاب ظنهم وطاش سهمهم وفشل جهدهم فصاروا يولولون كالمجانين ويصرخون كالثعالب، وشنوا حملتهم هذه المرة على الكتب والأفكار الإسلامية، فإذا كانت حملة عام ١٩٥٤ حاكمت في الحركة الإسلامية قادتها وجنودها، فإن حملة عام ١٩٦٥ قد حاكمت كتبها وأفكارها، وكان ممن نافح وذاد عن الإسلام وأظهره ناصع البياض كالشمس في رابعة النهار، الشهيد سيد قطب، رحمه الله الذي بقي صامداً حينما حاكموه كقائد وداعية، وبقي ثابتاً حينما حاكموه مفكراً ومنظماً، وصدق الله في وقفته هذه في المحنتين، فصدقه الله واختاره شهيداً إلى جواره فعاش لهذه الدعوة وبها ومات شهيداً في سبيلها.

٢- حياته

هو سيد بن الحاج قطب بن إبراهيم، ولد عام ١٩٠٦ في قرية «موشا» من مديرية أسيوط في الوجه القبلي، ودرس علومه الابتدائية في قريته، وحفظ القرآن الكريم ولم يتجاوز العاشرة من عمره، ثم سافر إلى القاهرة

وأتم دراسته الثانوية فيها، ودخل كلية دار العلوم ليتخرج منها مجازاً باللغة العربية وآدابها عام ١٣٥٣= ١٩٣٤، وعين مفتشاً للغة العربية بوزارة المعارف المصرية آنذاك، ولكنه ما لبث أن ترك الوظيفة حتى يكرس وقته للكتابة، فعمل في جريدة الأهرام، وكتب في مجلتي «الرسالة»، و«الثقافة» وأوفد من عام (١٩٤٨ - ١٩٥١) إلى أميركا في بعثة لدراسة برامج التعليم، ولما عاد انتقد مناهج التعليم المصرية وكان يرى أنها من وضع الإنجليز وطالب بوضع برامج تتمشى مع الفكرة الإسلامية، وفي عام ١٩٥٣ انتسب إلى جماعة الإخوان المسلمين وصار من رجالها المفكرين العاملين، وقد تولى بعد ذلك رئاسة تحرير جريدة الإخوان المسلمين وبقي على ذلك حتى اعتقل عام ١٩٥٤، وحكم عليه بالسجن لمدة خمسة عشر عاماً ثم أخرج من السجن عام ١٩٦٤م وما لبث أن اعتقل مرة أخرى بتهمة تنظيم الشباب ضد الثورة وقدم لمحاكمة صورية وحكم عليه بالإعدام.

نشأ سيد رحمه الله في عائلة موسرة، بين أبوين تقيين، كما كان له أخ وأختين ساروا بنفس الطريق الذي سار فيه من دفاع عن الإسلام ومجاهدة في سبيله، كما لاقوا ما لاقاه من اعتقال وسجن وتعذيب، فصبروا وصابروا ومن الطبيعي أن نشأته الدينية وحفظه للقرآن ورعاية والده له قد أثرت في أدبه وكتاباته، فبالرغم من أن سيد بقي حتى عام ١٩٣٩م أديباً إلا أنك حينما كنت تقرأ كتاباته فإنك تجد فيها النفحات الروحية التي تدلك على التربية الإسلامية الأصيلة، ولما نضج علمه واتسع أفقه بعد ذلك وجد أن الأدب وسيلة لغاية أكبر منها، وسيلة لنصرة دين الله والذود عن حياض الإسلام، ولهذا بدا يتحول في كتاباته إلى الوجهة الإسلامية العامة، ولكنه أدرك بعد ذلك أن يداً وحدها لاتصفق وأن العمل للإسلام لايكون منتجاً

إلا بالعمل الجماعي لأن أعداء الإسلام كثير عددهم، عظيمة إمكانياتهم، فلا يمكن التصدي لهم إلا بالعمل مع الجماعة المسلمة المنظمة، ولهذا اعتزل سيد الأدب وانضم عام ١٩٥٣ إلى جماعة الإخوان المسلمين وبدأ كتاباته الإسلامية الحركية، فأبدع فيها أيما إبداع حتى أنه يعد مفكر الجماعة بعد مؤسسها الأول الشهيد حسن البنا رحمه الله.

٣- آثاره

بدأ سيد حياته أديباً، فألف العديد من الكتب الأدبية مثل «مهمة الشاعر» ١٩٣٢، و«النقد الأدبي أصوله ومنهاجه» و«نقد كتاب مستقبل الثقافة في مصر» وقصة «طفل من القرية» وقصة «أشواك» وقصة «المدينة المسحورة» بالإضافة إلى كتاب «الأطياف الأربعة» الذي أصدره بالاشتراك مع أخيه وأختيه. هذا بالاضافة إلى الكثير من المقالات الأدبية التي كانت تُنشر في معظم المجلات المصرية وإلى العديد من المؤلفات الأخرى التي ألفها بالاشتراك مع آخرين وتأثر في بداية حياته الأدبية بالعقاد وناصره على مصطفى الرافعي في قضية إعجاز القرآن، ولكنه مع ذلك كان يتمتع بشخصية أدبية مستقلة لها أسلوبها ومميزاتها ومنطلقاتها، وبالرغم أنه كانت تغلب على كتاباته الصيغة الأدبية في هذه المرحلة إلا أن نشأته وتربيته الدينية كان لها أثر واضح في كتاباته فكنت تجد النفحات الروحية تتخلل العبارات الأدبية تنفخ فيها الحياة، فيكون لها الأثر الفعال في نفسية القارئ، يقول «مهدي علام» في تعليقه على كتابه (مهمة الشاعر في الحياة): «إني أعد سيد مفخرة من مفاخر دار العلوم، وإذا قلت دار العلوم فقد عنيت دار الحكمة والأدب يعجبني جرأته الحازمة الرشيدة، واستقلاله بالرأي في بحثه».

- ومنذ عام ١٩٣٩ انتقل سيد نقلة سريعة من مرحلة إلى مرحلة، فقد بدأ يسخر قلمه وبيانه لإبراز معالم القرآن الكريم ومعجزاته، ففي عام ١٩٣٩ نشر مقالة له في مجلة «المقتطف» بعنوان «التصوير الفني في القرآن» وما زال هذا الموضوع يتلجلج في صدره ويتبلور في فكره حتى خرج في كتاب له بهذا العنوان أتبعه بكتاب ثان بعنوان «مشاهد القيامة في القرآن» وفي عام ١٩٤٨ ظهر كتابه «العدالة الاجتماعية في الإسلام» بعد أن فكر تفكيراً جدياً في إقامة تنظيم إسلامي يجمع الشباب المثقف، ولكن حين علم أن الذي يفكر فيه قد سبقه إليه الشهيد المرحوم حسن البنا، فقد كتب كلمة إهداء في مقدمة كتابه هذا «العدالة الاجتماعية» إلى حسن البنا وكان البنا آنذاك يصارع الإنجليز والحكومات المصرية العميلة على حد سواء والذي كان نتيجته استشهاد المرحوم البنا غيلة بأيدي زبانية الملك السابق فاروق. يقول محمد فياض «لقد قرأت لسيد خمسة كتب، ورأيي فيه أنه عالم شامل مطلع على المنطق والفلسفة والاقتصاد وكتابه «العدالة الاجتماعية في الإسلام» فريد في بابه فريد في شموله وتكامله».

الجهاد يكون بالسنان كما يكون بالقلم واللسان، وإذا كان سيد لم يجاهد بنفسه، فقد سخر فكره وقلمه للجهاد في سبيل الله والذود عن حياض الإسلام.

فمنذ عام ١٩٤٩ بدأ سيد يشعر بأن الكتابات الإسلامية إذا لم تكن هادفة فإنها تبقى في عداد التراث الذي لا يوقظ أمة ولا يحيي قلوباً، ولهذا انتقل نقلة سريعة أخرى من مرحلة الكتابة الإسلامية العامة إلى الكتابة الإسلامية الهادفة، وقد كان لاستشهاد المرحوم حسن البنا وإراقة هذا الدم الزكي بأيدي الطغاة أثر كبير في نفسية الشهيد سيد، فكتب مقالاً في

ذكرى استشهاد البنا بعنوان « شهيد يرثي شهيداً »، فصمم على السير مع الركب، وأن يغذ السير في ذلك الدرب، فألف العديد من الكتب الإسلامية المنهجية دافع فيها عن الإسلام وأظهر محاسنه كنظام رباني ومنهج حياة وهاجم المبادئ الوضعية والأفكار المستوردة، ومن هذه الكتب « معركة الإسلام والرأسمالية » و« السلام العالمي والإسلام » و« نحو مجتمع إسلامي » و« دراسات إسلامية » و « الإسلام ومشكلات الحضارة ». وقد كتب السيد محب الدين الخطيب – رئيس تحرير مجلة الأزهر – مقدمة كتاب « دراسات إسلامية » وهو يحوي مجموعة مقالات سيد قطب فقال « إنه كتاب السنة في أدب القوة، ولا أعرف كتاباً صدر في هذه السنة ليتحدث عن الحق بلسان القوة كما تحدث أخي الألمعي البليغ الأستاذ سيد قطب في هذا الكتاب ».

وأعتقد أن مرحلة النضوج الفكري والسمو العقائدي بدأت عند سيد قطب في السجن بعد أن اعتقل عام ١٩٥٤م، والمحن عادة تجمع الأجزاء المتفرقة، وتنقي الروح والقلب من الشوائب ويدخل الإنسان في مرحلة الصراع الحقيقي مع نفسه ومن خلفها الدنيا بشهواتها وإغراءاتها فإن ثبت على الجادة، فقد عرف الطريق، الطريق إلى العلم اللدني الذي يؤتيه الله لمن يشاء من عباده، لقد عرض الطغاة على سيد الدنيا بزخرفها وأن يخرجوه مما هو فيه من العذاب ولكن روحه كانت تحن إلى الآخرة فرفض كل الإغراءات وقال كلمته المشهورة لمن جاء يساومه « إذا كنت مسجوناً بحق فأنا أرتضي حكم الحق، وإن كنت مسجوناً بباطل فأنا أكبر من استرحم الباطل ». ولقد صدر له في هذه المرحلة العديد من الكتب التي تعتبر بحق ذروة الانتاج الحركي الإسلامي مثل كتاب « هذا الدين » وكتاب « المستقبل لهذا الدين » و« خصائص التصور الإسلامي » و« معالم في

الطريق » وكان جماع هذه الكتب وذروتها سفره الضخم « في ظلال القرآن ». فقد ترجم كتاب « هذا الدين » إلى الإنجليزية والأوردية والألمانية والسواحلية، وترجم كتاب « المستقبل لهذا الدين » إلى التركية، كما ترجم كتاب المعالم إلى الفارسية أكثر من مرة، وكتب سيد لاتخلو منها مكتبة مفكر إسلامي أو باحث أو داعية بل إن هذه الكتب انتشرت انتشاراً واسعاً بعد استشهاده حتى أنه روي أنها موجودة بين أيدي مسلمي الاتحاد السوفيتي يتداولونها سراً لأن روسيا الشيوعية تطارد كل من يقرأها أو يروج لها أو ينشر أفكارها، يقول السيد « محمد علي الضناوي » في كتابه، « الطريق إلى حكم إسلامي » لم تتضح المبادئ التي حددها الإمام الشهيد حسن البنا إلا « بالمعالم » التي رسمها الشهيد سيد قطب.

٤ - جهاده

لقد كان سيد رحمه الله يشعر بآلام قومه في مصر وآلام المسلمين في كل مكان، وكان يرى أن الطغاة لايعرفون السلام لأن السلام عندهم استسلام الضعيف للقوى، ولهذا كان في جميع كتاباته يحرض المسلمين على إزالة الطغيان بكل ما أوتوا من قوة، فكتب مقالاً بعنوان « إلى النائمين في العالم الإسلامي » قبل قيام الثورة بمصر بأسبوعين، كما كتب مقالاً بعنوان « العبيد » حاول نشره في عهد الطغيان فحيل بينه وبين نشره ومقالاً ثالثاً بعنوان « محطم الطواغيت » كما أن كتابه « العدالة الاجتماعية في الإسلام » أحدث ضجة كبرى في مصر وكان ضباط الجيش المصري يتلقفون مقالاته ويقرأونها ويتتلمذون عليها ويتداولونها بينهم بطرق سرية، مما ساعد على إيجاد السخط والغليان بين صفوف الجيش المصري ضد الطاغية فاروق وأعوانه.

وكعادة المستعمرين يحاولون إطفاء كل جذوة متقدة بإرسال صاحبها إلى الغرب لكي يتأقلم بالحياة الغربية ويتأثر بها. ولهذا أرسلوا سيد عام ١٩٤٨م في بعثة ثقافية إلى الولايات المتحدة الأمريكية لدراسة المناهج التعليمية فيها، وبقي هناك حوالى سنتين ونصف، فبدل أن تؤثر الحياة الغربية في سيد أوجدت عنده ردة فعل إيمانية نتج عنها الايمان بأن حضارة الغرب خاوية وهي تسير نحو الإفلاس وان البديل الوحيد لها هو الحضارة الإسلامية التي تقوم على أساس المقومات الفطرية للإنسانية والتوازن بين حاجات الجسم وحاجات الروح في الإنسان، وهذا يؤكد أصالة التربية الإسلامية عند سيد، وعمق الفكر الإسلامي في نفسه، ولهذا أخذ يقيس الخط الأعوج الذي عليه الحضارة الغربية بالخط المستقيم الذي عليه الحضارة الإسلامية، لا كما يفعل أقزام الكتاب يزنون الحضارة الإسلامية الربانية الصحيحة بميزان الحضارة الغربية الوضعية المنحلة، ولهذا أرسل سيد أثناء وجوده في أميركا رسالة إلى توفيق الحكيم يهاجم فيها الحضارة الغربية المادية والتي لاتأبه بالقيم الروحية والإنسانية، ولما عاد إلى مصر في عام ١٩٥١ أخذ يكشف سياسة أميركا ويتهمها بإفساد الفطرة وتدمير خصائص الإنسان، ونشر مقاله الأول «أميركا التي رأيت» ثم نشر كتابه «الإسلام ومشكلات الحضارة» كشف فيه فضائح النظام الأميركي التربوي، وأشار إلى أنه وسيلة لتدمير الإنسان وخاصة في عالمنا الإسلامي لما ينشره من الفساد والإلحاد والتي تقوم عليه مؤسسات وجامعات تربوية غايتها تدمير الشخصية الإسلامية لتذويبها في الحضارة الغربية ولم يقف عند هذا الحد بل قدم اقتراحات إسلامية تربوية بديلة، ولهذا أثارت آراؤه رجال المعارف المتأمركين المخدوعين، فشنوا عليه حملة شعواء حتى أنه اصطدم بوزير المعارف آنذاك، وقدم استقالته حينما شعر بأن الوظيفة ستحجر على أفكاره ومعتقداته.

٥- سيد والثورة

لقد كان لكتابات سيد قطب رحمه الله أثر فعال في إشعال الثورة المصرية عام ١٩٥٢م، فقد تتلمذ عليه الكثير من ضباط الجيش والشعب المصري، وخاصة حينما كانت تدعو بقوة إلى مواجهة الطغيان وتحطيمه، ولهذا أيد سيد رحمه الله الثورة المصرية ونشر عدة مقالات بهذا المعنى منها مقاله «نحن الشعب» وفي نفس الليلة التي قامت فيها الثورة، توجه ضابط وعدد من الجنود بدبابة حربية إلى بيت سيد في حلوان، واصطحبوه معهم إلى مقر قيادة الضباط الأحرار في كوبرى القبة في القاهرة، لكي يكون مستشاراً لزعماء الثورة، فكان رحمه الله المدني الوحيد الذي يحضر بصفته الشخصية جميع جلسات مجلس قيادة الثورة، ويشترك مع الضباط في التصويت على القرارات المتخذة، وبقي على ذلك حوالى ستة أشهر حتى اختلف معهم في الأسس التي يجب أن تقوم عليها «هيئة التحرير» ولما طلبت حكومة الثورة من الإخوان ترشيح عدد من الأشخاص ليشتركوا في الوزارة العسكرية برئاسة اللواء محمد نجيب والتي خلفت وزارة علي ماهر، رفض الإخوان الاشتراك في هذه الوزارة إلا أن المرشد العام للإخوان المرحوم حسن الهضيبي رشح سيد قطب كصديق لمنصب وزارة المعارف، ولم يكن سيد قد قبل رسمياً في صفوف الجماعة، ولما بدأ الخلاف بين حكومة الثورة والإخوان، حاول رجال الثورة استغلال طاقات سيد الفكرية وشخصيته الإسلامية فعرضوا عليه أن يكون مرشداً عاماً للإخوان المسلمين - تحت وصايتهم - وأن يسندوا إليه وزارة المعارف أيضاً فأدرك سيد خطتهم وانهم إنما أرادوا بذلك شق صفوف هذه الجماعة المؤمنة فقال لهم قولته المشهورة: «أكون غاشاً حينما أقول ان الإخوان يجتمعون على غير مرشدهم حسن الهضيبي» ونظراً لصلابة عوده في الحق فقد كان من

الرعيل الأول الذين دخلوا السجون والمعتقلات، وحكم عليهم بالمدد الطويلة مع الأشغال الشاقة.

٦- سيد والإخوان[١]

سأختصر في بيان هذا النشاط من وقت التحاقي بالجماعة سنة ١٩٥٣م إلى سنة ١٩٦٥م لأتوسع فيما بعد ذلك. إذ أن هذه الفترة الأولى ليس فيها بالنسبة لي شيء ذو أهمية، أكثر من أنه تمهيد للفترة التالية. ثم إن أحداثها قد انتهى أمرها فيما عدا حادثاً واحداً شديد الأهمية، ولو ثبت فقد يغير وجه تاريخ العلاقات بين الدولة والإخوان المسلمين، ويغير وضع قضية ١٩٥٤ وسأذكره في مناسبة في سياق التقارير.

لم أكن أعرف إلا القليل عن الإخوان المسلمين إلى أن سافرت إلى أمريكا ١٩٤٨ في بعثة لوزارة المعارف «كما كان اسمها في ذلك الحين» وقد قتل الشهيد حسن البنا وأنا هناك في عام ١٩٤٩م، وقد لفت نظري بشدة ما أبدته الصحف الأميركية. وكذلك الإنجليزية التي كانت تصل إلى أميركا من اهتمام بالغ بالإخوان ومن شماتة وراحة واضحة في حل جماعتهم وضربها وفي قتل مرشدها، ومن حديث عن خطر هذه الجماعة على مصالح الغرب في المنطقة وعلى ثقافة الغرب وحضارته فيها وصدرت كتب بهذا المعنى سنة ١٩٥٠، اذكر منها كتاباً لجيمس هيوارث دن بعنوان: التيارات السياسية والدينية في مصر الحديثة. كل هذا لفت نظري إلى

(١) نشرت جريدة (المسلمون) التي تصدر في لندن في عددها الثاني ٢٦ جمادى الأولى ١٤٠٥ الموافق ١٦ فبراير ١٩٨٥، نص وثيقة مكتوبة بخط سيد قطب رحمه الله، ومكونة من ٥٠ صفحة كتبها قبيل استشهاده ويروي فيها قصته مع الإخوان من البداية حتى الإعدام.

أهمية هذه الجماعة عند الصهيونية والاستعمار الغربي. في الوقت ذاته صدر لي كتاب « العدالة الاجتماعية في الإسلام » سنة ١٩٤٩م، مصدراً بإهداء هذه الجملة: « إلى الفتية الذين ألمحهم في خيالي قادمين يردون هذا الدين جديداً كما بدأ، يجاهدون في سبيل الله لايخافون لومة لائم.. الخ » ففهم الإخوان في مصر أنني اعنيهم بهذا الإهداء، ولم يكن الأمر كذلك، ولكنهم من جانبهم تبنوا الكتاب، واعتبروا صاحبه صديقاً وبدأوا يهتمون بأمره، فلما عدت في نهاية عام ١٩٥٠، بدا بعض شبابهم يزورونني ويتحدث معي عن الكتاب ولكن لم تكن لهم دار لأن الجماعة كانت لا تزال مصادرة. واستغرقت أنا عام ١٩٥١ في صراع بالقلم والخطابة والاجتماعات ضد الأوضاع الملكية القائمة والإقطاع والرأسمالية واصدرت كتابين في الموضوع غير مئات المقالات في صحف الحزب الوطني الجديد والحزب الاشتراكي ومجلة الدعوة التي أصدرها الاستاذ صالح عشماوي ومجلة الرسالة وكل جريدة أو مجلة قبلت أن تنشر لي، بلا انضمام لحزب أو جماعة معينة وظل الحال كذلك إلى أن قامت ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢م.

ومرة أخرى استغرقت كذلك في العمل مع رجال ثورة ٢٣ يوليو حتى فبراير سنة ١٩٥٣م عندما بدأ تفكيري وتفكيرهم يفترق حول هيئة التحرير ومنهج تكوينها وحول مسائل أخرى جارية في ذلك الحين لاداعي لتفصيلها. وفي الوقت نفسه كانت علاقاتي بجماعة الإخوان تتوثق باعتبارها في نظري حقلاً صالحاً للعمل للإسلام على نطاق واسع في المنطقة كلها بحركة إحياء وبعث شاملة وهي الحركة التي ليس لها في نظري بديل يكافئها للوقوف في وجه المخططات الصهيونية، والصليبية الاستعمارية التي كانت قد عرفت عنها الكثير وبخاصة في فترة وجودي في أمريكا.

وكانت نتيجة هذه الظروف مجتمعة انضمامي بالفعل سنة ١٩٥٣م، إلى

جماعة الاخوان المسلمين. ومع ترحيبهم - على وجه الاجمال - بانضمامي إلى جماعتهم إلا أن مجال العمل بالنسبة لي في نظرهم كان في الأمور الثقافية لقسم نشر الدعوة ودرس الثلاثاء والجريدة التي عملت رئيساً لتحريرها وكتابة بعض الرسائل الشهرية للثقافة الإسلامية، أما الأعمال الحركية كلها فقد ظللت بعيداً عنها.

ثم كانت حوادث ١٩٥٤ فاعتقلت مع من اعتقلوا في يناير وافرج عنهم في مارس ثم اعتقلت بعد حادث المنشية في ٢٦ اكتوبر كذلك، واتهمت بأني في الجهاز السري ورئيس لقسم المنشورات به، ولم يكن شيء من هذا كله صحيحاً.

٧- ضرب الاخوان كان لمصلحة جهة أجنبية

في عام ١٩٥١ سافر الدكتور أحمد حسين وزير الشؤون الاجتماعية في وزارة الوفد إلى أمريكا، وعاد منها مستقيلاً من الوزارة، ورغم كل التوصيات التي قدمها له النحاس باشا فقد اصر على الاستقالة ثم أخذ بعدها في تكوين «جمعية الفلاح» وفي مقدمة أهدافها تحقيق العدالة الاجتماعية للفلاحين والعمال وبرنامج ضخم حول هذه الأهداف.. وهللت الصحافة الأمريكية للجمعية بصورة كشفت عن طبيعة العلاقة بين الجمعية والسياسة الأمريكية في المنطقة.. ووضعت الهالات الكبيرة حول الشاب الدكتور أحمد حسين وحرمه المتخرجة على ما أذكر في الجامعة الأمريكية - وانضم إلى هذه الجمعية رجال كثيرون برياسة الشاب الدكتور أحمد حسين مع أنهم أكبر منه شأناً ومقاماً في ذلك الحين، ومنهم الدكتور محمد صلاح الدين وزير الخارجية بوزارة الوفد والدكتور عبد الرزاق السنهوري وزير المعارف في وزارة السعديين ورئيس مجلس الدولة من قبل

وامثالهم.: وهي ظاهرة تلفت النظر. وكان الشيخ الباقوري ممن انضم اليها، المهم فيما يتعلق بالخلاف بين رجال الثورة والإخوان المسلمين، وكنت في ذلك الوقت ألاحظ نموه عن قرب، لأنني أعمل اكثر من اثنتي عشرة ساعة يومياً قريباً من رجال الثورة ومعهم ومع من يحيط بهم.. أقول المهم أن الأستاذ فؤاد جلال «توفي وكان وزيراً في أول وزارة برياسة الرئيس السابق محمد نجيب» كان من بين أعضاء جمعية الفلاح وكان وكيلاً للجمعية. وكنت ألاحظ في مناسبات كثيرة أنه يغذي الخلاف بين رجال الثورة والاخوان المسلمين، ويضخم المخاوف منهم. ويستغل ثقة الرئيس جمال عبد الناصر به، ويبث هذه الأفكار في مناسبات كثيرة لم يكن يخفيها عني لأنه كان يراني كذلك مقرباً من رجال الثورة وموضع ثقتهم مع ترشيحهم لي لبعض المناصب الكبيرة الهامة ومع تشاورنا كذلك على المفتوح في الأحوال الجارية إذ ذاك، مثل مسائل العمال والحركات الشيوعية التخريبية بينهم بل مثل مسألة الانتقال ومدتها والدستور الذي يصدر فيها.. الخ.

المهم أنني كنت اربط بين خطة الأستاذ فؤاد وجمعية الفلاح كمنظمة امريكية الاتجاه والاتصال وبين اشعال الخلاف بين الثورة والاخوان، وقد حاولت في وقتها ما امكن منع التصادم الذي كنت ألمح بوادره، ولكني عجزت، وتغلب الاتجاه الآخر في النهاية.

ولكن ما علاقة هذه المقدمة الطويلة بحادث المنشية؟ والقضية الجديدة؟ منـذ أن وقع هذا الحادث وأنا أشك في تدبيره. لم أكن أعلم شيئاً يقينياً عن ذلك. ولكن كل الظروف المحيطة كانت تجعلني أشك في أنه ليس طبيعياً. كان شيء ما يلح على تفكيري في أنه مدبر لتكملة الخطة التي تنتهي بالتصادم الضخم بين الثورة والاخوان تحقيقاً لأهداف أجنبية. أرجح من

استقراء الأحوال ومن خطة الأستاذ فؤاد جلال وكيل جمعية الفلاح أنها أمريكية.

وعندما كان السيد صلاح دسوقي يستجوبني هنا في السجن الحربي عام ١٩٥٤ صارحته برأيي في تدبير الحادث. وقد انتفض وقتها بشدة وهو يقول لي: هل أنت كذلك بكل ثقافتك من الذين يقولون إنها تمثيلية؟ وقلت له: أنا لا أقول إنها تمثيلية ولكني أقول إنها مدبرة لهدف معين وأن اصبعاً أجنبياً ذات دخل فيها. فقال لي وقتها وقد هدأ اضطرابه: جايز ولكن واحداً من الإخوان المسلمين هو الذي قام بالحادث. ثم أعود لسرد الأحداث المتعلقة بنشاطي بعد عام ١٩٥٤ أن شعوري وتقديري بأن حادث المنشية مدبر تدبيراً، جعل يملأ نفسي رغبة في معرفة الحقيقة غير أنني لم أجد أحداً ممن التقيت بهم في سجن طره عام ١٩٥٥ وكانوا كثيرين قبل ترحيلهم إلى الواحات يدلني على هذه الحقيقة. كل من سألتهم ومنهم ناس قريبون جداً من محمود عبد اللطيف الذي انطلقت الرصاصة من مسدسه ومن هنداوي دوير كذلك قالوا لي: المسألة غامضة وموش عارفين الحكاية دي حصلت ازاي. وبعضهم قال: المسألة فيها سر لا يمكن الآن معرفته. وكانت كل الأجوبة لا تملك أن تعطيني الحقيقة.

غير أن هذا كله كان يزيد نفسي شعوراً من ناحية أخرى بأن السياسة المخططة من جانب الصهيونية والصليبية الاستعمارية لتدمير حركة الإخوان المسلمين في المنطقة تحقيقاً لمصالح ومخططات تلك الجهات قد تحققت بنجاح. وإنه في الوقت ذاته لابد من محاولة الرد على تلك المخططات بإعادة حياة ونشاط الحركة الإسلامية حتى ولو كانت الدولة لسبب أو أكثر لاتريد. فالدولة تخطئ وتصيب.

كما أنها كانت تملأ نفسى شعوراً بالظلم الذي أصاب آلاف الأفراد

وآلاف الأسر والبيوت. بناء على حادث واضح جداً تدبيره- حتى ولو لم يعلم بالضبط في ذلك الوقت من دبره- وبناء على الرغبة من حماية النظام القائم من خطر ضخمته أجهزة غريبة لأهداف واضحة كذلك من كتبهم وجرائدهم وتقريراتهم وفي مقدمتها تقرير جونسون عن نهر الأردن. ثم تضخم هذا الشعور وأنا أرى النتائج الواقعية في حياة المجتمع المصري من انتشار. هائل للأفكار الإلحادية وللإنحلال الأخلاقي نتيجة لتدمير حركة الإخوان المسلمين ووقف نشاطها التربوي. وكأنما كان وجود هذه الجماعة سداً قد انهار وانطلق بعده التيار.

وكنت أسمع عن ذلك كله في السجن، ولما خرجت وجدت أن كل ما سمعت كان دون الحقيقة بكثير. لقد تحول المجتمع إلى مثل مستنقع كبير.

إن المسألة أكبر بكثير مما يبسطها الذين ينظرون لما حدث على أنه مجرد تطور، إنها تتعلق بالمخططات الصهيونية والصليبية الاستعمارية في تدمير المقومات الأساسية للعناصر البشرية في المنطقة بحيث تصبح هذه الملايين حطاماً منهاراً لايملك المقاومة حتى لو وضعت في يده أقوى الأسلحة. فالرجال هم الذين يحركون الأسلحة وليست الأسلحة هي التي تحرك الرجال. والمجتمعات حين تنهار عقائدياً وخلقياً تصبح الملايين فيها غثاء لايقف في وجه التيار.

ويستطيع الإنسان أن يلحظ بسهولة علاقة هذا الانحدار بتدمير حركة الإخوان المسلمين ومنع نشاطها، كما يستطيع أن يربط بين هذا التدمير وبين الخطط الصهيونية والصليبية الاستعمارية بخصوص هذه الجماعة وبخصوص المنطقة بجملتها.

هذه هي رؤيتي للموقف الذي انطلق منه التصميم على ضرورة العمل

لحركة إسلامية امتداداً لحركة الإخوان المسلمين المصادرة الموقوفة. مع الانتفاع بالتجربة وبالتجارب التي سبقتها.

وفيما بين عام ١٩٥٥ وعام ١٩٦٢ كان التفكير في منهج الحركة وطريقة البدء بها. وهنا تبدأ مرحلة جديدة ذات وقائع محددة سأذكرها تفصيلاً.

ملاحظة: تذكرت الآن حادثة أخرى تضاف إلى حادث المنشية وظروفها تقع ما بين سنتي ١٩٥٥، ١٩٥٧ لذلك سأؤجل مؤقتاً الحديث عن محاولة تكوين حركة في سنة ١٩٦٢ كما قلت في الفترة السابقة، حتى أسرد ظروف تلك الحادثة التي تذكرتها.

٨- إلى السجن

دخل سيد السجن، فظن الطغاة أنهم بذلك يسجنون أفكاره ومبادئه، فكان كما كان يقول «إن سجني خلوة، وإن نفيي سياحة، وإن قتلي شهادة» ولهذا كان السجن نعمة لسيد وليس نقمة، ففي السجن بلغ نضوجه الفكري والعقائدي ذروته، وأصبح يكتب بنور الله، ويهتدى بهديه، ويطلب العون منه، وبالرغم أنه كان مريضاً بعدة أمراض لكن قلبه الكبير كان سليماً معافى، وحكم عليه بخمسة عشر عاماً مع الأشغال الشاقة، قضى منها في سجن «ليمان طره» عشر سنوات وأعفي من المدة الباقية نتيجة تدخل الرئيس العراقي آنذاك عبد السلام عارف شخصياً لدى عبد الناصر عند زيارته للقاهرة عام ١٩٦٤، ولما خرج من السجن عرض عليه الرئيس العراقي السفر معه إلى العراق، فاعتذر بأدب وقال له «إن مصر ساحة المعركة ولا أستطيع أن أخليها» وفي الفترة من ٦٤ - ١٩٦٥ خرج كتابه «معالم في الطريق» فأعيد اعتقاله مرة أخرى مع غيره

من الإخوان بتهمة تدبير مؤامرة لقلب نظام الحكم بالقوة، وصدر عليه الحكم بالإعدام بعد محاكمة صورية كان الخصم فيها هو الحكم، ولم يحاكم فيها سيد شخصياً ولكن الذي حوكم هو مقتطفات من كتابه معالم في الطريق.

كان سيد رحمه الله يشعر بأن هذه الدنيا ليست له بدار مقام، وأن الأيام التي يعيشها فيها لفكرته ورسالته هي الأيام التي تعد من عمره وتكون له شفيعاً في الآخرة، ولهذا كان حازماً شجاعاً في مواجهة الباطل، لايخشى في الله لومة لائم، كتب مقالاً بعنوان «لانصر كالشهادة» قال فيه «والناس يفسرون معنى النصر على صورة معينة معهودة لهم قريبة الرؤية لأعينهم، ولكن صور النصر شتى وقد يلتبس بعضها بصورة الهزيمة عند النظرة القصيرة... إبراهيم عليه السلام وهو يلقى في النار فلايرجع عن عقيدته ولا عن الدعوة إليها، أكان في موقف نصر أم في موقف هزيمة؟ ما من شك في منطق العقيدة أنه كان في قمة النصر وهو يلقى في النار... كما أنه انتصر مرة أخرى وهو ينجو من النار... والحسين رضوان الله عليه وهو يستشهد في تلك الصورة العظيمة من جانب، المفجعة من جانب، أكانت هذه نصراً أم هزيمة؟ في الصورة الظاهرة وبالمقياس الصغير كانت هزيمة، فأما في الحقيقة الخالصة، وبالمقياس الكبير فقد كانت نصراً فما من شهيد في الأرض تهتز له الجوانح بالحب والعطف وتهفو له القلوب وتجيش بالغيرة والفداء كالحسين رضوان الله عليه،... وكم من شهيد ما كان يملك أن ينصر عقيدته ودعوته ولو عاش ألف عام كما نصرها باستشهاده، وما كان يملك أن يودع القلوب من المعاني الكبيرة ويحفز الألوف إلى الأعمال الكبيرة بخطبة مثل خطبته الأخيرة التي يكتبها بدمه، فتبقى حافزاً محركاً للأبناء والأحفاد، وربما كانت حافزاً محركاً لخطى التاريخ كله مدى أجيال»، ولهذا قابل سيد حكم المحكمة بابتسامة عريضة

عبرت عما فاض به قلبه الكبير من السعادة والغبطة بقرب لقاء الله، فتقبل حكم الإعدام بشجاعة وثبات أو كما وصف نفسه «لم أعد أفزع من الموت ولو كان للحظة.. إني انتظر اللحظة فلا أراه إلا قوة ضئيلة حسيرة بجانب قوى الحياة الزاخرة الغامرة».

٩ - استشهاده

لقد صدر الحكم على سيد رحمه الله بالإعدام من محكمة أمن الدولة العليا في القاهرة في ٢ - ٨ - ١٩٦٦م، ونظراً لمنزلة الشهيد في العالم الإسلامي وخاصة بين الدعاة المخلصين من أبنائه فقد وجهت أربعة أحزاب باكستانية نداءات إلى عبد الناصر يناشدونه فيها إعادة النظر في الحكم، كما وجه نداءات مماثلة عدد كبير من الشخصيات الإسلامية والرسمية في العالم الإسلامي، كما قامت العديد من المظاهرات في العالم الإسلامي تستنكر الحكم بالإعدام على المفكر الإسلامي الكبير، ولم يبق شخص فيه بقية من إيمان أو غيرة على علماء الإسلام إلا واستنكر هذا الحكم، ومع ذلك ضرب عبد الناصر بنداءات جميع هؤلاء عرض الحائط، وأمر بتنفيذ الحكم الإعدام، فحاصرت قوات الجيش سجن القاهرة وهي في حالة استنفار قصوى وبكامل عدتها وعتادها، كما ركبت الرشاشات الثقيلة على أسطحة السجن، ومنع الصحفيون من دخول السجن، تحسباً لأية انتفاضة شعبية في مصر ضد الحكم ولكن مشيئة الله كانت نافذة، ففاضت روح سيد الطاهرة إلى بارئها فجر يوم ٩ - ٨ - ١٩٦٦م، وذهبت لتتبوأ منزلتها التي اختارها الله لها في مقعد صدق عند مليك مقتدر، فلحق سيد رحمه الله بقافلة الشهداء الأبرار من إخوانه.

كتب أحمد حسن «في فقه الدعوة» فقال: «لقد مات سيد قطب ولكن

آثاره لم تمت، فقد خلف من بعده كتباً وآثاراً ستبقى خالدة على التاريخ، إنها تمثل مكانة خاصة في نفوس أبناء هذا الجيل لاتساويها كتب أي كاتب آخر، كما أنها تعد مدرسة قائمة بنفسها، ومنعطفاً في تاريخ الفكر الإسلامي الذي ولى وجهه شطر العودة إلى الأصول».

ولما وصل خبر استشهاده إلى المغرب أقيمت على روحه الطاهرة صلاة الغائب كما أقيمت هذه الصلاة في معظم بلدان العالم الإسلامي، وأصدر أبو بكر القادري عدداً خاصاً به من مجلة «الإيمان» الإسلامية المغربية. ولما كانت نكبة حزيران ١٩٦٧م وانهزم فيها عبد الناصر وجيوشه قال علال الفاسي الزعيم المغربي «ما كان الله لينصر حرباً يقودها قاتل سيد قطب».

وفعلًا بدأ سيد يؤدي رسالته الحقيقية يوم سالت من دمه أول قطرة في سبيل الله وفعلًا لم يكن سيد ليستطيع نصرة دعوته ولو عاش ألف عام بالمقدار الذي نصرها فيه حينما عاش لها، وقضى نحبه شهيداً في سبيلها، فترك للأجيال القادمة منارة يهتدى بها، وجذوة يؤخذ من نارها وشمعة احترقت لتبين للمسلمين معالم الطريق ولتضيء لهم دروبها وتهديهم في سهلها وجبلها.

ورحم الله من قال:

يا شهيدا رفع الله به ... جبهة الحق على طول المدى

سوف تبقى في الحنايا علماً ... هاديا للركب، رمزاً للفدا

ما نسينا، أنت قد علمتنا ... بسمة المؤمن في وجه الردى

ثورة الإمام
حسن الهضيبي

١ - المقدمة

ولد الأستاذ الهضيبي في مطلع القرن الهجري الرابع عشر وعاش حقبة من الزمن رأى فيها ضعف الخلافة ثم إلغاءها، كما شاهد الهجمة اليهودية الصليبية على العالم الإسلامي وانبهار الناس بالحضارة الغربية، وقد سقط في هذه الحقبة العديد من المثقفين الذين رضوا لأنفسهم بأن يحملوا أسماءً إسلامية وقلوباً وعقولاً غربية، ولما كان رحمه الله من أوائل المثقفين في مصر، فقد حفظه إيمانه بدينه فصمد كالصخرة الصماء تتحطم عليها كل الأمواج العاتية، لقد صمد أمام كل ترغيب وترهيب وكل زيف وزيغ في الحضارة الغربية وبقي صامداً على دينه صابراً على أخلاقه وعاداته حتى هيأ الله له الانتظام في جماعة الإخوان المسلمين، فوجد فيها الإخوة الذين يعينونه على السير في الطريق الصحيح، كما وجد فيها المجتمع الذي يعين المسلم على أن يتخلق بأخلاق إسلامه ويعمل بإخلاص لدعوته.

وبعد ثلاثة وثمانين عاماً قضاها الفقيد في جهاد مستمر وعمل متواصل، ومن غير جلبة ولا ضجيج، وبكل تواضع وتسامح وعبر كلمات

خافتة في زاوية من جريدة الأهرام، وقعت العيون على نبأ وفاة المرشد العام للإخوان المسلمين المرحوم حسن الهضيبي، لقد أوصى رحمه الله أن لايُنعى، وأن يدفن فور موته في مقابر الصدقات، ولكن بعد جهد جهيد رضي بأن يدفن في مدافن العائلة دون أية مراسم. وهكذا كان فقد نقل جثمانه الطاهر إلى مسقط رأسه في عرب الصوالحة على بعد ثلاثين كيلومتراً من القاهرة في عدد قليل من أعضاء الأسرة والمقربين حيث ووري رحمه الله التراب فإلى جنة الخلد يا قائد الشهداء في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

٢- حسن الهضيبي في سطور

ولد حسن الهضيبي في عرب الصوالحة مركز شبين القناطر سنة ١٣٠٩ هجرية الموافق لشهر ديسمبر ١٨٩١ ميلادية.

★ قرأ القرآن في كُتّاب القرية، والتحق بعدها بالأزهر لما كان يلوح فيه من روح دينية وتقوى مبكرة. ثم تحول إلى الدراسة المدنية حيث حصل على الشهادة الابتدائية عام ١٩٠٧.

★ التحق بالمدرسة الخديوية الثانوية وحصل على شهادة البكالوريا عام ١٩١١م. التحق بمدرسة الحقوق وتخرج فيها عام ١٩١٥م. قضى فترة التمرين بالمحاماة في القاهرة حيث تدرج محامياً. وعمل في حقل المحاماة في مركز «شبين القناطر» لفترة قصيرة ورحل منها إلى سوهاج لأول مرة في حياته دون سابق علم بها ودون أن يعرفه فيها أحد وبقي فيها حتى عام ١٩٢٤ حيث التحق بسلك القضاء.

★ كان أول عمله بالقضاء في قنا، وانتقل إلى نجع حمادي عام ١٩٢٥ ثم

إلى المنصورة عام ١٩٣٠ ، وبقي في المنيا سنة واحدة، ثم انتقل إلى اسيوط فالزقازيق فالجيزة عام ١٩٣٣ حيث استقر سكنه بعدها بالقاهرة.

★ تدرج في مناصب القضاء ، فكان مدير إدارة النيابات، فرئيس التفتيش القضائي فمستشاراً بمحكمة الاستئناف، فمستشاراً بمحكمة النقض.

★ استقال من سلك القضاء بعد اختياره مرشداً عاماً للإخوان المسلمين عام ١٩٥٠م. واعتقل للمرة الأولى مع إخوانه في ١٣ يناير ١٩٥٣ وأُفرج عنه في شهر مارس من العام نفسه حيث زاره كبار ضباط الثورة معتذرين.

★ اعتقل للمرة الثانية أواخر عام ١٩٥٤م حيث حوكم وصدر عليه الحكم بالإعدام ثم خفف إلى المؤبد. ونقل بعد عام من السجن إلى الإقامة الجبرية لإصابته بالذبحة ولكبر سنه.

ورفعت عنه الإقامة الجبرية عام ١٩٦١ . ثم أعيد اعتقاله يوم ٢٣ - ٨ - ١٩٦٥ في الاسكندرية وحوكم بتهمة إحياء التنظيم، وصدر عليه الحكم بالسجن ثلاث سنوات على الرغم من أنه كان قد جاوز السبعين، أُخرج خلالها لمدة خمسة عشر يوماً إلى المستشفى ثم إلى داره، ثم أُعيد لإتمام مدة سجنه.

★ مُددت مدة السجن بعد انتهاء المدة حتى تاريخ ١٥ أكتوبر ١٩٧١ حيث تم الإفراج عنه. وأدى فريضة الحج في عام ١٩٧٢ .

★ انتقل إلى رحمة ربه تعالى في الساعة السابعة صباح يوم الخميس ١٤ شوال ١٣٩٣ الموافق ١١ نوفمبر « تشرين الثاني » ١٩٧٣ . رحمه الله وتغمده بواسع رحمته.

★ أما إذا انتقلنا إلى الجزء الآخر من موضوعنا، من هو الهضيبي؟ وما هي الميزات التي أهلته ليحتل هذه المكانة بين إخوانه، فإليك الرجل:

حسن الهضيبي هو المسلم الذي يحفظ القرآن منذ الحداثة والذي نشأ في طاعة الله فلم يفتر يوماً عن أداء الفرائض والواجبات الدينية. حسن الهضيبي هو الإنسان الكريم الذي لم ير قط في موطن ريبة منذ كان تلميذاً إلى أن صار مستشاراً.

وهو المثل المضروب بين زملائه وعارفيه على الاستقامة ومتانة الخلق وقوة الشخصية وإباء المجاملة في الحق أو الخشية إلا من الله.

وقد طبع بيته بطابع الإسلام في آدابه وعاداته وأزيائه بصورة قل أن تراها في بيوت الذين يتصدرون دعوة الدين، بله الذين تقلدوا باسم الدين أرفع المناصب والألقاب. وحسن الهضيبي هو الذي استنفر كبار المستشارين للانقضاض على القانون المدني الجديد لمخالفته أصول الشريعة فلما انقطعت أنفاسهم دون ملاحقته بالهجوم السافر مكتفين بتقديم مذكرة نقد رقيق، انطلق وحده إلى مقر لجنة القانون وسجل في مضبطتها الرسمية أنه يستنكر كل قانون لايستمد من الشريعة الغراء، أو تتضمن مواده حكماً يتعارض مع نص في الكتاب والسنة. وقد كان ذلك موضع حديث الصحف المصرية حتى لقد نقلته جريدة الإخوان المسلمين بعنوان «الهضيبي ينصر الله» عن جريدة أخبار اليوم ذات المسلك المعروف من الدين والأخلاق.

أما عن دعمه للجماعة ودفاعه عنها فإن للرجل جهداً مشكوراً ومساهمة طيبة في شراء دار المركز العام.

وقد أدى مثل هذه المؤازرة للدعوة في أثناء غضبتها لنجدة فلسطين. ولقد أوعز إلى عشيرته وهم أفاضل كثر بإنشاء شعبة للإخوان في قريتهم في

عرب الصوالحة وفيا يجاورها من القرى. ولقد وفق بأسلوبه الخاص وتوجيهه الهادئ إلى إحياء الدعوة في منطقة شبين القناطر.

الأستاذ الهضيبي لم تفتر صلته بالإمام الشهيد ولم يقصر يوماً في إمداده بالرأي والعون المثمر في كل موقف يقتضي ذلك قبل المحنة الأولى وبعدها على السواء، بل كان يشارك في جلسات خلصاء الإخوان المسؤولين التي ترسم فيها سياسة الجماعة قبل استشهاد المرشد رحمه الله وبعد استشهاده.

ولقد بادر عقب قرار الحل بلقاء المرشد الشهيد حيث وضع نفسه وبيته وأولاده ومنصبه وماله جميعاً تحت تصرف الدعوة ورهن إشارة المرشد بصفة خاصة.

وكان وحده الصّديق للدعوة في محيطه القضائي، حتى لأجزم بأنه العامل الأول والأوحد في تنظيف سمعة الجماعة وإلحاق مسؤولية الحوادث بأشخاص فاعليها، وتحرير دوائر القضاء من التأثر بحملة الأكاذيب والمفتريات التي عمدت الحكومة إلى تحويل القضاء بها عن جادة العدل وإغوائه بإصدار أحكام جائرة ظالمة فيا لفقت الحكومة من اتهامات.

وكان الهضيبي يتابع نشرات قيادة الإخوان المؤقتة بعد استشهاد الإمام ويزودها بالنصائح التي تجعلها بمنأى عن إثارة الحفيظة وسلطان القانون وأكثر إصابة للهدف وقياماً بالواجب، وهو إحكام تنظيم الصفوف وتدعيم الثبات والثقة في الله بين الإخوان العاملين.

وكان له في العناية بأسر المعتقلين والسجناء جهود لا يحسن الكشف عنها بأكثر من هذه الإشارة.

٣- صفاته

وإذا كان أكبر ما في حسن الهضيبي صموده وتحديه قوى البغي والطغيان رغم كبر سنه ومرضه، فإن أبرز ما اتسمت به شخصية حسن الهضيبي هو مقته الشديد للظهور وإيثاره البعد عن الأضواء ما استطاع. وقد كان يرفض أن تؤخذ له صورة، كما رفض أن يسجل مذكراته إيثاراً لما يحتسبه عند الله من أجر، وإذا كان الهضيبي يؤثر الصمت والبعد عن الأضواء فإن ذلك مكرمة منه وفضلاً، ولكن من حق حسن الهضيبي ومن قبله الإمام الشهيد حسن البنا، أن يكون كل منهما أسوة وقدوة، ومنارة على طريق العاملين، فالشباب اليوم يتلمس العظمة في رجال من الغرب أو الشرق، هم في حقيقتهم أقزام إذا ما قيسوا بعظماء المسلمين القدماء منهم والمحدثين. فلقد سجل رجال الدعوة الإسلامية في عصرها الحديث بطولات نستطيع أن نقول مطمئنين بأنها ترقى إلى مستوى ما سجله الرعيل الأول من المسلمين الأولين، وواجب الحركة الإسلامية أن تكرم شهداءها وأبطالها، ليس لتخليدهم، وإنما ليكونوا منارات على الطريق يستضيء بها السالكون.

إن الجانب النفسي في فقيدنا الفذ رضي الله عنه وأرضاه، والذي منحه الصلابة في الحق، يتطلب منا أن نقف عنده كثيراً.. فما أحوج الدعاة والقادة أن يعرفوه ويفهموه، ذلك أنه المعين المفقود في حياة هذه الأمة، فليست أمتنا فقيرة في العلم أو في الرجال أو في المال، لكنها فقيرة في النفوس الكبيرة التي تعرف الحق فتحبه ويجري في عروقها وأعصابها كما تجري دفقات الدم وعصارات الحياة، لقد كان حسن الهضيبي عليه مغفرة الله من ذلك النوع الفريد الذين وهبهم الله ذلك الرصيد الهائل في معرفة الحق والثبات عليه. فكان إيمانه بالله عز وجل- وثقته به ويقينه بوعده

ورعايته لأوليائه وعباده- شيئاً يسيرُ في كيانه ويملكِ عليه جوانحه. فكنت تراه في موقف الرغب ذا بصر بالرجال لاتخدعه الشارات ولا ما تضفيه المناصب من أجواء وهالات، إنه يقول الحق ولو كان مراً مذاقه، ويعرف حق الإسلام عليه حتى ولو عصى نفسه.. كما كنت تراه في موقف العواصف الهوجاء وهو سجين أعزل وإخوانه وأبناؤه من حوله يجلدون ويعذبون يتقدمهم جميعاً بقلب ثابت وأعصاب هادئة ليقول كلمته في وجه السفاح: «إن هؤلاء خيرة شباب مصر فاحفظوهم ذخيرة لها وخذوا مني ما تريدون»، وما أكثر ما مرت به أزمات صحية ونقل في بعضها إلى المستشفى، فما إن تزول الأزمة إلا ويطلب بنفسه أن يعود إلى حيث كان، ليظل مشاركاً إخوانه وأبناءه. وكان يقول: «إن السجن حالة نفسية وليس هو الجدران والأسلاك».

لقد كان الإسلام يملأ جوانحه وأخلاقه، يحيا بها ولها، ويعرف أنَّ الفقر الأخلاقي هو الداء العضال في هذه الأمة، وعدم مراقبة الله وخشيته هي الداهية الدهياء..... فكان يقول لإخوانه دائماً: «أقيموا دولة الإسلام في نفوسكم تقم على أرضكم» ويقول «ميدانكم الأول أنفسكم، فإذا انتصرتم عليها كنتم على سواها أقدر». وكان يرى الثبات الخلقي هو الرصيد المذخور وهو برهان الخير وأمل النصر، وسوف لا أنسى ما حييت ما قصه علينا، وقد فاضت عيناه. تأثراً من قصة ذلك الأخ الفقير الذي وجد ساعة ثمينة لأحد الباشوات بينما كان ينظف دورة المياه في أحد المعتقلات، وذهب الأخ ليردها فاقترح أحد زملاء هذا الكبير أن يدفع له شيئاً من المال جزاء أمانته ورده الساعة، فقال الأخ في نفس عالية: «إنني ما زدت أن رددت أمانتك إليك، ولا أريد بذلك إلا وجه الله، ولا حاجة لي في مالك» ثم قال الأستاذ عليه رحمة الله «ولقد كنت أعلم أنه في أمسِّ الحاجة

ولكنها العفة والطهارة » ثم فاضت عيناه.

إن رسوخ هذه المعاني في نفسه جعله لايحفل بالمظاهر مهما كان نوعها، ويرنو ببصره وبصيرته إلى المعايير السليمة فيزن بها الرجال والمواقف، لقد كان واضحاً في نفسه أن هذه الدعوة تريد أن تجدد نفسية هذه الأمة، وأن تعيد هذه النفسية إلى حالتها القوية الصلبة، ليحدث الإصلاح المنشود والتغيير المأمول، مصداقاً لقول الله عز وجل: ﴿إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾. ولهذا حينما رأى محاولات الاحتواء والتذويب وتغيير المنهج وقف كالطود الشامخ يقول لمقابله: « ما على هذا أيدناك ولا نصرناك إنما على الإسلام والإسلام وحده ».

وكان يدرك تمام الإدراك واقع الأمة وظروفها ويقدر المسافة التي يجب أن تقطعها لتصل إلى غايتها. ولهذا كان عملياً في نظرته واسع الأفق في تقديرها لأحوالها... وكان يعرف أن الزمن جزء من العلاج، وكان لايحب تعجل الأمور ولا اعتساف الحلول. كان يتمنى أن يتفهم الناس ذلك ويأخذوا الخير ما يستطيعون إلى ذلك سبيلاً، ويقللوا طرق الجفاء والقطيعة ما وسعتهم السبل في ذلك. ولكنه مع هذه النظرة الفسيحة كان يرفض الخلط وتلبيس الحق بالباطل، فإن تقدير الواقع شيء واستنقاذ ما يمكن من خير منه شيء آخر.

كان يكره المهاترات وينأى بنفسه عن الصغائر، وكان يدفع بالتي هي أحسن ولا يحمل في نفسه الكبيرة إلا الخير للجميع، وما جاءه أحد يقدم نفسه لخدمة الإسلام إلا قال له بلسان حاله ومقاله: إن هذا الإسلام ملك للمسلمين جميعاً وليس المهم تعليق اللافتة، ولكن المهم فهمه والعمل به، وما أساء إنسان وندم وجاءه ثانية إلا ورحب به. وفتح قلبه له، فقد كان لايحب أن يشغل نفسه بالقضايا الصغيرة عن القضايا الكبيرة، كان يؤمن

تمام الإيمان أن هذه الدعوة واحة كبيرة للمسلمين جميعاً ينفذ قولة الإمام الشهيد عليها رحمة الله: « نعمل فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا عليه ».

وكان تواضعه وسماحته وبساطته مضرب الأمثال، فرغم مستواه الاجتماعي وتقلده المناصب العليا في القضاء رأى الناس منه ما ألف قلوبهم وحببهم في دينهم، فقد رحل إلى الصعيد وزار قراه ودساكره ثم الوجه البحري ونزل في دور الإخوان وشعبهم ومضى على سنن الفطرة يرفض التكلف والمظاهر ويهتم بالأعمال والحقائق. ولما جاء حاجاً بعد المحن المتتابعة التي رآها والسنين العجاف التي قضاها والشيخوخة التي وصل إليها، أشفق إخوانه وأحباؤه عليه وتمنوا عليه أن يقبل النزول في فندق من الفنادق الكبيرة لتكون الراحة أكمل والخدمة أحسن، فرفض وأبى إلا أن ينزل في المخيم العادي وينام في الخيمة العادية، وقد كان معه عذره لو قبل، ولكنها النفس الكبيرة والقيادة الأمينة، تقدم من نفسها وتنفق مما وهبها ربها:

وإذا كانت النفوس كباراً ... تعبت في مرادها الأجسام
إن الذي خلق الحقيقة علقما ... لم يُخل من أهل الحقيقة جيلا[1]

ولقد علم الأجيال، عزيمة الأبطال، وثبات الرجال، وكانت حياته صورة دعوته إيماناً وصبراً، ورعاية للحق وجهراً به، وثباتاً عليه، دون مهادنة أو مساومة، مع التعذيب الشديد، والأذى العاتي الذي ناله بسبب

(١) من مقال للمرحوم عبد الحكيم عابدين، السكرتير العام للإخوان المسلمين. مجلة الشهاب البيروتية. العدد ١٣، ٦ ذي القعدة ١٣٩٣ هـ. والعدد ١٤، ٢١ ذي القعدة ١٣٩٣ هـ.

صلابته في الحق، وثباته عليه في وجه الظلم والظالمين، ومع شيخوخته في السن وأمراضه التي لحقته- من جراء التعذيب والإيذاء- وصاحبته طوال المحنة القاسية، فلله تلك النفس المؤمنة، الصابرة المحتسبة، المسلمة المجاهدة، المؤثرة لما عند الله، الطالبة لثواب الله ورضوانه، بالصبر على ما تلقاه من تعذيب الطغاة والظالمين، التي لقيت ألوان العذاب في سبيل الله، وما انحرفت ولا ضعفت ولا استكانت لغير الله، حتى لقيت وجه ربها راضية مرضية إن شاء الله.

في صباه الباكر، في شبابه الغض، في رجولته السوية، في كهولته الواعية وفي شيخوخته الوقورة، كان حسن الهضيبي الصادق الذي لايكذب، العف الذي لايترخص، المستقيم الذي لايداهن، الأبي الذي لايخنع، الشجاع الذي لايدبر، الجلد الذي لايتذمر، بل كان- كما قال العربي من قبل- لايمل حتى يمل النجم، ولا يهاب حتى يهاب السيل، ولا يظمأ حتى يظمأ البعير، وكان فوق ذلك جذوة من الإيمان والجهاد لا يسكن إلى دعة ولا يهادن على مبدأ، عنواناً على الخلق والترفع لايستنزله عنها إسفاف حاسد أو سلاطة منابذ، جبلاً في الثبات على ما يؤمن به، أرعدت القواصم أم أبرقت المغانم، منهلاً للإيثار يمنع الري نفسه وأهله حتى يرتوي منه ذوو الحاجة والأباعد، داعية لا يخطئ في أحد ممن يدخل في ولايته سلطان دعوته الغالب، وتلك خصيصة لايشتد فيها بخير إلا أزر المصلح المجاهد، ولا يبلغها من قادة الدعوات إلا الصفوة القلائل، وحسبك أن يمتدح بها القرآن الكريم أكثر من نبي في مثل قوله تعالى ﴿وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضياً﴾.

ويقودني الإلمام بهذه الخصيصة من شمائل المرشد الراحل إلى التحدث عنه طيب الله ثراه في اثنتين من أبرز النواحي التي تميزت بها شخصيته

ومعالم سيرته ومنهاجه. أولاهما: الوحدة بين مبادئه وسلوكه متمثلة في نماذج من مواقفه وأخلاقه. والأخرى: سلطان دعوته على أهل بيته ومن تشملهم ولايته.

وقبل الاسترسال في عرض هاتين الناحيتين، تقتضي الأمانة والإنصاف أن أسارع إلى القول بأن روائع الإيمان والألمعية التي يشرق بها تاريخ الهضيبي كانت لازمة له بارزة في نفسه وعمله، قبل التحاقه بدعوة الإخوان المسلمين، وبعد أن تولى قيادتها خلفاً لسلفه العظيم الشهيد حسن البنا عليهما رضوان الله. لا يخطئ هذه الروائع فيه عابر طريق، ولا معاشر لصيق.

عرف عن حسن الهضيبي ولوعه بكتاب الله منذ الحداثة، يكثر القراءة فيه والغوص على معانيه ويزين عمله وسلوكه بأوامره ونواهيه، ويبادر إلى إلزام نفسه بما قد تغفل عنه من أحكامه وتوجيهاته، وكانت هذه الصحبة مع القرآن مصدر شمائله والأساس الذي لم تنفك عنه شخصيته طوال عهده بالدنيا، فلئن استظهر الكثير الكثير من أجزاء القرآن في صدره- كما تدل على ذلك كثرة استشهاده بآياته- لقد شارف الغاية من استيعابه حقائق في خلقه، وصراطاً لحياته، وكان يبلغ من غيرته على القرآن وإعظامه لمسؤولية حامله وتاليه، أن يشتد نكيره على مثل إذاعات لندن وموسكو وإسرائيل وباريس حين تستهل مناهجها بتلاوة القرآن- وهي لا تؤمن به- فتنزل بقدره إلى رتبة الأغنية أو الأنشودة التي تتملق بها مشاعر السامعين، وفي ذلك كل الاستخفاف بالمسلمين، مع ما للقرآن من حرمة، تُفترض في مذيعه والمنصت إليه، أن يكون جندياً صادعاً بأمره، مقلعاً عن كل ما ينهى عنه.

٤ - مواقف مشرفة[1]

١ - الورع عما يستبيحه الكافة: انفرد الأستاذ الهضيبي أو كاد برتبة عالية في الورع عما تعارف الناس على إباحته من توافه الأشياء التي تضعها الدوائر الحكومية والمؤسسات التجارية في خدمة موظفيها كالأوراق والأقلام وغيرها من المهملات، إذ كان يحرم على نفسه وذويه استعمال شيء منها في شأن خاص، وكان يعود من المحكمة - وهو قاض أو محقق - وفي حقيبته أكداس من ورق التسويد الرخيصة «الخرطوش» ليخطط عليها مشروعات القرارات والأحكام القضائية، فلا يسمح لنفسه قط باستعمال ورقة منها ولو كانت دون الإصبع في أمر يخصه أو يخص واحداً من أهله، فإذا رآها واحد من أولاده في غرفته وطلب ورقة منها لبعض حاجته، أنكر عليه أبوه وأعطاه قرشاً يشتري به ما يحتاج إليه من الورق، ثم لقنه أمام إخوته الدرس الذي لم ينسوه بأن أوراق الحكومة ملك لها لا يحل لأحد أن يستخدمها في شأن خاص به.

وقد كان لهذه اللفتة أثرها الرائع في موقف لطفلته «خالدة» سيرد إجماله في الحديث عنها إن شاء الله.

٢ - مع خلطائه المسيحيين: وكانت باكورة ولايته القضاء في مدينة جرجا من صعيد مصر، حيث تعلو في الطبقة المثقفة نسبة المسيحيين، الذين تهيئ لهم مراكزهم وثقافتهم الاختلاط بقاضي المدينة، ونظرائه من كبار الموظفين، فلفت نظر هؤلاء الإخوة عزوف القاضي الجديد عن مشاركة أنداده غشيان مواطن اللهو المباح، فضلًا عن الحرام وراعهم منه

(١) من مقالة للدكتور أحمد العسال. مجلة الشهاب البيروتية، العدد ١٤، ٢١ ذي القعدة ١٣٩٣.

أنه - خلافاً لأمثاله - لايحلف ولا يعمد إلى تثبيت قوله ورأيه بيمين، استناداً إلى أنَّ من لايصدُق بلسانه لايصدُق بيمينه، بالإضافة إلى إيثاره الجد في غير تزمت والبشاشة في غير تبذل، فإذا بهم يلتفون حوله، ويحيطونه بفيض من مشاعر الحب والتقدير، ويعلنون أنهم يحسدون عليه إخوانهم المسلمين، ويتمنون لو كان في طائفتهم مثله ليقيموا له النصب والتماثيل.

٣- **الجبين المرفوع أمام الملك فاروق:** حدثني «باشا» مصري من أعلام القضاء - كان يليه مباشرة في ترتيب القضاة والمستشارين - أن الهضيبي كان أول من كسر تقاليد الانحناء بين يدي الملك، عند حلف اليمين القانونية التي يؤديها القضاة أمامه قبل تولي مناصب المستشارين، إذ كانت دفعته حوالي عشرة، سبقه منهم خمسة لم يترددوا في الانحناء عند حلف اليمين رغم تهامسهم بالتذمر من هذا التقليد المهين، حتى إذا جاء دور الهضيبي، الواهن البنية الصامت اللسان، فاجأ الجميع بأن مد يده لمصافحة الملك وأقسم اليمين منتصب القامة مرفوع الجبين، بصورة أنعشت الإباء فيمن بعده - وأولهم محدثي الباشا «س.ر» فأدى يمينه قائماً عالي الرأس، وهو يقول لنفسه «إذا شنقوا الهضيبي فليشنقوني معه» وتبعها سائر المستشارين فصافحوا الملك وأقسموا اليمين دون تخاضع أو انحناء.

٤- **لازلفى لجبار، ولا شماتة بمنهار (أ) إمام الجبارين:** ومنذ برز اسم الهضيبي في القمة بين زعماء مصر، دعاه الملك إلى الاجتماع به دون طلب - خلافاً لكل السوابق المألوفة يومذاك - راحت التعليقات والتكهنات تتكاثر وتتضارب حول «الثمن» الذي سيتكلفه الهضيبي وجماعته - فيما

توهم الناس- لهذه البادرة التكريمية التي خص بها مليك البلاد المرشد العام للإخوان المسلمين.

أما الهضيبي المؤمن الصدِّيق. الموصول أبدا بملك الملوك، فلم يزد على أن نقل سلام الملك الذي حمله إياه إلى إخوانه في الجماعة، ثم استأنف طريقة في الدعوة محرراً بالإباء من كل ما يمت بسبب إلى هذه المقابلة، بل معتصماً بحكمته وإيمانه من أن تلحق بمثالية الجماعة منها أية شبهة. وإليك مما وقفت عليه بنفسي، هذه الأمثلة الثلاثة:

١ - اتصل به كبيران من أعوان الملك يسألانه موعداً لزيارته، فما إن حدد لهم الموعد- وكان بعد ثلاثة أيام- حتى أخبراه بأنهما سيحضران معهما صورة الملك لتعليقها في دار الإخوان.

وقبل الموعد ببعض ساعة هتف إلي من داره يكلفني بصرف الرجلين إذا سألاني عنه، ولما ذكرته بأنَّ ردَّ مثلهما بهذه البساطة سيورطنا في أزمة صارخة- وكنت لاأعلم سبب الزيارة- أعلمني بألا مفر من ردهما بأية وسيلة لأنهما سيطلبان منه تعليق صورة الملك بالمركز العام، وهذا، لايفعله ولو قطعت يمينه. وألهمني الله أن أقول له سأرسلهما إليك بالمنزل ولا حاجة لهذا الجفاء، وما عليك إلا أن تعتذر لهما بأن الإخوان قوم متزمتون يحرمون التصوير، وسأبادر الآن إلى رفع صور الإمام الشهيد من غرف المركز العام، حتي يستقيم الاعتذار، وما هو إلا أن سمعها حتى قال: يرحم الله أباك افعل وأنا لهما في الانتظار..

٢ - بعد أن اعتمد مكتب الإرشاد العام الصياغة التي أُعدت بها مذكرتنا التقليدية لوزارة الدكتور علي ماهر بعد حريق القاهرة سنة ١٩٥٢ وكلفني بطبعها وتوقيعها من المرشد العام دعاني إليه وأقبل على

آخر سطر منها يتضمن أماني التوفيق «في ظل جلالة الملك المعظم» فضرب بقلمه على عبارة «في ظل جلالة الملك» غير ملتفت لتنبيهي بأن مكتب الإرشاد قد اعتمدها، ولا إلى كون هذه عبارة تقليدية، ولا إلى أن خلو الكتاب منها يثير نقمة في القصر الملكي، مجيباً على كل ذلك بقوله: «احذفها على مسؤوليتي، وحسبنا والملك والوزارة أن نكون في ظل الله وحده».

٣ - وفي ربيع العام نفسه، إذ كان طفلي هشام يعالج بمستشفى الدكتور عبد الوهاب مورو «باشا» قدم المرشد العام مشكوراً لزيارته، ولما همَّ بالانصراف بعد جلسة طويلة غمر فيها هذا الطفل ببره وعطفه، أشرت عليه بزيارة رئيس الديوان الملكي، وكان يعالج بنفس المستشفى، فلما فوجئت بإعراضه عن الفكرة وشرعت أُعدد له محاسنها ومحاذير تركها، ولا سيما بعد أن رؤي في نفس المستشفى لأنه لا تكاد تمر لحظة دون أن يغص صالون رئيس الديوان بمجموعات من الأمراء ورؤساء الوزارات والشيوخ والنواب وكبار العلماء والوزراء ورجال الصحافة والأعمال، ورحت أُقنعه بأن زيارة الرجل مجاملة للملك، وهي عيادة مريض على كل حال، إذا به يصافحني مودعاً وهو يقول: «لقد قصدت إليه تعالى بعيادة ولدنا هشام، ولن أقصد الملك بزيارة رئيس الديوان».

(ب) لا شماتة بالمدبرين: ويتمم هذه العظمة في خلق الرجل أنه كان مثال النبل والترفع في مواقفه إزاء من أدبر عنهم السلطان، وانقلبت أحوالهم من عز إلى هوان، ولو كان فيهم من أسلف إليه أو إلى جماعته البغي والعدوان والأمثلة التالية أصدق شاهد وبرهان.

٥ - **محنة الملك المخلوع:** على الرغم من مواقف الإباء التي التزمها الهضيبي تجاه الملك فاروق في أوج سطوته وسلطانه، وحين كانت أعلى

الهامات تتفاخر بالانحناء بين يديه، وأمضى الأقلام تتبارى في نسبة القداسة والعبقريات إليه، رأينا هؤلاء جميعاً لايلبثون عندما تحل نكبة الخلع والإبعاد به أن ينقلبوا في مثل لمح البصر إلى هجائين حداد الألسنة، شتامين مقذعي البذاءة، يصبون كل ذلك في غير حياء من ماضيهم القريب ماضي اليوم والساعة على ذلك المخلوع الذي أصبح لايملك حولا ولا طولاً، ولا يستطيع لأحد نفعاً ولا ضراً.

أما الهضيبي الذي رأينا مناعته في وجه الملك ومطالب حاشيته فقد ارتفعت به أصالة خلقه عن أن يتأثر بهذا التيار، وملكه سلطان التعفف والترفع فلم يتزلق ولم يسمح لإخوانه أو صحفه بالانزلاق لحظة إلى مهاجمة رجل جرى القضاء على سلطانه بالزوال، وليس وراء ملاحقته بالسباب إلا ما تأباه المروءة، وما نهى عنه الهدي النبوي، من اتباع المدبر والإجهاز على الجريح.

٦- **محنة الزعماء المعتقلين**: ومن معين هذا الخلق الأصيل حرص الأستاذ الهضيبي على مواساة الزعماء الذين اعتقلتهم الثورة بعد قيامها بأسابيع وأصبح الاتصال بهم مجلبة ضرر ونقمة حملت أقرب الناس إليهم على التنصل من كل صلة بهم، بينما حرص الهضيبي على تفقدهم بمجرد أن سمح لهم باستقبال الزوار، فزار- وكنت في معيته- السادة أحمد نجيب الهلالي « باشا » وأحمد عبد الغفار « باشا » وأحمد مرتضى المراغي « باشا » وآخرين لاأذكرهم الآن ممن كانت قيادة الثورة الحاكمة تعتبر زيارتهم ومواساتهم من كبائر السيئات وما كان أحب إلى المرشد في تلك الأيام أن يتفادى غضب رجال الثورة، ولكنه الوفاء الأصيل يأبى أن يفارق صاحبه ولو كلفه ما لايطاق.

٧- سلطان الخلق مع الأولياء والأعداء: لايسعني أن أنفض يدي من هذه المعالجة الخاطفة عن مواقف الراحل الكريم وأخلاقه دون أن أورد نموذجاً من منزلة الخلق عنده حين يبدو التمسك به وكأنه إضاعة للمصلحة أو خدمة لأعداء الدعوة.

قامت ثورة مصر وبينها وبين الدعوة وقيادتها أسباب ليس هذا مجال الإفاضة فيها، وأخلص الهضيبي في نصحه للثورة ومنحها أنفع التأييد فيما يتفق ومبادئه الإسلامية، فلما اشتعلت أعاصير الخلاف بينها وبين جماعة الإخوان، وراحت الثورة تصب على الجماعة أبشع ضروب البطش والاضطهاد، سارع أحد خلصاء الهضيبي إلى مقر قيادة الثورة- وكان لايزال موضع ثقتها الكاملة- للإجهاز على رجالها، انتصاراً للدعوة وكفاً للأذى عن الجماعة، فاكفهر وجه المرشد غضباً وقال له «لأن يهلك الإخوان عن آخرهم- وللدعوة رب يحميها- خير من أن نبلغ قمة النصر عن طريق الغدر والخيانة، إننا مسلمون قبل كل شيء، ولو ملكنا الدنيا بإهدار الخلق الإسلامي فنحن الخاسرون».

٨- الثبات عند البلاء: «لاتتمنوا لقاء العدو، فإذا لقيتموه فاثبتوا» حديث شريف.

مارس الأستاذ الهضيبي قيادة الدعوة، على هدي النبوة، مؤثراً للعافية في غير وهن راغباً عما يسوقه الاصطدام بالحكومات من شهرة وذكر، متقبلاً البلاء إذا فرض عليه بعد ذلك بأمثل ما يتلقاه المؤمن من ثبات وجلد، رافضاً كل ما يؤثره إخوانه- رعاية لسنه ومقامه- من وسائل التخفيف والإيثار، ليظفر من مثوبة البلاء، حين يقنع، بحصة الأسد، وليكون لتلامذته وأتباعه نعم الأسوة والمثل، يفعل كل ذلك رحمه الله دون إثارة ضجة أو لفت نظر.

كان أشد ما أفزعني من حملة الاعتقالات التي واجهناها في ١٣ - ١ - ١٩٥٤ أن رأيت بين المعتقلين ثلاثة رجال: حسن الهضيبي، ومنير دله عليهما رضوان الله وأسامة حسن الهضيبي سلمه الله، لخشيتي أن يكونوا ثغرة في جدار المقاومة التي عرف بها رجال الدعوة في الأزمات، لأن أولهم شيخ جاوز الستين مثقل بطوائف من العلل والأسقام فضلاً عن أنه قضى حياته، حتى ذلك اليوم، في دعة وخفض بين عمله وبيته يأمر فيطاع ويهيب فيجاب، ولأن الثاني ربيب نعمة وابن «باشا» واسع اليسار، فضلاً عن كونه مستشاراً في مجلس الدولة، يتسابق الناس في طلب مودته، والتقرب إليه، فتملكني الوهم أن تكون مفاجأتهم بحياة الاعتقال على هذه الصورة التعسفية الجافية زلزالاً ينتهي بها إلى الحطمة والانهيار، خلافاً لأمثالنا من حلفاء التخشن، الذين سبق لهم التدرج في منازل الاعتقال منذ كانت في مستوى الفنادق الراقية، حتى أصبحت، كما يواجهها هؤلاء المترفون لأول مرة، مخابئ نكال وهلكة. أما ثالثهما أسامة الهضيبي سلمه الله، فقد كان - من دون ذرية الهضيبي كلها - منصرفاً إلى عمله ومقاولاته الهندسية معتزلاً كل ما يتعلق بالدعوة والجماعة، لا يعرف عنا ولا نعرف عنه شيئاً لولا أن يرانا ونراه في دار أبيه على سبيل المصادفة.

غير أن تجربة الشدائد - وهي ميزان الرجال - قد كشفت من جوهر هؤلاء الثلاثة ما رأيتني بالقياس إليه صغيراً ضئيلاً، احتاج منهم إلى التشجيع والمواساة.

أما أسامة ومنير، فسيرد الحديث عنهما في غير هذا المكان إن شاء الله. وأما الهرم العجوز المثقل بالأمراض حسن الهضيبي، فقد أثبتت هذه المحنة أنه إمام في احتمال البلاء، قدوة في الصبر على الضراء، وإليك طائفة من نماذج إبائه وجلده في أشد مواطن البأساء.

٩- مداواة الروماتزم المزمن: بزمهرير البرد في زنزانة الاعتقال:
آلمتني وطأة الزمهرير الذي واجهته ساعة أُغلق علي باب الزنزانة، رغم ما كنت أشعر به من فضل قوة وشباب، وما كنت متجهزاً به من فرش وأغطية وثياب، وما طال إلفي له من خشونة السجون والمعتقلات، فرأيت مشاعري كلها مشدودة إلى الأستاذ المرشد يستبد بها الهلع على حياته الغالية، لما أعلم من معاناته مرض الروماتزم الحاد المزمن الذي يحوج أجلد الفتيان إلى مضاعفة الدفء في وقت الشتاء، فعمدت إلى فروة من جهازي ذات وبر كثيف طويل ودفعت بها مع حارس الزنزانة ليسلمها - لقاء أجر أغراه - إلى الأستاذ الهضيبي في زنزانته التي عرفت رقمها بعد جهود، وقلت في نفسي إنه جهد المقل ولكنها ستقيه الكثير من وطأة الزمهرير، غير أن الحارس لم يلبث أن عاد إلي والفروة بيده ليبلغني أن نزيل تلك الزنزانة أمره بإعادتها إلي، وخشيت أن يكون الحارس قد أخطأ المقصود فرددته بكلمة رمزية وألزمته تسليم الفروة، والتأكد ممن أرسلتها إليه بجواب تلك الكلمة، ولكنه سرعان ما عاد إلي بالجواب الرمزي، ومعه الرفض الحاسم بدعوى أنه لايشعر بأي برد يحوجه إلى الفراء.

وبعد يومين هيأت لي المصادفة الاجتماع بأستاذي الأبي أمام دورة المياه فما أمهلني أن أتكلم حتى قال: «أدفىء نفسك بفروتك أو ادفعها إلى من يحتاج إليها من إخوانك» فقلت له: فدتك نفسي. من أحوج إليها منك وأنت مريض بالروماتزم والدوسنتاريا و.. فإذا به يقاطعني في عزة وبشاشة: «لقد شفيت والله، يا عبد الحكيم، ببرد هذه الزنزانة من كل ما أثقلني من الأمراض في غابر السنوات».

وما كدت أسمع الجواب حتى غلبتني العبرات، وتضاءلتُ في نظر نفسي كأني حفنة تراب وأنا أردد في خاطري «إن لله رجالا ..».

١٠ - رفض المدفأة الكهربائية من مدير السجن: وكان مدير السجن الحربي - الذي اعتقلنا به في صحراء الهاكستيب - يتودد للأستاذ الهضيبي ويتظاهر بالأسف لاعتقاله والمسارعة فيما يسره، ومن ذلك أنه أبلغه يوماً عن مسعى يقوم به لتزويد غرفته بأدوات التدفئة والراحة تقديراً لمقامه وسنه، فأجابه المرشد رحمه الله «إني بأتم الراحة والدفء، وإذا كان باستطاعتك أن تقدم هذه المزايا لجميع الإخوان المعتقلين فيسرني أن أكون آخرهم، وإلا فوفر على نفسك المساعي وأنت مشكور». غير أن مدير السجن، الذي عرف إباء الرجل ومثالية إيثاره، اغتنم فرصة إخلائنا الغرف في لحظات «الفسحة» اليومية فحمل مدفأة مكتبه الخاص وتركها مشتعله في زنزانة الهضيبي، الذي ما كاد يدخل الزنزانة ويفاجأ بنعمة الدفء، ثم يلمح المدفأة في زاوية من زنزانته، حتى أقبل على باب الزنزانة من الداخل يوسعه طرقاً بكلتا يديه، إلى أن أسمع الحارس فأسرع يفتح باب الزنزانة، ليفاجأ بنزيلها قد حمل المدفأة بيده، وقذف بها إلى الخارج ثم أغلق الباب على نفسه دون ضوضاء.

وجاء مدير السجن يعاتبه، بحجة أنه آثره بها على نفسه، وأن في هذا رداً لكرامته، والمرشد لايزيد على أن يدعو له، ويكرر أنه لن يقبل ميزة ولا هدية ولا كرامة خاصة، إلا بعد أن تعم كل المعتقلين من إخوانه.

١١ - إظهار القوة أمام خصوم الدعوة: وأدرك زبانية الحكام أن الشيخ الذي حسبوه فانياً سريع الاستسلام، ما هو إلا معين إباء وجلد، يسري جوارُه شمماً ومنعةً في نفوس الإخوان فيثبت الواهن، ويضاعف من عزيمة الثابت.

وتفتقت مكايد الطغيان عن حيلة جديدة، نقلوا بها المرشد العام إلى زنزانة ملحقة بمكاتب الإدارة، تفصله قرابة ميل عن مجمع زنزانات

الإخوان، بحيث لايرونه إلا في ساعة الفسحة من هذا البعد، لايكلمهم ولا يكلمونه.

ولفت أنظارنا أن مرشدنا المتداعي البنية يقضي ساعة فسحته في الحديقة المواجهة لمكتب المدير ناشطاً في القيام بتمرينات رياضية وهو بملابس ناصعة الألوان لعله كان يتوقر عنها وهو في في شرخ شبابه.

ولما كاشفته- في أول لقاء هُيئ لي معه- بغرابة هذه الحركات الرياضية، وهذه الملابس الزاهية، على مقامه وسنه، ضرب في صدري بيده ضربة حنان وتنبيه، وهو يقول: «دعهم لايرون منا إلا البشاشة وارتفاع المعنوية، حتى يتحققوا أن سهامهم طاشت، ولم يبلغوا منا ما يريدون. ألم يبلغك قول رسول الله ﷺ «رحم الله امرءاً أراهم من نفسه القوة».

١٢ - **النهي عن البكاء**: من خشية الله على مسمع الظالمين: واعتاد الإخوان أن يجدوا في السجون أسعد الفرص للخلوة بالله سبحانه، حيث تشغلهم أعباء العمل للدعوة أوقات الحرية عن التفرغ لما يحبون من مناجاته، وكان الأخ «ع» بين المعتقلين من أرقهم قلباً وأغزرهم دمعاً وأعلاهم نشيجاً في مناجاة الله إذا حلك الظلام وسكنت الحركة بين المعتقلين والحراس.

واستطاع الأستاذ الهضيبي أن يتبين من هذا النشيج شخصية صاحبه، فما وقعت عليه عينه في ساحة الفسحة العامة، حتى أقبل يقول له: «أنا أعلم أنك رقيق القلب تبكي من خشية الله وتلك رتبة نغبطك عليها جميعاً، ولكن جهلة الحراس إذا سمعوا بكاءك، وأنت مرموق المكان في الدعوة، أسرعوا إلى سادتهم الطغاة، فأفهموهم أن قادة الإخوان قد أصابهم الهلع من الاعتقال، حتى إنهم ليبكون بكاء الأطفال». وراع المرشد والحاضرين

من الإخوة أن يسمعوا جواب أخيهم: « يا فضيلة المرشد أنا أهون شأناً من أن يكون نشيجي بكاء من خشية الله ، ولكني أستعرض ذنوبي - إذا جن الليل - فيخيل إلي من كثرتها أن الله تعالى قد أخذ الجماعة كلها بأن يكون فيها مذنب مثلي » فيبارك المرشد هذا الشعور ويكرر التشديد على صاحبه أن يكبت أناته بحيث لايسمعها إلا الله.

١٣ - رفض الإفراج قبل التحقق من بطلان الاتهامات: ﴿فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فأسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم﴾ سورة يوسف.

اتسعت موجة النقمة على الحكم العسكري بعد اعتقال الإخوان في ١٣ - ١ - ١٩٥٤ ، ودب الشقاق إلى صفوف رجاله البارزين، حتى اضطروا إلى اتخاذ قرار بالإفراج عن الإخوان المعتقلين في حوالى ٢٠ - ٣ - ١٩٥٤ ، وخيل للقوم أنهم يستطيعون تقاضي الإخوان ثمناً جزلاً عن هذا الإفراج، فأوفدوا إلينا اثنين من رجالهم يبشراننا بالإفراج، ويجسان النبض لمفاوضتنا على ما يمكن أن نقدمه لتأييد الثورة عندما تعود إلينا الحرية. والرجلان هما الأستاذ فؤاد جلال الذي سبق إلى جوار الله، والسيد محمد أحمد وهو لايزال على قيد الحياة يشغل مركزاً رفيعاً في دولة اتحاد الجمهوريات.

وبينما كانت بشائر الإفراج تسري مع موجة من السرور في أوساط عامة الإخوان وكان مبعوثا السلطة يتوقعان لمفاوضاتها أو لمساوماتها باهر النجاح، سارع الأستاذ الهضيبي إلى إعلان أنه لن يقبل الإفراج - فضلاً عن أن يتعهد بأي شيء في مقابله - إلا بعد أن تمحص الاتهامات الخرافية، التي برر بها اعتقال الإخوان، أو بعد أن تعلن قيادة الثورة بطلان التهم،

والاعتذار عن الاعتقال، وهذا ما ذكرني بموقف نبي الله يوسف عليه السلام حين رد بشير الحرية التي آثره بها الملك حتى تستعلن للملأ براءته ويفتضح كيد امرأة العزيز.

وثبت المرشد والإخوان على هذا الموقف الأشم، بعد أن انفض أول اجتماع على غير اتفاق- حتى عاد المبعوثان بعد يومين ليفتحا باب السجن ويعتذرا للمعتقلين، وتتبع ذلك زيارة قائد الثورة للمرشد في بيته، وزيارة وزير الإرشاد لكاتب هذه السطور في داره، في مسعى لإزالة ما علق بالنفوس من مظالم الاعتقال.

١٤- إيثار الكفاح على السلامة في أقسى أوقات المحنة: شاءت الأقدار أن يكون الأستاذ الهضيبي في سوريا ولبنان في صيف عام ١٩٥٤ بعد زيارة للملكة العربية السعودية قام بها في أول ذلك الصيف إجابة لدعوة من الملك السابق سعود بن عبد العزيز رحمه الله.

وفيما كان الهضيبي موضع الحفاوة والتكريم من جميع الأوساط الدينية والاجتماعية والسياسية في البلدين الكريمين، متنقلًا بين المدن والقرى في أحفال عامة، مستجماً في بعض المصايف حين تتهيأ له ومضات من الفراغ والراحة، إذا بحملة استفزاز مسعورة يطلقها حاكم مصر يومذاك على الإخوان المسلمين في مصر في مدينة من محافظة الشرقية، وإذا الأنباء تتواتر عن إتباع ذلك بموجة اضطهاد عارمة تنصب على الجماعة فتغلق مراكزها التي شارفت الألفين، وتعتقل قادتها، وتشرد الموظفين من أعضائها وتصادر أموالها، وتلفق جديداً وقديماً من الاتهامات لأهداف الجماعة ومناهجها.

وكان العزاء الوحيد لأصدقاء الدعوة وأحرار المنصفين في السعودية

وسوريا ولبنان، أن المرشد العام بمنجاة من هذه المحنة، وأنه لاشك سيبقى خارج مصر إن لم يكن إيثاراً للسلامة - وهو إليها في حاجة - فحرصاً على استنفار الرأي العام في دنيا العرب والإسلام، للإنكار على حكام مصر، وحشد كل طاقة من طاقات الخير لشد أزر المجاهدين داخل الأسوار.

غير أن الهضيبي - إمام الجهاد والصدق والثبات والصبر - ما كاد يسمع أنباء النكثة الجديدة للسلطات المصرية، وما أدت إليه من تسجير المحنة والبطش بأهل الدعوة في أرض الكنانة، حتى أمر بالتجهز للعودة إلى مصر، وراح يفند نصائح أحبابه والغيورين عليه وعلى دعوته وجماعته، بالبقاء خارج «القفص» خدمة للدعوة، وتزويداً لها بقيادة حرة، تملك من العمل والإعلان وتعبئة الرأي العام ما لاسبيل إلى شيء منه في مصر، بحكم البطش العسكري والرقابة الصحفية.

ذلك بأن الهضيبي الذي كان - عليه رضوان الله - دائم القول بأن الدعوة لله يتكفل بنصرها دون حاجة إلى عباده - كان ينادي بأنه لايحل لمؤمن بالدعوة أن يدخر عنها جهداً يستطيعه، أو مثلاً صالحاً يستطيع ضربه، مع الاطمئنان بعد ذلك إلى أن نصر الله آت لامحالة، ولو كانت هذه الجهود لاتبلغ قوة ريشة تتحرش بها عاصفة.

وبهذا المنطق الصافي سارع بالرحلة إلى مصر إعذاراً إلى الله بضرب المثل واستنفاد الطاقة، وصيانة للدعوة من أن يشاع أن المرشد العام يهش لقيادتها في الرخاء ويترك جنودها دونه يصطلون بنارها في المحنة والبأساء.

١٥ - الإفراج الصحي وإباء استمراره بعد الشفاء: وفي عام ١٩٥٧ على ما أذكر، قررت لجنة من خمسة أطباء مسيحيين - فيما بلغني - أنَّ

حالة الهضيبي تنذر بالهلاك، وأنها لا تستطيع تحمل المسؤولية عن بقائه رهن الاعتقال فصدر قرار بالإفراج الصحي عنه، نقل على أثره إلى بيته حيث توفرت له أسباب العلاج الذي أزاح الله به شبح الخطر عن حياة المرشد الصدِّيق.

بيد أنَّ الهضيبي الذي يعي تبعات القيادة تجاه الجنود، ما لبث أن أخذه الحنين إلى إخوانه وأبنائه المسجونين، ولم تطب نفسه بأن يكون في نظر الطغاة ذلك الواهن الضعيف الذي يتلقف هذه الفرصة لينعم بحياة الدعة متميزاً على إخوة له في الجهاد هو أولاهم بأوفر حظ في البلاء.

لذلك ما كاد يتنسم أريج العافية حتى سارع بالكتابة إلى السلطات يبلغها أنه قد عوفي بحمد الله من عارض المرض الذي أوجب الإفراج عنه، وأن باستطاعته العودة إلى السجن لقضاء باقي المدة المحكوم بها عليه.

أما والله لقد كان حسن الهضيبي - على تواضعه وفراره من الأضواء - بقية السلف وواحد الزمن والشاهد الناطق بمعنى الحديث النبوي الشريف: « الخير فيَّ وفي أُمتي إلى يوم القيامة ».

١٦- سأل شمس بدران مدير السجن الحربي الأستاذ الهضيبي بعض الأسئلة ليملأ استمارة السجن ما اسمك؟ فأجاب: حسن الهضيبي.

ماذا تشتغل؟ فأجاب: المرشد العام للإخوان المسلمين.

فهب شمس بدران غاضباً وقال: ألم تحل الدولة جماعة الإخوان المسلمين؟

فقال له الأستاذ الهضيبي: لقد حلت الدولة جماعة الإخوان المسلمين في مصر أما أنا فالمرشد العام للإخوان المسلمين في العالم. فبهت الذي كفر.

٥- كيف اختير مرشداً عاماً:

كيف اختير الهضيبي مرشداً عاماً للإخوان المسلمين مع أنه لم يكن معروفاً عنه أي إسهام في حركتهم قبل هذا التاريخ. فكيف ومتى انضم إلى الحركة وما هي المؤهلات التي رشحته لتولي هذه المسئولية الضخمة والعبء الثقيل؟ ونبدأ الطريق مع الهضيبي منذ عام ١٩٤٣م.

هكذا بدأت صلته بالدعوة على المعنى الاصطلاحي، فقد كان ذلك بمدينة الزقايق عاصمة إقليم الشرقية. وكانت العاصمة على موعد مع الإمام الشهيد أن يؤثرها بالزيارة في هذه الليلة التي تقع على ما أرجح في صيف ١٩٤٣م، وكان الإخوان المسلمون يحتشدون للعناية بمقدم الإمام البنا أعظم ما يكون الاحتشاد والعناية، ويوسعون نطاق الدعوة إلى الاجتماع به والاستماع إلى أحاديثه فلا يتركون طائفة ولا جماعة ولا هيئة موالية أو محايدة أو مناوئة إلا وجهوا إليها الدعوة لشهود الحفل الجامع الذي يخطب فيه الإمام رحمه الله، من أجل ذلك طرقت بطاقات الدعوة لاجتماع تلك الليلة كل باب وغشيت كل مجلس وناد، وولجت إلى محكمة الزقازيق لتهيب برجال القضاء أن يشهدوا جلسة الإخوان المسائية ليقولوا كلمة المنطق والقانون فيما يقرره حسن البنا من كفالة النظام الإسلامي والمبادئ القرآنية لإقامة مجتمع وإحياء أُمة وبناء دولة على أسلم القواعد وأمتن الأُسس.

وكان من الذين تلقوا الدعوة رجلان من كبار المستشارين يتميزان بخلق كان سؤر النبوة كأنها أريج الزهر واستقامة كأنها حد السيف. أما أحدهما فقد سبق إلى جوار الله وهو المرحوم محمد بك العوارجي وأما الآخر فهو ضيف الله وقدوة المؤمنين به وحارس دعوته وعنوان الصابرين المحتسبين الأُستاذ حسن الهضيبي.

تلقى الرجلان الدعوة لحضور حفل الإخوان المسلمين والاستماع إلى خطاب المرشد العام، وبين عوامل الحنين لكلمة الإسلام والاستيئاس من كثرة الأدعياء المتاجرين بالدين وحب الاستطلاع الذي يغرى بالوقوف على كل جديد وبصيص الثقة الوارد من متابعة النجاح الذي أصابته دعوة هذا الرجل، بين خليط من هذه العوامل والمشاعر قرر المستشاران الكبيران أن يستجيبا لدعوة الإخوان ويستمعا إلى خطاب المرشد العام... وكان.

ولست محدثك عما وراء الاستماع إلى حسن البنا حين يصادف نفساً منصفة وقلباً سليماً فإنك تستطيع أن تعرف ذلك لامن تلميذ له عارف بل من صحافة الغرب وأدباء الفرنجة الذين كانوا، على جهلهم بالعربية التي يخطب بها الشهيد، يشعرون بتيار جارف من روح الرجل يغمر أرواحهم ومشاعرهم فيحتاجون إلى كبير جهد وعناء ليحصنوا أنفسهم من حافز الانقياد لدعوته وإلحاح الوجدان بالتعلق به.

وإنما أحدثك عن اختلاف أثر الاستماع في نفسي الرجلين فإن لذلك علاقة بمغزى الحديث ولكي تدرك الفرق بين أثر الاستماع في الرجلين فعليك أن تعلم أن أولهما كان ذا فضل وصلاح يكفيه من الخير أن يصلح في ذاته ويرضي الأمانة والضمير فيما حمل من التبعات في نطاق عمله.

وأما الآخر فكانت تملكه الحسرة على مصير الأمة الإسلامية، ويتقد غيرة على إنقاذها ولكن استغراقه في واجباته القضائية ويأسه من جدوى المجهود الفردي في بناء أمة واتسام مسالك العمل الجماعي العام بالسوابق والشبهات التي تثير الحذر والريبة كل ذلك كان يحبس غيرة الرجل في صدره فإن جاوزته فإلى مسامع الأصفياء من إخوانه وجلسائه وهكذا تكيف أثر المرشد العام في مشاعر الرجلين فكان في نفس العوارجي رحمه

الله إعجاباً بالخطيب ودعاء إلى الله أن يكثر من أمثاله وتمنيات كريمة بأن ينصر الله دعوته. أما الهضيبي فقد حمله التأثر على تقديم نفسه للمرشد العام حين بدأ معه جلسة استيضاح ومناقشة انتهت بعهد وميثاق وبيعة.

أجل كانت بيعة ربطت مصيره إلى الأبد بمصير الدعوة على مضمون الآية الكريمة ﴿إنَّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾.

ولكن هذه البيعة تتقاضانا الوقوف قليلًا لنستشف من خلالها بعض ما حفلت به شخصية الهضيبي العظيم من نفاذ البصيرة وقوة النفس وصفاء الروح.

أجل. سرعان ما كشفت بصيرته النافذة حرارة الصدق والإخلاص في دعوة الإمام البنا وأيقن في لحظة أنها الدعوة التي أضنى الظمأُ إليها مشاعره ومواهبه أكثر من ثلاثين سنة. وبلغ من قوة نفسه أن أقبل على الدعوة والحكومة معها في حرب والأحكام العرفية لأصحابها بالمرصاد ومعسكرات الاغتقال تخرج فوجاً من رجالها لتستقبل أفواجاً أخر، وعبارة الوظيفة عرفت لأصحابها المناصب الكبيرة يخلد بهم إلى القعود والشح، ومقعد المستشار الذي تحفز الهضيبي لنبذه لولا خطة أرادها الإمام الشهيد ذو بريق يسجد له عمالقة الرجال، لا لأنه مطية ذلول إلى مقاعد الوزارة فحسب بل لأنه مكانة أدبية تعلو في ذوق الناضجين على مقعد الحكم ذاته.

وفوق ذلك فقد كشفت هذه البيعة عن مرتبة من صفاء الروح في الرجل قلَّ أن يصيبها خلصاء العارفين.

ألا تراه وهو المشرع المحسود على مكانته الاجتماعية يمد يده في بشر وبشاشة ليبايع بالقيادة ذلك المعلم في المدارس الابتدائية.

ألا تراه وهو المستشار الكبير تطيب نفسه بأن يقف في صف الجندي من كثرة غالبة من بسطاء العمال والزراع وحجاب المحاكم وصغار الموظفين.

ألا تراه وقد جاوز الخمسين يسعد بمشاطرة العمل والجهاد جمهوراً أكثره من الشباب الذين لم يبلغوا الثلاثين.

ألا ترى أن المجتمع الإسلامي يفتقد هذا الصفاء المشرق منذ تلقى دروسه في سعد بن معاذ يسلم على يد مصعب بن عمير وفي أبي أيوب الأنصاري يحاصر الاستانة في جند يزيد وفي الخليفة الصديق يمشي راجلاً في ركاب أُسامة.

في ظل هذه المعاني الرفيعة كانت بيعة الهضيبي فلم يعقبها يوم إلا والهضيبي يزداد صلة بالدعوة وثقة بالجماعة ووفاء للمرشد العام رضي الله عنه وأرضاه في الجنة، كما يقول الهضيبي الوفي كلما ذكر سلفه العظيم.

ومنذ ذلك التاريخ والدعوة تسجل للهضيبي مواقف وخطوات تُنضّر وجه المروءة وتشرف صحائف المجاهدين. سيشهد القارئ طرفاً منها فيما يلي من الأحاديث:

بيد أن سؤالاً يضطرب في النفوس وتتهامس به الشفاه لابد من الإجابة عليه قبل أن نشرع في متابعة الحديث.

ما بال الهضيبي لم يُسمع له صوت في الجماعة ولم يكن معروفاً لأكثر رجال الدعوة حتى ألقت إليه بمقاليدها في عام ١٩٥١ م، مع أنك تقرر أنه كان من صفوة العاملين بالدعوة منذ عام ١٩٤٣ م.

لقد كان هذا «الخفاء» أمراً متفقاً عليه بين الإمام الشهيد والهضيبي

الصديق من أول لحظة انعقدت فيها البيعة. وكان مرد هذا الاتفاق إلى طبيعة التواضع وحب العمل في خفاء من جانب الهضيبي وإلى الرغبة في أن يكون للدعوة جنود وأنصار غير ظاهرين من جانب البنا، وإلى ما يحظره القانون المصري على رجال القضاء من الانتساب إلى الهيئات والجماعات التي تشتغل «بالسياسة»[1].

لقد كان صديقاً حمياً ومستشاراً ناصحاً حكيماً للأستاذ الإمام الشهيد حسن البنا شخصياً، دون أن تكون له سابقة علاقة أو انتساب لجماعة الإخوان المسلمين، وهي في عنفوان نفوذها وتسابق كبار الناس على خطب ودها، والاعتزاز بإعلان الانتماء إليها بشكل أو بآخر، بيد أن الأستاذ الهضيبي لبث في أجوائه الخاصة، مؤثراً أن يعمل لله من خلال أسرته ووظيفته في بيئته وعزلته.

ولما وقع اختيار الإخوان المسلمين عليه، وفاوضوه في قبول مقام الإرشاد العام، اعتذر بعدم معرفته السابقة بتشكيلات الجماعة، وبما يعتقده في نفسه من عدم الجدارة وما هو في طبيعته من العزوف عن المواقع العامة والجماهيرية التي هي بالضرورة من مستلزمات قيادة الجماعة الإسلامية.

فلما أصر عليه كبار الإخوان وطالبوه بأن يقبل الاضطلاع بمهام هذا المقام، لإلحاح الحاجة إليه، ولأداء حق الله فيه مهما كلفه ذلك من تضحيات استجاب لداعي الله وترك ما كان فيه من حياة مطمئنة مستقرة لاعنت فيها ولا إرهاق، وقال:

«إني أعلم أنني أقدم على قيادة دعوة استشهد قائدها الأول قتلاً واغتيالاً، وعذب أبناؤها وشردوا وأوذوا في سبيل الله، وقد ألقى ما

(١) مجلة الشهاب، العدد «١٣»، ٦ ذي القعدة ١٣٩٣ هـ.

لاقوا، وإني على ما أعتقده في نفسي من عدم جدارة بأن أخلف إماماً مصلحاً مثل حسن البنا رحمه الله، لأقدم وأنزل عند رغبة الإخوان أداء لحق الله جل وعلا، لاأبتغي إلا وجهه، ولا أستعين إلا بقدرته وقوته».

كانت قوى البغي والطغيان بمختلف أجنحتها من صهيونية واستعمار صليبي غربي وماركسي شرقي قد أدركت أن دعوة الإخوان المسلمين هي الخطر الحقيقي الأكبر على بغيها وعدوانها، لأنها امتداد من أصالة الإسلام على سنن الراشدين والمصلحين فأجمعوا كيدهم على محاربتها والقضاء عليها.

وهكذا بدأ المرشد العام حسن الهضيبي حياته الجديدة في مكابدة لاتهدأ، ومعاناة لاتنقطع، وقد امتحنت الجماعة وهو على رأسها مرات، وسجن وعذب وحكم عليه بالإعدام ثم بدل ذلك بالأشغال الشاقة وأُجبر على ممارستها فعلًا وهو يسمع ويرى إعدام وتعذيب كبار أعوانه وإخوانه وأبنائه وأحبائه. وقد رغب إليه أن يتهاون في حق الدعوة أو يهادن وهو في ذروة المحنة، فرفض بإباء، وصبر في مضاء.. ومرض بالذبحة الصدرية فأخرج للعلاج ثم أُعيد للاحتجاز[١].

ومرت فترة المحنة الأولى فأطلق سراحه وعاد إلى العمل الجاد والجهاد الصادق، وجرت معه مفاوضات ليتراخى ويلين، فما زاده ذلك إلا ثباتاً في الحق وإمعاناً في الجهاد، يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة لم يهن ولم يستكن ولم يبدل تبديلًا.

وكانت المحنة الثانية فجاءت أشد ضراوة وأكثر عداوة، وكان قد شاخ وأضر به المرض ومشقة السعي في طريق محفوفة بالمكاره والعواثر، وحكم

(١) من مقالة للأستاذ عمر بهاء الأميري.الشهاب العدد ١٤، ٢١ ذى القعدة ١٣٩٣.

عليه من جديد بالسجن وبالأشغال الشاقة، وأعدم وعذب أعوانه وإخوانه بين سمعه وبصره، وهو هو كالطود الذي لايتزعزع، واشتد عليه المرض فعرض عليه أن يطلق سراحه استثناء، فأبى وطلب أن يعم الإنصاف سائر المعذبين والمعتقلين من أبناء الجماعة المؤمنة الصابرة، وإلا فهو يؤثر أن يبقى في السجن مع جماعته وإخوانه... وهكذا كان.

ودار الدهر دورته وأخذ الله من قضى عدله أن يأخذهم، أخذ عزيز مقتدر، وأطلق سراح الهضيبي وجماعته فوجاً بعد فوج.

٦- نحن على العهد يا قائد الشهداء[١]

الإسلام دين حياة ولا حياة مطمئنة بدون نظام، ولهذا حرص الشارع الحكيم على تنظيم كل شيء في حياة الفرد والجماعة، فنهى الفرد عن العزلة، ودفعه للعيش والتعاون مع الجماعة، وأوصاه بعدم الخروج عليها ما دامت على الحق، ولكي لاتتضارب مصالح الأفراد أو تتصارع كان لابد أن يوجد نظام شامل ينظم شؤون حياة الأفراد والجماعات ويحدد لكل فرد ما له وما عليه، وأن يوجد قائد لكل جماعة يسهر على تطبيق هذا النظام ويقف عند حدوده.

والقيادة ركن من أركان كل جماعة مهما صغر حجمها، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام «إذا كنتم ثلاثة فأمروا أحدكم» والقائد جزء من الدعوة، ولا دعوة بغير قيادة، وعلى قدر الثقة المتبادلة بين القائد والجنود تكون قوة نظام الجماعة واحكام خططها ونجاحها في الوصول إلى غايتها، وتغلبها على ما يعترضها من عقبات وصعاب «فأولى لهم طاعة وقول معروف»

(١) مقال للمؤلف في مجلة (الشهاب) البيروتية العدد (١٣) تاريخ ٦ ذي القعدة ١٣٩٣

وللقيادة في دعوة الإخوان حق الوالد بالرابطة القلبية والأستاذ بالإفادة العلمية، والشيخ بالتربية الروحية، والقائد بحكم السياسة العامة للدعوة، ودعوتنا تجمع هذه المعاني جميعاً، والثقة بالقيادة هي كل شيء في نجاح الدعوات[1].

لقد تولى الإمام الشهيد «حسن البنا» قيادة الحركة الإسلامية منذ عام ١٩٢٨ وبقي يحمل لواءها ويسير بها من حسن إلى أحسن حتى أصبحت من القوة بمكان جعل أعوان الاستعمار والصهيونية يجتمعون على حربها لأنها أصبحت عقبة كأداء في وجه مخططاتهم الاستعمارية في العالم الإسلامي، فدبروا اغتيال الإمام الشهيد على يد الطاغية فاروق عام ١٩٤٩، وزجوا بجنودها العائدين من فلسطين في غياهب السجون والمعتقلات. ولكن ذلك ما كان يزيد هذه الدعوة إلا تماسكاً وإيماناً، ومضى الداعية الشهيد إلى ربه بعد أن أرسى قواعد هذه الدعوة وبنى صرحها فأحسن البناء، والتحق هذا القائد العظيم بمواكب الشهداء والصالحين.

ومنذ ذلك الحين وهذه الدعوة تقدم الشهداء، كل ذنبهم أنهم قالوا ربنا الله، وكل جرمهم أنهم قالوا لكل العملاء والمستعمرين «لا» حرصاً على أمتهم وحدباً على قومهم، لتخليصهم من براثن الصهاينة والمستعمرين، الذين أرادوا هذه الأمة بقرةً حلوباً تدر عليهم المال الوفير والخير العميم.

ولما كانت هذه الدعوة دعوة الله، وهو جلت قدرته القوام عليها الحامي لها، فقد قيض لها قائداً آخر اختاره جنودها من بينهم، فحمل اللواء بحزم وإيمان، وسار نحو الغاية بثبات ويقين، لا تفل في عزمه العقبات، ولا تثنيه عن الغاية الشدائد فكان خير خلف لخير سلف، ذلكم المجاهد الصابر

(١) حسن البنا «رسالة التعاليم».

« حسن الهضيبي » فبايعه إخوانه ولسان حال كل منهم يقول:

إذا مات منا سيد قام سيد   قؤول لما قال الكرام فعول

عمل الهضيبي رحمه الله قاضياً ثم مستشاراً حوالى ثلاثين عاماً، كان خلالها مثال العدل والنزاهة، كما كان شديد الالتزام بالقانون والنظام، يدافع عن الحقوق والحريات ويرسي دعائم الحق والعدل، وكان ينطلق في كل ذلك من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فقد كان يفهم الإسلام فهماً كاملاً شاملاً، ويؤمن أنه لا نجاة لهذه الأمة مما هي فيه إلا بتطبيق شريعة الإسلام ومبادئه. سأله يوماً رئيس محكمة النقض وإبرام:

« يا حسن ألست معي. أن أكثر أحكام التشريع المدني الحديث تقابل أحكاماً مماثلة في الفقة الإسلامي؟

قال الأستاذ الهضيبي: بلى.

قال الرئيس: فما هو إذاً الأساس الكبير والمطالبة الملحة من جانبك بالرجوع إلى الشريعة الإسلامية وتطبيق أحكامها؟

قال: هو أن الله تعالى قال: ﴿وأن أحكم بينهم بما أنزل الله﴾ ولم يقل أن أحكم بينهم بمثل ما أنزل الله، إن تحكيم شريعة الله في عقيدة المسلم عبادة تؤدي امتثالاً لأمر الله، وذلك هو مصدر بركتها وسر قوتها في نفوس المؤمنين بها وفي كيان الجماعة المؤمنة.

وحين عرض مشروع تنقيح القانون المدني المصري عام ١٩٤٥ على الأستاذ الهضيبي، سجل كتابة أنه يرفض مناقشة هذا المشروع من حيث المبدأ «لأنه لم يقم أساساً على الكتاب والسنة»(١).

(١) عن مجلة المسلمون « المجلد الثامن » العدد التاسع.

وفي عام ١٩٤٧ نشر الأستاذ الهضيبي رحمه الله مقالاً في جريدة « أخبار اليوم » المصرية وذلك حين عرض عليه تعديل مشروع القانون المدني المصري قال فيه: « إن أحسن تعديل في نظري هو سن قانون من مادة واحدة يقضي بتطبيق الشريعة الإسلامية في الأحوال الجنائية والمدنية » وقال:

« لقد أعلنت عن رأيي أمام لجنة تعديل القانون المدني في مجلس الشيوخ فقلت: يجب أن يكون قانوننا هو القرآن والسنة في جميع شؤون حياتنا وليس في الشؤون التشريعية وحدها، إن الإسلام دين متماسك متكامل غير قابل للتجزئة فيجب تطبيق جميع أحكامه في كل أمة تدين به.

« هذا هو الرأي الذي جاهرت به، وسأظل أدعو إليه، عن يقين واقتناع، وأود أن أؤكد أنني قد انتهيت من مراجعة الشريعة الإسلامية ودراستها إلى أنه ليس في تشريعات الأجانب وقوانينهم ما لايتضمنه القرآن الكريم، والحلال بيِّن والحرام بيِّن وكلاهما واضح المعالم والحدود إلى يوم الدين.

« هذا ما قلته أمام اللجنة وإنني على يقين أنهم لن يأخذوا به، ولكن لاحرج علي في ذلك ما دمت مؤمناً بما أقول، ولكن ظني أنه بعد فترة تمتد إلى عشرين أو ثلاثين سنة سيتجه الرأي إلى الأخذ بما أقول، وكلما شرح الله صدور الناس بالقرآن قرب اليوم الذي يسود فيه هذا الرأي.

« لقد رأينا أن جميع القوانين التي أخذناها عن الأجانب لم تصلح من حال بلادنا ولم تحقق ما كان يرجى منها، فهذه السجون ملأى بالسجناء، والجرائم تزداد، والفقر ينتشر والحالة الخلقية والاجتماعية تسوء كل يوم عن سابقه، ولن يصلح الحال إلا إذا نظمنا علاقاتنا بالسنن الكونية التي

تنزل الوحي بجملة أسرارها ومعالمها في القرآن، وإلا إذا عشنا في بيوتنا وبين أهلينا وأولادنا ومع الناس أجمعين عيشة قرآنية . وفي العاشر من ديسمبر ١٩٥٢ م، أعلن إلغاء الدستور المصري القديم، وبعد يومين عين مائة عضو لوضع دستور جديد كان بينهم ثلاثة من الإخوان، ونشرت « مجلة الدعوة » مقالاً تدعو إلى وضع الدستور على أسس إسلامية وطالب الهضيبي بالاستفتاء ليتبين أتختار مصر شرائع الإسلام أم شرائع الغرب، فإذا رأت أن تحكم بالإسلام كان على لجنة الدستور أن تنفذ ذلك، وإذا أرادت الأخذ بشرائع الغرب وهو رأي لايمكن أن يقول به مسلم عرفنا أنفسنا وعلمنا الأمة أمر ربها وما يجب عليها »[1]

كان البنا رحمه الله داعية ينزل الناس منازلهم ويختار الأسلوب المناسب لعرض الدعوة عليهم وكسبهم لطرفها، ومثل هذا الأسلوب كان يتبعه مع كبار الموظفين أمثال الأستاذ الهضيبي، فقد كان حريصاً على سرية ارتباطه بالدعوة، ولهذا كان الهضيبي يحضر مع البنا رحمها الله الكثير من الأسر والجلسات الخاصة، كما كان يستشيره في كثير من الأمور، بل كان يرى فيه أخاً أكبر له يستشيره في الأزمات والمعضلات ويدخره ليوم عصيب ووقت رهيب، ويحدث إخوانه عنه في جلساته الخاصة بكثير من الإعجاب والتقدير.

ويذكر الهضيبي رحمه الله أن علاقته بالإخوان قد بدأت منذ عام ١٩٤٢ م، وقد اقتنع بهذه الدعوة بالطريق العملي قبل الطريق النظري، وذلك حينما لمس من بعض أقاربه الفلاحين إدراكاً لمسائل كثيرة في الدين والسياسة ليس من عادة أمثالهم الإلمام بها وخاصة أنهم كانوا شبه أميين،

(١) عن مجلة « المسلمون » العدد ٢٠٦.

فلما علم أن ذلك يعود إلى الإخوان، أُعجب بهذه الدعوة إيما إعجاب، وأخذ يحرص على حضور خطب الجمعة في المساجد التي كان يخطب فيها الأستاذ البنا رحمه الله، وأخيراً تم لقاؤه مع البنا حيث اطلع منه مباشرة على أهداف الدعوة ومبادئها، وبقيت علاقته بالبنا والإخوان سرية حتى أُعلن عن انتخابه مرشداً عاماً للجماعة عام ١٩٥١.

وفي الثاني عشر من شهر شباط ١٩٤٩ اغتال زبانية فاروق الشهيد حسن البنا رحمه الله، فشغر بذلك مركز المرشد العام للدعوة، ولما كانت القيادة ركناً من أركان هذه الدعوة وخاصة في الظروف العصيبة التي كان يمر بها الإخوان في ذلك الوقت، فقد أخذ الإخوان يبحثون عن قائد آخر يقود سفينة الدعوة إلى شاطىء السلام، ورشحوا لهذا المنصب أكثر من أخ من الإخوان العاملين إلا أن الأغلبية في الهيئة التأسيسة للإخوان أجمعت على انتخاب « حسن الهضيبي » مرشداً عاماً، وبقي الهضيبي رحمه الله يؤدي عمله سراً نحو ستة شهور كما أنه لم يترك العمل في القضاء خلالها. ولما سمحت حكومة النحاس باشا للهيئة التأسيسية للإخوان بالاجتماع، طلب أعضاؤها من الهضيبي أن يرأس اجتماع الهيئة بصفته مرشداً للجماعة، ولكنه رفض طلبهم إذا اعتبر انتخابه من قبل الهيئة التأسيسية في المرحلة السرية من الدعوة لايمثل رأي جمهور الإخوان وطلب منهم أن ينتخبوا مرشداً آخر غيره، ولكن الإخوان رفضوا طلبه، وقصدت وفود الإخوان من جميع مصر بيته، وألحت عليه بالبقاء كمرشد عام للجماعة، وبعد أخذ ورد وافق على مطالب وفود الإخوان، وقدم استقالته من القضاء ليتفرغ للعمل لدعوة الله، وفي ١٧ تشرين أول ١٩٥١ م أُعلن حسن الهضيبي مرشداً عاماً لجماعة الإخوان المسلمين، ومع ذلك قام رحمه الله بجولة على جميع شعب الإخوان ليتأكد أن الوفود التي حضرت إليه تمثل رأي جميع الإخوان في

الشعب وفعلًا كان، فبايعه كل من التقى به من الإخوان.

لقد رأى أكثرية الإخوان في الهضيبي ضالتهم المنشودة كقائد لدعوتهم، لما كان يتصف به رحمه الله من صفات تصلح لقيادة الدعوة في مراحلها القادمة، فالدعوة في عهد البنا رحمه الله كانت تمر في فترة التبشير واختيار الأنصار وإرساء القواعد وتوضيح الأهداف والمبادئ، ولهذا كانت تحتاج إلى قائد عظيم كالبنا رحمه الله استطاع أن يقوم بهذه المهمة ويصل بالدعوة إلى مرحلة متقدمة من البناء والعمل والتربية، أما الفترة التي قيض الله فيها الهضيبي لقيادة الدعوة، وإن كانت تعتبر استمراراً للفترة السابقة إلا أنها تتميز عنها بأنها مرحلة المجابهة السافرة مع الأعداء، وإعلاء صرح البناء، وتفصيل أهداف الدعوة ومبادئها والسير فيها لتحقيق هذه الأهداف، كما أن المحنة الأولى التي أصابت الإخوان على يد إبراهيم عبد الهادي كان لها آثار خطيرة على جبهة الإخوان الداخلية، كما أصبح العداء واضحاً بين الإخوان وبين فاروق الذي حل جماعتهم وصادر ممتلكاتهم واغتال مرشدهم الشهيد حسن البنا، ولهذا كانت تحتاج هذه المرحلة إلى قائد ذي صفات معينة يخرج بالدعوة في هدوء وصمت مما هي فيه من المشاكل ويزيل من أمامها ما يعترضها من عقبات، ويسير بها نحو أهداف الإسلام الكبرى بحزم وإيمان، ولهذا كانت الدعوة بحاجة إلى الصبر والثبات وحسن الإدارة وسعة الصدر والحنكة السياسية أكثر من حاجتها إلى الخطابة والضجيج وعرض العضلات وإن كانت هذه لاغنى عنها، في وقت أدرك العالم الغربي خطورة أهداف هذه الدعوة على مصالحة في العالم الإسلامي، ولهذا رمتها دوله عن قوس واحدة حين أعلن ممثلو كل من انجلترا وفرنسا وأمريكا الحرب على دعوة الإخوان حين اجتمعوا في القاعدة البريطانية في « فايد » على السويس عام ١٩٤٩.

لم يكن الهضيبي خطيباً كالبنا، ولكنه كان على علم تام بمبادئ الدعوة وأهدافها، بل على العكس كان يغلب عليه قلة الكلام والصمت الذي كان يزعج أعداء الله، ولكن بجانب ذلك كان متزناً إذا عمل لا يعرف الكلل ولا الملل ولا يخشى في الله لومة لائم، لقد تميز رحمه الله بالصبر والثبات وحسن الإدارة والحنكة السياسية وسعة الصدر، كما كان يؤمن بالشورى والنقد الذاتي البناء ويعتبرهما أساساً ضرورية لبناء الجبهة الداخلية للجماعة، أما الحكام فقد كان عنده لكل مقام مقال حيث كان لبقاً دبلوماسياً حيث تصلح اللباقة والدبلوماسية، كما كان حازماً شديداً حيث لا ينفع إلا الحزم والشدة، فبينما كانت قوات الإخوان تضرب القاعدة البريطانية في القنال عام ١٩٥١ وكانت الأحزاب الأخرى تدعي لنفسها ما يعمله الإخوان، كان الهضيبي رحمه الله يقف في المركز العام ليقول للإخوان « أيها الإخوان أوصيكم بتقوى الله وقراءة القرآن وعدم التدخل في السياسة » أما الحقيقة فقد كان رحمه الله خلف جميع تنظيمات الإخوان في القنال ويطلع بنفسه على كل صغيرة وكبيرة من أعمالهم. والذي يراجع كتاب « المقاومة السرية » يجد فيه تفصيل ذلك كله. ولما حاول الإنجليز في أثناء الحرب الإيقاع بين الإخوان والأقباط، التقى الهضيبي رحمه الله ببابا الأقباط وتفاهم معه على كل شيء حتى يفوت الفرصة على أعداء الله، وظهر المرشد العام للإخوان المسلمين في اليوم التالي في الجرائد المصرية يصافح زعيم الأقباط ويعلن اتفاقهما على مصلحة مصر. كما كان رحمه الله أكثر الإخوان معرفة بظروف المرحلة القادمة للدعوة، وقد أثبتت الأيام أنه كان رحمه الله خير خلف لخير سلف، وأنه قاد الدعوة في الطريق الذي يجب أن تسير فيه، كما رفض أن تنحني دعوة الله أمام الهجمة الصهيونية الاستعمارية عليها، فحفظ لهذه الدعوة شخصيتها وكرامتها، إذ لم يُعرف عنه رحمه الله أنه بالرغم من كبر سنه وقسوة السجن والتعذيب

الذي كان يلاقيه أنه لانت له قناة أو سمع منه السلطان وزبانيته إلا ما يجلب لهم الغم وما ينغص عليهم حياتهم.

ومنصب المرشد العام في دعوة الإخوان تكليف وليس تشريفاً، وخاصة بالنسبة لرجل تجاوز الستين من العمر، ومع أن الهضيبي كان يدرك هذا ويدرك أنه ورث تركة ثقيلة ودعوة كبيرة، وأعداء كثير عددهم وعظيمة إمكاناتهم، مع هذا كله واجه هذه الأعباء جميعاً بقلب ثابت وإيمان صادق لايعرف الملل ولا الكسل، لقد كان عليه أن يجمع شمل الإخوان وينظم صفوفهم ويقوي جبهتهم الداخلية حتى يكونوا المنطلق الثابت والقاعدة القوية التي تنطلق منها دعوتهم لتحقيق أهداف الإسلام الكبرى، كما كان عليه أن يدفع عجلة هذه الدعوة إلى الأمام لكي تشق طريقها في مصر خاصة والعالم العربي والإسلامي بشكل عام، كما كان عليه رحمه الله أن يواجه قوى الظلم والبغي والعدوان والتي رمت دعوة الله عن قوس واحدة، وقررت خوض المعركة معها مهما تكن النتائج، وبالرغم أن فترة ولايته قبل الحل كانت قصيرة إذ لم تتجاوز الثلاث سنوات، فقد حقق الكثير من أهداف هذه المرحلة، ولولا أن المؤامرة على دعوة الإخوان كانت مؤامرة عالمية جند لها أعداء الله كل جهودهم وهاجموها قبل أن تستعيد قوتها بعد المحنة الأولى، وقبل أن تستعد للنزال، لاستطاع الهضيبي رحمه الله أن يصل بالدعوة إلى أهدافها المرسومة ولكن الله غالب على أمره. ولا راد لقضائه.

لقد بدأ الهضيبي من حيث انتهى سلفه البنا رحمهما الله والذي يراجع ما كتبه من مقالات في مجلة «المسلمون» تحت عنوان «هذا القرآن» وما كتبه في مجلة «الإخوان المسلمون» وما أدلى به من أحاديث وتصريحات للمجلات المصرية والأجنبية وما كتبه إلى الملوك والرؤساء في الدول

العربية والإسلامية، ليدرك تفهمه العميق للإسلام خاصة ولدعوة الإخوان بشكل عام. لقد كان يدرك رحمه الله أن المرحلة الحالية هي مرحلة الانطلاق لتحقيق هدف الإسلام ألا وهو إقامة دولة الإسلام في الأرض، ولهذا نجد هذا الموضوع غالباً على كل أحاديثه في رسالته التي بعنوان «دستورنا» وفي أحاديثه مع الإخوان حيث كان يقول لهم «أيها الإخوان أقيموا دولة الإسلام في صدوركم تقم في أرضكم» ويقول: «دولة الباطل ساعة، ودولة الحق إلى قيام الساعة». وفي أول لقاء بينه وبين الإخوان في دار المركز العام قال: «أيها الإخوان، هذا أول لقاء بيني وبينكم، ويسعدني أن أوصيكم بتقوى الله وطاعته، والإقبال على الله بقلوب خاشعة ونفوس مخلصة وترتيل القرآن الكريم، وأن تستعدوا في هذه الظروف التي تمر بها بلادنا، والله معنا ينصرنا ويوفقنا»[1].

وكتب افتتاحية العدد الأول من مجلة «الإخوان المسلمون» في ٢٠ آيار ١٩٥٤م، فقال: «سيجد الناس أن الإسلام ليس دين عبادة وصوم وصلاة، ولا دين قطع الأيدي ورجم الزناة فقط، ولا دين الفضائل فحسب، سيجدون أنه دين عبادة تطهر النفس وتزكي القلب وتصل العبد بربه حتى يكون قادراً على تحمل تبعات الحياة ومشاقها، وسيجدون أنه دين أقام الحياة الاجتماعية بين المسلمين على أكمل نظام وأوفاه بحاجات الناس، وسيجدون أنه عالج الأخلاق والفضائل وأدب السلوك فأمر بالحسن ونهى عن القبيح، وسيجدون أنه أوجب على المسلمين الجهاد إذا ما ديست أرضهم واحتلها العدو، وسيجدون كيف عالج الإسلام مشكلات العمال وكيف نظر إلى ملكية الأرض بعدالة لا تعادلها عدالة، وكيف عالج شئون

---

(١) مجلة الدعوة ٦ نوفمبر ١٩٥١.

الأسرة كما عالج شئون الحكم في قواعده العامة الثابتة التي لاتتغير وتترك التفصيل لاختلاف الظروف »[1].

وفي تصريح له لصحيفة « لوموند » الفرنسية في شهر آب ١٩٥٢ م، سأله مراسل الجريدة: هل تسعون إلى أن تحكموا مصر بتعاليم الإسلام؟

فقال الهضيبي: إن الذي يهمنا هو أن تحكم البلاد بالإسلام سواء أكان الحكم للإخوان أم لغيرهم، ولما سأله: ولكنكم لاتستطيعون إلا إذا دربتم رجالكم عملياً عليه؟ فرد عليه الهضيبي قائلًا: « إن الإخوان منبثون في كل مرافق البلاد ».

وفي تصريح له لجريدة « المصري » بتاريخ ١٨ آب ١٩٥٣م قال:

« إن الشيوعية مذهب قام على نظم مادية بحتة، وهو ينكر الأديان جميعاً، ولا يجعل صلة بين الإنسان وشيء كما يجعلها بينة وبين لقمة العيش، وأما الإسلام فقد بني أول ما بني على توحيد الله وجعل الإنسان موصولاً به دائماً في كل أعماله لايقصد بعمله إلا وجه الله، وبني على العبادات والأخلاق وتنظيم الحياة الاجتماعية تنظيماً لاتطمع الإنسانية بأحسن منه، ولذلك نجد الفارق بين الشيوعية والإسلام عظيماً، وهي تتجافى مع عقائده وآدابه وأخلاقه ونظامه الاجتماعي... وأما روسيا كدولة فليس بيننا وبينها ما يدعو للعداء، وأما كفكرة فلا نخشاها إذا عملنا بالإسلام على الوجه الصحيح وأخذنا بكل تعاليمه، ولا بد لهذه التعاليم من أن تنتصر على كل فكرة أخرى ».

وقال في مجلة « المسلمون »: « إن حكام المسلمين يدعون أنهم يحكمون

(١) عن كتاب « الإخوان المسلمون كبرى الحركات الإسلامية » للدكتور إسحق موسى الحسيني.

بالقرآن وهم عن معانيه بعيدون، يحسبون أنه صلاة وصوم وحج، ولا يدركون أنه مع ذلك علم وفهم وتربية وأخلاق وجهاد في سبيل الله، ومعاملة وتحقيق العدل الاجتماعي الذي كفله الله للناس على صورة لم يصل إليها الناس في كافة عصورهم »[١].

وقال « وليعلم المسلم أنه لايكون مسلماً حقاً إلا إذا أصبحت عقيدته جزءاً لايتجزأ من أخلاقه وسلوكه، فيكون عادلاً مع الناس جميعاً، ويحذر نوازع الهوى أن تميل به عن هذا العدل مع أقرب الناس إليه، فلا يذكر إخوانه بسوء ولا يغتابهم ولا يلمزهم فإن أكثر الشرور إنما ينشأ عن مثل ذلك »[٢].

كما أصدر رسالة بعنوان « دستورنا » تناول فيها بإيجاز ما يتضمنه هذا الدستور الإلهي من شؤون العبادات والمعاملات والعقوبات، وتنظيم العلاقة بين الحاكم والمحكوم وأحكام التربية والجهاد، والأحوال الشخصية لغير المسلمين، وأجاب على سؤال يتردد على كثير من الألسن: هل الحكم بالقرآن فرض؟ كما وضح أن الإخوان في دعوتهم متبعون وليسوا مبتدعين حين قال « فنحن حين نطالب بالعمل حسب كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لانبغي من وراء ذلك تطبيق الأحكام الواردة في القرآن فحسب ولكننا نرجو أن يجعل المسلمون القرآن منهاجاً يسيرون عليه في الحياة ويطبقونه بحذافيره، وهو أفضل لنا من أي دستور آخر، لأن القرآن هو الدستور الكامل الشامل الذي لم يترك صغيرة ولا كبيرة في بناء الأمة إلا عالجها تارة بالتفصيل وتارة بالإجمال تاركاً لها أن تمضي في التفصيل على ما تقتضيه

---

(١) عن كتاب « الإخوان المسلمون كبرى الحركات الإسلامية ».

(٢) « المسلمون » العدد ٦ المجلد ٨.

مصالحهم ولا يتعارض مع الأصول التي وضعها »[١].

والمشكلة الخارجية الرئيسية التي واجهها المرحوم الهضيبي في أثناء ولايته قبل حل الجماعة هي «علاقة الإخوان بالثورة المصرية» والتي بدأت بالوفاق وانتهت بالخلاف وأعتقد أنه لم يكن هناك اتفاق رسمي بين الإخوان ورجال الثورة ولكن الاتفاق بينهم كان عرضياً وضد الخطوط الرئيسية للفساد الذي كان مستشرياً في مصر والذي لايختلف فيه اثنان من المصريين مثل فساد فاروق، والاحتلال البريطاني، والفساد الاجتماعي وليس معنى اتفاق الإخوان مع الثورة على تحقيق هذه الأهداف أنَّ الاتفاق بينهم كان ضمن خطة معينة تبناها الطرفان، إذ ليس من المعقول أن يتعاون الإخوان مع أشخاص عسكريين مجهولين في انتمائهم، مختلفين في اعتقاداتهم وميولهم الحزبية.

لقد تم الاتفاق بين الصهيونية والاستعمار لضرب الإخوان منذ عام ١٩٤٩ على أثر اجتماع عقده سفراء كل من بريطانيا وأميركا وفرنسا في القاعدة البريطانية في القنال وكانت محنة الإخوان الأولى على يد فاروق ولكن هذه المحنة لم تزد الإخوان إلا قوة وشعبية، مما أكد لهذه الدول أن فاروقاً أضعف من أن يستمر في عملية التصفية، وقد أفرج فعلاً عن الإخوان بضغط شعبي عام ١٩٥١، والذي يقرأ الكتب التي كتبها عملاء المخابرات الأميركية في الوطن العربي يدرك أن الهدف من الانقلاب المصري عام ١٩٥٢ كان إيجاد القيادة الحازمة القوية التي تستطيع ضرب الإخوان وتصفيتهم.

لقد شعر الصهاينة والمستعمرون أن دعوة الإخوان هي العدو الحقيقي

(١) عن رسالة «دستورنا» للأستاذ الهضيبي.

الذي يتهدد أطماعهم في العالم الإسلامي، والتي تهدف إلى التصدي لكل حركة إسلامية تعمل على تجسيد الإسلام في كيان سياسي حتى يبقى العرب والمسلمون ضعفاء متفرقين يسهل استغلالهم واستعمارهم، ولهذا واجه الإخوان عام ١٩٥٤ دولاً كبرى لها إمكانيات ضخمة ومخابرات منظمة، أما العساكر الذين تصدوا للإخوان فلم يكونوا سوى قفازات تتستر خلفها الأيدي الخفية، لقد واجه الإخوان في هذه المحنة كل قوى الشر في العالم من يهودية وشيوعية وصليبية وشعوبية سواء تمثلت بأسماء عربية أو أجنبية.

بدأت علاقة الإخوان بالانقلاب المصري بالاتفاق في وجهات النظر على الصعيد الوطني مثل إخراج الإنجليز وإصلاح الحكومة والجيش وإخراج فاروق، دون أن يوافق الإخوان على الزج بهم في معركة ليست في مخططهم، وكان الأستاذ «حسن عشماوي» هو حركة الوصل بين الإخوان ورجال الثورة، وقبل قيام الانقلاب المصري بيومين اتصل أحد أعضاء هذا الانقلاب بالأخ «حسن» وأبلغه بعزم الضباط على القيام بانقلابهم، ولما كان الهضيبي رحمه الله يعلم أبعاد الظروف الراهنة في مصر فلم يكن متفائلاً ولا مخدوعاً، ولهذا لما أبلغه الأخ «حسن» بالخبر وتم البحث في مدى تأييد الإخوان للانقلاب قال المرشد لقيادة الإخوان: «إن تنفيذ الانقلاب على يد الجيش معناه السير في طريق الحكم العسكري والدكتاتورية وهذا لا يحقق رغبات الشعب المصري ولا يتماشى مع أصول الإسلام لأن الحرية الفردية هي أساس من أُسس الإسلام» ولما أخبره العشماوي بأن الجيش سيقوم حتماً بالانقلاب قال له المرشد إنه لن يمنع الإخوان من تأييد حركة الجيش وأنه سيأمرهم بمعاونته إذا ما حاولت قوات الإنجليز في منطقة القناة التدخل لعرقلة حركة الجيش ثم أنهى

المرشد حديثه بأنه سيظل يؤيد حركة الجيش ما دامت تسعى لتحقيق آمال الشعب، واعتبر العشماوي ذلك تأييداً من المرشد للحركة. فصدرت الأوامر لشُعب الإخوان بتأييد الوضع الجديد »[1]. لقد اشترط المرشد العام رحمه الله أن الإخوان سيؤيدون حركة الجيش إذا ما حاولت القوات البريطانية التدخل، ولما لم تتدخل هذه القوات اقتصر تأييد الإخوان للحركة على حفظ الأمن، كما اشترط أيضاً ان الإخوان سيؤيدون الحركة ما دامت تعمل على تحقيق آمال الشعب، أما ما كان يجري خلف الكواليس فلم يكن الإخوان على علم به، وقد تم الاصطدام بين الإخوان ورجال الانقلاب لأنهم حادوا بالحركة عن تحقيق آمال الشعب المصري، وقد حاول الإخوان في بداية الأمر تفادي هذا الصدام حفاظاً على المصلحة العامة للأمة، إلا أنه تأكد لهم بعد ذلك أن الصدام هو جزء من معركة الحق والباطل وأنه لابد مما ليس منه بد، ولهذا كان الصدام شديداً وعنيفاً ضحى فيه الإخوان بدمائهم وأرواحهم في سبيل دين الله ولتحقيق مصلحة شعبهم.

وحين أصدر رئيس وزراء مصر قراره بحل جماعة الإخوان المسلمين عام ١٩٥٤م بعث إليه الأستاذ حسن الهضيبي بالرسالة التالية:

« وقرار حل الإخوان، وإن أنزل اللافتات عن دورهم، فإنه لم يغير الحقيقة الواقعة وهي أن الإخوان المسلمين لايمكن حلهم، لأن الرابطة التي تربط بينهم هي الاعتصام بحبل الله المتين وهي أقوى من كل قوة، ولا تزال هذه الرابطة قائمة وستبقى كذلك بإذن الله، ومصر ليست ملكاً لفئة معينة ولا يحق لأحد أن يفرض وصايته عليها ولا أن يتصرف في شؤونها دون الرجوع إليها والنزول على إرادتها، لذلك كان من أوجب الواجبات

---

(١) جمال عبد الناصر «لأحمد أبو الفتح».

على الإخوان المسلمين أن يذكروكم بأنه لايمكن أن يبت في شؤون البلاد في غيبتهم، وكل ما يحصل من هذا القبيل لن يكون له أثر في استقرار الأحوال ولا يفيد البلاد بشيء ».

ومهما يكن من أمر فقد صدق حدس الهضيبي في خط رجال الثورة، فقد قادوا الشعب المصري إلى الهاوية والفقر والهزيمة والدكتاتورية، ولم يكن بإمكانهم ذلك لو لم تكن الأسد مكبلة في غياهب السجون والمعتقلات، وإذا كانت المعارك تقاس بنتائجها النهائية لابمقدار الخسائر التي لحقت بالطرفين المتنازعين، وإذا كانت نتائج المعارك تقاس بمقدار تحقيق الطرف المهاجم لأهدافه التي حددها مسبقاً قبل المعركة فإنه يمكن القول ان أعداء الله قد فشلوا في تحقيق هدفهم النهائي ألا وهو القضاء على الإخوان المسلمين، فقد أثبتت تقارير المخابرات الاستعمارية أن المحن لم تزد الإخوان إلا قوة وثباتاً، كما لم تزد دعوتهم إلا اتساعاً وانتشاراً، وكثيراً ما سمعنا الحكام يتكلمون عن « الثورة المضادة » وعن التحرك المضاد « للرجعية الإسلامية ». وذهب الطغاة وبقيت دعوة الله عالية اللواء رافعة الجبين.

أما أنتم يا أتباع الهضيبي، فقد غاب عنكم الأخ الكبير الذي طالما وسعتكم محبته ورعايته، والقائد الفذ الذي حمل لواء دعوتكم وصبر على ذلك وصابر، والمرشد الأمين الذي أنار لكم الطريق إلى النصر، والداعية المؤمن الذي حافظ على كرامة دعوتكم وبقي يقول للطغاة « لا » رغم كبر سنه وضعف جسمه وعمق الجروح والقروح في جسده، وثبت على ذلك ثمانية عشر عاماً حتى قضى نحبه مقبلاً غير مدبر، فمد من جسمه جسراً تعبرون عليه إلى النصر إن شاء الله، ولئن مات الهضيبي فإن عزاءنا أن دعوة الله

باقية شامخة، وأنه ضرب لنا أروع الأمثال في الصبر عند اللقاء والثبات على الحق، وما علينا إلا أن نحذوا حذوه وننسج على منواله. فإلى جنة الخلد يا قائد الشهداء، وسنبقى على العهد نحتضن راية الله بقلوبنا ونفدي دعوته بأرواحنا حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله.

مصادر البحث:

١ - كتاب «الإسلام والداعية» جمعه وقدم له: أسعد سيد أحمد.
٢ - مجلة الشهاب البيروتية العدد (١٣) ٦ ذى القعدة ١٣٩٣.
٣ - مجلة الشهاب البيروتية العدد (١٤) ٢١ ذى القعدة ١٣٩٣.

ثورة المجاهد
الحاج أمين الحسيني

١ - مقدمة

على أثر السبي البابلي لليهود في حوالى القرن السادس قبل الميلاد، شعر رجال الدين بأن اليهود سيذوبون في المجتمع البابلي الأقوى حضارة ومدنية إذا لم يتداركوا أمرهم، وقد وجد هؤلاء في العقيدة الدينية خير عون لهم للوصول إلى هدفهم هذا، فأشاعوا بين اليهود بأنهم شعب الله المختار الذي فضله على جميع الشعوب والأجناس، ولهذا عليهم أن يتكتلوا ويعدوا أنفسهم للعودة إلى «أورشليم» القدس وأطلقوا هذا الشعار «في العام القادم سنلتقي بأورشليم» وبقيت فكرة العودة إلى القدس حلماً يراود كبار اليهود وصغارهم من أكثر من خمسة وعشرين قرناً، حاولوا خلالها أكثر من مرة العودة إلى فلسطين ولكنهم لم يفلحوا حتى كان القرن العشرين، فعادوا إليها تحت الحماية الأوروبية الأميركية الاستعمارية.

وعودة اليهود إلى القدس ليس عقيدة دينية صرفة، ولكنها مشوبة بأطماع مادية، إن لم تكن الأطماع المادية هي الأساس في هذه العودة، فاليهود الذين عبدوا العجل الذهبي زمن موسى عليه السلام هم أجداد

يهود اليوم الذين اختاروا فلسطين لخيراتها وموقعها الاستراتيجي والديني، وأنها ستكون بمثابة موطئ قدم لتحقيق مملكة إسرائيل من الفرات إلى النيل، وهكذا يطمع اليهود في خيرات العالم العربي وثرواته بشكل خاص والعالم الإسلامي بشكل عام، قال «ناحوم جولد مان» رئيس المؤتمر اليهودي العالمي الذي عقد في مونتريال بكندا عام ١٩٤٧ «لقد كان ممكناً لليهود أن يحصلوا على اوغندا أو مدغشقر أو غيرهما من الأقطار لينشئوا فيها وطناً لليهود، ولكن اليهود لا يريدون غير فلسطين على الاطلاق، وليس ذلك لاعتبارات دينية أو بسبب اشارة التوراة إلى فلسطين فحسب، ولا لأن أرض فلسطين ومياه البحر الميت تحتويان على ثروات عظيمة، بل لأن فلسطين هي أيضاً ملتقى الطرق بين أوروبا وآسيا وإفريقيا ولأنها المركز الحقيقي للقوة السياسية العالمية، والمركز العسكري الاستراتيجي للسيطرة على العالم».

ومنذ أن استولى الإنجليز على فلسطين عام ١٩١٧ بدأوا يعدونها لتكون وطناً قومياً لليهود بناء على وعد بلفور، وشعر الفلسطينيون بشكل خاص والمسلمون بشكل عام بالمخطط الاستعماري الذي يهدف إلى انتزاع فلسطين من العالم الإسلامي، فقام المجاهدون بعمل مزدوج أحد شقيه توعية المسلمين بأهداف المخطط الاستعماري وشقه الآخر إعلان الجهاد المقدس لإحباط هذا المخطط، وكان من هؤلاء المرحوم الحاج أمين الحسيني.

٢ - حياته

هو محمد أمين بن محمد طاهر بن مصطفى الحسيني، ولد في القدس عام ١٣١١ للهجرة الموافق ١٨٨٣ للميلاد تلقى علومه الأولية في القدس، ثم سافر إلى مصر ليكمل دراسته في الأزهر، وكان أثناء دراسته يتردد على

دار الدعوة والإرشاد التي أنشأها المرحوم محمد رشيد رضا بمصر، وتعرف خلالها على الكثير من زعماء العالم الإسلامي، وفي عام ١٩١٦ تخرج ضابطاً من اسطنبول وضم إلى الفرقة ٤٦ في أزمير، وبعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها عاد إلى القدس ليبدأ جهاده فيها ضد الإنجليز واليهود على حد سواء، فأشعل الثورة الأولى في القدس وبيسان عام ١٩٢٠، فطلبه الإنجليز ولكنه تمكن من الفرار إلى دمشق فحكم عليه غيابياً بالسجن عشر سنوات مع الأشغال الشاقة، ولما توفي أخوه المرحوم محمد كامل الحسيني عام ١٩٢١ سمح له الإنجليز بالعودة إلى القدس فانتخب مفتي فلسطين الأكبر خلفاً لأخيه، وفي عام ١٩٢٢ تألف «المجلس الإسلامي الأعلى» في فلسطين فتولى رئاسته، وكان أول من نبه إلى خطورة وعد بلفور والهجرة اليهودية.

لقد ظن الإنجليز أنهم سيطفئون هذه الشعلة الملتهبة حينما يسندون إليه منصباً دينياً فينشغل بمشاكل المسلمين عن مخططاتهم، ولكن الحاج أمين استغل منصبه ليعطي الثورة الفلسطينية دفعة إلى الأمام، فكان لهذا يقاتل في جبهتين: الأولى كان يحرص أن لا تقع الأراضي الفلسطينية في أيدي اليهود، ولهذا حينما انتخب رئيساً للمجلس الإسلامي الأعلى، وجه جهده لإصلاح إدارة الأوقاف والمحاكم الإسلامية، ونظم شؤونها بحيث تكون حارساً يصون أراضي فلسطين حتى لا تتسرب إلى أيدي اليهود، وفي الجانب الآخر كان يحرض الفلسطينيين على الثورة، فكان أول من نبه المسلمين بشكل عام والفلسطينيين بشكل خاص إلى خطر تكاثر اليهود في فلسطين بعد وعد بلفور، ولما حضر بلفور مع المندوب السامي البريطاني عام ١٩٢٥ لزيارة المسجد الأقصى، منعهما الحاج أمين من الدخول. ولم تقم حركة وطنية في فلسطين أو من أجلها إلا كان هو مديرها بالخفاء والعلن، وكان الحركة

الدائبة في اللجان والوفود إلى المؤتمرات وفي الثورات.

كان الحاج أمين رحمه الله ينظر إلى القضية الفلسطينية على أساس أنها قضية « إسلامية » تخص جميع المسلمين، وأنها جزء لا يتجزأ من عقيدتهم ودينهم لأن فيها أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، ولأنها مسرى رسول الله ﷺ ومعراجه. ولهذا عمل الحاج أمين على الدعوة إلى مؤتمر إسلامي يعقد في مكة بعد موسم حج عام ١٩٢٦ وسمي ذلك المؤتمر مؤتمر العالم الإسلامي لبحث قضية فلسطين بشكل خاص وقضية العالم الإسلامي بشكل عام إلا أن الهجمة الاستعمارية الشرسة على العالم الإسلامي بعد الحرب العالمية الأولى أشغلت المسلمين بأنفسهم كما اشغلت كل دولة بمشاكلها فلم يستطع المؤتمر تحقيق أهدافه، ومع ذلك دعا الحاج أمين عام ١٩٣١ إلى عقد المؤتمر الثاني لهذا المؤتمر في القدس واستضاف جميع الوفود القادمة من جميع أنحاء العالم الإسلامي فهو يعتبر بحق من مؤسسي منظمة مؤتمر العالم الإسلامي، ولم يكتف بعقد المؤتمر بل حرص على أن توضع القوانين اللازمة لاستمراره في تأدية رسالته، فانتخب رئيساً للمؤتمر كما انتخب الدكتور محمد إقبال رحمه الله نائباً للرئيس، كما انتخبت لجنة للمتابعة مقرها القدس، ولما زار الحاج أمين الهند بدعوة من الدكتور إقبال، وحذر المسلمين من المؤامرات الإستعمارية الصهيونية على العالم الإسلامي، وشدد على ان الرد الحقيقي على هذه المؤامرات لإنقاذ العالم الإسلامي من جشع الصهيونية والإستعمار لا يكون حاسماً إلا بتقوية وحدة العالم الإسلامي وتضامنه، من أجل تربية قيادة إسلامية قوية من الشباب المسلم من أجزاء مختلفة من العالم الإسلامي، ولما جمعت الأموال لهذا المشروع استولت عليها السلطات البريطانية بهدف إحباط هذا المشروع العظيم.

وفي عام ١٩٤٦م اجتمع رؤساء الأحزاب الفلسطينية الخمسة في بلودان واتفقوا على تأليف « الهيئة العربية العليا لفلسطين » وأسندوا رئاستها إلى الحاج أمين وهو يومئذ بعيد عن وطنه. فصدقت جامعة الدول العربية على هذا القرار وحلت الأحزاب الفلسطينية الخمسة نفسها لتوحد جهدها لمحاربة العدو المشترك.

وفي الوقت الذي كان الحاج أمين يعمل على توحيد صف المسلمين لم ينس فلسطين، فقد كان المنظم والمحرض على ثورة عام ١٩٢٩م، وقد حاول اليهود بعد ذلك رشوته بنصف مليون جنيه من أجل التنازل عن مكان البراق في القدس، لكنه رفض كل إغراءاتهم وكشف موقفهم هذا أمام لجنة التحقيق البريطانية.

وقد عُقد في ٢٦ آذار عام ١٩٣٣م مؤتمر في يافا بدعوة من اللجنة التنفيذية العربية برئاسة المجاهد موسى كاظم الحسيني، وقد حضر المؤتمر الحاج أمين الحسيني المفتي الأكبر ورئيس المجلس الإسلامي الأعلى وكانت الحكومة البريطانية قد دست بعض عملائها للضغط على الحاج أمين ليقدم استقالته من رئاسة المجلس الإسلامي الأعلى، ولكن الخبر كان قد وصل إلى سماحته فوقف على منصة الخطابة وقال: قبل المجيء إلى هنا قال لي بعض الاخوان ان بعض خصومك يريدون أن يورطوك، فقلت لهم هونوا على أنفسكم، إن أمين الحسيني ليس ممن يورطون، إنني منتخب من الشعب فإذا أراد الشعب أن أستقيل من رئاسة المجلس الإسلامي، فلن أستقيل فحسب، بل أستقيل من الحياة في سبيل أمتي وبلادي.

وأشعل الثورة مرة أخرى عام ١٩٣٦ وأعلن الاضراب العام الذي استمر حوالى ستة أشهر، كما حاولت السلطات البريطانية القبض عليه إلا

أنه لجأ إلى المسجد الأقصى واعتصم فيه لمدة أربعة أشهر، حتى استطاع الهرب بزورق إلى لبنان.

لقد كان للمفتي الأكبر أهداف عظيمة كان يبذل جهده لتحقيقها ومن هذه الأهداف تحرر العالم الإسلامي من السيطرة الإستعمارية، ولهذا ما ان قام السيد رشيد عالي الكيلاني بثورته في العراق حتى غادر الحاج أمين بيروت متوجهاً إلى بغداد مع مئات من إخوانه المجاهدين لمساعدة الثورة. وقد عهدت إليه حكومة الثورة بقيادة « قوة البادية الوطنية » وكانت هذه القوة تتألف من فلسطينيين وأردنيين وسوريين، ومن قادتها فوزي القاوقجي، وعبد القادر الحسيني، وعارف عبد الرزاق، وحسن سلامة، وعدد من أتباع الشهيد عز الدين القسام، وعمل أثناء وجوده بالعراق على تأسيس حزب الأمة العربية. وينص دستور الحزب على أن أهدافه السياسية تتلخص باستقلال البلاد العربية من نير الإستعمار والوحدة بينها. ولما أوشك الإنجليز على احتلال العراق خرج منها إلى إيران، ولكن السلطات البريطانية تعقبته وأعلن المارشال « ويفل » عن جائزة مقدارها عشرون ألف جنيه استرليني لمن يقبض عليه حياً أو ميتاً. ومن إيران هاجر إلى إلمانيا أثناء الحرب الثانية فأكرمه هتلر وأحسن وفادته، ولما اقترح عليه الحاج أمين تشكيل جيش من الفلسطينيين والأفارقة المسلمين لضرب خطوط الحلفاء رفض هتلر اقتراحه وقال له: إنني على يقين إن الإسلام والمسلمين أخطر على المانيا من روسيا وإنجلترا وامريكا. ولما انتهت الحرب الثانية عمل الإنجليز واليهود على مطارته وأرادوا تقديمه إلى محكمة « نورمبرغ » بتهمة انه مجرم حرب حرض النازية على إبادة اليهود، إلا أنه انتقل سراً إلى مصر وأستقر فيها، ثم منحته المملكة العربية السعودية جنسيتها.

وفي الوقت الذي كان الحاج أمين يعمل على توحيد العالم الإسلامي

وتضامنه لم ينس قضيته الأولى قضية فلسطين، ولهذا كان المحرض الأول على جميع المؤتمرات والثورات التي قامت منذ عام ١٩٢٨ م، ففي هذا العام قام اليهود بوضع ستار على حائط المبكي وهو الحائط الغربي لساحة المسجد الأقصى، وذلك بقصد الاستيلاء عليه على أساس انه آخر أثر من آثار هيكل سليمان، فثارت ثائرة المسلمين وعقد المؤتمر الإسلامي الكبير عام ١٩٢٨ م، وتألفت فيه «جمعية حراسة الأماكن المقدسة» وعقد اليهود المؤتمر الصهيوني العالمي السادس في زيورخ لحمل الحكومة البريطانية على منح الحائط لليهود، وسارت مظاهرة في تل أبيب تهتف «الحائط حائطنا» ثم ساروا إلى القدس فسارت مظاهرات عربية مضادة وحصل الاشتباك بين الجهتين وعمت الثورة جميع المدن الفلسطينية، فقامت الحكومة البريطانية بحركة قمع ضد العرب ولم تفعل شيئاً ضد اليهود بل مدتهم بالسلاح والعتاد، وأعدمت ثلاثة من قادة المظاهرات وحكمت بالسجن المؤبد على ٢٣ مجاهداً وعلى ١٨٧ مدداً مختلفة، ولقد حاول اليهود أثناء ذلك رشوة الحاج أمين بنصف مليون جنيه مقابل تنازله عن مكان البراق في القدس، ولكنه رفض كل إغراءاتهم وكشف موقفهم هذا أمام لجنة التحقيق البريطانية (لجنة شو) التي جاءت خصيصاً للتحقيق بهذا الحادث.

استمرت الأشتباكات والثورات بعد ذلك وكان أشهرها ثورة عام ١٩٣٦ م، ففي الفترة من ٢٩ - ١٩٣٦ م زاد عدد المهاجرين اليهود إلى فلسطين كما زاد تسليحهم كمًّا ونوعاً، ولهذا دعا الحاج أمين إلى عقد «مؤتمر علماء فلسطين الأول» فعقد برئاسته عام ١٩٣٥ وحضره حوالى ٤٠٠ عالم فلسطيني، وعلى أثر هذا المؤتمر تكونت جماعات الجهاد بقيادة الشهيد الشيخ عز الدين القسام وقامت بمحاربة الإنجليز واليهود على حد

سواء، ولما استشهد الشيخ القسام اجتمعت وفود الأحزاب الفلسطينية الخمسة «الدفاع، الكتلة، مؤتمر الشباب، والعربي، والإصلاح» واتفقت على تأليف «الهيئة العربية العليا» وأسندت رئاستها للحاج أمين الحسيني لقيادة الثورة ضد الإنجليز.

تقرر تأليف «الهيئة العربية العليا لفلسطين» من رؤساء الأحزاب والشخصيات الوطنية البارزة برئاسة الحاج أمين وأعلنت الهيئة أهدافها العامة وحددتها بمنع الهجرة اليهودية، ومنع انتقال الأراضي العربية لليهود، وانشاء حكومة نيابية في البلاد، واستمر العمل أكثر من ستة أشهر تألفت خلالها كتائب الحرس الوطني الفلسطيني، وناشد الحاج أمين الشعب الفلسطيني الامتناع عن دفع الضرائب وعدم التعاون مع الحكومة البريطانية. ولما نشبت الحرب بين العرب واليهود في فلسطين في أواخر عام ١٩٤٧ قام سماحته بإنشاء حركة الجهاد المقدس، وأسس لها جيشاً عرف بجيش الجهاد المقدس بقيادة المرحوم الشهيد عبد القادر الحسيني، وتوقفت الحرب الفلسطينية بضغط الدول الأجنبية بعد أن وافقت الأمم المتحدة على تقسيم فلسطين وإقامة دولة إسرائيل، وكان الحاج أمين في غزة، وقد حاول إقامة حكومة فيها في أواخر عام ١٩٤٩م، ليبدأ من هناك الجهاد لاستعادة الأرض المقدسة إلا إن ضغط الدول الأجنبية على الحكومة المصرية، جعلها تخرج الحاج أمين من غزة إلى القاهرة حيث بقي هناك ثم غادرها إلى لبنان فيما بعد، وتشكلت في القاهرة حكومة صورية اسمها «حكومة عموم فلسطين» برئاسة السيد «أحمد حلمي» إلا أنها لم تفعل شيئاً يذكر وانحلت تلقائياً بموت رئيسها.

وبعد ضياع الجزء الأول من فلسطين لم ييأس الحاج أمين في استعادتها وتحريرها كما لم تضعف عقيدته بأن قضية فلسطين قضية إسلامية، ولم

يترك مجالاً للدعوة إلى التضامن الإسلامي لإنقاذ فلسطين إلا وسعى إليه ورفع صوته فيه، فلقد ترأس الدورة الثانية للمؤتمر الإسلامي في باكستان في شباط عام ١٩٥١ م، وبناء على اقتراحه أقر المؤتمر الفقرة الثانية من مقرراته «على ان أي اعتداء على أي بلد مسلم يكون بمثابة اعتداء على الدول الإسلامية جميعها» وفي عام ١٩٦٢ م، انتخب رئيساً للمؤتمر الإسلامي الذي عقد في بغداد، كما أعيد انتخابه لرئاسة هذا المؤتمر عام ١٩٦٤ م، الذي عقد في مقاديشيو، كما رأس اجتماع المجلس التنفيذي لمؤتمر العالم الإسلامي الذي عقد في مكة عام ١٩٦٥ م، كما ترأس سماحته اجتماع المجلس التنفيذي لمؤتمر العالم الإسلامي الذي انعقد في كراتشي عام ١٩٦٧ م، وكانت أهم أعماله في مؤتمر ١٩٦٢ م، إيجاد الوثيقة الدستورية للمؤتمر الإسلامي بحيث أصبح المؤتمر أول منظمة إسلامية مقبولة من الأمم المتحدة بصفة استشارية، وقد حمل مؤتمر عام ١٩٦٤ م، الذي عقد في مقاديشيو على رفع شعار «إفريقيا القارة المسلمة» ولما انفجرت الحرب بين الهند وباكستان عام ١٩٦٥ م، لم يكتف المفتي بوضع كل ثقله لمصلحة باكستان بل أرسل الوفود الإسلامية للتعريف بقضية باكستان.

وعلى أثر العدوان الإسرائيلي على البقية الباقية من فلسطين عام ١٩٦٧ م، ترأس الحاج أمين الدورة الطارئة لمؤتمر العالم الإسلامي في عمان، كما اشترك في المؤتمر الإسلامي الذي عقد في الرباط عام ١٩٦٩ م، ودعا جميع الرؤساء والحكام المسلمين بصراحة للتضامن لإنقاذ فلسطين، وفي الوقت الذي اعترف فيه معظم حكام العرب بقرار الأمم المتحدة رقم «٢٤٢» إلا أن هذا المجاهد الكبير رفض الاعتراف به وقال كلمته المشهورة في المؤتمر الإسلامي الذي عقد في لاهور في شباط عام ١٩٧٤ م، «ليس لكم حق أيها السادة أن تبيعوا شعب فلسطين لا حق لكم أن تبيعوا

شهداءنا الذين قاتلوا في سبيل تحرير فلسطين خلال الغزوات الصليبية وفي عصور أخرى لحفظ كرامتها، أجل يا ابناء المسلمين الشرفاء لا تنسوا انه لا حق لكم ان تبيعوا أطفالنا الذين لم يولدوا بعد ».

لقد كان للحاج أمين رحمه الله أهداف عظيمة وهب نفسه وحياته من أجل تحقيقها، فقد كان يطمح لأن يجد العالم الإسلامي موحداً متحرراً من نير الاستعمار الأجنبي، كما كان يطمح أن تقوم في فلسطين دولة دستورية ولهذا كان ينادي بتسليح الفلسطينيين قبل وبعد حرب ١٩٥٧ م، كما كان يدعو إلى تقديم الدعم الكافي للمقاومة الفلسطينية ولعدم التدخل في شئون الفلسطينيين، ولكن الحاج أمين كان يخوض معركة غير متكافئة مع اعدائه ولهذا حالوا دون تحقيق أهدافه، ومع ذلك بقي يعمل لهذه الأهداف أكثر من نصف قرن مجاهداً بلسانه ويده وقلمه حتى وافته المنية في بيروت فاختاره الله إلى جواره في الرابع عشر من شهر جمادى الآخرة ١٣٩٤ هـ الموافق الرابع من تموز سنة ١٩٧٤ م.

لقد امتازت زعامة الحاج أمين الحسيني بأنها كانت متشعبة الآفاق، فقد كان بجانب ثباته الديني داهية سياسية يدرك أبعاد المخططات الاستعمارية في العالم الإسلامي عامة وفلسطين بشكل خاص، وبالإضافة إلى زعامته على المستوى الفلسطيني، فقد أثبت أنه أهل للزعامة على المستويين العربي والإسلامي، ومن هنا رماه الأعداء عن قوس واحدة، لأنهم يدركون أن هذه الأمة لا ينقصها إلا القادة المخلصون الذين يجمعون شتاتها، ويوحدون كلمتها ويوجهون طاقاتها نحو الحياة الحرة الكريمة.

ثورة المجاهد
محمد أحمد المهدي

١ - مقدمة

حينما ندرس تاريخنا نستشعر أنه يعرض علينا بشكل مشوه وخاصة تاريخ أعلام المجاهدين الذين وقفوا في وجه الاستعمار الغربي والشرقي وقدموا للإسلام والمسلمين خدمات جلى، ذلك لأن هذا التاريخ من صنع وتوجيه أعدائنا بحيث يعرضون للبقع السوداء في هذا التاريخ فيبرزونها على قلتها وأنها هي التاريخ بكامله، بينما يطمسون الصفحات البيضاء وما أكثرها في تاريخنا، فلا يتعرضون إلا إلى بعض الحكام والأمراء الذين ساروا وراء شهواتهم وأهوائهم فخالفوا بذلك أصول دينهم وعقيدتهم، فهم وان انتسبوا للإسلام إلا أن الإسلام من اعمالهم براء، بينما يطمسون أعمال العلماء والأعلام والمجاهدين، في حين يبرزون حكام الغرب ورجالاتهم على انهم هم القدوة التي يقتدى بها وهم الأفذاذ الذين لن يجود التاريخ بمثلهم، وهذه خطة الغزو الفكري التي اعتمدها المستعمرون لتكون بديلًا أطول عمراً من الاستعمار المادي والعسكري.

وبجانب الغزو الفكري كان هناك غزو آخر هو الغزو العقائدي

(التبشير)، إذ كان المبشرون طلائع الغزو العسكري لكل بلاد الإسلام، والهدف من هذا الغزو ليس ادخال المسلمين في النصرانية ولكن هدفه اخراج المسلمين من الإسلام، وليتبعوا أي دين أو ملة شاؤوا، فالمهم أن يخرجوا من الإسلام لأنه هو الذي صان وحدتهم وشخصيتهم وكرامتهم عبر التاريخ، هذا بالإضافة إلى اشاعة روح الفوضى والفساد في البلاد الإسلامية حتى ينشغل المسلمون بأنفسهم ولا يفكر الواحد منهم إلا بنفسه.

والسودان كبلد إسلامي تعرض للغزو الفكري والعقائدي والإفسادي قبل أن يتعرض للغزو العسكري. فعلى أثر ضعف الحكم الخديوي في مصر وتعرضها للسيطرة البريطانية ضعفت سيطرة القاهرة على السودان الذي كانت تحكمه بواسطة حكام مصريين وأجانب أما الحكام المصريون فكانوا يسومون الناس ألواناً من العذاب، ولا همّ لهم إلا جمع الضرائب الفادحة التي ترسل إلى القاهرة، وأما الحكام الأجانب كصموئيل بيكر، وغوردون باشا وغيرهم كثير، فقد كان هدفهم التثبيت للإرساليات الأجنبية في السودان ولم يكن همُّ المبشرين تنصير الوثنيين ولكن كان همهم إيقاد نار الحقد والبغضاء بين صفوف المسلمين لتتصدع جبهتهم الداخلية، ويكونوا بعد ذلك فريسة سهلة المنال للجيوش الاستعمارية انجليزية كانت أم فرنسية.

شعر السودانيون بأن دينهم وعقيدتهم ووطنهم مهدد من الداخل ومن الخارج، فقد استطاع الحكام العملاء والمبشرون أن ينشروا بينهم العنصرية القبلية والدينية والمذهبية، فأصبحوا قبائل متفرقة وشيعاً وأحزاباً متناحرة، وأقعدهم عن حماية أنفسهم قلة السلاح بين ايديهم، وعدم وجود شخصية قيادية تجمع شملهم وتوجه جهودهم نحو الحرية والاستقلال، ولهذا فما ان ظهرت بين صفوفهم شخصية سودانية قيادية هي شخصية (محمد

أحمد المهدي) حتى سارع السودانيون إلى الالتفاف حولها والانضواء تحت لوائها، وقد استطاع المهدي أن يقوى صفوفهم بالإيمان، ويجمع شملهم تحت راية الإسلام، لأنه كان يعلم أن المسلمين لن يجتمعوا تحت راية أخرى ولن يستطيع توحيد صفوفهم إلا الروح الإسلامية.

٢- حياته

ولد السيد (محمد أحمد) بن عبد الله الحاج شريف في جزيرة (لبب)، على بعد ١٥ كلم جنوب مدينة (دنقلة) في ١٢ اغسطس ١٨٤٤، من أسرة اشتهرت أنها حسينية النسب، وكان ابوه فقيهاً فعلمه القراءة والكتابة، وحفظ القرآن وهو في سن الثانية عشرة من عمره، فعمل مع عمه في تجارة السفن مدة قصيرة، ثم ذهب إلى الخرطوم فقرأ الفقه والتفسير والتصوف.

كان والده يعمل نجاراً في صناعة المراكب، ولما ضاق به الرزق رحل إلى شندي ثم إلى الخرطوم، وأظهر محمد أحمد منذ حداثته ميلّا لتعلم العلوم الدينية فحفظ القرآن الكريم منذ نعومة اظفاره، واشتهر بالورع والتقوى والزهد فالتف حوله التلاميذ وأنشأ مدرسة بالخرطوم عام ١٨٦٣، وما زال يتبحر في علوم الفقه حتى اصبح فقيهاً يقصده الناس للفتوى من كل مكان، ولما توفي والده عام ١٨٧١ انتقل إلى جزيرة (أبا) في النيل الأبيض جنوب الخرطوم ولبث فيها خمسة عشر عاماً للعبادة والتدريس.

بدأ محمد أحمد دعوته في «أبا» فانقطع مع بعض مريديه في بداية الأمر للعبادة، ثم بنى فيها مسجداً، وخلوة للتدريس، وبدأ من هذا المسجد ينشر دعوته كمصلح ديني يريد تنقية الإسلام مما علق به من شوائب ويريد إعادة مجد الإسلام. فطالب بطرد الموظفين والحكام الأجانب وإحلال السودانيين مكانهم، وأعلن عن وجوب الامتناع عن دفع ضريبة غير

الزكاة التي نص عليها القرآن، كما طالب بتوزيع الثروة على الجميع بالتساوي، وأن يسرى في السودان الشرع الإسلامي وحده. ولما كانت هذه المطالب تمثل مطالب السواد الأعظم من السودانيين فقد أيده والتف حوله خلق كثير. وفي جزيرة (أبا) تعرف على (عبد الله التعايشي) الذي أصبح خليفته فيما بعد.

كما أعلن فيها بأنه (المهدي المنتظر) لبعث الأمة الإسلامية من جديد وإحياء مجدها. وكانت البيعة له كما يلي: (بايعنا الله ورسوله وبايعناك على طاعة الله وأن لا نسرق ولا نزني ولا نأتي ببهتان نفتريه ولا نعصيك في أمر بمعروف ونهي عن منكر).

ووصف إبراهيم فوزي باشا المهدي بعد أن رآه شخصياً بقوله: « كان طويلًا أسمر بخضرة، ضخم الجثة، عظيم الهامة، واسع الجبهة، اقنى الأنف، واسع الفم والعينين، مستدير اللحية، خفيف العارضين، اسنانه كاللؤلؤ، يعتم بقلنسوة من نوع ما يعتم به أهل مكة، وعمامته كبيرة منفرجة من الأمام، يرسل عذبة منها على منكبه الأيسر. وكان فطناً فصيحاً قوي الحجة، إذا خطب خلب ».

لم يأبه حكمدار السودان (محمد رؤوف) للحركة المهدية وحسبها احدى الطرق الصوفية المنتشرة في السودان، فاكتفى بإيفاد لجنة من الفقهاء إلى جزيرة (أبا) لمناقشة محمد أحمد لمعرفة حقيقته وحقيقة دعوته، وقد ارسل الحكمدار أحد معاونيه مع هذه اللجنة لإحضار محمد أحمد إلى الخرطوم، ورجعت اللجنة إلى الخرطوم دون أن تحقق الهدف الذي أرسلت من اجله، بل ادعت أن دعوى محمد أحمد انه المهدي المنتظر ادعاء كاذب كما أن محمد أحمد رفض الذهاب مع اللجنة إلى الخرطوم، مما اثار عليه الحكمدار وقرر استعمال القوة ضد المهدي وجماعته، ولكن الظروف لم

تكن تساعده على ذلك، إذ ان القاهرة كانت مشغولة بثورة أحمد عرابي مما جعل من المستحيل عليها إرسال أية امدادات إلى السودان، ولكنها (اكتفت بإرسال تعليمات مشددة إلى محمد رؤوف تطلب منه العمل الحاسم السريع للاقتصاص من المهدي الكاذب واتباعه المارقين) على حد قولها.

٣- جهاده

أدرك المهدي بأن المواجهة لا بد منها مع الحكمدار وجيشه ولهذا استنفر أتباعه للجهاد، فلما أرسل الحكمدار حمله عسكرية مكونة من حوالى (٣٠٠) جندي وضابط لمنازلة المهدي والقبض عليه، انهزمت هذه الحملة أمام قوات المهدي في معركة عرفت باسم معركة (أبا) في ١٢ أوغسطس ١٨٨١، فكان لهذا النصر أثره الكبير على انتشار الدعوة المهدية، فقد اعتبره المهديون دليلاً على قدسية المهمة التي يضطلع بها المهدي كما أن انتشار أخبار هذا الانتصار في السودان جعلت الناس يؤيدون هذه الدعوة ويعطفون عليها. ولما كان المهدي يدرك ان هذه المعركة ليست إلا بداية سلسلة من المعارك مع الحكومة، فقد هاجر وجماعته من أبا إلى جبل «ماسه» قرب جبل قدير في كردفان واتخذه مقراً عسكرياً له، وفي ٩ ديسمبر ١٨٨١، أرسلت الحكومة حملة ثانية قوامها (٥٠٠) جندي وضابط بقيادة (راشد بك) مدير (فاشوده) فهزمت هذه الحملة امام قوات المهدي هزيمة منكرة وقتل قائدها، وذاع نبأ انتصار المهدي في كل مكان، فجاءت الوفود بالآلاف من كل انحاء السودان للانضواء تحت لوائه والالتحاق به ومبايعته.

امام هذا الانتشار السريع للحركة المهدية بعث محمد رؤوف يطلب النجدة من القاهرة، فاكتفت القاهرة بعزل محمد رؤوف عام ١٨٨٢ لعجزه

عن إخماد الثورة، وعينت مكانه أقدر رجالها العسكريين (عبد القادر باشا حلمي) وقبل أن يصل عبد القادر إلى الخرطوم، وافقت القاهرة على تسيير حملة جديدة بقيادة (يوسف باشا الشلالي) للقضاء على المهدي، ولكن حالَ هذه الحملة لم يكن أحسن من حال من سبقها فقد هزمتها جيوش المهدي في واقعة (جبل جراده) ٢٩ مايو ١٨٨٢، شر هزيمة وقتل يوسف الشلالي، فكانت هذه الواقعة سبباً في أن تعم الثورة جميع السودان، وكثر اتباع المهدي حتى زاد عددهم عن عشرين ألفاً، واستولوا عام ١٨٨٣ على كردفان. وأرسلت الحكومة المصرية جيشاً بقيادة (جقلر باشا) الباڤاري، فهاجمه الأنصار في حوالي خمسين ألف مقاتل وهزموه شر هزيمة.

وفي هذه الأثناء كانت الثورة في مصر ضد الخديوي والإنجليز قد اشتعلت بقيادة أحمد عرابي مما اضطر الإنجليز التدخل مباشرة في شؤون مصر والاستيلاء عليها عسكرياً بعد هزيمة جيش عرابي في معركة التل الكبير، ولما علم المهدي باحتلال الإنجليز لمصر، اعلن الجهاد المقدس وأعلن أنه سيقوم بتطهير مصر بعد تطهير السودان، ولما علم باعتقال أحمد عرابي، أوصى الأنصار بالقبض على (غوردون باشا) حياً حتى يقوم بمبادلته بأحمد عرابي، وقد حاول الأنصار فعلاً إلقاء القبض على غوردون إلا أن استفزازه لهم وغطرسته حملتهم على قتله

٤- إقامة حكومة إسلامية

بدأ المهدي في تحقيق أهدافه عملياً، فما أن استتب الأمر له في كردفان حتى نظم فيها حكومة إسلامية تقوم على أساس تطبيق شرع الله، واحتفظ لنفسه بمنصب الخليفة أو الإمام، وعين عبد الله التعايشي قائداً عاماً لجنود الأنصار، وأنشأ بيت المال، وعين أميناً له كما عين قاضياً للمدينة، ولكن

هذه الأخبار أزعجت الإنجليز، فأخذوا يفكرون جدياً في القضاء على الحركة المهدية قبل استفحال امرها في جميع السودان وطلبوا من الخديوي تعيين «علاء الدين باشا» حاكماً للسودان وتعيين «هكس» أحد القادة البريطانيين رئيساً لأركان حرب الجيش السوداني، وأخذوا يعدون العدة للمعركة الفاصلة.

كانت انجلترا تدرك الأخطار التي تترتب على اطماعها في إفريقيا إذا قامت في أية بقعة منها دولة إسلامية قوية، ولهذا اهتمت في القضاء على الحركة المهدية ولكنها كانت تسعى أن يكون ذلك تحت ستار الحكومة المصرية وليس بواسطة الجيش البريطاني مباشرة، ولكن مركز المهدي كان يزداد قوة كل يوم من الناحية المعنوية نتيجة الانتصارات المتكررة التي احرزتها قواته، ونتيجة ازدياد الأتباع والمريدين المنضوين تحت لوائه، واما من الناحية المادية فقد ازدادت قوته نتيجة الكميات الكبيرة من الأسلحة والذخائر والمؤن التي غنمها من القوات المحاربة، هذا بالإضافة إلى تضعضع الروح المعنوية لجيش الحكومة بحيث أصبح عاجزاً عن منازلة الأنصار، ولهذا جهزت حملة كبيرة بقيادة القائد البريطاني «هكس» قوامها حوالى عشرة آلاف جندي وضابط لمطاردة المهدي في كردفان.

كان لدى المهدي جهاز محكم من المخابرات بحيث استطاع أن يعرف كل شيء عن الحملة وعن تحركاتها، فقد خرجت الحملة من الخرطوم في ٩ سبتمبر ١٨٨٣م، وكانت خطة الأنصار في هذه الحملة عدم الدّخول معها في معركة فاصلة إلا في الزمان والمكان الذي يحددونه هم، ولهذا اكتفوا بمناوشتها وعرقلة طريقها، وطمر آبار المياه التي تشرب منها، ولهذا لم تصل الحملة في ٢٠ اكتوبر ١٨٨٣ إلى (منهل الرهد) حتى كان اليأس قد بدأ يستولي على رجالها، وأنهك جنودها التعب والجوع والخوف والعطش،

فكانت الفرصة مواتية للمهدي، فوصل مسرعاً إلى وادي كشجيل وغابة شيكان وحصن قواته فيها، ولما حضر هكس وجيشه إليها كان لا يعلم ان المهدي سبقه إليها، ففوجئ بالأنصار يحيطون به وبجيشه من كل جانب، وهزموه هزيمة منكرة، وقتل هكس وجميع ضباطه وأبادوا معظم جيشه وكانت معركة (شيكان) هذه في ٥ نوفمبر ١٨٨٣.

كان لهزيمة هكس في معركة شيكان أثر فعال على الموقف في السودان إذ استطاع المهدي أن يسيطر على جميع غرب السودان، كما كان لها أثر على سياسة الحكومة البريطانية التي قررت بعد ذلك التدخل مباشرة في شئون السودان، وخاصة بعد أن استولى المهدي على كسلا وسواكن وطوكر حتى غدا السودان الشرقي كله تحت سيطرة الأنصار، وطلب المهدي من أتباعه في «سنار» أن يتهيأوا للزحف على الخرطوم ولهذا عينت انجلترا الجنرال «غوردون» حاكماً للسودان، وأوكلت إليه مهمة تهدئة الأوضاع في السودان وإخلائه من الإنجليز والمصريين إذا اقتضى الأمر، حتى تحين الفرصة المناسبة مستقبلاً لاحتلاله، لأنها شعرت بأن القضاء على الثورة المهدية في المرحلة الحالية بات مستحيلاً، ووصل غوردون إلى الخرطوم في ١٨ فبراير ١٨٨٤م، ومعه الكولونيل «ستيوارت».

وكعادة الإنجليز مع جميع الثورات التي حصلت في العالم الإسلامي إذا فشلوا في هزيمتها عسكرياً يلجأون إلى التفاوض معها حتى يوقفوا مدها عند حد معين وبعدها تبدأ بالانحسار، لأن الثورة لا تكسب أنصاراً ومكاسب جديدة إلا إذا كان هناك عدو يحاربها ويتربص بها، وخلال ذلك كان الإنجليز يستعملون الدس والوقيعة حتى يضربوا الثورة من الداخل فإذا تمكنوا من ذلك سهل عليهم هزيمتها عسكرياً، ولهذا بدأ غوردون أعماله في السودان بأن أرسل إلى المهدي لكي يفاوضه، وعينه سلطاناً على كردفان،

وأرسل إليه هدية نفيسة ولكن المهدي أدرك هدفه من ذلك فرد الهدية وأجابه بقوله: اننا لم نقم بالثورة طمعاً في مال ولا ملك.

سارت الأمور في السودان لصالح الأنصار فسقطت « بربر »- حوالى ٣٥٠ كلم شمال الخرطوم- وبسقوطها أصبحت الطريق مفتوحة إلى الخرطوم كما أن سقوطها قطع الطريق من الخرطوم إلى مصر الذي تصل منه الامدادات والنجدات، ولهذا أرسل غوردون « ستيوارت » إلى مصر لطلب نجدات كبيرة لإنقاذ الخرطوم، ولما كان الطريق البري إلى مصر قد استولى عليه الأنصار فقد ركب ستيوارت باخرة يحرسها طرادان حربيان، توجه إلى مصر، ولكن المخابرات العسكرية التابعة للأنصار كانت ترصد تحركاته، فما ان وصلت الباخرة « وادي قمر » حتى هاجمها الأنصار فجنحت الباخرة ونزل من فيها وقتل الأنصار ستيوارت وصحبة عند قرية « هبة » في ١٨ سبتمبر ١٨٨٤م، بعد ثمانية أيام من مغادرته الخرطوم.

زحف الأنصار إلى الخرطوم وأخذوا يضيقون الحصار عليها، كما ضيقوا الحصار على « أم درمان » فاستسلمت لنفاد المؤن عند حاميتها، وبعد سقوط أم درمان أصبح سقوط الخرطوم مؤكداً، إلا ان الأنصار كانوا مترددين في الهجوم النهائي على العاصمة لخوفهم من الحملة الإنجليزية التي جاءت لإنقاذ الخرطوم، ولكن حدث ما شجعهم على اقتحام الخرطوم إذ فر ضابط اسمه « عمر إبراهيم » إلى معسكر المهدي ونقل إليه معلومات على جانب عظيم من الأهمية عن حامية الخرطوم، ودله على ثغرة جنوب الخرطوم ليس فيها قوة كافية للدفاع وبالإمكان الهجوم منها، ولما علم المهدي ان الإنجليز بدأوا بالزحف على الخرطوم قرر ان يستولي عليها قبل ان تصلها هذه القوة، وفعلاً كان ففي فجر يوم ٢٦ يناير ١٨٨٤ هاجمت

جيوش الأنصار العاصمة واستولت عليها وقضت على حاميتها وقتلت غوردون باشا نفسه، وحملوا رأسه على حربة.

أقام المهدي في « أم درمان » وأرسل من هناك العديد من الرسائل إلى كل من السلطان عبد الحميد والخديوي وملكة بريطانيا يشعرهم بإقامة دولته، وفعلاً أخذ ينظم الدولة فضرب النقود وجيش الجيش، وقسمه إلى ثلاثة أقسام وجعل كل قسم منه تحت قيادة أحد الخلفاء السودانيين، وفي ٣٠ يناير ١٨٨٥ دخل المهدي الخرطوم ولقب نفسه (بالمهدي خليفة رسول الله ﷺ) وجعل له أربعة خلفاء: عبد الله التعايشي (خليفة أبو بكر الصديق) وعلي ودحلو (خليفة عمر بن الخطاب) ووهب لقب خليفة (عثمان ابن عفان) للسنوسي، أما الخليفة الرابع فكان من نصيب (الخليفة شريف) وهو خليفة (علي بن أبي طالب).

وقد اهتم بالشؤون المالية فنظم الإدارة المالية لتطابق الشريعة الإسلامية في جمع المال وتقسيمه، وأمر بضرب عملة مستقلة خاصة بدولته، وأبطل الطرق الصوفية كما ابطل العمل في المذاهب الأربعة.

٥- نهاية المطاف

لقد كادت ثورة الغضب من مقتل غوردون وسقوط الخرطوم تسقط حكومة المستر جلادستون رئيس وزراء بريطانيا، وتأكد لبريطانيا ان هزيمة المهدي والأنصار تتطلب الدخول في حملة عسكرية كبيرة لأن نفوذ وسلطان المهدي قد زاد حتى سيطر على جميع السودان ما عدا (دنقلة) ولكن الحكومة البريطانية وجدت انها مضطلعة بأعباء حرب كبيرة تتكلف نفقات باهظة ولا يدري إنسان نتيجتها، وقد أوقف الحكومة البريطانية عن التفكير بإرسال حملة إلى السودان تهديد روسيا لحدود

الأمبراطورية البريطانية في الهند مما جعل بريطانيا تفكر باتخاذ موقف الدفاع عن الحدود المصرية عند وادي حلفا واسوان، وإخلاء السودان مؤقتاً، ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان، إذ توفى محمد أحمد المهدي فجأة بالجدري في أم درمان وأوصى بالخلافة من بعده لعبد الله التعايشي في ٢٦ يونيه ١٨٨٥ الموافق شهر رمضان ١٣٠٢، مما جعل عند الحكومة البريطانية بعض الأمل في التغلب على الأنصار، منتظرة أن تسود الفوضى بينهم بعد فقدان قيادتهم الروحية والعسكرية، ولكن خاب فألهم حينما تولى زمام الأمور خليفة المهدي (عبد الله التعايشي).

٦- خلافة التعايشي

ولكن التعايشي لم يكن يملك من المواهب الروحية وقوة الشخصية ما يمكنه من ملء الفراغ الذي تركه المهدي، وبالرغم أن التعايشي قد خاض كثيراً من المعارك العنيفة التي دارت بينه وبين الحبشة التي بدأت بالاعتداء على حدود السودان الشرقية، فهزمهم هزيمة منكرة في عدد من المعارك العنيفة قتل على أثرها مليكهم إلا ان التعايشي لجأ إلى المغامرة والفتوحات بدل ان يلجأ إلى تنظيم دولته وإيجاد نوع من الأمن والاستقرار فيها، فجهز حملة لفتح مصر بقيادة (عبد الرحمن النجومي) وسارت الحملة شمالاً إلى مصر، وفي قرية (توشكي) بالنوبة قرب معبد أبي سمبل جرت بين الأنصار وبين الجيش المصري البريطاني معركة رهيبة انتهت بهزيمة الأنصار، مما كان له أكبر الأثر في نفوسهم، ولكن التعايشي عمد إلى الاستيلاء على مديرية خط الاستواء في الجنوب لكي يغطي على الهزيمة التي منيت بها حملته إلى مصر.

بدأ التعايشي يرسل الكتب إلى الزعماء المسلمين في كل مكان من

أجل توحيد الجهود وتطبيق الإسلام ومحاربة المستعمرين الصليبيين وردهم عن بلاد الإسلام، وقبل ان تؤتي هذه الجهود المباركة أُكلها كانت انجلترا اقنعت الخديوي بتجهيز حملة مصرية كبيرة للقضاء على الأنصار وإعادة فتح السودان، وفي عام ١٨٩٦ م، تم تشكيل هذه الحملة من جنود مصريين يقودهم ضباط انجليز بقيادة «كتشنر» وقد استغل هؤلاء الأوضاع الاقتصادية في السودان فقد توالت على البلاد أعوام من القحط مما أنهك الاقتصاد فيها، واعجز التعايشي عن تشكيل حملة مضادة للحملة المصرية الإنجليزية، وتقدمت هذه الحملة نحو الجنوب، واستطاعت ان تهزم الأنصار في معركة «عطبرة» بعد ان منيت بخسائر جسيمة، وتقدمت الحملة نحو أم درمان فاستولت عليها بعد معركة «كررى» في ٢ ايلول ١٨٩٨ م. ثم استولوا على الخرطوم ففر التعايشي منها، وجمع فلول جيشه ودخل بهم في معركة «أم دبيبكرات» في «٢٤ تشرين الثاني ١٨٩٩ م،» فكانت نتيجة المعركة هزيمة الأنصار وقتل التعايشي نفسه.

حينما فشلت انجلترا في هزيمة المهدي في السودان لجأت إلى التحالف مع الدول الاستعمارية الأخرى كفرنسا وإيطاليا لاقتسام إفريقيا، وبدأ هذا الإتفاق في التنفيذ منذ عام ١٨٨٥ م، فأخذت انجلترا تنسحب من المناطق التي ضمت إلى السودان كالصومال ومنطقة هرر واريتريا، وأخذت فرنسا وإيطاليا تستولي على المناطق المخصصة لكل منها، وهذا ما اضعف من قوة التعايشي فقد أصبح يقاتل في ثلاث جبهات بالاضافة إلى جبهته الداخلية، كان يقاتل الإنجليز في دنقلة ووادي حلفا، ويقاتل الفرنسيين في «فاشوده» باتجاه الغرب بقيادة الجنرال «مارشان» كما كان يقاتل الإيطاليين عند «مصوع» وأخيراً وبعد هزيمة التعايشي أصبحت السودان تحت الحكم الثنائي الإنجليزي المصري ظاهراً وتحت الحكم البريطاني حقيقة وواقعاً.

٧- دعوته

بدا محمد أحمد المهدي دعوته حوالي عام ١٨٧١ م وتوفي عام ١٨٨٥ م، «أربعة عشر عاماً»، ومنذ عام ١٨٧١م وحتى عام ١٨٨١م، «عشرة أعوام» كرس المهدي جهوده على نشر دعوته وكسب الأنصار والأتباع لها، واعتمد في تجمعيهم وتربيتهم على العقيدة الإسلامية بالاضافة إلى تبنيه بعض المطالب الشعبية التي كان السودانيون يتمنون تحقيقها، ولذلك يعزو بعض الكتاب نجاح الثورة المهدية إلى قوة شخصية قائدها ومؤسسها محمد أحمد المهدي وإلى العقيدة الإسلامية كرابطة قوية لتوحيد الصفوف وتكتيل الجهود، وإلى اتصاله بالقواعد الشعبية وتبنيه مطالبها. وبعد ان انتهت رحلة الإعداد، بدأ المهدي في مرحلة التنفيذ فأعلن الجهاد في سبيل الله وفي خلال حوالى أربع سنوات استطاع أن يحرر السودان من السيطرة البريطانية، وبريطانيا يومئذ أعظم امبراطورية على وجه الأرض، وهذا يؤكد ان الارادة الشعبية إذا نظمتها العقيدة الدينية فإنها قادرة على تحقيق المعجزات، كما يؤكد كذلك ان مرحلة الثورة لها طابعها وأسسها التي تختلف بها عن مرحلة الدولة، ولهذا فإنه يجب ان لا يكتفى بالثورة والجهاد ضد الأعداء ولكن يجب ان يهتم بإيجاد كوادر فنية وإدارية عقائدية تستطيع ان تستلم الحكم وتقيم الكيان الدستوري للدولة عند نجاح الثورة مباشرة، كما ان الأحداث التي عاصرت الحركة المهدية وجميع الحركات الإسلامية في العصر الحديث تؤكد ان الكفر ملة واحدة وان الدول الأوروبية الاستعمارية متفقة على ان لا تقوم للإسلام دولة إسلامية قوية، لأن في ذلك خطراً كبيراً على اطماعهم ومخططاتهم في المنطقة، ولهذا فإن دولة الإسلام يجب ان تقوم رغم انوف المستعمرين وأعوانهم، وأن تثبت وجودها بقوتها الروحية والعسكرية والإدارية والفنية.

ويمكن القول- ابتداء- ان الدعوة المهدية قامت على ثلاث دعائم، كل منها لها من الإيجابيات ما جعلها تنطلق في بداية الأمر، ولها من السلبيات ما أوقف مدها ثم بدأ بعد المد الانحسار:

أ - السهولة والبساطة في فهم الإسلام وعرضه

ومصدر الفهم هذا اساسه كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ولذلك فلا حاجة في ان يخوض المسلمون في الجزئيات والخلافيات التي تطمس نقاء العقيدة في صدورهم وتفرق صفوفهم ولأجل هذا عمل المهدي على إبطال العمل بالمذاهب الأربعة كما عمل على إبطال الطرق الصوفية الموغلة في الشكليات والسلبيات رغم قوة شكيمتها في السودان وتغلغلها في المجتمع، فقد جاء عن المهدي قوله «طريقنا لا إله إلا الله محمد رسول الله، ومذهبنا الكتاب والسنة، وما جاء عن النبي ﷺ على رقابنا، وما جاء من الصحابة إن شئنا عملنا به وأن نشأ تركناه».

ب- تطبيق الإسلام من القمة إلى القاعدة

وكان المهدي يعتقد بأن الإسلام جاء للتطبيق وليس نظرية تضمها الكتب والمجلدات، وأن الإسلام من الشمول بحيث يمكن أن يعالج جميع مشاكل الحياة الإجتماعية والسياسية والاقتصادية والدولية وأن يضع لها الحلول المناسبة.

ولهذا بدأ بإعداد نفسه روحياً وعلمياً وعسكرياً، ثم انطلق إلى مرحلة التنفيذ فأعلن الجهاد العام، واستطاع في خلال مدة وجيزة أن يكوّن الأنصار ويحرر السودان، ولكن الانشغال في الجهاد وعدم التفرغ لتنظيم الدعوة وتقعيدها، جعل أتباعه لا يفهمون من الإسلام إلا العواطف

والسطحيات، وأقعده عن تربية مريديه تربية عقائدية وفكرية ومنهجية حتى يضمن استمرار الحركة وقدرتها بعده، فلم تفرز حركته أحداً من العلماء كما أنه لم يترك سوى رسائل صغيرة جمعها أتباعه في كتاب (مجموع المناشير)وهو مطبوع ولا يتجاوز إحدى وسبعين صفحة، وأعتقد أن المهدي كان ينوي ذلك بعد ان يستقر له الأمر، ولكنه كان يرى أن دور التربية والتثقيف يأتي بعد إقامة الدولة الإسلامية ولكن المنية عاجلته وحالت دون تحقيق هذه الأهداف، ولهذا تعتبر وفاة المهدي بداية انحدار الخط البياني للحركة حتى أدى بها إلى الانهيار، لأن خليفته (عبد الله التعايشي) كان رجلًا عسكرياً ولا دخل له في الأمور التربوية أو الدينية، فوفاة المهدي تركت فراغاً في صفوف أتباعه كما انها ادت إلى زعزعة كيان الحركة كلها.

ج- ادعاء المهدي

قامت الحركة المهدية منذ البداية على اعتقاد المهدي نفسه وأتباعه بأنه (المهدي المنتظر) ويقال بأن هذا الاعتقاد كان شائعاً في ذلك الزمان من أن المهدي المنتظر قد أهلَّ زمانه، ولذلك لما قام السنوسي في ليبيا لقبه أتباعه بالمهدي المنتظر، ولأن المهدي بدأ دعوته في نهاية القرن الثالث عشر الهجري ولأن الرسول ﷺ يقول (إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها) (رواه أبو هريرة)، وروي ان عبد الله التعايشي هو الذي زين لمحمد المهدي بأنه المهدي المنتظر طمعاً في أن تكون له منزلة عنده، ومن المعروف ان التعايشي كان قبل ذلك بسنوات وعقب فتح دارفور قد عرض على (سليمان الزبير) أن يعلن نفسه المهدي المنتظر فرفض الزبير ذلك وأنَّبه تأنيباً عنيفاً.

وقد بدأ تسرب هذا الاعتقاد إلى نفسية محمد المهدي منذ بداية الدعوة، ففي جزيرة (أبا) أسر لصديقه عبد الله التعايشي بأنه أصبح يرى النبي وهو يقظان وأنه ﷺ أخبره بأنه المهدي المنتظر الذي سيملأ الأرض عدلاً كما ملئت* جوراً وظلماً، كما أنه أسر بذلك إلى خاصة مريديه في عام ١٢٩٨ هـ = ١٨٨١ م. ولما ذهب إلى كردفان أسر إلى خاصته فيها أنه المهدي المنتظر كما فعل ذلك حينما عرج على جبال النوبة، وقد أعلن أن النبي ﷺ أمره بالهجرة من جزيرة أبا إلى (جبل ماسة) في كردفان.

وقد ساعدت قضية ادعاء المهدي المنتظر على تجميع الأتباع، البسطاء منهم والعلماء والزعماء فقد صدقه هؤلاء لما كانوا يرون من نصر الله له، كما صدقه الكثير في العالم الإسلامي بحيث جاءته الوفود من الهند ومراكش وتونس والحجاز تصدقه وتبايعه. وكان الهدف من إعلانه الهجرة من (أبا) إلى جبل (ماسة) بأمر النبي ﷺ، أن يتخذ مقره بين قبائل (البقارة) وهي من أكبر وأقوى القبائل الإفريقية وكان اختياره هذا موفقاً من الناحية الأمنية والعسكرية.

وقد برزت سلبيات إدعاء المهدي بأنه المهدي المنتظرتظهر حينما توفي المهدي ولم تتحقق على يده الثار المرجوه التي كان يأمل أتباعه بها، مما دعاهم إلى تكذيب مهديته وبالتالي التخاذل عن دعوته. فقد وردت في الأحاديث أنه لا بد في آخر الزمان من ظهور رجل من أهل البيت يؤيد الدين ويظهر العدل ويتبعه المسلمون فيستولي بهم على المالك الإسلامية، ويخرج في عهده الدجال فيعبث في الأرض فساداً فينزل عيسى عليه السلام فيقتل الدجال ويأتم بالمهدي في صلاته، فعن أم سلمة عن النبي ﷺ قال «يكون خلاف عند موت خليفته، فيخرج رجل من أهل المدينة هارباً إلى مكة فيخرجونه وهو كاره فيبايعونه بين الركن والمقام، ويبعث إليه بعثاً

من الشام فيخف به بالبيداء بين مكة والمدينة، فإذا رأى الناس ذلك أتاه ابدال الشام وعصائب أهل العراق فيبايعونه، ثم ينشأ رجل من قريش أخواله كلب فيبعث إليهم بعثاً فيظهرون عليهم، وذلك بعث كلب، والخيبة لمن لم يشهد غنيمة كلب فيقسم المال ويعمل في الناس بسنة نبيهم، ويلقي الإسلام بجرابه في الأرض، فيلبث سبع سنين ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون) رواه أبو داود وأحمد وأبو يعلى، وقال ابن خلدون سنده متين على شرط الشيخين، لا مغمز فيه ولا مطعن، وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ (لا تذهب الدنيا حتى يملك العرب رجل من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي) (حديث حسن وصحيح).

ومن الواضح من هذه الأحاديث مخالفتها لما عليه محمد المهدي، فنسبته إلى آل البيت مشكوك بها وظهوره في آخر الزمان هارباً من المدينة إلى مكة، ومبايعة أهل الحل والعقد له وأن تكون بيعته بين الركن والمقام ويكون ذلك بعد موت خليفته والتنازع في إقامة خليفة غيره، وأن يكون كارهاً في البيعة ليس راغباً فيها، كل هذه الصفات وقد بهرت الناس انتصاراته على جيوش الأعداء فاندفعوا بعواطفهم يصدقونه ولا يناقشونه، ولكن لما توفي وانتقلت حركته من الانتصار إلى الأنحسار هدأت العواطف وأخذ الناس يفكرون في ادعاء المهدية، وخاصة أن الكثير من الفقهاء كذبوا هذا الادعاء، كما كذبه السادة الميرغنية والسيد محمد السنوسي، مما كان له أكبر الأثر في تكذيب كثير من أهل السودان أو تشككهم في مهديته.

والحقيقة ان الباحث لا يستطيع ان يبحث في موضوع ادعاء محمد أحمد المهدية بمعزل عن الظروف والملابسات التي كانت تسيطر على السودان بشكل خاص والعالم الإسلامي بشكل عام، وخاصة ان الرجل لم يكن متهماً

في دينه بل عرف عنه نقاء العقيدة والتقوى والصلاح، ويمكن القول ان انتشار الطرق الصوفية في السودان وهي التي تقوم على أساس الطاعة العمياء من قبل المريد لشيخه، لا تقوم إلا إذا اقتنع المريدون بأفضلية الشيخ عليهم، وهذا يتم عن طريق انتماء الشيخ إلى آل البيت، والتحدث عن الكرامات التي منحها، واعتقد ان ادعاء محمد أحمد المهدية كان من هذا القبيل، كما ان توحيد الأتباع من قبائل مختلفة في السودان وطرق ومذاهب متباينة لا يمكن ان يتم إلا بإثارة العواطف الدينية في نفوسهم، وعليهم فان ادعاء محمد أحمد المهدية قد يكون نوعاً من التكتيك الذي يهدف إلى توحيد جهود أتباعه تحت رايته ليدخلوا القتال يداً واحدة، وعلى قناعة انهم يقاتلون تحت قيادة مخلصة وراية طاهرة نقية. فإذا أضفنا إلى هذا ان موضوع (المهدية) كان شائعاً في ذلك الزمان، وإن كان في نهاية القرن الذي سيبعث الله على رأسه من يجدد لهذه الأمة أمر دينها، والدليل على ذلك ما فشا بين السنوسية بأن (محمد بن محمد) السنوسي هو المهدي المنتظر أيضاً. وربما رأى محمد أحمد بعض الأحلام فأولها بالشكل الذي يرجوه لنفسه، إن الله قد حقق على يديه الكثير من الانتصارات، بحيث استطاع هزيمة الجيشين المصري والإنجليزي وتحرير معظم السودان من الاستعمار. كل هذه العوامل وعوامل أخرى مثل قناعة مريديه وتزيينهم له بأنه المهدي ألقى في روعه بأنه كذلك.

ومهما يكن من أمر فإن ادعاء المهدية كما أنه كان عاملاً مساعداً على ظهور ونجاح محمد أحمد، إلا انه كان من أهم الأسباب التي أدت إلى ضعف حركته ثم انحسارها، فقد بلغت المهدية ذروة المجد حينما استولت على الخرطوم وهذه المرحلة كانت تمثل قمة هرم النجاح لها، فلما توفي المهدي وخلفه التعايشي وكان رجلاً عسكرياً لم يستطع ان يملأ الفراغ الذي تركه

المهدي، كما ان الأتباع أخذوا يشكون في مهديته بعد موته حينما لم تتحقق في حياته البشائر التي بشرت بها الأحاديث الشريفة. وبوفاة المهدي بدأ العد التنازلي للحركة المهدية، وخاصة أن التعايشي لم يتفرغ بعد المهدي لتنظيم دولته وادخار طاقاتها وإمكاناتها لتحسين أوضاع السودان بل اتبع تكتيكاً خاطئاً حينما جهز حملة لغزو مصر وفتحها، وهذا يعني أنه أصبح يقاتل في أكثر من جبهة في وقت كانت الجبهة الداخلية في السودان لا زالت غير مستقرة.

ولا يستطيع الباحث أن يجمع بين ما ذكر من تقوى محمد المهدي وسلامة عقيدته وحسن سيرته وصدقه، وبين هذا الادعاء، ولكن يمكن حمل ذلك على الوهم ووسوسة الشيطان، فلعله توهم ذلك من مطابقة الاسم والوقت، وكثرة الانتصارات، وتهافت الناس عليه، وفصاحة بيانه وقوة حجته، وتشجيع خاصة المريدين له. فألقى ذلك في روعه أنه المهدي المنتظر.

٤ - استغلال الفرص وتبني المطالب الشعبية

استطاعت الحركة المهدية ان تستغل الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية السيئة التي كان يرزح تحت وطأتها السودانيون فالأستعمار والظلم وسوء توزيع الثروة بين افراد الشعب، كانت منطلقات هامة انطلق منها المهدي في حركته، فحارب قانون الضرائب الذي اثقل كاهل السودانيين ونجح في إلغاء تجارة الرقيق التي وضع أسسها غوردون وتبنى فكرة تكوين جيش شعبي واستطاع استمالة أكبر القبائل لحركته مثل قبيلة (البقارة) وهي قبيلة عربية من جهينة وتزوج منها ليقوي رابطته بها. وقد استفاد من استثارة الجانب الديني في نفوس الأتباع فكسب سواد الشعب

إلى طرفه، وكان المهدي يوضح للناس البدائل الإسلامية الصحيحة لكل هذه القضايا ويبعث في الشعب الوعي الإسلامي، مما كان له أكبر الأثر في تغلغل الثورة في صفوف السودانيين ونجاحها في بداية عهدها.

رحم الله محمد أحمد المهدي وأسكنه فسيح جناته.

المصادر

★ مجلة المجتمع، الأعداد ابتداء من العدد ٤٨٧ (١ / ٦ / ١٩٨٠) حتى العدد ٤٩٠ مقالات للدكتور عجيل النشمي.

ثورة المجاهد
محمد بن علي السنوسي

١ - مقدمة[١]

لقد كان لضعف الخلافة العثمانية ثم إلغائها في تركيا أثر كبير على العالم الإسلامي، فقد شعر المسلمون بفقدان الراعي الذي يرعاهم، والحارس الذي يحرسهم، والقائد الذي يوحد ويوجه طاقاتهم، كما رأوا بأُم أعينهم كيف أنهم أصبحوا كالأيتام على مأدبة اللئام، وكالغنم القاصية التي تنهشها الذئاب من كل ناحية، فقد شنت الدول الاستعمارية حرباً صليبية تدعمها اليهودية العالمية على العالم الإسلامي، قطعت أوصاله، وسرقت ثرواته، واستعبدت أهله، وكان هذا كله نتيجة حتمية لأن المسلمين قد هانت عليهم أنفسهم فكانوا هينين على غيرهم، وابتعدوا عن ربهم فوكلهم الله لأنفسهم وسلط عليهم من لا يخافه ولا يرحمهم، وذلك بما كسبت أيديهم، وصدق رسول الله ﷺ « توشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها، قالوا أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله، قال لا بل أنتم يومئذ

---

(١) مجلة المجتمع الكويتية الأعداد ابتداء من العدد ٤٧٧ وحتى العدد ٤٨٥ د. عجيل النشمي.

كثير، ولكن الله قد نزع المهابة منكم من قلوب أعدائكم لحبكم الدنيا وكراهيتكم الموت ».

وكردة فعل لهذه الأوضاع السيئة قامت الحركات الإسلامية وهدفها إعادة الخلافة لسابق قوتها ومجدها، وتحرير العالم الإسلامي من سيطرة المستعمرين. ولكن الدول الاستعمارية كانت تنطلق من مخططات تهدف إلى عدم قيام أية دولة إسلامية في أية بقعة من العالم الإسلامي، ولهذا حاربت هذه الحركات بكل ما أوتيت من قوة، لأنها تعلم أنه لا يوحد العرب والمسلمين ويجعلهم قوة يحسب لها حساب إلا إذا وجدت لهم القيادة المخلصة، أما الشعوب الإسلامية فالإسلام فيها عميق الجذور، وفيها الخير إلى يوم القيامة كما بشر بذلك المصطفى ﷺ.

لقد أيقنت هذه الحركات منذ البداية أن العمل الفردي لا يحقق أهداف الإسلام الكبرى، ولهذا اعتمدت العمل الجماعي الحركي كأسلوب لتحقيق هذه الأهداف، فقام الداعية المجاهد الإمام محمد عبد الوهاب رحمه الله في الجزيرة العربية، وتبعه الإمام محمد بن علي السنوسي رحمه الله في المغرب، وتزامن معه الإمام محمد المهدي رحمه الله في السودان، ثم قام الإمام الشهيد حسن البنا في مصر. وقد اتفقت هذه الحركات الأربع بأن هدفها هو إعادة الخلافة الإسلامية قوية فاعلة لها هيبتها على المستويين المحلي والعالمي.

فالحركة السنوسية لم تكن مجرد حركة إصلاحية كما يريد أن يظهرها المستشرقون تهدف إلى علاج بعض المشاكل التي كان يعاني منها المجتمع الإسلامي بشكل عام والمجتمع المغربي بشكل خاص، كما ان السنوسي لم يكن يطمع بأن يصبح خليفة للمسلمين، ولكن كان هدفه تقوية الخلافة

وإعادة الهيبة والفاعلية لها لتحمي ديار الإسلام وتذود عن عقيدة المسلمين.

٢- حياته

مؤسس الحركة السنوسية الأول هو محمد بن علي بن السنوسي، أبو عبد الله السنوسي الخطابي الحسني الإدريسي، من سلالة ملوك الادارسة الذين أسسوا الدولة الإدريسية في المغرب وعملوا على نشر الإسلام فيها، وكان أول خلفاء الأدارسة السيد أدريس الأكبر ابن عبد الله الكامل ابن السيد الحسن المثنّى بن الإمام السيد بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين.

ولد محمد بن علي السنوسي في بلدة «مستغانم» من أعمال الجزائر في ١٢ ربيع الأول ١٢٠٢، ٢٢ ديسمبر ١٧٨٧ في محلة يقال لها «الواسطة» نشأ في بيت عبد الله الخطابي وهو بيت علم ودين، فتلقى علومه الأولية في بلدته، ولكنه كان شغوفاً بالعلم ذكياً تقياً ورعاً، لهذا سافر إلى «فاس» وكانت مجمع العلم والعلماء، ومكث فيها سبع سنوات من ١٨٢٢- ١٨٢٩م، فدرس العلم على أفاضل العلماء، وتصوف على يد الشيخ عبد الوهاب التازي، ولكنه لم يتبع طريقة معينة ولكن خالط العديد من الطرق الصوفية كالقادرية والشاذلية والدرقاوية والناصرية والحبيبية والجزولية وغيرها، ووصل «عين مهدي» حيث درس الطريقة التيجانية، ثم قصد «الاغوات» وفضل الاقامة فيها لأهمية موقعها بجنوب الجزائر حيث كانت تعتبر من مفاتيح الصحراء، وتجتمع فيها القوافل الآتية من السودان الغربي والذاهبة إليه، ومكث فيها يعظ الناس ويدرسهم علوم الدين ثم زار تونس وطرابلس وبرقة، ثم رحل إلى مصر وكانت تحت حكم محمد علي باشا، ثم غادرها إلى الحجاز حيث التقى بالسيد أحمد بن ادريس

الفاسي وكان رئيساً للطريقة الخضرية فلازمه وتتلمذ عليه واستفاد منه بكثير، فلما رحل ابن ادريس إلى «صبيا» في اليمن تبعه السنوسي وأقام معه حتى توفي ابن ادريس عام ١٨٣٥، ورجع السنوسي بعد ذلك إلى مكة وأسس أول زاوية في جبل أبي قبيس عام ١٨٣٧م ومكث فيها يدرس علوم الفقه والعقيدة وينشر تعاليم الإسلام حتى عام ١٨٤٠ حين رحل إلى برقة وأنشأ فيها زاوية «البيضاء»، ويعتبر إنشاء هذه الزاوية بداية الحركة السنوسية المنظمة، وقد استطاعت السنوسية ان تنشئ عدة زوايا في جميع انحاء ليبيا والجبل الأخضر وبقية طرابلس الغرب وجنوب الجزائر وفاس وبرقة ومصر والحجاز واليمن والسودان، حتى بلغ عدد هذه الزوايا في عهد محمد بن علي السنوسي ما يزيد على اثنتين وخمسين زاوية، ولما شعر ببدء الخلاف بينه وبين سلطان دولة الخلافة في بنغازي، اختار «الجغبوب» مكاناً لأنشاء الزاوية الكبرى المركزية. وقد بقي محمد بن علي السنوسي يرعى حركته أكثر من ثلاثين عاماً، حتى اذن الله لهذ الروح الطاهرة بالرحيل، فقد توفي رحمه الله في شهر صفر الخير سنة ١٢٧٦هـ الموافق ١٨٥٩م بعد ان اشتد به المرض وكان عمره آنذاك حوالي الثانية والسبعين، فلما شعر بدنو أجله استدعى ابنه محمد بن محمد علي السنوسي وسلمه قيادة الحركة وحمله أمانتها.

٣- آثاره العلمية

ترك السنوسي ثروة علمية جيدة، فقد ترك نحو أربعين كتاباً ورسالة منها «الدرر السنية في اخبار السلالة الإدريسية» و«إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن» و«بغية المقاصد» و«شفاء الصدور» و«الكواكب الدرية في أوائل الكتب الأثرية» و«الشموس الشارقة فيا لنا

من اسانيد المغاربة والمشارقة » و« التحفة في أوائل الكتب الشريفة » و« المسائل العشر » وغيرها.

٤- المؤثرات في حياته وحركته

نشأ السنوسي في بيت علم ودين، في بيت عبد الله الخطابي، فقد تربى منذ نعومة أظفاره تربية إيمانية قرآنية، وكان بفطرته شغوفاً بالعلم ذكياً تقياً ورعاً، ولهذا ما ان شب عن الطوق حتى شد الرحال في سبيل طلب العلم ومعاشرة العلماء والصالحين. وقد خالط العديد من الطرق الصوفية إلا أنه كان يبدو مريداً حراً يريد أن يأخذ منها دون أن يلتزم بطريقتها، ويبدو أن السيد أحمد بن ادريس الفاسي رئيس الطريقة الخضرية كان له أثر في تفكيره وتربيته، إذ تتلمذ عليه ولازمه مدة طويلة وأدخل الكثير من الأدعية التي ألفها أحمد بن أدريس في منهج الحركة السنوسية كما كان لعيشه في مكة أثر كبير في تنقية الإيمان والإنطلاق من التوحيد الخالص. ويبدو ان كثرة الأسفار ومخالطة الكثير من العلماء من مختلف المشارب والمناهج، والعمل مع العديد من الطرق الصوفية قد أعطى السنوسي القدرة على رسم الطريق الصحيح لحركته، فقد استفاد من المصلحين الذين عاصروه بأن أخذ حسناتهم وتحاشى أن يقع في أخطائهم وسيئاتهم، فقد استفاد من الوهابية الدعوة إلى العقيدة الخالصة والانطلاق منها، إلا انه أخذ عليها اصطدامها بدولة الخلافة مما أدى إلى تحطيم الحركة الوهابية واضعاف الخلافة الإسلامية في وجه التحديات الصليبية. واستفاد من الحركة المهدية بأنها كانت حركة جهاد وتحرير، ولكنه ايقن إن الجهاد لا بد ان يكون بعد استكمال التربية وإعداد العدة، وان لا ننازل أعداءنا في المكان والزمان اللذين يريدانها، ولكن بالوقت والمكان المناسبين اللذين

نريدها، كما أخذ على المهدي ادعاءه المهدية واصطدامه بالخلافة العثمانية والتوسع في دولته قبل ان يستقر حالها وتنتظم شؤونها. وأخذ من الطرق الصوفية طريقة التربية لتخليص النفوس من آثامها ووضعها على الصراط المستقيم، ولكنه أضاف إلى ذلك أن التربية ليست فقط تربية الأرواح ولكن تربية العقول بالثقافة والأجسام بالتربية الرياضية والعسكرية الخشنة، فأعطى للتربية معنى إيجابياً غير المعنى السلبي الذي كانت عليه الطرق الصوفية. واستفاد من اتجاهات المذاهب الأربعة، إلا أنه عاب على المسلمين في ذلك الزمان اغلاقهم باب الاجتهاد، فقد كان يؤمن بضرورة فتح الاجتهاد للقادرين على استنباط الأحكام، وقد جاهر بالعداء للتقليد المطلق لأحد الأئمة الأربعة، وبنى دعوته على الكتاب والسنة مع عدم إهمال أقوال الفقهاء واجتهاداتهم، وبعد ان قويت حركته وكثر اتباعه، رفض بأن يزج به وبحركته في معارك جانبيه تلهيهم عن الهدف الأساسي وتستنفد طاقاتها في مجالات لا فائدة ترجى منها، فحينما طلب منه السلطان عبد الحميد أن يرسل جيشاً لمساعدة الخلافة في حربها في روسيا، رفض طلبه، معتقداً ان ذلك سيضعف من إمكاناته وإن بقاءه قوياً إلى جانب الخلافة أفضل من أن يكون هو والخلافة ضعفاء، وقد قدر السلطان بعد ذلك وجهة نظره.

٥- المنهج الحركي للسنوسي

كان السنوسي في حركته متبعاً وليس بمبتدع، فقد حرص أن يكون كتاب الله وسنة رسوله هما المرجع الأساسي لكل تحركاته وأفكاره، فهو يقول «الصوفية يزنون أعمالهم بمبادئ الشريعة ولا يعيبهم إلا الجهالة بعلومهم أو المتعصبون عليهم، والسنة هي المرجع وهي الحاكمة على الخطأ

والصواب لأنها حجة على الجميع، وليس هناك أحد عليها. نعرض ما جاء عن الطرق الصوفية على الكتاب والسنة فإن قبلها قبلناه، وإلا فلا نقبله، نحفظ ود الصوفية ولا ننكر عليهم إلا ما خالفوا فيه الكتاب والسنة».
وقد حدد السنوسي لحركته هدفاً عمل طول حياته للوصول إليه كما عمل خلفاؤه من بعده، الا وهو «إعادة القوة والهيبة إلى الخلافة الإسلامية» وقد اختار السنوسي أسلوب «الزاوية» لتكون الوسيلة التي يحقق بها هذا الهدف، وقد ربط بين الهدف والأسلوب برباط قوي بحيث أصبحت الزاوية المدرسة التي يتربى المريدون في أحضانها تربية متكاملة فكرياً وروحياً وعسكرياً، أما المنهج الذي عمل السنوسي على صياغته لتحقيق التربية المتكاملة، فقد كان منهجاً مختلفاً عن كل المناهج التي كانت معروفة في ذلك الوقت، إلا أنه لم يستطع ان يتخلص كلياً من بعض شوائب الصوفية، فمن ذلك أنه كان يسعى هو ومريدوه إلى «الكمال الأعلى» واتبع في ذلك الطريقة البرهانية، كما كان يعتقد بإمكان إقامة صلة بين الفرد ورسول الله ﷺ مباشرة وهذا ما يسمى بـ (الوصول)، وكان أتباع السنوسي يعتقدون بأنه كان متصلاً برسول الله ﷺ اتصالاً مباشراً.

والوصول إلى الكمال الأعلى له طريقان:

١ - الطريقة الإشراقية: وتهدف إلى تصفية النفوس وتوجيهها نحو الحق لمعرفة الأسرار بدون تعلم ولا تعليم من باب (اتقوا الله ويعلمكم الله).

٢ - الطريقة البرهانية: وأصحاب هذه الطريقة يتبعون الأوامر ويجتنبون النواهي ويقتسمون العلوم الأربعة وهي: الذات والصفات والفقه والحديث.

ويؤخذ على الطريقة السنوسية أنها رسمت طريق الوصول إلى رسول الله ﷺ عن طريق (المسلسلات) وهي أحاديث متصلة السند برسول الله ﷺ يتلقاها المريد عن شيخه فإذا أتقنها بايعه الشيخ وأجازه، ولا يتم الوصول إلا بالعمل بهذه الأحاديث، أما الأوراد التي كان يرددها المريدون فهي قسمان قسم عبادة من آيات قرآنية والصلاة على النبي ﷺ، وهذا مقبول إذا اتبعت الطريقة والهيئة المعرفة للتلاوة والذكر، أما القسم الثاني من الأوراد فكان من تأليف أحمد بن ادريس، وهذا باطل لأنه لم يرد في الكتاب والسنة، وهذه الأوراد مقسمة على أيام الأسبوع بحيث يقرأ كل يوم ورداً منها، وهذه الأوراد هي (حزب السيفي، وحزب المغني، ودعاء الاختتام، وحزب المحامد الثان، وحزب النور الأعظم والكنز المطلسم، وحزب التجلي الأكبر والسر الأفخر، والصلوات الثان والدرر الأحمدي، والحصون المنيعة النبوية والأوراد الأحمدية).

٦- الزاوية

تعتبر الزاوية في الحركة السنوسية الوحدة الحركية التي يتربى المريدون في رحابها التربية الإسلامية المتكاملة. ولأهمية هذا الأسلوب كان السنوسي يقول ان الرسول ﷺ قد أمره بأن يبني الزوايا ويدعو إلى الله. وهو أسلوب تتبعه الحركات الصوفية لإضفاء الاحترام على بعض اساليبها، ومهما يكن من أمر فإن الزاوية كان لها أثر فعال في الحركة السنوسية وهي أسلوب ناجح في تربية الأتباع وتجميع طاقاتهم وتوجيهها.

لقد كانت الزوايا معروفة قبل السنوسي ولكنها كانت مقتصرة على العبادة وحفظ الأوراد وممارسة الأذكار، وكان أتباعها يسمون

بالدراويش، فلما جاء السنوسي غيَّر مفهوم الزاوية تغييراً جذرياً، وجعلها مدرسة للتربية الإسلامية المتكاملة.

كانت أول زاوية أنشأها السنوسي في مكة في جبل أبي قبيس، أما في المغرب فقد أنشأ زاوية «البيضاء» والتي يعتبر إنشاؤها بداية الحركة السنوسية المنتظمة، وقد وصل عدد الزوايا في عهد خليفته أكثر من مئة زاوية موزعة في معظم أرجاء العالم الإسلامي، وأخيراً اختار السنوسي (الجغبوب) لينشئ فيها الزاوية المركزية لحركته.

ويمكن القول ان التكوين الداخلي للزاوية هو بمثابة قلعة حربية بالاضافة إلى كونها قرية نموذجية، فقد كان يختار للزاوية المكان الاستراتيجي الحصين، ويتبع في انشائها الأساليب العسكرية، فيختارها في اماكن قريبة من البحر ما أمكن، بحيث لا تبعد كل زاوية عن الأخرى أكثر من ست ساعات، وتعتبر هذه الزوايا الخطوط الأمامية للدفاع تبنى خلفها زوايا أخرى تعتبر خطوط مساندة ودفاع خلفية بحيث لو هوجمت الزوايا الأمامية ينتقل سكانها إلى الزوايا الخلفية بكل سهولة، وقد تمركز السنوسي في زاوية «الجغبوب» وجعلها الزاوية المركزية بعد أن اختار لها موقعاً استراتيجياً كملتقى للقبائل العربية، فهي مركز جيد لنشر الدعوة بين هذه القبائل. وكل رجل في الجغبوب مزود بالسلاح الكامل للدفاع عن الزاوية، وكان فيها حوالي أربعمائة بندقية ومائتي سيف، هذا عدا الأسلحة الأخرى المعدة لتجهيز قوة من نحو ثلاثة آلاف رجل محفوظة في نحو عشرين حجرة مليئة بالرصاص والبارود، بالاضافة إلى عدد من المدافع يصل إلى خمسة عشر مدفعاً اشتريت من مصر إلى جانب العديد من الصناع الذين مهروا في صناعة الأسلحة والمعدات.

وكانت تربط زاوية الجغبوب بالزوايا الأخرى شبكة من الاتصالات والمخابرات وفق نظام دقيق مما يساعد على ربط جميع الزوايا بالزاوية المركزية.

ومن يلاحظ توزيع الزوايا السنوسية في برقة يجد انها أقيمت وفق خطة اقتصادية، فقد بنيت عند ملتقى الطرق الهامة، وكان يختار لها أجمل البقع وأخصبها، وفيها الآبار الكثيرة التي تسقي الزروع وقلما مررت بزاوية ليس لها بساتين فيها من كل أنواع الفاكهة، وتتألف الموارد المالية للزاوية من الزراعة وتربية المواشي والهبات الخيرية كما كانت الزاوية تجبي الزكاة من القبيلة رسمياً، وكانت الزاوية تنفق بعض هذه الموارد على احتياجاتها وفق نظام معروف فيها، أما ما يتبقى من الموارد فيبعث إلى المركز الرئيسي حيث يتصرف به رئيس النظام العام.

وكان رجال المخابرات السنوسية يسمون « الوكلاء » يرسلون تقاريرهم بشكل مستمر إلى بنغازي ثم ترسل بسرعة فائقة بواسطة الهجن إلى الزاوية المركزية بالجغبوب.

وتتكون الزاوية عادة من بيت خاص لإسكان شيخها، وبيوت خاصة للضيوف ولوكيل الزاوية ومعلم الأطفال والمسجد والمدرسة ودار لتحفيظ القرآن الكريم، ومساكن للخدم، ومخازن لحفظ المؤن واصطبل ومتجر وحجرة خاصة للفقراء الذين لا مأوى لهم، وهناك أرض موقوفة على الزاوية ومساحة الزاوية الكبيرة تزيد عن « ٢٥٠٠ » هكتار، بعضها يخصص للزرع والآخر يترك للرعي، وقد ذكر ان مساحة أراضي زاوية برقة وحدها يبلغ نصف مليون هكتار.

ويتألف الجهاز الاداري في الزاوية من: شيخ الزاوية وهو المسئول

الأول عن الزاوية ويطلق عليه اسم « المقدم » وهو الذي يمثل رئيس قسم النظام ويقود رجال القبيلة للجهاد، وهو حلقة الوصل بين القبيلة والحكومة العثمانية ويساعد في الوعظ والإرشاد. ويلي شيخ الزاوية في المسئولية «وكيل الزاوية» ومهمته الاشراف على الأمور الاقتصادية في الزاوية وزراعة جميع الأراضي فيها، وتتألف السلطة في الزاوية من مجلس يضم شيوخ وأعيان القبيلة المرتبطة بها، ووجهاء المهاجرين إليها، ومهمة هذا المجلس النظر في مشاكل الأهالي وفض المنازعات. ويعين في كل زاوية « شيخ » ليقيم الصلاة في مسجدها ويعلم الأطفال القرآن الكريم ويعقد عقود الزواج ويصلي على الجنائز.

أما مهمة الزاوية الرئيسية فهي تربية الاخوان السنوسيين تربية إسلامية متكاملة وتدريبهم التدريب العسكري الملائم، كما كانت خلية اجتماعية ترتاذها القبائل لقضاء حوائجهم، وكانت الزاوية مكتفية من النواحي الاقتصادية، كما أن مواردها توزع توزيعاً عادلاً على سكانها، مما كان له أكبر الأثر في تمسكهم بها ودفاعهم عنها.

٧- خليفة السنوسي

قلنا لما شعر السنوسي بدنو أجله، أسند الخلافة إلى ابنه محمد بن محمد بن علي السنوسي الذي ولد (بماسة) في الجبل الأخضر في ذي القعدة ١٢٦٠ هـ (نوفمبر ١٨٤٤ م) قبل مولد أخيه محمد الشريف بسنتين، وقد تلقى محمد علومه الأولية في الجبل الأخضر، ولما بلغ السابعة انتقل إلى الحجاز وبقي فيها مدة يتلقى العلوم الإسلامية على أيدي كبار شيوخ السنوسية بزاوية أبي قبيس في مكة المكرمة، ثم رجع إلى طرابلس الغرب فأرسله والده إلى زاوية الجغبوب وكان ذلك في ربيع الأول عام ١٢٧٤ اكتوبر

١٨٥٧ م. وعهد بتربيته هناك إلى كبار الاخوان السنوسيين، وقد بدت عليه مخايل الذكاء منذ صغره فحفظ القرآن ولم يتجاوز الرابعة عشرة من العمر، ولما توفي والده كان قد بلغ من العمر ست عشرة سنة، ومع ذلك بايعه السنوسيون رئيساً للحركة السنوسية، وكان يتمتع بالإضافة إلى التقوى والصلاح والعلم بشخصية قيادية مما جعله قادراً على قيادة الحركة بعد والده وكان السنوسي الأكبر قد وزع المهام بين ولديه قبل وفاته فقال « السيف لمحمد والقلم للشريف » وهو محمد الشريف الابن الثاني للسنوسي.

استلم محمد بن محمد قيادة الحركة السنوسية في مرحلة حرجة وهي نهاية مرحلة التأسيس والتكوين وبداية مرحلة التنفيذ، وقبل أن يبدأ في المرحلة التالية حرص على ان ينقي حركته من بعض الشوائب التي علقت بها، وان يقويها من الناحية الادارية والحركية.

لقد كان أتباع الحركة السنوسية يؤمنون بأنه « المهدي المنتظر » وقد نقل السيد أحمد الشريف في تاريخه شعراً قاله أحد المريدين جاء فيه:

إمام جليل بشرتنا به العلا ... على انه المهدي مذ كان في المهد
إمام إلى بيت النبوة ينتمي ... ولا شك عند اثنين انه المهدي

وكان أول ظهور هذه الفكرة في حياة والده الذي كان يؤمن بمهدوية ابنه، ومن ذلك ما قاله لزوجته « البسكرية » عندما سألته لماذا سمى ابنه المهدي فأجاب « ليحوز جميع أنواع الهداية، ونرجو الله ان يجعله هادياً ومهدياً » وفي رواية اخرى « رجوت ان يكون المهدي المنتظر » وكان يساعد على انتشار هذه الفكرة بعض الاشارات والظواهر التي صاحبت محمد بن محمد، فاسمه محمد، واسم أبيه محمد، واسم أمه فاطمة، وقد ورد عن النبي ﷺ فيما يرويه أبو داود « لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك

اليوم حتى يبعث رجلاً مني أو من أهل بيتي - شك من الرواية- يواطىء اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً ».

ومن الظواهر التي ساعدت على ظهور فكرة المهدية، وجود شامة على خده وبلوغه سن الأربعين في سنة ١٣٠٠ هـ وقد قال بمهديته عامة السنوسيين وبعض علمائهم.

قام محمد بن محمد بمحاربة فكرة المهدية المنسوبة إليه، وكان ينهى أتباعه عنها، ومع أنه سمع من أبيه أنه قال يوماً لكبار الاخوان السنوسيين « نحن من جماعة المهدي » إلا إنه حمل ذلك على تشجيعه له ورفع منزلته أمام أتباعه، ومما يروى عنه ان زوجة أبيه البسكرية سألته يوماً: أصحيح أنك المهدي المنتظر؟ فقال لها: قيل لي ان هناك من يهرف بهذه الخرافة. وكان يعيب على محمد المهدي في السودان ادعاءه المهدوية ويصفه بالكذب.

ورث محمد عن والده تنظيماً ادارياً محكماً للحركة، ولكنه غيّر في بعض النظم فيه بما يتمشى مع الظروف التي كانت تمر بها الحركة، فقد كون مجلساً أعلى للنظام يعتبر بمثابة قيادة جماعية تمثل رأس الهرم في التنظيم الذي قاعدته الزوايا، ويتكون المجلس من كبار الاخوان السنوسيين المقيمين في الجغبوب بالاضافة إلى كبار رؤساء الزوايا، ويرأس المجلس اخوه « محمد الشريف » وكان المجلس يجتمع سنوياً للنظر في الأمور الهامة الخاصة بالحركة، وقد وزعت الأعمال الرئيسية على الأفراد القياديين في المجلس بحيث يختص كل واحد منهم بناحية معينة، فقد انيط بالسيد محمد الشريف الأشراف على النشاط العلمي، كما أنيط بآخرين القضايا المالية والمراسلات والمقابلات وغيرها من الاختصاصات التي يحتاجها النظام.

وقد اهتم محمد بن محمد بالجانب العسكري الجهادي للحركة، دون أن يهمل الإعداد العقائدي والفكري للأتباع، وطوره تطوراً ملحوظاً، وأصبحت الجغبوب ثكنة عسكرية مستحكمة، كما أشاع في جميع الزوايا ضرورة التدريبات العسكرية وخاصة الرماية، وقد اهتم بأمور الزوايا من حيث الكيف والكم، فزاد من عددها حتى بلغت عام ١٨٨٤ مائة زاوية منتشرة في ليبيا بشكل خاص وفي جميع ارجاء العالم الإسلامي بشكل عام، ففي تونس كان هناك خمس زوايا وفي الجزائر مثلها، وفي مراكش ثلاث، وأنشأ زوايا في طريق القوافل إلى مصر، كما أنشأ في مصر عدداً من الزوايا، في الاسكندرية والقاهرة والسويس وبلغت زواياه في مكة وجدة وينبع والمدينة المنورة اثنتي عشرة زاوية، ووصلت الزوايا إلى العراق وساحل الصومال الإفريقي ثم اسطنبول والهند، ويرجع الفضل لهذه الزوايا في وقف المد التبشيري في إفريقيا وخاصة بين القبائل الوثنية، إذ أن الكثير من هذه القبائل دان بالإسلام، كما ان الزوايا كسبت احترام القبائل وثقتهم مما ساعد على انتشار الأمن في طرق القوافل في قلب الصحراء الكبرى في إفريقيا، بحيث لم تكن قافلة تأمن على اموالها وتجارتها ورجالها إلا إذا أخذت محررات من شيوخ الزوايا السنوسية تكون بمثابة جوازات مرور كي تتمكن من اجتياز أرض قبائل الطوارق وتبو وغيرها، وهذه القبائل لم تكن تعطي الولاء لغير شيوخ السنوسية.

٨- عقبات في الطريق

تسلم محمد بن محمد قيادة الحركة السنوسية في مرحلة أصبح الأعداء والمناوئون يحسبون لها كل حساب ويشعرون بخطرها عليهم، ولهذا كان عليه ان يسير بالدعوة وسط الكثير من العواصف بحكمة وروية وحسن

قيادة، وان لا يلهيه الاستعداد للمواجهة عن التكوين والتربية والتنظيم لصفه الداخلي.

كانت العقبة الأولى التي واجهها السنوسي هي تحديد علاقته بالخلافة العثمانيـة. فالبّرغم من أن والده كان يرى ان تكون الخلافة بيد قريش وقد أوضح ذلك في كتابه «الدرر السنية»، إلا أنه لم يثر هذا الموضوع لأنه يعلم أنه سيثير خلافاً شديداً يضعف من قوة الخلافة وهيبتها في وجه الهجمة الصليبية عليها، ولهذا أثار مسألة الخلافة والاعتراف بسلطتها وشرعيتها، وتدل جميع الأدلة ان السنوسي كان يريد دولة في ظل دولة الخلافة وتحت سلطانها، وقد كادت هذه الصلات الجيدة تنقطع حينما طلب السلطان عبد الحميد من السنوسي إرسال قوة من الأقطار الطرابلسية لمساعدة دولة الخلافة في حربها مع روسيا عام ١١٨٧ م، فامتنع السنوسي عن تقديم هذه المساعدة مما جعل السلطان يشك في ولائه، فأرسل له الرسل لتطلع على حقيقة موقفه فعادت رسله تؤكد ولاء السنوسي للخلافة، وان بقاء السنوسية قوية في طرابلس الغرب هو قوة لدولة الخلافة لأنها كانت الحامي للمغرب كله، ولهذا اعترفت الخلافة بالإمارة لحـركـة السنوسية في طرابلس الغرب، مما ساعد الخلافة على إعادة الثقة بين العرب والأتراك، كما أعطى الحركة السنوسية قوة معنوية ومكانة قيادية في جميع المناطق التي كان لها زوايا رئيسية.

وكانت العقبة الثانية تتمثل في الحركة المهدية في السودان كحركة متزامنة ومناوئة. فقد اختلفت السنوسية مع المهدية في الهدف والأسلوب، فقد كانت المهدية ترى ضرورة إعادة الخلافة الإسلامية على يد محمد أحمد الذي ادعى انه المهدي المنتظر، بينما كانت السنوسية ترى ضرورة دعم الخلافة العثمانية وتقويتها، وأن أي جهد يبذل ضد الخلافة هو بمثابة معول

هدم في صرح الإسلام ومساعدة للأعداء المتربصين، ولهذا كان السنوسي يأخذ على المهدي اصطدامه بدولة الخلافة مما نتج عنه ضرر مزدوج على الخلافة والحركة المهدية. بحيث استنفدت الطاقات الإسلامية في معارك داخلية كان الرابح فيها العدو الصليبي.

لقد حققت المهدية انتصارات عسكرية كبيرة في السودان، مما أعطى المهدي قوة معنوية جعله يرسل عدة رسائل إلى السنوسي يدعوه فيها إلى الانضواء تحت لوائه ومبايعته على المهدية، فلم يرد السنوسي عليه، بل أرسل من يستطلع خبره عن كثب، فرجعت رسله تحمل معها الأخبار السيئة عن المهدية، إذ كانت تلجأ إلى العنف والقتل لنشر دعوتها، ولما استولى المهدي على الخرطوم وأعلن نفسه خليفة عين السنوسي خليفته الثالث وطلب منه أن يحضر ليستلم منصبه، وقد أهمل السنوسي الرد عليه. وفي مايو ١٨٨٣ م، أرسل المهدي للسنوسي رسالة يدعوه فيها لأمرين: إما الهجوم على مصر وإما الحضور إليه والانضمام إلى صفوفه ولكنه أهمل الرد على الرسالة أيضاً.

وصلت جيوش المهدي إلى المناطق التي فيها زوايا للسنوسية، ولما كان السنوسي يرفض ان يشهر سلاحه في وجه أي مسلم، حرص على تجنب أي صدام مسلح مع أتباع المهدية، واكتفى بالطلب من الشعوب الإسلامية خصوصاً في واداي وبرنو والبلاد المحيطة بها ان تمتنع عن تأييد مدعي المهدية محمد أحمد الذي لم يكن إلا مخادعاً كاذباً، وعندما خلف المهدي عبد الله التعايشي في قيادة الحركة المهدية جدد محاولاته لجذب السنوسية إلى طرفه ومساعدته في حرب الإنجليز في مصر، إلا أن السنوسي رفض أيضاً، فما كان من التعايشي إلا أن أمر جيوشه بالزحف من دارفور عام ١٨٩٠ م، لمواجهة السنوسي وحربه حتى وصلت جيوشه إلى واداي، ولكن سلطانها « يوسف » كان عظيم الولاء للسنوسي، مما مكنه من أن يوقف

زحف جيوش التعايشي. ومما يذكر ان سلطان «برقو» أرسل للسنوسي رسالة، يستوضحه فيها عما يكون عليه موقفه من التعايشي الذي طلب منه مؤازرته، فرد عليه السنوسي بقوله (انه معني بالدعوة إلى إصلاح الدين سلماً لا حرباً، بينما تنفر الملة التي يراد احياؤها نفوراً عظيماً بل وتشتد ثورتها ضد الدمار الذي يهددها- المهدي- والجرائم التي يرتكبها في السودان).

أما العقبة الثالثة التي كانت تعترض الحركة السنوسية فهي الدول الاستعمارية كفرنسا وإيطاليا، والتي كانت تنتظر الفرصة كي تستولي على دول المغرب العربي وتتوزعها فيما بينها. وكانت هذه الدول تعتبر سقوط طرابلس معناه سقوط جميع دول المغرب العربي، ولكنها كانت تعلم مدى قوة الحركة السنوسية في طرابلس، فأرسلت الجواسيس في صور رحالين لرصد الحركة وخاصة مركزها الرئيسي، ولكن السنوسي كان يدرك مكائدهم فكان يرفض مقابلة أي شخص أجنبي، كما كان يرفض الهدايا التي كانوا يرسلونها إليه، وقد حاولت الدول الاستعمارية الإيقاع بين السنوسي وبين الخلافة إلا أنه كان يفوت عليهم الفرصة ويظهر لهم ثقته بالخلافة وثقة الخلافة به، وبشكل عام كانت خطة السنوسي تجاه الدول الاستعمارية أن لا يدخل معها في معارك جانبية، وأن يسالمها حتى يستكمل عدته وقوته، وأن يحاول ان يجد الوقت المناسب لمواجهة هؤلاء المستعمرين، وما رفض السنوسي إمداد السلطان بجيوش تساعده في حربه ضد روسيا إلا لأنه كان يتوقع قرب الهجوم على طرابلس، وما رفضه مساعدة المهدي في حربه لاحتلال مصر إلا لأنه يعلم أنها حرب فيها استنزاف لقواته في غير موضعه، وحرب للمسلمين في مصر ودولة الخلافة وهذا لا يجوز شرعاً، وهو في نفس الوقت حرب للإنجليز الذين يسيطرون على مصر وليس منهم ضرر على دول المغرب. ولهذا كان يؤخر قواته لمواجهة الأعداء المباشرين.

٩- حرب صليبية

اختارت الدول الاستعمارية أسلوباً خبيثاً لحرب دولة الخلافة والسنوسية في آن واحد، فاختارت الضرب على جبهتين دفعة واحدة وفتحت ضد الخلافة أكثر من جبهة ففي الوقت الذي اعلنت فيه الحرب على تركيا أعلنت الحرب الفعلية على الحركة السنوسية الأمر الذي فوت على الطرفين الاستفادة من إمكانات الطرف الآخر. لقد سبقت الحرب الساخنة حرب باردة شنها المبشرون وأبواقهم ضد الحركة السنوسية متهمين إياها بالتعصب وقتل المسيحيين وذلك بهدف تعبئة الرأي العام الأوروبي وتأليبه ضد السنوسية عدوة النصرانية والتي تستعد للقضاء على الصليب وأهله، وبدأت الحرب الحقيقية على ثلاث جبهات حينا تقدم الفرنسيون جهة (كانم)، وهاجم الإيطاليون بعد ذلك طرابلس وبرقة وحرضت روسيا الدول البلقانية الأربع: بلغاريا وصربيا واليونان والجبل الأسود فأعلنت الحرب على تركيا، مما اضطر دولة الخلافة ان توزع طاقاتها المحدودة على ثلاث جبهات. وكان السنوسي قد نقل مكان قيادته من الجغبوب إلى (الكفرة) في ٢٢ شوال ١٣١٢ (٨ إبريل ١٨٩٥م)، ومكث فيها أربع سنوات ونصف انتقل بقيادته بعد ذلك إلى واحة (قرو) في الصحراء الأفريقية لأنه كان يقدر ان الفرنسيين سيهاجمونه من جهة بحيرة تشاد، وفعلاً كان فقد هاجم الفرنسيون كانم وتصدى لهم أحمد الشريف يساعده شيخ زاوية بير العلالي «محمد البراني» فانتصرت جيوش السنوسية على الفرنسيين في بداية الأمر إلا أن تفوق أولئك بالعدد والعدة جعل لهم الغلبة في النهاية فبعد معركة دامية في أول عام ١٩٠٢م، سقطت بير العلالي في أيدي الفرنسيين، فهدمو زاويتها وبنوا مكانها قلعة حصينة.

في هذه الأثناء كانت الخلافة العثمانية في وضع حرج لم تستطع أن تدعم السنوسيين فقد كانت علاقتها بفرنسا علاقة سلم، كانت الدولة العثمانية حريصة على استمرارها نظراً لمعاداة الدول الأوروبية لها، والوضع المتوتر في جزر البلقان مما جعل من الصعب عليها تزويد السنوسيين بالعتاد والسلاح والمؤن لمواصلة الحرب ضد الفرنسيين.

وقد صدمت الحركة السنوسية صدمة شديدة بينما كانت جيوشها تحارب الفرنسيين في بير العلالي فقد اشتد المرض على المؤسس الثاني للسنوسية، وتوفاه الله في زاوية «قرو» يوم الأحد ٢٤ صفر ١٣٢٠ هـ (٢ يونيو ١٩٠٢) فكان لوفاته أثر بليغ على الروح المعنوية للسنوسيين، واستلم قيادة الحركة من بعده «أحمد الشريف» فاستمر في القتال ضد الفرنسيين إلا أنه اضطر لوقف الحرب ضدهم حينما هاجم الإيطاليون طرابلس وبرقة.

ومن الجدير بالذكر ان محمد بن محمد بن علي السنوسي هو والد السيد محمد أدريس السنوسي ملك ليبيا حتى قبيل الانقلاب الذي أطاح به عام ١٩٦٨م.

١٠ - الحركة السنوسية بعد السنوسي

لم تستطع إيطاليا أن تهاجم طرابلس إلا بعد ان خدعت الدولة العثمانية بواسطة بعض العملاء فلقد تآمرت الماسونية اليهودية مع الصليبية الغربية وحبكت مؤامرة خبيثة دبرها الماسوني «متر سالم» الحائز على الدرجة «٣٣» في الماسونية فقد اتفق هذا الأخير مع رئيس بلدية روما «الماسوني» على أن تدفع الخزينة الإيطالية ملايين الليرات الذهبية ليهود الدونمة الذين كانوا في أعلى المناصب في الدولة العثمانية لإقناعها بسحب

قواتها من طربالس الغرب إلى استانبول بحجة الإصلاح والتعمير، وبمساعي الماسونيين أرسلت هذه القوات إلى اليمن، وهكذا أصبحت طرابلس ليس فيها سوى القوات السنوسية لتدافع عنها.

بدأ الإيطاليون بمهاجمة موانىء طرابلس وبرقة، فتصدى لهم السنوسيون إلا أن الحرب لم تكن متكافئة من حيث العدد والعدة، وفي بداية الأمر وقفت الدولة العثمانية موقف المتفرج إلا أنها بعد ان ثبت لها أنها خدعت أخذت ترسل بعض الضباط والاسلحة والذخيرة سراً إلى السنوسيين. وقد حرضت روسيا دول البلقان فأعلنت الحرب على تركيا، مما اضطرها إلى عقد صلح مع إيطاليا، وقد ضغط المجاهدون على تركيا لأنه إذا كان ولا بد من الصلح مع إيطاليا، فعلى تركيا ان تتنازل عن طرابلس لأهلها وليس لإيطاليا، فوعدهم السلطان بذلك. واستمرت الحرب بعد ذلك حوالى ثلاثين سنة بين إيطاليا والسنوسيين حتى انتصرت الثورة وخرج المستعمر الإيطالي من الشمال الإفريقي كله.

ومن الجدير بالذكر ان خلافاً وقع بين أحمد الشريف وابن عمه السيد محمد أدريس السنوسي مما كان له الأثر على مجريات الأحداث، فقد ترك أحمد قيادة الحركة لابن عمه وسافر إلى الاستانة وولي في العاصمة العثمانية محمد السادس العرش، وبويع له بالإمارة في ذي القعدة ١٣٤٠ هـ، (يوليو ١٩٢٢ م).

المصادر

- كتاب «اليقظة الإسلامية في مواجهة الاستعمار» لانور الجندي.

ثورة الإمام
أبو الأعلى المودودي

١- مقدمة

أحدث سقوط الخلافة في بداية القرن العشرين صدمة عنيفة في العالم الإسلامي، وكان يزيد من حدتها ما كان يراه المسلمون من هجمة عقائدية تتمثل في الاستشراق والتغريب والتبشير تستهدف دينهم وعقيدتهم، وهجمــة عسكرية إستعمارية استطاعت ان تستعمر بلادهم وتدنس مقدساتهم. فكان لهذه الصدمة أثر كبير في نفسية كل مسلم فيه بقية من إسلام وإيمان، بحيث أيقظته من نومة وازالت الغشاوة عن قلبه وعينيه، فانطلقت حركة البعث الإسلامي تدافع عن كيان الإسلام وعقائده ومقدساته، وتصدت لعدو لديه من الإمكانات العلمية والتقنية والعسكرية ما يفوقها عدداً وعدة، ولئن انطلقت حركة البعث الإسلامي في العالم العربي في اواخر العشرينات على يد الإمام الشهيد حسن البنا «رحمه الله» فإن انطلاقة اخرى تزامنت معها في شبه القارة الهندية وكانت على يد مولانا أبي الأعلى المودودي «رحمه الله».

كان المسلمون في العالم الإسلامي تنتابهم علل وأمراض إجتماعية كثيرة، فبالإضافة إلى الغزو التبشيري الإستعماري، كانت تسيطر عليهم مرحلة من الركود بلغت ذروتها عبر تخلف فكري وحضاري وسياسي في معظم العالم الإسلامي عامة وفي الهند خاصة

وكان المسلمون في الهند يواجهون عدد من الأعداء أهمهم الأعداء في الجبهة الداخلية فقد استطاع الاستعمار الإنجليزي ان يفرق صفوفهم وأن يتركهم شيعاً وأحزاباً. هذا بالإضافة إلى فهمهم السطحي والشكلي للإسلام، كما انهم كانوا يواجهون الهندوس الذين كانوا يطالبون بالاستقلال للهند على ان يكون لهم حصة الأسد في أية دولة هندية جديدة بالإضافة إلى ما بينهم وبين المسلمين من خلافات عقائدية جذرية، دفعتهم إلى التصدي الفكري والمسلح للمسلمين وحصلت بينهم وبين المسلمين مذابح رهيبة.

في مثل هذا الجو نشأ الداعية المجدد أبو الأعلى المودودي.

٢ - حياته

ولد المودودي في ٢٥ أيلول ١٩٠٣م في مدينة «اورنك اباد»، بولاية حيدر اباد المدينة الإسلامية في أسرة عريقة بالعلم والورع، إذ يرجع نسبه إلى «الأسرة المودودية» نسبة إلى جد الأسرة الأكبر الشيخ قطب الدين مودود جشتي «رحمه الله»، مؤسس الطريقة الجشتية في القارة الهندية والذي توفي عام ٥٢٧ هـ، وقد ازدهرت هذه الطريقة في الربع الأول من القرن السادس الهجري في منطقة «هرات» في افغانستان بالقرب من الحدود الإيرانية، وقد هاجر أحد أفراد الأسرة المودودية إلى الهند قبل حوالي ثمانمائة عام، وكان شيخ هذا الفرع يدعي أبو الأعلى المودودي، وقد

حمل صاحب هذه الترجمة اسم جده الأكبر.

كان والد الأستاذ المودودي السيد أحمد حسن المودودي يجمع بين الثقافة الإسلامية والثقافة الغربية، فقد تلقى علومه الإنجليزية في مدرسة «علي كرة»، والتي تعرف اليوم بالجامعة الإسلامية بعليكرة، ولكنه تركها لأنها كانت تدرس الثقافة الاستعمارية، ثم درس المحاماة وعمل فيها، وأخيراً زهد بها وتركها وقبع في بيته متفرغاً للدراسة والعبادة، وفي هذه الفترة ولد المودودي، وهاجر الوالد من «أورنك أباد» إلى «بهوبال» طلباً للرزق، ولم يمكث فيها سوى ستة أشهر حتى أصيب بشلل شديد توفي على اثره وكان ذلك عام ١٩١٧م.

قام والد المودودي بتربيته وتعليمه، فتلقى على يديه علومه الابتدائية كاللغة العربية والقرآن والحديث والفقه واللغة الفارسية وحفظ موطأ مالك عن ظهر قلب، وقد اتقن العربية بحيث استطاع ان يترجم كتاب الكاتب المصري «قاسم أمين» واسمه «المرأة الجديدة» إلى اللغة الاردية بأسلوب نال إعجاب الجميع ثم التحق في المدرسة الثانوية في مدينة «أورنك اباد» في الصف الثامن، وكان سنه آنذاك إحدى عشرة سنة، وتخرج من الثانوية وعمره أربعة عشر عاماً. ونظراً لفقر والده كان يعيش في حيدر اباد في عوز شديد، وكان بيته يبعد عن دار العلوم خمسة عشر كيلومتـراً وكان يذهب إليها مشياً على الأقدام صباحاً ويعود مساء. ولما مرض والده اضطر ان يلحق به في «بهوبال، وكان لوفاة والده أثر كبير في نفسه إذ شعر انه يعيش الآن وحيداً لا سند له وان عليه ان يبني حياته بجده وعرق جبينه.

عاش المودودي بعد والده عيشة صعبة، فكان يرتحل من بلد إلى بلد طلباً للرزق وأخيراً انتهى به المطاف عام ١٩١٨ في مدينة «جبل نور»

الهندية، وبدأ فيها عمله كصحفي حينا عمل في جريدة « المدينة » ثم انتقل إلى جريدة اسبوعية اسمها « تاج » وكان عمره آنذاك السابعة عشرة. وفي هذه الأثناء ألف كتابين: أولها « النشاطات التبشيرية في تركيا »، وثانيها « مجازر المسلمين في سمرنا » ثم رحل بعد ذلك إلى « دلهي) عاصمة الهند فقابل فيها مفتي الديار الهندية الشيخ « كفاية الله الدهلوي » والشيخ أحمد سعيد المشهور بسحبان الهند فأعجبا به أيما اعجاب. ولما قررت جمعية العلماء إصدار أول جريدة لها باسم « المسلم » وقع عليه الاختيار ليكون رئيساً لتحريرها وقد استمر في هذه الجريدة من « ١٩٢١ - ١٩٢٣م » وأصدرت الجميعة جريدة أخرى باسم « الجمعية » فاختير المودودي رئيساً لتحريرها أيضاً، واستمر يعمل فيها حتى عام ١٩٢٨ . كان المودودي بجانب عمله في الصحافة يرتشف العلم من منابعه الصافية، فبالإضافة إلى تعلمه اللغة الانجليزية، قرأ علوم المعاني والبلاغة والآداب العربية على الشيخ عبد السلام نيازي وقرأ كتب الحديث على المحدث الشيخ اشفاق الرحمن الكاندهلوي وقرأ التفسير والفقه والمنطق على الشيخ شريف الله خان، وكان يتلقى هذه الدروس بعد صلاة الفجر ثم ينطلق بعد ذلك إلى عمله، وفي هذه الفترة نشر في الجريدة كتابين في حلقات متسلسلة نالا رواجاً وإعجاباً في الأوساط العلمية، هما « مصدر قوة المسلم » و« الجهاد في الإسلام ».

وتفرغ المودودي للعلم والعبادة من عام ١٩٢٨ - ١٩٣٣ حين تولى إدارة مجلة شهرية تدعى « ترجمان القرآن » وأخذ ينادي من على منبرها بضرورة قيام جماعة إسلامية تعمل على إقامة دولة إسلامية، فأسس « الجماعة الإسلامية » في شهر ٢٦ آب ١٩٤١ = ٢ شعبان ١٣٦٠ هـ، وانتخب أميراً لها، وقد دخل السجن لأول مرة عام ١٩٤٨ من أجل

معركة الدستور، وفي اثناءذلك قامت دولة باكستان.

وأطلق سراحه بعد ذلك، إلا أن المستعمرين وأذنابهم مكنوا للأقليات في المناصب الرئيسية للدولة وخاصة القاديانيين، فواجههم الأستاذ المودودي بصلابة وأصدر كتابه «المسألة القاديانية» فألقي القبض عليه عام ١٩٥٣ وزج به في السجن، وحكمت محكمة عسكرية بإعدامه إلا أن الحكم خفف إلى السجن المؤبد ثم خرج من السجن بعد ثمانية عشر شهراً أي في عام ١٩٥٥ تحت الضغط الشعبي الداخلي والخارجي.

ولما أعلن «أيوب خان» دستوراً جديداً لباكستان اضطر أمام ضغط الجماعة الإسلامية إلى ان يجعل الإسلام مصدراً للتشريع، ويعلن أن باكستان جمهورية إسلامية. ولما وقعت الحرب بين الهند وباكستان عام ١٩٦٥ اضطر الرئيس أيوب خان لأن يذهب إلى مركز الجماعة الإسلامية في لاهور ويصطحب معه الأستاذ المودودي في سيارته إلى دار الإذاعة ليوجه خطاباً إلى الأمة والجيش لرفع روحهم المعنوية، وتحقق الانتصار للجيش الباكستاني في هذه الحرب، وقد قام المودودي بعدة رحلات إلى البلاد العربية كالسعودية والأردن وسوريا وفلسطين ولبنان ومصر، في أواخر عام ١٩٥٨ لمشاهدة الآثار الإسلامية والأماكن التاريخية التي ورد ذكرها في القرآن الكريم.

ولما تولى «يحيى خان» حكم باكستان، وكان سكيراً عربيداً ألغى الدستور وحكم البلاد حكماً دكتاتورياً، ولما سقط يحيى خان وحل محله «علي بوتو» تحققت المؤامرة على باكستان، إذ انفصلت بنجلاديش بزعامة حزب عوامي ويرأسه مجيب الرحمن عن الدولة الأم. ومنيت باكستان بهزيمة ساحقة.

وفي عام ١٩٧٢ بلغ الأستاذ المودودي من العمر سبعين عاماً، ومرض مرضاً أقعده عن ممارسة القيادة الفعلية للجماعة، فطلب اعفاءه من إمارة الجماعة، فانتخب الأستاذ طفيل محمد أميراً للجماعة، وهو ما يزال يتابع مهماته حتى الآن، وتفرغ المودودي للتأليف والبحث العلمي، وبقي المرجع الأساسي للجماعة في جميع القضايا الفكرية والفقهية حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى في اميركا في الأول من ذي القعدة عام ١٣٩٩ هـ الموافق (٢٢ ايلول عام ١٩٧٦ م).

٣ - جهاده

الجهاد يكون باللسان والبيان كما يكون بالقتال والسنان، ويمكن القول ان المودودي كان قلماً مسلولاً ولساناً ممشوقاً ضد اعداء الله تعالى، فقد قضى عمره منذ نعومة أظفاره وهو يقارع قوى البغي والطغيان والاستعمار، فقد واجه الهجمة التبشيرية الاستشراقية على الهند، كما وقف في وجه القاديانية وجاهد حتى تكون باكستان جمهورية إسلامية، وواجه الدكتاتورية العسكرية والحزبية في باكستان، كما ذاد عن حياض الإسلام ودفع الكثير من الشبهات التي كان يثيرها الحاقدون ضد المسلمين، كما أوجد تياراً حركياً استطاع ان يعيد للإسلام وللمسلمين بعض قوتهم وأمجادهم في شبه القارة الهندية.

ويمكن القول ان حياة المودودي الجهادية يمكن تقسيمها إلى ثلاث مراحل:

١ - مرحلة الأعداد الذاتي: ١٩٠٣ - ١٩٢٦ م.

فنشوء المودودي في أسرة علم ودين، هيأ له أن يتربى منذ نعومة أظفاره

تربيـة إسلاميـة، ويتزود بالثقافة والمعرفة الإسلامية، وكان للهجمة الاستشراقية على الإسلام والمسلمين أثر دفع المودودي إلى الاستزادة من المعرفة حتى يستطيع ان يتصدى لأعداء الإسلام، كما ان عمله في مهنة الصحافة فرض عليه ان يكون دائم المطالعة والتعلم حتى يستطيع ان يقدم لقرائه شيئاً جديداً.

يتحدث المودودي عن تربيته فيقول:

«لقد شملني والدي بالتربية السليمة والتوجيه السديد، وكنت اتكلم باللهجة التي تروج في البيوت، وأني كلما أوردت على لساني كلمة دارجة منعني والدي من استعمالها وكان يلقي علي في الليالي حكايات الأنبياء وأحداث تاريخ الإسلام، والوقائع الشهيرة في تاريخ الهند، والحكايات التي كانت تتضمن دروساً وعبراً، ولا زلت أشعر بفائدة تلك التربية حتى اليوم، وقد صادف مرة أن ضربت طفلاً لأحد الخادمين من ابناء الحي، فجاء أبي بذلك الطفل وقال له: اضربه كما ضربك، فقد لقنتني هذه الحادثة درساً لم أنسه طول حياتي وهو ان لا اعتدي على الضعفاء كما علمني والدي منذ الصغر اللغة العربية».

ويتحدث المودودي عن مرحلة مواجهة الاستشراق والاستعمار فيقول: «لما بلغت سن الرشد وجدت القارة الهندية تعيش حركات ثورية عظيمة، فقد نهض المسلمون بعد الحرب الكونية الأولى للحافظ على الخلافة الإسلامية والدفاع عن الأماكن المقدسة، وإنقاذها من أيدي الكفار، واستعدوا للتضحية بكل نفس ونفيس في سبيل ذلك، وكان هذا الشعور دينياً محضاً حرك الأمة الإسلامية بأسرها في الهند، وصادف أن حصلت في مقاطعة البنجاب مذبحة رهيبة عرفت بمذبحة «جليانوالة» قتل فيها مئات المواطنين على أيدي الجزارين الإنجليز، وتمخض الحادث عن اشعال جذوة

العواطف وغضبة الشعبين المسلم والهندوسي ضد الإنجليز واتحدوا ضد الإنجليز، وكانت تغلب على المسلمين نزعة الحفاظ على الخلافة، وكان الهندوس يطمحون للحصول على الحكم الذاتي بقيادة حزب المؤتمر الوطني الهندي، واتفق الطرفان على زعامة غاندي، ونشأت حركة جديدة باسم حركة مقاطعة الإنجليز.

وكنت حينذاك شاباً لم أتجاوز العاشرة من عمري وكنت بحكم الطبيعة أثق بزعماء شعبي، وكنت أحمل في قلبي نفس الألم الذي كان يحمله كل مسلم في الهند على ما كانت تعاني الخلافة على علاتها من زوال وانهيار، لأنها كانت على رغم كل ذلك أملاً وحيداً لبقاء الوحدة الإسلامية، كما أن جميع الأماكن الإسلامية المقدسة أصبحت مهددة من قبل المستعمرين. فنفس الشعور دفعني إلى أن أساهم في حركة الخلافة مساهمة أصغر خادم فيها.

ولكن من عادتي اني عندما أواجه أمراً يأخذ بلبي أُحاول ادراكه تماماً، ومن جراء نفس العادة بدأت أدرس موضوع الخلافة بإمعان وخلصت إلى ان الزعامة التركية تنزع منزع القومية التركية، وتنطبع بالفكرة العلمانية التي جاء بها الشبان الأتراك المتعلمون من الغرب. وانتهت دراستي كذلك في تلك الفترة مع كل الغموض الذي كان يسود أحداث تلك الفترة وخاصة في شبه القارة الهندية، إلا أن أعداء الإسلام انشأوا كذلك جواباً على القومية التركية حركة القومية العربية ونتيجة لذلك بدلاً من أن يكون المسلمون اتراكاً وعرباً يداً واحدة في الحرب الكونية الأولى صاروا على طرفي النقيض. وما أحمق الأتراك الذين حاولوا تغيير وجهة الخلافة إلى اللادينية وحاولوا إقامة الدولة على أساس القومية التركية مع ان الدولة التي كانت تشمل القوميات العديدة من العرب والأكراد وآخرين من

المسلمين غير الأتراك كان لهم ان يكونوا على ولاء مع الخلافة الإسلامية، ولم يكن لهم ان يكونوا على ولاء مع تركيا العلمانية. وكذلك ما أجهل الزعماء العرب الذين وقعوا في مكيدة النصارى واليهود فاتخذوا القومية العربية ديدناً لهم وعاضدوا الإنجليز في الحرب، وبالتالي مكنوهم من السيطرة على البلاد العربية ومنها الأماكن المقدسة.

ولما انتهيت إلى هذه النتائج من دراساتي لتلك الأحداث ساور قلبي خوف شديد من مصير حركة الخلافة وعرفت ان الخلافة التي غامر المسلمون الهنود في سبيلها كل المغامرات ليس لها أمل ثابت. وان شعبي يثور لقضية لا يستطيع ان يتحكم فيها وهو يعيش بعيداً عنها كل البعد. ويا ترى ماذا سيكون مصير حركة الخلافة إذا جاء الأتراك اللادينيون أنفسهم ليقضوا عليها آجلاً وعاجلاً.

وعلى كل كنت في سن الشباب وعلى الرغم مما كان يساور قلبي من مخاوف لم أجد في نفسي من جرأة أن اسيء الظن في زعماء المسلمين الكبار الأفاضل وأقول: انهم لا يفهمون القضية وأنا الذي افهمها وبقيت اشارك حركة الخلافة على رغم كل تلك المخاوف.

وهكذا لما قام بين المسلمين والهندوس إتحاد، وسار المسلمون والهندوس جنباً إلى جنب لتحقيق الحكم الذاتي في الهند تناولت ذلك الموضوع كذلك بحثاً وتدقيقاً.

قرأت تاريخ حزب المؤتمر الوطني الهندي وحاولت معرفة غاياته فوجدت ان حزب المؤتمر الوطني يومئ إلى ان ينال نصيب الأسد من كل مؤسسة تقام في البلد على مبدأ المشاركة الشعبية في الحكم الذاتي. وأدركت من خلال دراساتي ان الإنجليز المستعمرين يعتبرون جميع المواطنين في الهند

شعباً واحداً. وعلى نفس الفكرة هم ينظمون جميع المؤسسات الحكومية وكان ذلك في صالح الشعب الهندوسي لأنه كان هو الأغلب، وكان الزعماء الهندوس يعتقدون أن أي نظام يقوم في الهند على مبدأ ديمقراطي فإن الهندوس هم أكثر المستفيدين منه، والمسلمون تابعون لهم خاضعين لإرادتهم.

وهذه الدراسات أدخلت في قلبي قلقاً شديداً وتساءلت نفسي، على أي شيء جاء زعماؤنا المسلمون يضعون أيديهم في أيدي الهندوس. ثم الذي زاد في قلقي ما كنت أرى في الوقت ذاته ان معظم القادة المسلمين يؤيدون قيام حكومة ديمقراطية حرة على فكرة ان جميع المواطنين في الهند شعب واحد وليس للمسلمين إلا ان ينالوا طائفة من الحقوق الدستورية.

إن ذهني لم يقبل هذه الفكرة إذ كيف يكون المسلمون وغير المسلمين شعباً واحداً وكيف لنظام قائم على أساس الديمقراطية ان يعترف بطائفة خاصة من الحقوق للمسلمين وقد فكرت كثيراً في موضوع الحقوق وعرفت انه من المحتمل ان يستفيد المسلمون من الحقوق ما بقي الإنجليز يسيطرون على الهند- أما إذا تحررت الهند من براثن الإنجليز وقامت فيها دولة مستقلة لا يكون فيها للمسلمين من الحقوق إلا الوثائق فقط ينادون الأغلبية بمراعاتها ولكن الأغلبية سوف تكون في مركز من القوة تفعل ما تشاء.

كل تلك المخاوف تحققت آخر الأمر حينما ألغى الأتراك اللادينيون الخلافة بأيديهم كما ان الإتحاد الإسلامي الهندوسي الذي بذل المسلمون في تكوينه وترويجه كل المجهود تفكك شذر مذر.

وبدأت في الهند سلسلة جديدة من القلاقل والمجازر بين المسلمين

والهندوس. وظل غاندي يوجه اللوم إلى المسلمين، ويجعلهم مسؤولين عن المجازر ولو كانوا مظلومين، ويبرئ الهندوس ولو كانوا ظالمين. الأمر الذي كشف اللثام عن حقيقة الاتحاد الإسلامي الهندوسي ومدى خطورته.

وزاد الطين بلة ما قام به الزعيم الهندوسي الشهير «شارماناند» من حركة تهنيد المسلمين «أي جعل المسلمين هندوساً» وتساءلت في نفسي، ما هو السبب يا ترى؟! لقد كان المسلمون في الماضي يقومون بالدعوة إلى الإسلام في سائر العالم. وقد بلغ بهم الانحطاط اليوم إلى ان يقوم شخص من عباد الأوثان يدعوهم إلى الديانة الهندوكية الوثنية.

وكنت فيما كنت من قلق نفسي إذا به ينشرح صدري وأدركت أن المسلمين ليسوا عبارة عن قومية. هم عبارة عن أمة عقائدية غايتها التي اخرجت لأجلها الدعوة إلى الخير وترويج المعروف وقمع المنكر. والدعوة لم تقم في الماضي عن طريق الدعاة المحترفين بل كان كل فرد من الأمة المسلمة هو داع مبلغ من واجبه أن يشهد بالحق الذي جاء به الإسلام بقوله وفعله وسلوكه ولسانه، وقد بقي المسلمون أمة داعية فتحوا البلاد والعباد بدون أن يستخدموا السيف. وها نحن معشر المسلمين في الهند يبلغ عددنا الملايين كان اجدادنا من غير المسلمين. فدخلوا في حظيرة الإسلام بفضل الدعوة الإسلامية وانطلاقاً من هذه الشعور كتبت حلقات في جريدة «الجمعية» تحت عنوان «مصدر قوة المسلم»

٢- مرحلة العمل الفردي: ١٩٢٦- ١٩٤١م.

يقولون إن الاناء إذا امتلأ فاض على غيره، وكذلك الإيمان في نفس المؤمن إذا امتلأت نفسه فلا بد أن يؤثر على من حوله، وقد رأى المودودي المسلمين ضائعين بين الانقسامات الداخلية وبين عداوة

الهندوس والإنجليز لهم، ولهذا أخذ يفكر في عمل إيجابي يعيد للمسلمين وحدتهم ويستطيع أن يحقق أهدافهم. وكانت الحرب العقائدية والفكرية بين المسلمين وبين الهندوس على أشدها، وخاصة حينما حاول الهندوس رد المسلمين عن دينهم وارجاعهم إلى الهندوسية، وفي عام ١٩٢٦م اغتال أحد الشباب المسلمين الثائرين زعيم حركة التهنيد، بعد أن ألف هذا الرجل كتاباً ذكر فيه الرسول ﷺ بكلمات نابية فقامت على أثر هذا الحادث حركة عنيفة من الهجمات على الإسلام والمسلمين إلى أن جاء غاندي أيضاً يتهم الإسلام بأنه انتشر بالسيف، وأنه دين العنف والإرهاب وجاء غيره من الزعماء الهندوس يطعنون في الإسلام ويفترون عليه افتراءات كاذبة، ويقولون: إنه دين ينافي العقل ولا يقوم على المنطق والاستدلال، وإنه دين العرب الهمج الذين كانوا يضربون عنق كل من لا يؤمن بدينهم. إلى آخر ما قيل في تلك الفترة الحرجة.

سبب تأليفه «الجهاد في الإسلام»

وفي تلك الأيام بالذات القى المغفور له محمد على الجوهر المدفون في القدس خطاباً في الجامع الكبير بمدينة «دلهي» قال فيه بصوت متهدج: ليت شخصاً من المسلمين يقوم ويفند الأفتراءات التي يوجهها الهندوس إلى الإسلام.

وكان من الذين استمعوا إلى هذا الخطاب فتى يافع لم يبلغ بعد الثالثة والعشرين من عمره وبعد أن سمع هذا النداء من أكبر زعيم مسلم في الهند عقد في نفسه العزم على القيام بهذا الواجب. وبدون أن يضيع أية لحظة من الوقت بدأ يغربل أمهات الكتب في هذا الموضوع وبدأ يطالع تاريخ الحروب عند جميع الشعوب قديماً وحديثاً، وبدأ يكتب في هذا الموضوع

حلقات متواصلة في جريدة « الجمعية » فأثارت تلك الحلقات ضجة في البلاد لأنها شدت أزر المسلمين وحطمت حجج غير المسلمين الواهية في باب الجهاد ثم صدرت الحلقات في سفر ضخم يبلغ خمسمائة صفحة من الحجم الكبير وسمي « الجهاد في الإسلام ».

وتولى السيد سليمان الندوي رحمه الله إصدار طبعته الأولى في عام ١٩٢٨م. وكان الدكتور محمد إقبال ينصح دائماً الشباب المسلمين باقتناء هذا الكتاب وعلق عليه كاتب امريكي هو جون كاكس، قائلًا: « إن هذا الكتاب يشبه في نظر الملاحظين الغربيين كتاب هتلر الشهير « كفاحي » « لأن الجهاد في الإسلام يتضمن مادة قوية لاثارة المسلمين واذكاء عواطفهم ».

نقطة تحول في حياة الإمام

وجاء هذا التأليف نقطة تحول في حياة الإمام المودودي لأنه خلال هذا التأليف استطاع أن يفهم الإسلام على تصوره الصحيح من مصادره الأصلية. يقول الإمام: « واتضح لي من خلال دراستي لموضوع الجهاد ان الإسلام لم يأت في الدنيا ليبقى الكفر يسود البشرية ويبقى المسلمون يعيشون في ظله عيشة الخانعين. بل أنزل الله هذا الدين ليكون هو الحاكم ويكون من لا يؤمن به تابعاً له، وكذلك اتضح لي أن الحكومة الإسلامية هي كذلك حكومة الهداية والدعوة، تشهد على العالم بصدق وبعطفها على الفقراء والضعفاء وبسلوكها النزيه مع خلق الله، وبتطبيقها أحكام الله، إلى أن يبرهن كل جهاز من أجهزتها من الإدارة المدنية والمحكمة والشرطة، والجيش، والسلك الدبلوماسي وما إلى ذلك على الفرق بين نظام الإسلام ونظام الكفر، وبين معطيات الإسلام للبشرية ومعطيات الكفر

لها. وعلى هذا تكون الحكومة الإسلامية حكومة عقائدية غايتها الرئيسية وشغلها الشاغل إعلاء كلمة الله في الأرض وقد فرض الجهاد على المؤمنين لتغليب الإسلام على الكفر ».

وهكذا تنتهي المرحلة الثانية من حياة الإمام المودودي بعد أن تعرف الإمام على غاية الإسلام ودور المسلم في الحياة.

٣- مرحلة استعداده للدعوة ثم البدء بها

أصبح الإمام المودودي الآن يعيش في جو جديد من التفكير جواً قض عليه مضجعه وأقلق باله، وجعله يشعر بالغرابة في محيط بلده الشاسع- ترك الصحافة بنهجها السائد لأنه تعرف الآن على أمر جديد. أمر ذي بال، أمر بعث الله لأجله الأنبياء والرسل، وأنزل الكتب، وبعث محمد بن عبد الله ﷺ وختم به النبوة، وأخرج أمة سماها خير أمة أخرجت للناس وجعلها أمة وسطاً لتكون شاهدة على الناس بالحق. يقول الإمام المودودي:

« إن كتاب (الجهاد في الإسلام) نفعني أكثر من أي شخص آخر: دخلت في تأليفه وكنت على حمية القومية وخرجت منه وأنا على حمية الإسلام وعرفت الإسلام وعرفت طريقة إحيائه، وقررت أن لا أدخل عالم الصحافة في المستقبل إلا لكي أجعلها وسيلة لخدمة الإسلام وإحيائه ».

ترك الإمام المودودي الصحافة وغادر دلهي إلى حيدر آباد الدكن واشتغل بأعمال بسيطة يعيش عليها ثم يقضي معظم أوقاته في المطالعة. يقول الإمام عن مطالعته: « أفرغت من عام ١٩٢٩ م إلى عام ١٩٣٢ م العديد من خزانات الكتب والمراجع في ذهني استعداداً للمهمة الجديدة. مهمة الدعوة إلى الإسلام في عصر مليء بالأفكار والتيارات، عصر يفرض على الداعية

أن يتزود بزاد علمي شامل وأن يحظى بعصا من البرهان يتوكأ عليها ويهش بها على غنمه ويحقق بها مآرب أخرى ».

خروجه من العزلة إلى الميدان

وخرج الإمام من عزلته ومعه زاد العلم والتقوى وعصا الحجة والبرهان، وتولى إدارة مجلة « ترجمان القرآن » في عام ١٩٣٣ م، وبدأ يقدم فيها دعوته ورسالته بعزم جديد وأسلوب فريد، يوقظ الضمائر ويحرك السواكن. وافتتح العدد الأول من تلك المجلة بكلمة الإمام التالية:

« إن هذه المجلة تضع اليوم قدمها في طريق محفوف بالمصائب والمحن وتولى عبئها رجل لا يعترف اعتراف المجاملة بل اعتراف الحقيقة بأنه ضعيف فاقد القيمة صفر اليدين ولكنه على رغم وعورة الطريق استعد لحمل هذا العبء على يقين واضح بأن الله الذي نور قلبه بالإسلام، وخلق في نفسه حب الدعوة إليه هو الذي سوف يؤازره بنصر من عنده، ويمنحه الرسوخ في العلم، والصحة في الفكر، والسلامة في القلب، والطهارة في النفس والسمو في الروح ».

مجلة ترجمان القرآن

وكان الإمام المودودي هو الوحيد في إدارة المجلة، هو وحده الذي كان يكتب الافتتاحيات والمقالات والمساجلات والردود على الأسئلة الواردة، وهو الذي كان يذهب إلى المطابع لطبعها، ويراجع البروفات، ويربط الطرود ويلصق الطوابع على الطرود، وهو وحده كان يحمل الطرود إلى البريد، وهو وحده كان يسجل العناوين ويراسل المشتركين. وكانت الدعوة في مرحلتها البدائية عبارة عن كائنين: المودودي والمجلة

ويقول الإمام المودودي: « إنه كان يصلي صلاة العشاء ويجلس للمطالعة والكتابة إلى أن يصلي صلاة الفجر في مسجد الحي، ثم ينام سويعات ليعود إليه النشاط ويعود إلى عمله في المكتب ». وكان يعاني الإمام في تلك الأيام من ضيق ذات اليد إلى حد انه كان تأتي عليه أيام لا يأكل شيئاً. وفي أغلب الأحيان كان يعيش على الأسودين: العدس والماء.

وكان غلاف المجلة في جميع أعدادها مكللًا بالعبارة التالية: إن هذه المجلة فريدة في نوعها في أنحاء شبه القارة الهندية. وغايتها الوحيدة إعلاء كلمة الله والدعوة إلى الجهاد في سبيل الله، ومهمتها الأصلية هي نقد الأفكار الحديثة، ومبادئ الحضارة والمدنية السائدة بمحك القرآن، ثم عرض المبادئ التي جاء بها كتاب الله وسنة رسوله في كل مجال من مجالات الفلسفة والعلم والسياسة والاقتصاد والمدنية والاجتماع، وتطبيق تلك المبادئ على ظروف العصر الحاضر. إن هذه المجلة تدعو الأمة المسلمة إلى حياة جديدة. وخلاصة دعوتها أيها الناس اجعلوا قلوبكم وأذهانكم مسلمة خاضعة لله وتخلوا عن نظام الجاهلية، واسلكوا صراط الله المستقيم وخذوا كتاب الله بالقوة لتكونوا سادة العلم وأئمة الحضارات.

ابتعاده عن المغريات

وكان يطبع من المجلة في البداية ستمائة نسخة فقط توزع منها ثلاثمائة نسخة على المشتركين. وأما الثلاثمائة الباقية فكانت إدارة الشئون الدينية بولاية حيدر أباد الدكن تشتريها. وبعد مدة قليلة امتنعت إدارة الشئون الدينية عن شرائها. ودخلت المجلة بصاحبها في وضع حالك. وقيل للإمام المودودي إن مدير إدارة الشئون الدينية يرغب في أن تزوره وتقدم له الطلب بإعادة شراء المجلة. ولكن الأستاذ رد عليه قائلًا: أتحمل المتاعب

ولا أريق ماء وجه الدعوة على عتبات أهل الدنيا.

ثم وصل الإمام المودودي عرض آخر من رئيس وزراء الدولة الدكنية: السيد أكبر حيدري بواسطة عالم من أكبر علماء الهند الشيخ مناظر الأحسن الكيلاني، ومضمونه إن الحكومة مستعدة لتعيين المودودي استاذاً في الكلية العثمانية مقابل راتب شهري مرموق: ثمانمائة وخمسين روبية. وكان يعتبر ذلك المبلغ شيئاً عظيماً في الثلث الأول من القرن الميلادي الحاضر. ولكن الإمام رفض هذا العرض مشكوراً وقال «لا تباع الدعوة ولا يساوم على الإسلام» ويقول شقيق الإمام المودودي أبو الخير المودودي: «إنه بدوره أيضاً حاول اقناع أبو الأعلى لقبول ذلك العرض الهائل والتخلص من ضيق العيش ولكن بدون جدوى».

واصل الشاب المودودي عمله بصبر وعناء وكان الرائي يراه في ثياب بالية وعلى رأسه طربوش تركي: جالساً في مكتبة الضيق الأرجاء أو ذاهباً إلى مسجد الحي يناجي فيه ربه ويطلب منه المزيد من التوفيق ويجدد عهده لمتابعة الجهد،أو متقلباً بين الكتب من أمهات التفاسير والأحاديث والفقه والتاريخ الإسلامي إلى الموضوعات العصرية والمجلات والجرائد الإنجليزية العالمية، إذا وجد ما يأكل شكر وإذا لم يجد صبر.

وكان شقيقه الأكبر أبو الخير المودودي يسدي له نصائح وتوجيهات للتخلص من هذا الوضع الغريب ويلجأ لذلك إلى كل حيلة ويستخدم معه كل حجة. ويقول له: «يا أبا الأعلى لقد رأيت المسلمين وجربتهم. وشاهدت بأم عينك مصير محمد علي الجوهر زعيم حركة الخلافة. كما رأيت محمد علي جناح. فالأول لا ينقصه إخلاص وصدق وكفاءة ولكنه ما دام لا يملك شيئاً من المال ولتحقيق المشاريع الوطنية يناشد المسلمين دائماً لجمع

التبرعات صار المسلمون يتذمرون منه ويصفونه بـ(شيخ التبرعات). بينما محمد علي جناح لا يحتاج إلى المال لمصاريفه الشخصية فلا يشك المسلمون في نيته. ويلبون كل ما يدعو إليه. وأنت جيبك أفرغ من فؤاد أم موسى، ومهما بذلت من جهد بصدق وإخلاص يظن فيك الناس الظنون ويقولون: يريد الرجل تحقيق مصلحته الشخصية ولكنه مستتر بالدين. فعليك أولاً أن تجمع من المال ما يكفيك ثم تفعل ما تحب وترضى».

وبقي أبو الأعلى المودودي يصغي إلى ما يقوله شقيقه الأكبر ثم رد عليه: بصوت رخيم «لقد اضطربت الظروف في بلدي وأحاطت بشعبي الأخطار الجسيمة. كأني أرى رأي العين سيلاً زاحفاً نحو شعبي أكثر تدميراً وأشد خطراً من ذلك السيل الذي أصيب به المسلمون في القرن الماضي في عام ١٨٥٧م، حينما كان الأستعمار الإنجليزي يأتي على كل شيء من الدين والحرية فيتركه هشيماً تذروه الرياح، ومن مسؤوليتي أن أنبه المسلمين إلى هذا الخطر الداهم قبل أوانه. وسوف أبذل لذلك ما أملك من النفس والمهجة. ولا أحب أن أضيع من لحظاتي ولو دقيقة واحدة. وأستيقن كل الاستيقان بأن الله عز وجل لا يضيعني ولا يخيب أملي إذا خلصت نيتي وصدقت عزيمتي. وأفوض أمري إلى الله. والله رؤوف بالعباد».

وتابع الإمام المودودي إصدار المجلة من ١٩٣٢م إلى آخر لحظات حياته. اللهم إلا فترات قليلة صادرتها فيها الحكومات. ونشر الإمام المودودي في صفحات المجلة حتى عام ١٩٤١م «عام تكوّن الجماعة» أفكاراً وبحوثاً شملت جميع جوانب الإسلام المهمة، كما أنها شملت النقد العملي الشجاع للحضارة الغربية بأفكارها المادية وتصوراتها المنحرفة. وإلقاء نظرة عابرة على بحوث الإمام الصادرة في تلك الفترة يوضح لنا مدى شموها وسعتها.

ففي عام ١٩٣٣م أصدر كتابه الحضارة الإسلامية- أصولها ومبادئها. وفيما بين عام ١٩٣٣م وعام ١٩٣٧م أصدر كتبه نحن والحضارة الغربية، الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة، مفاهيم إسلامية حول الدين والدولة، في محكمة العقل، الرسول والرسالة.

وفي عام ١٩٣٥م أصدر حقوق الزوجين، وتحديد النسل في ميزان النقد. وفي عام ١٩٣٦م ١٩٣٧م أصدر مبادئ الإسلام، وأسس الاقتصاد بين الإسلام والنظم المعاصرة، والحجاب.

وفي عام ١٩٣٨م أصدر: الخطب «الإسلام كما جاء به الرسول ﷺ».

وفي عام ١٩٣٩م أصدر: نظرة الإسلام السياسية، ونظرة فاحصة على العبادات الإسلامية.

وفي عام ١٩٤٠م أصدر: موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه، ومنهاج الانقلاب الإسلامي.

وفي عام ١٩٤١م أصدر كتابه: المصطلحات الأربعة في القرآن، والإسلام والجاهلية، ومنهج جديد للتعليم والتربية، ومعضلات الإنسان الاقتصادية وحلها في الإسلام.

وأحب أن أشير بصفة خاصة إلى كتاب صدر عن الإمام في هذه الفترة وهو «مبادئ الإسلام» ترجم هذا الكتاب إلى أكثر من ثلاثين لغة في العالم، واهتدى به الكثيرون إلى الإسلام وصدرت منه الملايين من النسخ ووردت المؤلف رحمه الله آلاف من الرسائل من الذين قرأوا هذا الكتاب فخرجوا من ظلمات الكفر إلى نور الإسلام ونال الكتاب رواجاً عظيماً لدى الغربيين بصفة خاصة.

يقول الإمام: « لم أقصد أصدار بحوث علمية في المواضيع الإسلامية فقط، بل استهدفت من ذلك أن يؤمن الإنسان العصري بالإسلام بالشعور والقناعة لا بالشعور والعاطفة ثم يندفع تلقائياً إلى إقامته وتعليمه، ويستميت في سبيل تنكيس كلمة الباطل ورفع كلمة الحق، وفي سبيل استئصال امامة الكفر ونصب امامة الإسلام ».

بين الإمام المودودي ومحمد إقبال

وكان من المعنيين بمجلة الإمام المودودي ودعوته الفريدة الدكتور محمد إقبال رحمه الله، وكان يقول عن المودودي:

« إن هذا الشيخ يعرض دين الرسول ﷺ بقلم مؤيد من الرسول ﷺ إن شاء الله ». وكان اقبال بدوره أيضاً يستجيش روح الجهاد في الجيل الجديد، بأشعاره الرائعة وخطبه الحماسية، وبحوثه العلمية.

ووجه اقبال الدعوة إلى الإمام المودودي عن طريق أحد أصدقائه لمقابلته. فحضر الإمام المودودي إلى مدينة لاهور. وقابل محمد إقبال وجرى بينه وبين إقبال ثلاثة لقاءات متتالية. يقول عنها الإمام المودودي:

كان بيني وبين إقبال انسجام كبير في الآراء. والمخطط الذي كان في ذهني نفس المخطط الذي كان في ذهن إقبال. وكان المخطط يتركز على أمرين رئيسيين: بيان أوجه النظام الإسلامي بأسلوب علمي، وإعداد الرجال الذين يصلحون لقيادة المسلمين فكرياً وعملياً.

هجرة الإمام إلى بنجاب بدعوة من إقبال

واقترح محمد إقبال أن يهاجر الإمام المودودي من حيدر آباد إلى

بنجاب: مهد جميع الحركات والدعوات. فوافق الإمام على هذا الاقتراح وألقى عصاه في شهر مارس عام ١٩٣٨م في قرية صغيرة من قرى بنجاب بعيدة عن جمال العمران وضوضاء الحياة، وعن كل ما يمت إلى الحياة المدنية الجديدة بصلة. وقف أرض القرية صديق لمحمد إقبال على خدمة الإسلام. وسميت تلك القرية بدار الإسلام. ولم يمض على نزول الإمام في تلك القرية إلا شهر ونصف حتى بلغته وفاة محمد إقبال رحمه الله. وكتب الإمام المودودي حول هذا الحادث كلمة قصيرة قال فيها: « فقدت أكبر سند لي في الدنيا بموت هذا الرجل العظيم ».

نزل الإمام المودودي في قرية « دار الإسلام » في ١٨ مارس ١٩٣٨م، وارتحل منها إلى لاهور بعد حوالي ثلاثة أشهر لما حصل بينه وبين صاحب الوقف من خلاف حول غايات هذا الوقف. وقد علم بوجود الإمام في لاهور القائمون على كلية « حماية الإسلام » بلاهور التي كانت تعتبر أول مؤسسة تعليمية عصرية تسير تحت عناية المسلمين فعرضوا على الإمام أن يكون محاضراً في الكلية فقبل ذلك العرض ولكن كمحاضرات شرف. ولم يأخذ على عمله ولا شيئاً يسيراً وبقي سنة كاملة يلقي المحاضرات في الكلية عن الإسلام ودعوته.

جولات الإمام في مختلف المدن

وفي تلك الفترة بالذات ألقى الإمام محاضرات عديدة صغيرة الحجم كبيرة المعنى في العديد من المدن. والمحاضرات هي: « الجهاد في سبيل الله » « في قاعة بلدية لاهور في ابريل ٩/ ٣/ ١٩م » و« نظرية الإسلام السياسية » « في اجتماع مجلس الأخوة الإسلامية للطلبة الجامعيين بلاهور في اكتوبر ١٩٣٩م »، و« منهاج الإنقلاب الإسلامي » « في جامعة عليكرة في

سبتمبر عام ١٩٤٠م »، و« معضلات الإنسان الاقتصادية وحلها في الإسلام » « في جامعة عليكرة أيضاً في عام ١٩٤١م » و« منهج جديد للتربية والتعليم » « في دار العلوم لندوة العلماء في ديسمبر ١٩٤٠م » و« الإسلام والجاهلية » « في مجلس الدراسات الإسلامية بالكلية الإسلامية في بشاور في فبراير ١٩٤١م ». وهكذا ظل الإمام في حركة دائبة يخاطب الجيل الجديد من المثقفين ليكون منهم جيلاً إسلامياً يتحمل أعباء الدعوة الإسلامية في شبه القارة الهندية: يخاطب المسلمين من خلال مجلته الشهيرة ودروسه في الكلية ومحاضراته في المجتمعات والجامعات.

٣- مرحلة العمل الجماعي الحركي

يمكن القول إن المرحلتين السابقتين كانتا ضروريتين لهذه المرحلة، ففي الأولى كان الإعداد الذاتي للمودودي الذي شكل عقيدته وقوم حماسه واندفاعه، ووجهه الوجهة الإسلامية الصحيحة. وفي المرحلة الثانية بدأ الاحتكاك الفعلي لأفكار المودودي مع البيئة المحيطة، وينتج عادة من هذا الاحتكاك نوع من الواقعية والنضوج نظراً لمواجهة التيارات المعارضة ومسايرة المؤيدة. كما نتج عن المرحلتين السابقتين نوع من التقعيد والتنظير لأفكار المودودي ومبادئه، لكثرة المؤلفات التي أصدرها والتي شكلت القاعدة العقائدية والفكرية والحركية للمرحلة الثالثة، كما ان عمل المودودي في الصحافة واختلاطه بزعماء الهند جعله شخصية معروفة لها مكانتها العلمية عند الآخرين. ومن الطبيعي ان رجلاً نذر نفسه وقلمه وجهده لدعوة الله أن يكون المحور الذي تتجمع حوله الجهود التي تقتنع بهذا الطريق وتطمح ان تبذل جهودها لتحقيق أهدافه.

وقد آتت هذه الجهود ثمارها حينما اجتمع بدعوة من المودودي خمسة

وسبعون رجلًا من المتحمسين لفكرته في لاهور ليدرسوا انشاء «الجماعة الإسلامية»، وذلك في صباح اليوم الرابع والعشرين من شهر أغسطس عام ١٩٤١ م، واتفق المجتمعون على انتخاب المودودي أميراً لها وذلك في الثاني من شهر شعبان ١٣٦٠ هـ، الموافق (٢٦ آب ١٩٤١ م). ومنذ هذا الاجتماع الأول حددت الجماعة أهدافها وعقيدتها ووسائلها: فهدف الجماعة إقامة النظام الإسلامي وكسب مرضاة الله تعالى، أما عقيدة الجماعة فتتلخص فيما تحمله عبارة التوحيد «لا إله إلا الله محمد رسول الله» والمراد من الجزء الأول من هذه العبارة ان الله واحد لا إله غيره ولا معبود سواه، وان كل ما في السموات والأرض ملك له لأنه سبحانه خالقها وحاكمها، وان الحاكمية في الأرض لله وحده، ولهذا أدى المودودي ومن تابعه كلمة الشهادة من جديد وأعلنوا انضمامهم للجماعة الجديدة. وأما وسائل الجماعة لتحقيق هذه الغاية فتنحصر في:

١ - تطهير الأفكار والعقائد وتعهدها بالغرس والتنمية.
٢ - استخلاص الأفراد الصالحين وجمعهم في نظام واحد وتربيتهم.
٣ - السعي إلى الإصلاح الاجتماعي ويشمل كل طبقات المجتمع.
٤ - إصلاح الحكم والإدارة وذلك بالانتخابات الحرة النزيهة بحيث لا يصل إلى الحكم إلا الأشخاص الذين تثق بهم الأمة.

وبعد عشرة شهور نقل مركز الجماعة من لاهور إلى قرية دار السلام وانتقل إليها المودودي أيضاً. وأهم المنطلقات الفكرية والعقائدية لدعوة الجماعة الإسلامية:

١ - الربانية: بأنها دعوة سلفية أتباعها متبعون وليسوا مبتدعين، وأساسها كتاب الله وسنة نبيه ﷺ. وغايتها مرضاة الله تعالى بالانصياع لما أمر والانتهاء عما نهى عنه وزجر.

٢- **الشمول**: وهي المطالبة بتطبيق الإسلام بشكل كامل شامل كعقيدة وشريعة ودين ودولة وإنه لا فرق بين الدين والسياسة في عرف الإسلام.

٣- **العالمية**: فهي دعوة لا تخص أمة دون أمة ولا جنساً دون جنس ولكنها دعوة للناس كافة. يقول المودودي: «دعوتنا لكل من أظهر الرضى بالإسلام ديناً إن يخلصوا دينهم لله ويزكوا أنفسهم من شوائب النفاق وأعمالهم من التناقض. ودعوتنا لأهل الأرض أن يحدثوا انقلاباً عاماً في أصول الحكم الحاضر الذي استبد به الطاغوت، وان ينتزعوا الإمامة الفكرية والعملية من أيديهم.

٤- **الاهتمام بالقضايا الوطنية**: بأن تتبنى الجماعة المطالب الشعبية الوطنية من الاستقلال والحرية والديمقراطية، يقول المودودي: «إن الجماعة الإسلامية ليست جماعة تستهدف القومية أو الوطنية ولا تقتصر دعوتها على أمة بعينها ووطن بعينه بل الدعوة التي ترفعها عالمية الأهداف، غير ان الجماعة تؤمن اننا معشر المسلمين في باكستان ما دمنا لا نجعل بلادنا مثالاً حياً للنظام الإسلامي، فإننا لا نقدر على اقناع الدنيا بسلامة هذه العقيدة».

٥- **تبني القضايا الاجتماعية والاقتصادية**: وذلك بمحاربة النقيضين الترف والفقر، والحرص على ثروات الأمة والتحرر من التبعية الاقتصادية للشرق أو للغرب، وأن يحاربوا المذاهب الغربية المادية لأن في إسلامهم ما يصلح لهم ويصلح من شأنهم. والجماعة تقر الملكية الفردية إلا أنها تقيدها لتصبح وسيلة لخدمة المجتمع.

وقد توفي المودودي بعد أن ترك تراثاً فكرياً في مختلف العلوم

والفنون الإسلامية السياسية والقانون والتربية والاقتصاد والاجتماع والأخلاق والتاريخ وغيرها، تجاوزت المئة مؤلف جرت ترجمة بعضها إلى أربعين لغة حية وصدر من بعضها العديد من الطبعات ولعل أبرزها كتابه «تفهيم القرآن» وفيه يفسر المؤلف القرآن الكريم تفسيراً متكاملاً شاملاً وهو يقع في ستة مجلدات ضخمة. كما ترك المودودي رحمه الله حركة إسلامية متكاملة الكيان لها أهداف محددة وتعمل للإسلام بشكل حركي منظم وتقدم لباكستان خاصة والعالم الإسلامي أجل الخدمات.

رحم الله المودودي وأسكنه فسيح جناته.

المصادر

١ – كتيب (الجماعة الإسلامية في باكستان) صادر عن دار العروبة للدعوة الإسلامية في لاهور، باكستان.
٢ – البيان الإنتخابي للجماعة الإسلامية في باكستان.
٣ – مجلة (الأمان) العدد ٣٥، ٧ ذي القعدة ١٣٩٩.
٤ – صحيفة (الدعوة) الهندية السنة السادسة العددين ١٠، ١١ تاريخ ١ / ٦، ١٥ / ٦ / ١٩٨١م.
٥ – كتيب صدر عام ١٤٠٠ عن دار الحديث الشريف في القدس فيه بعض ما قيل في تأبين المرحوم المودودي.
٦ – مجلة (الأمة) الأعداد ٩، ١٠، ١١، لعام ١٤٠١ هـ.

ثورة الإمام شامل

١ - الموقع والسكان

يسكن « الجركس » في آسيا في البلاد الممتدة من نهر الدون وكل البلاد الواقعة على سواحل البحر الأسود وبمسافة لا تقل عن خمسمائة ميل. وتسمى هذه المنطقة « القوقاز ». وهي تنقسم إلى قسمين:

أ- **القسم الجنوبي**: وهو ما يعرف بأذربيجان، ويشمل الجزء الشرقي من جنوب القوقاز وعاصمتها « باكو » ويبلغ تعدادها حوالى أربعة ملايين نسمة. وقد حصلت هذه البلاد على استقلالها وأصبحت جمهورية مستقلة عن الامبراطورية القيصرية في ٢٨ مايو ١٩٢٨ ولكنها لم تنعم باستقلالها طويلاً، إذ حينما ثبتت الثورة الشيوعية في روسيا اقدامها، قامت في ٢٧ أبريل ١٩٢٠ بغزو مفاجىء على هذه الدول، سقطت على أثره ورجعت تحت السيطرة الشيوعية، وقام الشيوعيون بترحيل قبائل هذه الدولة إلى معسكرات الاعتقال في القطب الشمالي وسيبيريا، وأسكنوا مكانهم المهاجرين الروس.

ب- **القسم الشمالي**: ويحده شرقاً بحر قزوين « الخزر » وغرباً البحر الأسود وشمالاً خط مانيتش وجنوباً سلسلة جبال القوقاز، ويعرف الجزء الشرقي منها بـ« داغستان » أما الوسط فيشمل « شيشان، أوسيت،

قيرطاي، بلقار، فاراجاي » وأما الجزء الغربي فيعرف « بشركستان » أو بلاد الشركس وهذه البلاد متعددة اللغات، ففيها العديد من اللغات المحلية ومنها من يتكلم بالفارسية وسكان السواحل يتكلمون التركية، أما لغة العلم في جبال داغستان فهي اللغة العربية وبها تتم المراسلات، وقد بقيت هذه البلاد على هذا الوضع حتى سقطت بأيدي الشيوعيين في نهاية الحرب العالمية الأولى.

وفي هذه البلاد نشأ المغفور له الإمام محمد شامل، والذي كان يطلق عليه لقب أسد داغستان، لما عرف عنه من صلابة في العقيدة وشجاعة نادرة.

٢ - القوقاز والإسلام

أغار عياض بن غنم على بلاد القفقاس عام ٨١ هـ، وفتحها سراقة بن عمرو، وكان على مقدمة جيشه عبد الرحمن بن ربيعة، وعلى الجيش الثاني الذي توجه إلى الداخل حبيب بن مسلمة وكان ذلك عام ٢٢ هـ، ثم فتح المسلمون داغستان سنة « ١٠٥ »هـ في أيام الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، ثم جاء أخوه مسلمة بن عبد الملك فوطد دعائم الحكم الإسلامي في تلك الديار وأطلق عليها اسم « الدربند » ومنها انتشر الإسلام في الأقطار المجاورة، وكان أهلها قبل الإسلام وثنيين ونصارى ويهود، وكان يسكن هذه المنطقة شعوب صغيرة تعرف باسم « اللزقيين » أو « اللاز » ولما اجتاح المغول بلادهم تحولوا نهائياً إلى الإسلام، ولما أغار تيمورلنك على داغستان عام ١٣٩٥م كان أشهر القبائل فيها قبيلة « الفايتاق » وقبيلة « القومق ». وكان القومق من أشد أنصار الإسلام بأساً وأكثرهم حماسة لنشر دعوة الإسلام، وقد استولى الأتراك العثمانيون على داغستان عام

١٥٧٨ م غير أن حكمهم لم يستمر طويلاً، ويدّعي أكثر أشراف داغستان أنهم من أصل عربي، وأن أجدادهم جاءوا إلى هذه الديار مع مسلمة بن عبد الملك، وهم يعتزون بأصلهم العربي الإسلامي.

ويرجع الفضل في انتشار الإسلام في بلاد القوقاز إلى الله تعالى ثم إلى الإمام شامل، فلما استطاع أن يسيطر على القوقاز أرسل عام ١٨٤٢ أحد نوابه ويدعى « الحاج محمد »، فأخذ يدعو الناس إلى الإسلام ويرغبهم فيه ويبنى المساجد ويعين الأئمة، ثم أخذ يحرض من آمن منهم على الجهاد في سبيل الله، ومنذ ذلك الحين أخذ الجركس يدركون أن معركتهم مع الروس معركة عقائدية، وأخذوا يلقبونهم بـ« كاوور » ومعناها الكفار، ولما مات الحاج محمد عين الإمام شامل نائباً آخر يدعى « الحاج سليمان »، فأسس جماعة من الروحانيين المحاربين، وأخذ يعمل على نشر الإسلام، ويقضي بين الناس بأحكام القرآن، فأنشأ المحاكم، وألف جيش المرتزقة « الدرك » وبقي على خطة سلفه يدعو الناس للجهاد في سبيل الله.

وفي عام ١٨٤٦ عين الإمام شامل نائباً آخر له في بلاد داغستان اسمه « محمد أمين » فكان من الاتقياء والعلماء والأفذاذ، فأسلم على يديه الكثير من الأمراء والنبلاء، أما عامة الناس فقد تأخروا في إشهار إسلامهم، حتى يروا حقيقة هذا الدين عملياً. وأخذ « محمد أمين » يدعو الشعب إلى المساواة واسترداد حقوقه وأنه لايجب لأي مسلم أن يهضم حقوق الآخرين مهما علت منزلته، فحاربه الأمراء والنبلاء، فتصدى لهم بالقوة وهزمهم وأجبرهم على الفرار، وقسم أموالهم على الفقراء، فأخذ الناس يدخلون في دين الله أفواجاً. فنظم البلاد من الناحية الإدارية وأوجد فيها محاكم تحكم بالقرآن كما نظم الجيش. فقسم البلاد إلى ثلاث عشرة مقاطعة في كل منها

محكمة، وجعل المراكز الهامة بأيدي الأكفاء المعروفين بالصدق والأمانة والاستعداد للتضحية والجهاد.

كان الإمام شامل ونوابه وأتباعه يتبعون الطريقة «المريدية» وهي حركة دينية أسسها «الغازي مولا محمد» الذي أطلق عليه الروس «قاضي ملا» من «ياراخ» جنوب داغستان، وكان الغازي واسع العلم في العلوم الإسلامية وذا سيرة حسنة في قومه ومن المتمكنين في اللغة العربية، وكان هذا الشيخ من علماء الطريقة «النقشبندية» وهي إحدى الطرق الصوفية، وقد أنشأ الغازي حركة «المريدية» لجمع كلمة المسلمين الذين تفرقوا إلى أهل السنة والشيعة، كما أنه أدرك أن روسيا تحارب المسلمين حرباً صليبية تحت راية «الأرثوذكسية» وأدرك أن الطريقة النقشبندية بصوفيتها لن تستطيع أن تتصدى لهؤلاء الصليبيين، ولهذا أقام حركته على أساسين اثنين:

الأول: إلغاء التفرقة بين السنة والشيعة وتوحيد هذين المذهبين تحت راية «المريدية».

ثانياً: إن الجهاد في سبيل الله هو الطريق الوحيد للتصدي لروسيا الصليبية.

ولهذا وقف في عام ١٨٢٤ خطيباً في الناس ومما قال لهم: «إن جميع أعمالكم الصالحة وقيامكم بالشعائر الدينية لا فائدة منها ولن يتقبلها الله، ما دام المستعمر الروسي سيد البلاد وصاحب الأمر والنهي فيها». وأعلن الجهاد في سبيل الله وقال «إن من يريد الآخرة يجب عليه أن يستغني عن ملاذ الدنيا، وأن لا تؤخره امرأته وأولاده وأمواله عن الجهاد في سبيل الله، ويجب على المؤمنين أن يتسلحوا ويعدوا العدة بانتظار الساعة المناسبة».

وقال للمسلمين في موقع آخر «إن مساجدكم فقدت حرمتها، لأن الكافر الروسي ينظر إليها بأعين وقحة، وخير لكم أن تهدموها على أنفسكم وتدفنوا معكم أولئك الأعداء. وكل حجر تقتلون به روسيًّا سوف يصبح تمثالاً للحرية ومعبداً لتمجيد الله تعالى.

وقد أرسل رسلًا إلى الأمراء والزعماء ليقولوا لهم:

«لقد دنت الساعة الرهيبة، واليوم هو يوم النصر أو الموت، ومن يضحي في سبيل الله له الجنة في الآخرة، ومن ينصره الله منكم فله الحرية في هذه الدنيا، ومالكم الآن إلا الحرية أو الموت، فماذا تنتظرون».

وقال للمسلمين في موقع آخر:

«إن السلوك بمقتضى الشريعة وحده لايضع الأمور في نصابها، إذا لم يدعم ذلك عزيمة صادقة تطرد الروس من البلاد».

أقبل المريدون- «والمريد» يعني المجتهد الذي يريد أن يجد طريق الحلال»- ينضوون تحت لواء الغازي محمد، وكثر عددهم حتى شملت صيحة الجهاد كل البلاد، وكان شعارها «الموت للروس» وأخذ الغازي يطوف بالبلاد حتى دانت له معظم داغستان، فاتخذ من مدينة «كيميري» عاصمة له، وأخذ يحارب الأمراء المحليين والروس على حد سواء، ولما كان الروس أكبر عدداً وأفضل عدة من جيش المريدين، فقد هاجموا الغازي في عدة معارك كانت سجالاً بينهم وبينه حتى هزموه أخيراً واضطروه هو وأحد قادته «شامل» إلى التحصن في بلدة كيميري مسقط رأسه؛ ورغم أنهم دافعوا عن المدينة دفاع المستميت إلا أنها سقطت في النهاية بأيدي الروس، وكان بين ضحايا هذه المعركة جثة رجل يشير بيده اليمنى إلى السماء وباليسرى يمسك بلحيته، فعرفه قومه وعلموا أنه

الغازي محمد، فقد قضي نحبه وهو ينازل الروس ومضى شهيداً في سبيل الله تعالى، وكان ذلك في ٢٩ أكتوبر ١٨٣٢م.

٣- العداء المستحكم بين الروس والقوقاز

طمع الروس في الاستيلاء على داغستان منذ نهاية القرن السادس عشر الميلادي، غير أنهم فشلوا في تحقيق أطماعهم، ومنذ عهد القيصر الروسي «إيفان» «١٥٣٣ - ١٥٨٤» وجه جيوشه عام ١٥٥٢م إلى مدينة «قازان» عاصمة الدولة التترية المسلمة حيث احتلها وقضى على تلك الدولة، ولكنه لم يستطع أن يستولي على داغستان، ولكن الروس عادوا فهاجموا داغستان عام ١٦٠٤م؛ وفشلوا أيضاً، وقد استولى على هذه البلاد الأتراك العثمانيون عام ١٥٧٨م فانضوت تحت لواء الدولة الإسلامية، وفي عام ١٧٢٢م احتل بطرس الأكبر «الأربند» وقزوين بكاملها إلا أن «نادر شاه» حاكم بلاد الفرس استردها من الروس، ولما ضعفت المملكة الفارسية بعد نادر شاه زحف الروس على القوقاز واستولوا عليها عام ١٧٨٤م، ولما استولى «القاجاريون» على بلاد فارس حاولوا استردادها إلا أن الروس انتصروا عليهم عام ١٨٠٦م، وفرضوا سيطرتهم على داغستان، وفي عام ١٨١٣م تنازل الفرس للروس عن كل حق لهم في هذا الإقليم.

شعر القوقاز بأن مسئولية تحرير بلادهم تقع على عاتقهم أنفسهم، فتحالف الأمراء المحليون واشتبكوا مع الروس في معارك دامية، إلا أن تفوق الروس في العدد والعدة جعل هؤلاء الأمراء يستسلمون للروس، كذلك في عام ١٨٢٨م، وقد جعلت روسيا حكاماً عسكريين بجانب الأمراء، وكان هؤلاء هم الحكام الحقيقيين للبلاد.

ولما رأى شعب داغستان فشل الأمراء في تحرير بلادهم، وأنهم أصبحوا

ألعوبة بيد الروس تولى علماؤهم وشيوخهم مقارعة الروس، وكان منهم كما أسلفنا « الغازي محمد » فلما استشهد خلفه « حمزة بك » فلما استشهد تولى زعامة الثورة الشيخ « محمد شامل » الذي انتخب إماماً لحركة المريدين وقائداً للبلاد، وقد بايعه المريدون في مسجد « اشيلتا ».

٤ - الإمام شامل

ولد الإمام شامل في قرية « كيميري » عام ١٣٩٦ هـ الموافق ١٧٩٥ م، من أبوين شريفين ربياه على الفضائل منذ نعومة أظفاره، وقد تلقى العلوم الإسلامية الأولية وشيئاً من اللغة العربية، على يد رائد المجاهدين في ذلك الوقت « الغازي محمد »، فأحب الفروسية والجهاد في سبيل الله، ولهذا لما قامت « المريدية » كان من أول أنصارها كما كان قائداً ومرافقاً للغازي حتى وفاته في كيميري، ويروى أنه بعد عام ١٨٣٠ بمدة قصيرة توجه شامل إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج، والتقى هناك بالمجاهد الكبير الأمير عبد القادر الجزائري، وتعاهدا على الجهاد لإعلاء كلمة الله كل في بلده، فكان عبد القادر يقارع الفرنسيين الصليبيين في الجزائر، كما بدأ شامل بمقارعة الروس الصليبيين في بلاد القفقاس.

بالرغم أن شامل خرج من المشيخة إلى الامارة، ولم يدرس في أية كلية حربية إلا أنه برهن على كفاءة قيادية استطاعت أن تنظم شعب داغستان وتقوده لتحرير بلاده وتصمد في وجه الامبراطورية الروسية حوالى « ٣٥ » عاماً، وقد وصل ذروة انتصاراته على الروس ما بين عامي « ١٨٤٣، ١٨٤٤ م » حين حرر جميع الحصون التي كان يحتلها الروس وغنم غنائم كبيرة وأخذ عدداً كبيراً من الأسرى الروس.

قال الأمير شكيب أرسلان عن الإمام شامل رحمه الله:

« إنه على نمط المجاهد الأمير عبد القادر الجزائري، فكلاهما خرج من المشيخة إلى قيادة الجيوش وإمارة الجهاد ».وكما يذكر المؤرخ البريطاني برنارد لويس: « ان الإمام شامل بطل المقاومة القفقاسية هو ثالث ثلاثة برزوا في عصر واحد، تجمع بينهم كثير من الملامح المشتركة، فكلهم قادوا حركة شعبية ضد المشركين، وهؤلاء الثلاثة كانوا زعماء دينيين وهم: « أحمد بريلوي » في الهند، و« شامل » في داغستان و« عبد القادر » في الجزائر، ولقد غلبوا على أمرهم للفرق الهائل بين قوتهم الصغيرة وقوة أعدائهم الضخمة ». (برنارد لويس « كتاب » الغرب والشرق الأوسط).

وقال المؤرخ العسكري الروسي « فاديف ».

« اعترف بما يلي: إن الحرب مع سكان جبال القفقاس « في القرن التاسع عشر » قد أفقدتنا جيشاً يكفي لاكتساح المنطقة الواقعة من مصر إلى اليابان ».

(مجلة القفقاس ميونخ ١٩٥٢ المجلد ١ العدد ٦).

ويقول عنه « كارل ماركس »:

« أيتها الأمم اعتبري بما يمكن أن يفعله الرجال في الحالات التي ترغب أن تبقى فيها حرة ». (مجلة مشاكل التاريخ ١٩٥٦ العدد ٢٧ موسكو).

٥ - جهاده ضد الروس

انطلق الإمام شامل في حربة مع الروس من منطلق إسلامي هو الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، وقد بايعه المريدون على ذلك وكانوا يتميزون بشارة خضراء يضعونها على غطاء الرأس الذي كانوا يلبسونه، وكانوا يتكونون من عناصر شتى تجمع بينها عقيدة الإسلام واخوته،

وكانوا شديدي الثبات والبأس في الحرب، لأن كلًّا منهم قد أيقن أنه إنما يقاتل لينال إحدى الحسنيين إما النصر والسيادة أو الموت والشهادة.

وقد عوضتهم العقيدة الدينية عن كثرة العدد والعدة التي كان يتمتع بها أعداؤهم. لقد أدرك الإمام شامل أنه قليل العدد والعدة أمام أعدائه، ولكنه كان يتمتع بمواقع حصينة في الجبال، كما أنه كان لايواجه الأعداء في صدام مباشر بل لجأ إلى حرب الاستنزاف والعصابات، فكانت معاركه تعتمد على السرعة وخفة الحركة والمباغتة، والانسحاب إلى القواعد الحصينة، ووضع خطوط المواصلات والإمدادات تحت سيطرة قوات الثورة، وعزل الحاميات عن الجيوش الرئيسية وإجبارها على الاستسلام كما كان يحرص على تعبئة شعب داغستان بروح الثورة الإسلامية والجهاد في سبيل الله.

كان محمد شامل أحد قادة الإمام الغازي محمد وأقرب المقربين إليه، ولهذا كان إلى جانبه في المعركة الفاصلة في كيميري حيث اشتهد الغازي رحمه الله. فحينما ضيق الروس الحصار على هذه المدينة، تحصن حوالى ستين شخصاً من المريدين في بيتين حجريين بقيادة شامل، وكانوا يدافعون عن موقعهم بشراسة كما كانوا في بعض الأوقات يشنون هجوماً معاكساً ضد الروس، وبقي عددهم يتناقص حتى لم يبق منهم إلا القليل وفجأة ظهر أمام أحد البيتين الباقيين رجل طويل القامة وهاجم الروس بسيفه وقتل منهم ثلاثة جنود، ولكنه أصيب في صدره بحربة فنزعها من صدره وضرب الجندي الرابع فخر صريعاً، وتمكن من الفرار والالتجاء إلى غابة قريبة، فكانت به جروح كثيرة وكسر أحد أضلاعه، وبقي مختبئاً في الغابة بضعة أيام تمكن بعدها أن يصل إلى بلده « انتسكول » وكان بين الموت والحياة، إلا أنه تماثل بعد ذلك للشفاء، وقد جاهد بعد ذلك تحت لواء « حمزة بك »

إلا أنه لم يكن راضياً عن الكثير من أفعاله، ولما توفي «حمزة بك» بايع المريدون شامل إماماً وقائداً لداغستان.

ويمكن تقسيم مراحل الجهاد التي مر بها الإمام شامل إلى أربع مراحل:

المرحلة الأولى: في هذه المرحلة حاول شامل أن يهتم بجبهته الداخلية فحينما تولى الإمامة كانت حركة المريدية على وشك الزوال، فاهتم بها ونفخ فيها الحياة من جديد، وكان لشخصيته القيادية أثر في نجاحه في هذا المجال، ثم حاول أن يوحد بلاد القفقاس تحت إمرته ويستفيد من طاقة ابنائها في مواجهة الروس الأكثر عدداً وعدة فحاول أن يكسب قبائل «الآوار» إلى صفه، فتوجه إليهم بجيشه إلا أن زعيمهم الحاج مراد تغلب عليه ورده، فأراد الإمام أن يعوض فشله في هذا الميدان فهاجم الروس بقيادة الجنرال «كلو جناد» إلا أن هذا تغلب عليه في معركة عند نهر «كويسو». فأدرك الإمام أن جبهته لازالت ضعيفة وانها بحاجة إلى مزيد من الإعداد. ولهذا لم يخض بعد ذلك معارك هامة بل حصر همه في تقوية جيشه وتوحيد القبائل، فنجح في هذا المجال نجاحاً تاماً. حتى دانت جميع داغستان وبلاد الشيشان له بالطاعة وبسط نفوذه على معظم القبائل، وفي هذه الآونة اختلف الحاج مراد مع الروس وانضم إلى جبهة الإمام مما أكسبه قائداً فذاً وحليفاً قوياً، كما أفقد الروس رجلًا حليفاً لهم.

المرحلة الثانية: بدأ الإمام شامل في عام ١٨٣٧ بمهاجمة مواقع الروس، فهزمهم في معركة بالقرب من مدينة «اشيلتا» ولكن نصره لم يدم طويلًا هاجمه الجنرال «ثيرة» بجيش كبير احتل مدينة اشيلتا من جديد وخربها تخريباً تاماً. وخاض مع شامل معركة دامية عند بلدة «تي تيل» فعرض الإمام الهدنة وكانت النتيجة انسحاب الروس من البلدة، فشعر

شعب داغستان بانتصار شامل عليهم فانضوى تحت لوائه كثير من القبائل الذين تركوه سابقاً. ورجع شامل إلى اشيلتا فوجدها مدمرة تدميراً تاماً حتى المسجد الذي أخذ البيعة فيه فغضب غضباً شديداً من الروس واختار بعد ذلك مدينة « اخولفو » مقراً له. وهي بلدة حصينة بشكل طبيعي لأنها تقع على جبلين من الصخور الصلدة قرب نهر كويسو فحصنها بالأبراج حتى أصبحت منيعة جداً.

شعرت روسيا بأن قوة الإمام شامل بازدياد مستمر وأنه لابد من عمل حاسم يقضي عليه فكلفت الجنرال « غرابه » مهمة القضاء على شامل فتوجه بجيش كبير إلى « اخولفو » حيث يتحصن شامل وجنوده، وضيقوا الحصار على المدينة إلا أنهم لم يستطيعوا احتلالها وفي ١٦ أوغسطس عام ١٨٣٨ وجه الروس إلى شامل إنذاراً نهائياً وطلبوا منه الاستسلام وتسليم ابنه رهينة، ولكنه رفض، فضيقوا الحصار على المدينة وهاجموها هجوماً عنيفاً حتى اضطروا إلى احتلال كل موقع وكل بيت فيها، حتى النساء اشتركن في المعركة وكن يهاجمن الجيش الروسي، ودامت هذه المعركة قرابة سبعين يوماً انتهت بسقوطها بأيدي الروس.

لم تستطع القوات الروسية تحقيق هدفها الرئيسي من هذه المعركة وهو القبض على الإمام شامل حياً أو ميتاً، وبحثوا عنه في كل مكان فلم يجدوه، فقد تمكن من الفرار في ليلة ٢٢ أوغسطس ١٨٣٨ مع امرأته وأصغر أولاده وبعض مريديه والتجأ إلى كهف في وادي نهر كويسو وتمكن بعدها من الفرار والالتجاء إلى بلاد الشيشان، وظن الروس أنه لن تقوم لشامل قائمة بعد هذه المعركة، ولكنه استطاع خلال سنة واحدة أن يجدد نشاطه وأن يبني جيشه من جديد، وحينما حاول الجنرال غرابة أن يستولي على بلاد الشيشان قاد جيشاً قوامه عشرة آلاف مقاتل، ولكن الإمام هزمه واضطره

إلى الفرار بعد أن فقد معظم جيشه.

المرحلة الثالثة: كان الإمام شامل في بداية الأربعينات في أوج قوته، فقام بهجوم كبير عام ١٨٤٣ على قاعدة حربية للروس في «ديلم» في بلاد الشيشان فاستولى على معظم المواقع الهامة في بلاد «الآوار» ما عدا القاعدة الحربية الرئيسية للروس في خونزاخ، ثم هاجم موقع «غوغبيل» واستولى عليه مما اضطر الروس إلى الانسحاب من قاعدة خونزاخ، وقد حاصر جيش شامل الجيش الروسي حتى حاصر القائد العام للقوات الروسية الجنرال «غوركو» في مقر قيادته في «تميرخان شورا» ولم ينقذه من الحصار إلا الجنرال «فرايتاغ» وبهذا أصبح الإمام يسيطر على معظم بلاد الداغستان والشيشان.

أحدثت انتصارات الإمام ردود فعل عنيفة في روسيا، ففي ١٨ أيلول ١٨٤٣ أصدر القيصر أمره إلى الجنرال «نايدهارت» القائد العام للقوات الروسية وطلب منه القضاء على قوات شامل، ورغم أن القوات الروسية قد حشدت أكبر قدر ممكن من الأسلحة الثقيلة والمدفعية في مواجهة قوات الإمام إلا أنها لم تحرز تقدماً يذكر، فمهارة الإمام العسكرية وسرعة حركة جيشه وخبرته الطويلة في الجبال ساعدت على هزيمة الجيش الروسي وكبدته خسائر فادحة واضطرته إلى الانسحاب.

عين القيصر الجنرال «فورنتسوف» عام ١٨٤٥ قائداً عاماً ونائباً للامبراطور في بلاد القفقاس، وقد اكتسب هذا القائد شهرة كبيرة في حروبه ضد نابليون. فقاد جيشاً في مايو ١٨٤٥ قوامه ثمانية عشر ألف مقاتل وتوجه نحو «دارغو» عاصمة الإمام ولكنه تعرض وجيشه لأشد الهجمات في المسالك الجبلية الضيقة والطرق الوعرة وقطعت عنهم خطوط الإمداد ولم يبق منهم سوى خمسة آلاف مقاتل، فبدأ بالانسحاب إلا أنه

كان يصاب بمزيد من الخسائر في الأرواح أثناء انسحابه، ولولا أن الجنرال « فرايباغ » أنقذه من هذا المأزق لمات هو وجنوده جوعاً.

وفي عام ١٨٤٧ حاول الجنرال « فورونتسوف » احتلال موقع غوغبيل، ولكنه فشل في بداية الأمر وتكبد خسائر فادحة، إلا أنه هاجمه بعد ذلك بجيش كبير واستطاع الاستيلاء عليه إلا أنه اضطر للانسحاب منه بسبب الهجمات الشديدة التي قام بها الإمام على جبهات أخرى، فقد هاجم جيش الإمام موقع « آختي » المحصن على نهر « سامور » فصمدت حامية الموقع حتى وصلتها نجدة روسية كبيرة تمكنت من فك الحصار وإنقاذ الحامية.

وقعت حرب القرم بين عامي «١٨٥٣ - ١٨٥٦م» بين روسيا وتركيا فاستراح الإمام أثناء هذه الهدنة لانشغال القوات الروسية عنه، ولكنه قام في عام ١٨٥٤ بدخول بلاد الكرج، ودنا جيشه من قصر « زينوندال » حيث أسر أميرتين من الكرج، هما الأميرة « جاوجافادزة » والأميرة « أوريدلياني » واحتفظ بهما لعدة أشهر، وبعدها جرت مبادلتهما بولده جمال الدين الذي كان الإمام قد اضطر إلى تسليمه للروس عام ١٨٣٩ في اخولغو.

المرحلة الرابعة: أنهكت الحروب الطويلة هذه الأمة الباسلة أمة القوقاز بسبب إمكاناتهم المحدودة، وعدم مد يد المساعدة لهم من أية جهة حتى من الدولة العثمانية. وبهذا فقدوا الكثير من خيرة رجالهم وأجهزتهم الحربية، وفي المقابل كانوا يقابلون عدواً كثير العدد والعدة تدعمه امبراطورية قوية وغنية، ووجد من الشعب بعض الفئات التي كانت مستعدة لقبول الصلح مع الروس، وأصبحت تظهر سلبية تجاه ثورة شامل. وزاد الطين بلة تعيين الأمير « بارياتنسكي » بتاريخ ٢٢ يوليو ١٨٥٦ قائداً عاماً للجيوش ووكيلاً للقيصر في القوقاس. فاستولى الجنرال

« يغدوكيموف » على عاصمة الإمام الجديدة « فيدن » عام ١٨٥٩ بعد حصار استمر شهرين، فانسحب الإمام إلى موقع « غوينب » الحصين في أواسط داغستان، وقد انفض عن الإمام معظم جيشه وأتباعه، ولم يقف إلى جانبه في هذا الموقع إلا أهل المنطقة الذين بقوا مخلصين له ولم يتجاوز عددهم أربعمائة محارب.

دارت المعارك الفاصلة بين قوات الإمام والجيش الروسي عند سفوح غوينت والوديان المحيطة بها، واستمر الحصار مدة طويلة، وفي ليلة ٢٢ أوغسطس ١٨٥٨ تمكنت القوات الروسية من اقتحام الموقع، ودارت معركة رهيبة بالسلاح الأبيض قتل فيها معظم أتباع الإمام مما اضطره إلى الانسحاب مع من تبقى معه إلى داخل القرية. ولما كان هدف الروس أسر الإمام حياً فقد كلفوا ضابطاً أرمنياً من قواتهم ليفاوضه على الاستسلام، فركب فرسه وتوجه إلى غابة قريبة حيث كان باستقباله الأمير بارياتنسكي وسلم نفسه مع خمسين من مريديه، وبعد استسلام الإمام استسلمت بلاد داغستان والشيشان للروس.

٦ - نهاية المطاف

اقتيد الإمام بعد أسره إلى بطرسبرغ تحت حراسة خاصة. واحتفل الروس بالإمام شامل أثناء مروره في مدنهم وبلدانهم كبطل استطاع أن يصمد أمام جيوش الامبراطورية حوالى « ٣٥ » عاماً رغم قلة عدده وإمكاناته، واستقبله القيصر الكسندر الثاني في مدينة خاركوف، واحتفى به وسلم عليه بقبلة واستضافه كصديق لا كأسير، وكان هذا الاحترام من جانب الروس للإمام نوعاً من كسب ود أمة القفقاس الذين كانوا يرون في الإمام بطلًا تاريخياً من أبطالهم وإماماً دينياً من أئمتهم. ونقل الإمام بعد

ذلك إلى مدينة « كالوغا » القريبة من موسكو، حيث خُصص له قصر فسيح أقام فيه مع عائلته ورتبوا له معاشاً سنوياً مقداره ثلاثون ألف روبل، وفي عام ١٨٧٠ طلب الإمام أذناً للسفر إلى مكة لأداء فريضة الحج فسمح له.

لما وصل الإمام إلى استانبول استقبلته الجماهير المحتشدة على ساحل البسفور بحماس ديني بالغ. ودعاه السفير الروسي في استانبول ليقيم في السفارة كضيف عزيز إلا أنه قال إنه في تركيا ضيف على السلطان، فاستقبله السلطان عبد العزيز في قصره « دولما باغجه» بحفاوة بالغة، وكلفه السلطان بالتوسط بين مصر والدولة العثمانية، فاستطاع أن يحل الخلافات بينهما. وبعد ذلك تحرك ركبه متوجهاً إلى مكة المكرمة، فاستقبله الناس هناك بحفاوة بالغة. وقضى البقية الباقية من حياته بجوار الكعبة المشرفة مشغولاً بالعبادة. وفي عام ١٨٧١ وفي بيت الشيخ أحمد الرفاعي توفي الإمام شامل رحمه الله، ودفن في « جنة الباكر » بالمدينة وأصبح قبره مزاراً للناس، ولما سيطرت الحركة الوهابية على السعودية وأزالت الكثير من البدع، أزالت آثار قبر الإمام شامل عليه رحمه الله.

وبعد وفاته استلم الزعامة من بعده عام ١٨٧٣ابنه « غازي محمد » فأصبح الإمام الرابع، فقربه السلطان إليه ومنحه لقب باشا فعرف لدى الأتراك باسم « محمد باشا » ولما قامت الحرب بين روسيا والدولة العثمانية عام ١٨٧٧ في البقان عين « غازي محمد » قائداً للفرقة الداغستانية وكان يساعده قريبه ونسيبه « محمد فاضل باشا الداغستاني » فأبلى جيشه بلاءً حسناً، ولكن الكثرة غلبت الشجاعة إذ أن روسيا دفعت بأعداد كبيرة من جيشها إلى المعركة مما اضطر الدولة العثمانية إلى طلب الصلح عام ١٨٧٨ .

عرض الروس على « غازي محمد » منصب الحاكم العام للقوقاس ولكنه رفض، وفي عام ١٨٨٠ زاره وصديقه محمد فاضل المدعو « فؤاد باشا »

وطلب منهما الاشتراك بمؤامرة لقلب الحكم والإطاحة بالسلطان، ولكنهما رفضا ذلك، فوشي بهما لدى السلطان متهماً إياهما بمحاولة خلع السلطان عبد الحميد، فصدق السلطان الوشاية ونفى غازي محمد إلى المدينة أما محمد فاضل باشا فقد نفاه إلى العراق. أما غازي محمد فقد قضى بقية حياته منقطعاً للعبادة ولما توفي دفن بجانب أبيه، أما محمد فاضل فقد نال شعبية واسعة بين العرب والأكراد حتى عرضوا عليه تاج العراق، ولكنه رفضه لأنه يعتبر ذلك خروجاً على السلطان. ومن المعروف أن الميجر جنرال «غازي الداغستاني» مساعد القائد العام للقوات العراقية المسلحة هو أصغر أنجال محمد فاضل باشا الاثني عشر ولما نجحت الثورة في العراق عام ١٩٥٨ حكم عليه بالإعدام، إلا أنه نجا من العقوبة على أثر تدخل ووساطة الكثير من الشخصيات الإسلامية والعالمية.

لما استولت روسيا الشيوعية على بلاد القفقاس عملت على طمس وتشويه حركة الجهاد الإسلامي ضد روسيا، كجزء من الحملة على الإسلام ذاته. إلا أن اسم الإمام شامل بقي أغنية جميلة على لسان القوقازيين. ففي عهد ستالين عام ١٩٥١ شنت السلطات الشيوعية حملة ضد التراث الإسلامي، ومنعت الملاحم الشعبية التي تمجد دفاع المسلمين ضد الروس كما حملت على حركة المريدين بشدة، ولكن ما كاد ينتهي عهد ستالين المليء بالكبت والارهاب حتى راح القفقاسيون يطالبون برد الاعتبار للحركات الإسلامية، فقدمت عدة دراسات مطولة تدافع عن الإمام شامل وتعتبره بطلًا وطنياً، كما دافعت هذه الدراسات عن حركة المريدين باعتبارها كانت ردة فعل ضد الاستعمار الروسي في القرن التاسع عشر. ومهما يكن من أمر فإن جذور الإسلام عميقة في البلاد الإسلامية التي تئن تحت وطأة الاستعمار الشيوعي، وبالرغم من الحرب المستمرة التي تشنها روسيا على

الإسلام والمسلمين إلا أن الدلائل تشير إلى أن هؤلاء لازالوا يعتزون بانتمائهم لإسلامهم ويفخرون بأنهم كانوا دائماً شوكة في حلق الروس، وسيأتي اليوم الذي يشتد فيه ساعد الصحوة الإسلامية في الجمهوريات الإسلامية المستعمرة من قبل روسيا الشيوعية، ليعيد أهلها للإسلام هيبته وبهاءه. وما النصر إلا من عند الله. ويسألونك متى هو قل عسى أن يكون قريباً.

المصادر

كتاب «أباطرة وأبطال في تاريخ القوقاس». د. شوكت المفتي.
مجلة «رابطة العالم الإسلامي» ربيع الأول ١٣٩٩ مقال بقلم د. غريب جمعة.
مجلة «القدس» العدد ٢٧ ربيع الثاني ١٤٠٢ بقلم د. بسام العسلي.
مجلة «الأمة» العدد ٨ شعبان ١٤٠١ بقلم عبد الكريم مشهداني.
كتاب «المسلمون تحت السيطرة الشيوعية» بقلم محمود شاكر.

ثورة الإمام
سعيد النورسي

١ - مقدمة

ولد سعيد النورسي في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، في وقت كانت المؤامرة الماسونية الصليبية قد استفحل أمرها وكادت تجني ثمارها بإسقاط الخلافة الإسلامية، وكان مدبرو هذه المؤامرة يلقون في روع الشعب التركي بأن الوصول إلى التقدم والرقي والحضارة لايتم إلا بإسقاط الخلافة والتنكر للدين وإنشاء دولة علمانية تفصل بين الدين والسياسة، وقد استطاع مدبرو المؤامرة ضد الإسلام أن يجدوا لهم مرتكزات في قلب الخلافة العثمانية، كيهود الدونمة الذين أسلموا ظاهرياً ليضربوا الإسلام من الداخل واستلموا الكثير من المناصب الحساسة والمحافل الماسونية وواجهتها حزب الاتحاد والترقي، وكان من نتيجة هذا كله تنحية السلطان عبد الحميد وتشويه سمعته وكان ذلك في ٢٧ نيسان ١٩٠٩ م، وقد جاءوا بعد ذلك بالسلطان محمد رشاد، وأخذوا يمررون من خلاله وفي خفية عنه الكثير من سياساتهم القاضية إلى القضاء على الخلافة والإسلام في تركيا، ففرضوا على الناس دكتاتورية دامية وتصدوا لكل دعاة الإسلام والمخلصين، وجروا الدولة العثمانية إلى الحرب العالمية الأولى دون

مبرر، مما جعل الحلفاء يستولون على معظم الأراضي العثمانية، حتى العاصمة استانبول وقعت في أيديهم.

توفي السلطان محمد رشاد أثناء الحرب فخلفه السلطان محمد وحيد الدين الذي كان يكره الاتحاديين ويدرك أبعاد مؤامرتهم، فحاول أن يدعم بعض القادة المسلمين حين مهد لهم الهروب إلى الأناضول ليقود بهم حرب الاستقلال ضد الغزاة ويطهر البلاد من أرجاس الماسونيين الاتحاديين، ولكن الحلفاء دعموا أحد عملائهم (مصطفى كمال) الذي استطاع أن يهزم الاستقلاليين، ويلغي الخلافة الإسلامية، ويستبدل بالقوانين الإسلامية القوانين الوضعية، وأن يفرض الحياة الغربية العلمانية على الشعب والدولة وأن يستبدل بالحروف العربية الحروف اللاتينية، وبالأذان الشرعي بالعربية، الأذان باللغة التركية، وأن يصفي جميع القادة المخلصين في الجيش، وأن يعدم أو يسجن أو ينفي من تبقى من علماء المسلمين.

في هذا الجو الملبد بالمؤامرات والانهزامات ولد سعيد النورسي وعاش مجاهداً حتى قضى نحبه وهو يجاهد المؤامرة على الإسلام والمسلمين في تركيا.

٢ - حياته

ولد سعيد النورسي في ربيع عام ١٢٩٣ هـ (١٨٧٣ م) في قرية (نورس) التابعة لولاية (بتليس) شرقي تركيا، وهي إحدى قرى قضاء (حيزان) من عائلة كردية مشهورة بالتقوى والصلاح، وكان والده (الصوفي ميرزا) مضرب المثل بالورع والتقوى فلم يذق حراماً ولم يطعم أولاده غير الحلال، وتقول أمه (نورية) إنها ما أرضعت أطفالها يوماً إلا وهي على طهر ووضوء.

ظهرت عليه علامات الذكاء والنبوغ منذ نعومة أظفاره، فقد كان يحضر مجلس العلماء الذي كان يعقد في بيت والده ويصغى باهتمام لما يدور بينهم من مناقشات. ولما بلغ التاسعة من العمر اتجه إلى طلب العلوم الإسلامية في كتّاب قرية (طاغ) على يد (محمد أفندي) عام ١٨٨٢، وكان يتلقى بعض العلوم أيضاً على يد أخيه الأكبر (الملا عبد الله) في عطلة الأسبوع، ولم يلبث في هذه القرية طويلًا إذ تابع دراسته في قرية (بيرمس) ثم رحل إلى بتليس عام ١٨٨٨ والتحق بمدرسة الشيخ (أمين أفندي) ثم تركها والتحق بمدرسة (مير حسن ولي) في (مكس) ثم إلى مدرسة في (واسطان) وبقي فيها شهراً واحداً والتحق بعدها بمدرسة (بايزيد) التابعة لولاية (آغرى) وفي هذه المدرسة منحه شيخها (محمد جلالي) إجازة العالمية، ثم ذهب إلى (بتليس) ومنها إلى مدينة (تيلو) وفي عام ١٨٩٣ ذهب إلى (ماردين) وبدأ يلقي دروسه في جامع المدينة فوشي به إلى متصرف المدينة فنفاه منها إلى بتليس، فعرف واليها (عمر باشا) قيمة النورسي وفضله فأكرم وفادته. وقد استمر في هذه المدينة يتلقى علومه الإسلامية على العالم الفاضل الشيخ (محمد الكفروي) وفي عام ١٨٩٤ ذهب إلى (وان) بدعوة من واليها (حسن باشا) ولقد هيأ الله له ظروف الالتقاء ببعض أساتذة العلوم الحديثة (كالرياضيات والكيمياء والجغرافيا والفلك والفلسفة والتاريخ وغيرها) فاستطاع أن يتقنها، ثم رحل إلى استانبول في محاولة لإنشاء جامعة الزهراء الإسلامية إلا أنه لم يوفق في مساعيه فرجع إلى وان ثم عاد إلى استانبول مرة أخرى عام ١٩٠٧ وهناك التقى بكثير من رجالات الفكر الإسلامي، وقدم عريضة للسلطان عبد الحميد يطالب فيها بفتح المدارس في شرق الأناضول التي تعلم العلوم الحديثة بجانب العلوم الدينية فنقمت عليه حاشية السلطان ووشوا به فأحيل إلى محكمة عسكرية، ثم ذهب إلى (سلانيك) وفيها كبار رجالات الماسون والاتحاد

والترقي، فحاولوا اجتذابه إليهم فأرسلوا له اليهودي (عمانوئيل قره صو) فقابله وقال بعد المقابلة: «لقد كاد هذا الرجل العجيب أن يدخلني بحديثة في الإسلامْ». والتقى بعد ذلك في استانبول بشيخ الأزهر الشيخ (بخيت المطيعي) فسأله هذا السؤال: ما رأيك في الحرية بالدولة العثمانية وماذا تقول في مدنية أوربا؟ فأجابه النورسي: الدولة العثمانية حبلى حالياً بجنين أوربا وستلده يوماً ما، أما أوربا فهي حبلى بجنين الإسلام وستلده يوماً ما كذلك.

فأعجب شيخ الأزهر بجوابه وقال له إنني أحمل نفس هذا الرأي.

وفي عام ١٩٠٩ ساهم في تأسيس جمعية (الاتحاد المحمدية) في استانبول، ولما نجح الانقلاب ضد السلطان شكلت محكمة عسكرية قدمت الكثير من علماء المسلمين للمحاكمة ومنهم النورسي بتهمة أنه كان يهاجم جمعية الاتحاد والترقي في جريدة (وولقان) أو البركان ولما أعلنت براءته رحل إلى (وان) حيث بدأ يلقي دروسه ومحاضراته متنقلاً بين القرى والقبائل. وفي عام ١٩١١ - ١٣٢٧ هـ زار أخته التي كانت تقيم في الشام، وألقى في الجامع الأموي بدمشق خطبته العصماء التي سميت (الخطبة الشامية) ثم سافر إلى بيروت ومنها إلى استانبول حيث قابل السلطان محمد رشاد الذي وعده بإنشاء جامعة إسلامية إلا أن أحداث الحرب العالمية الأولى حالت دون تحقيق هذا الهدف.

وفي عام ١٩١٢ قاد النورسي قوات الفدائيين في حرب البلقان، وعندما دخل الجيش الروسي مدينة بتليس كان النورسي وطلابه يدافعون عن المدينة ببساله، ولكنه جرح جرحاً بليغاً، ثم أسره الروس وأرسلوه إلى معسكر شرقي روسيا، وبقي في الأسر سنتين وأربعة أشهر ثم استطاع الهرب من المنفى على أثر قيام الثورة البلشفية إلى ألمانيا ومنها إلى

استانبول حيث عين عضواً في (دار الحكمة الإسلامية) وكان ذلك عام ١٩١٨ ولا يعين في هذه الدار إلا كبار العلماء.

وفي ١٦ مارس ١٩٢٠ احتلت القوات الانجليزية استانبول، فأخذ النورسي ينشر رسائله ويهاجم بها الإنجليز، ولما انهارت الدولة العثمانية ظهرت رغبة عند الأكراد لإنشاء دولة كردية، وقد دعا زعماؤهم النورسي للتعاون معهم، فأرسل لهم يقول: «سأكون معكم إن حاولتم إحياء الدولة العثمانية، وأنا مستعد للتضحية بنفسي في هذا السبيل أما تكوين دولة كردية فلا».

ولما كان مصطفى كمال يتزعم حركة المقاومة (ظاهرياً) قبل أن ينكشف أمره دعا النورسي لزيارة أنقرة مركز المقاومة، ولكن النورسي رفض في بداية الأمر إلا أنه ذهب إليها عام ١٩٢٢، فوجد معظم النواب لايؤدون الصلاة، فوجه إليهم بياناً جاء فيه: «يا أيها المبعوثون إنكم مبعوثون ليوم عظيم» فلم يعجب البيان مصطفى كمال وأراد أن يتخلص من النورسي فعينه واعظاً عاماً في الولايات الشرقية بمرتب مغر، ولكن النورسي رفض هذا العرض. ثم غادر أنقرة إلى «وان» حيث اعتكف هناك في أحد البيوت القديمة على جبل «أرك».

ولما قام الشيخ «سعيد بيران» بثورة في الأقاليم الشرقية من تركيا ضد سياسة مصطفى كمال المعادية للإسلام، رفض النورسي التعاون مع هذه الثورة لأنها كانت ضعيفة ولأنه كان لايريد أن تراق دماء المسلمين الأبرياء في حركة لا أمل فيها، ولكن هذا الموقف لم يغفر له عند مصطفى كمال فاعتقله ونفاه إلى مدينة «بوردور» بقي فيها سبعة أشهر منقطعاً للعبادة والتأليف، ثم صدر قرار نفيه إلى مدينة «باريلا» النائية وكان ذلك عام

١٩٢٦ م، وفي « باريلا » عاش النورسي في عزلة عن العالم فألف رسائله التي عرفت « برسائل النور » وكان طلابه ومريدوه يستنسخونها بأيديهم وينشرونها في القرية والمدن المجاورة. ثم نقل إلى إسبارطة. وبعد ذلك نفي إلى مدينة « قسطموني » في ربيع عام ١٩٣٦ م، وبقي فيها سبع سنين، وفي عام ١٩٤٣ م، حاول البوليس السري دس السم للنورسي والتخلص منه إلا أنه نجا بإذن الله، فسافر إلى أنقرة ومنها إلى إسبارطة فمدينة « دينزلي ». وفي يوم ٢٣ كانون الثاني سنة ١٩٤٨ م، بلغ النورسي الخامسة والسبعين عاماً من العمر، ومع ذلك ظلت قوات البغي تطارده فداهمت بيته واعتقلته وأودع هو وعدد من طلابه في سجن مدينة « أفيون »، وقضى النورسي البقية الباقية من حياته إما منفياً وإما مسجوناً، ومع ذلك كان يرعى طلابه ويسهر على نشر رسائل النور. وبعد سنوات أعيى المرض النورسي ولما شعر بدنو أجله طلب من طلابه نقله إلى « أورفه » ولكن الأمن العام لاحق ركب النورسي وهو مريض طريح الفراش وطلب منه أن يعود إلى « إسبارطة » وأثناء فترة المفاوضات نزل في فندق في أورفه، وفي يوم الأربعاء الخامس والعشرين من رمضان عام ١٣٧٩ هـ، الموافق ٢٣ مارس ١٩٦٠ م، انتقل النورسي إلى الرفيق الأعلى وشيعه أهل أورفه بموكب مهيب يليق بمقامه، ووري التراب في مقبرة « أولد جامع ».

وكما لم يسلم النورسي في حياته من بطش العلمانيين والماسونيين، ولم يسلم كذلك بعد مماته، فحينما وقع الانقلاب العسكري في تركيا في ٢٧ مارس ١٩٦٠ م، وأطاح بالحزب الديمقراطي وإعدام رئيس الوزراء عدنان مندريس لأنه أعاد الأذان باللغة العربية. غاظ رجال الانقلاب ما كان يرونه من الجموع التي كانت تزور قبر النورسي، فقرروا نقل رفاته إلى مكان مجهول وفي يوم ١١ تموز ١٩٦٠ م، توجه القائد العسكري للقطاع

الشرقي إلى مدينة قونيه حيث كان شقيق النورسي الشيخ عبد المجيد، وطلب منه أن يوقع على ورقة بأنه طلب نقل رفات أخيه.

ولما حاول أخوه أن يرفض ذلك هددوه وتوعدوه، وفي منتصف إحدى الليالي اصطحب القائد العسكري شقيق النورسي وذهبا إلى قبره وهدموا قبره وأخرجوا رفات النورسي ووضعوها في تابوت كبير ونقلوه بالطائرة إلى (أفيون) ومنها إلى (إسبارطة) حيث دفن في مكان ما لايزال مجهولاً.. وكان ذلك بعد خمسة أشهر من وفاته.

رحم الله سعيد النورسي وجعله من المقبولين الخالدين.

٣- صلابته في الحق

من أبرز ما يتصف به النورسي أنه كان لايساوم على حساب دينه وعقيدته وكان يقف في وجه الطغاة في أشد الظروف ضراوة، لايخشى في الله لومة لائم وإذا كانت كل حياته تتصف بهذه الصفة، فإنني سوف أورد هنا بعض المواقف كنماذج لرجل الإيمان والعقيدة حينما يتسامى بإيمانه عن كل أعراض الدنيا، ولا يرضى الدنية في دينه.

في عام ١٩٠٩ قدم النورسي لمحكمة عسكرية بحجة أنه كان يهاجم جمعية الاتحاد والترقي في صحيفة (وولقان) أو (البركان) وأعدم خمسة عشر مسلماً أمامه شنقاً لإرهابه، ثم بدأ الحاكم العسكري (خورشيد باشا) بمحاكمته، فاتهمه بأنه يطالب بتطبيق الشريعة الإسلامية، فقام النورسي وألقى على مسامع المحكمة كلاماً رائعاً نقتطف منه ما يلي:

«لو ان لي ألف روح لما ترددت أن اجعلها فداء لحقيقة واحدة من حقائق الإسلام.

« إنني أقول لكم وأنا أقف أمام البرزخ الذي تسمونه السجن في انتظار القطار الذي يمضي بي إلى الآخرة، لا لتسمعوا أنتم وحدكم، بل ليتناقله العالم كله، إنني متهيئ بشوق إلى قدومي للآخرة، وأنا حاضر للذهاب مع هؤلاء الذين علقتموهم على المشانق.

« لقد سألتموني هل أنت داخل في جمعية الاتحاد المحمدية؟ وأنا أقول لكم مع كل الفخر والاعتزاز إنني من أصغر أفرادها، وهل يوجد خارج هذه الجمعية غير المجانين والسفهاء؟ وكانت جريمتي الثانية انني تصديت للرد على دعاة الالحاد والماسونية من أصحاب الصحف وقلت لهم: إن على الأديب أن يكون أديباً في دعوته خصوصاً إذا كان سمع الأمة ولسانها، وإنني أقول لكم الآن كما أنه لايليق بالشيخ الوقور أن يلبس لباس الراقصين كذلك فإن استانبول لايجوز لها أن تلبس أخلاق أوربا. لقد كانت هذه الحكومة تخاصم العقل أيام الاستبداد، وها هي الآن تعادي الحياة وإذا كانت الحكومة هكذا فليعش الجنون، وليعش الموت، ولتعش جهنم للظالمين ».

وامام هذه الصلابة في الحق والبلاغة الساحرة والشجاعة النادرة حكمت المحكمة ببراءة النورسي من التهم الموجه إليه.

– لما وقع النورسي في الأسر عام ١٩١٦ بأيدي القوات الروسية، وأرسل إلى معسكر للاعتقال في (فوصتورمة) شرقي روسيا، صادف أن زار هذا المعسكر خال القيصر الروسي والقائد العام للجبهة الروسية (نيكولا بتكولافيج) فقام جميع الأسرى بتحية القائد ما عدا النورسي، فسأله القائد: لعلك لاتعرفني؟ فأجابه النورسي: بلى أعرفك بأنك خال القيصر والقائد العام. فقال له القائد: لماذا تستهين بي ولا تحييني؟ فقال له

النورسي: أنا لم أهن أحد وإنما فعلت ما تأمرني به عقيدتي. فقال له القائد: وماذا تأمرك عقيدتك؟

قال النورسي: إنني عالم مسلم، احمل في قلبي إيماناً، فالذي يحمل في قلبه إيماناً أفضل من الذي لا إيمان له، ولو أنني قمت لك لكنت إذن قليل الاحترام لعقيدتي ومقدساتي، ولهذا فإنني لم أقم لك.

فقال القائد: إنك بإطلاقك علي صفة عدم الإيمان تكون قد أهنتني وأهنت القيصر وقدم النورسي لمحكمة عسكرية. ورجاه الأسرى أن يعتذر للقائد، فرفض بإصرار، وأصدرت المحكمة قراراً بإعدامه، وفي يوم التنفيذ طلب من الضابط الروسي بأن يسمح له لكي يؤدي واجبه الأخير، فقام وتوضأ وصلى ركعتين.

وما أن انتهى النورسي من صلاته حتى فوجئ بالقائد العام يقف أمامه ويعتذر له قائلًا: أرجو منك المعذرة، كنت أظن أنك قد قصدت بعملك إهانتي ولكنني تأكدت أنك كنت تنفذ ما تأمرك به عقيدتك، لذا فقد قررت إبطال قرار المحكمة، وإنني أهنئك على صلابتك في عقيدتك وأرجو المعذرة مرة أخرى.

– وحينما استولى الإنجليز على استانبول عام ١٩٢٠، وجهوا عن طريق كنيسة (الانجليكان) ستة أسئلة إلى المشيخة الإسلامية، لتجيب عليها بستمائة كلمة، فلم تجد المشيخة غير النورسي ليجيب على هذه الأسئلة، فكان جوابه:

« إن هذه الأسئلة لا يجاب عليها بستمائة كلمة، ولا بست كلمات، ولا بكلمة واحدة بل ببصقة واحدة على الوجه الصفيق للإنجليزي اللعين ».

– في عام ١٩٢٢ دعاه مصطفى كمال إلى أنقرة في محاولة لاستمالته.

فذهب إليها فهاله ما رأى من أن معظم النواب لايصلون، وأن تصرفات مصطفى كمال المعادية للإسلام في ازدياد مستمر فطبع بياناً يتضمن عشر مواد وجهه إلى النواب:

وعلى أثر هذا البيان استقام حوالى ستون نائباً، وحافظوا على الصلاة حتى أن مسجد بناية المجلس لم يعد كافياً للمصلين، فانتقلوا إلى غرفة أكبر منه.

فلم يُرض هذا العمل مصطفى كمال وحصل بينه وبين النورسي مشادة عنيفة، لهذا قرر مصطفى كمال إبعاده عن أنقرة فعرض عليه أن يعينه واعظاً عاماً في الولايات الشرقية وأن يخصص له راتباً مغرياً ولكن النورسي رفض هذا العرض باباء.

هذا غيض من فيض، وقليل من كثير، أوردناه على سبيل المثال لا الحصر.

٤- مراحل حياته

يمكن تقسيم حياة النورسي الجهادية إلى ثلاث مراحل هي:

المرحلة الأولى: كان يطلق على نفسه فيها اسم «سعيد القديم» وهي تستمر حتى عام ١٩٠٧، ويمكن وصف هذه المرحلة بأنها مرحلة (الإعداد الذاتي) للنورسي، فقد توجه منذ بداية حياته لطلب العلوم الإسلامية، وساعدته حافظته القوية وذكاؤه الحاد على استلهام وحفظ الكثير من متون أمهات الكتب الإسلامية، بحيث حفظ ما يقارب تسعين كتاباً من أمهات الكتب في التفسير والحديث والفقه وأصوله والنحو. فقد استظهر مقامات الحريري، وشرح ألفية ابن مالك للسيوطي، وكتاب

الجامي في النحو و(جمع الجوامع) في أصول الفقه لابن السبكي، وحفظ القاموس المحيط حتى حرف السين وغيرها من الكتب كثير. كما درس العلوم الحديثة كالتاريخ والجغرافيا والرياضيات والفلسفة والجيولوجيا وبعض اللغات الأجنبية، حتى سمي بـ(بديع الزمان) وبهذا أصبح لدى النورسي رصيد ضخم من المعلومات، مكنه من الانطلاق والعمل للإسلام من مرتكزات علمية.

المرحلة الثانية: وتمتد حتى اعتقاله في «بارلا» عام ١٩٢٦، وكان يطلق عليه في هذه المرحلة «سعيد المشهور» ويمكن وصف هذه المرحلة بأنها مرحلة «العمل الفردي» للنورسي، ففيها خاض المعركة السياسية مدافعاً عن الخلافة مهاجماً لأعدائها من أعضاء الاتحاد والترقي، وأخذ يكتب المقالات في صحيفة «وولقان» يهاجم فيها الماسونيين والحضارة الغربية، وقد حاول في هذه الفترة إنشاء جامعة إسلامية إلا أنه فشل في ذلك، وفي عام ١٩٠٩ ساهم في إنشاء جمعية «الاتحاد المحمدية» لمواجهة مؤامرة الماسون. وفي عام ١٩١٨ عين عضواً في «دار الحكمة الإسلامية» وفي عام ١٩١٢ شكل من المتطوعين «فرق الأنصار» وأبلوا بلاءً حسناً في حرب القوات الروسية، وألف أثناء المعارك تفسيره القيم باللغة العربية «إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز» وكان يمليه على أحد تلاميذه وهو على صهوة جواده أو في الخندق.

قرأ النورسي في الصحف المحلية خبراً هزه هزاً عنيفاً ودفعه للعمل للإسلام، فقد نشرت الصحف خطاباً لوزير المستعمرات البريطاني «غلادستون» في مجلس العموم البريطاني جاء فيه (ما دام هذا القرآن بيد المسلمين فلن نستطيع أن نحكمهم، لذلك فلا مناص من أن نزيله من الوجود أو نقطع صلة المسلمين به) وكان غلادستون يحمل نسخة من

القرآن الكريم بيده وهو يخطب. فأثار هذا الخطاب النورسي وقطع العهد على نفسه أن يكرس حياته لخدمة القرآن، والدعوة لتعاليم القرآن، ومما قاله (لأبرهنن للعالم بأن القرآن شمس معنوية لاتنطفىء ولا يمكن إطفاء نورها). ومنذ ذلك الحين والنورسي يجاهد أعداء القرآن بنفسة وقلمه وجهده وسيفه حتى اعتقل عام ١٩٢٦ في « بارلا ».

المرحلة الثالثة: وتمتد هذه المرحلة حتى وفاته عام ١٩٦٠، وكان يطلق عليه في هذه المرحلة اسم « سعيد الجديد » ويمكن وصف هذه المرحلة بأنها مرحلة « العمل الجماعي » للنورسي.

بدأ النورسي يشعر بأن العمل الفردي لايؤدي الثمار المرجوة في محاربة أعداء كثيرين، عندهم الإمكانات الضخمة وتدعمهم دول أوربا الصليبية. ولهذا أخذ يميل منذ عام ١٩٠٩ إلى العمل الجماعي، فساهم في تأسيس جمعية « الاتحاد المحمدية » في استانبول وقبيل اندلاع الحرب العالمية الأولى انضم النورسي إلى عضوية « تشكيلات خاصة » وهي مؤسسة سياسية وعسكرية وأمنية سرية شكلت بأمر السلطان ووظيفتها المحافظة على وحدة أراضي الدولة العثمانية ومحاربة أعدائها، وقد انضم إلى عضويتها كثير من الكتاب ورجال الفكر في تركيا، وكان النورسي من أنشط أعضاء قسم « الاتحاد الإسلامي » في هذه المؤسسة. وأصدر مع عدد من علماء المسلمين فتوى « الجهاد » تهيب بالمسلمين أن يهبوا للدفاع عن أرض الخلافة، وقد سافر النورسي إلى طرابلس الغرب وبنغازي واتصل بالشيخ السنوسي، واطلع عن كثب على تنظيمات الحركة السنوسية وزواياها. ولما رجع إلى مدينة « وان » شكل من طلابه وبعض المتطوعين فرقاً للجهاد وقاتلوا الجيوش الروسية التي اجتاحت مدينة « بتليس » إلا أنه أسر على أثر جرح بليغ أصابه.

ويمكن القول إن النورسي استفاد من فترة نفية إلى « بارلا » عام ١٩٢٦ فعكف على تأليف رسائل النور حيث مكث هناك حوالى ثماني سنوات ونصف، ثم نفي إلى قسطموني عام ١٩٣٦ وبقي فيها ثماني سنوات أخرى عكف خلالها على إكمال رسائل النور ومن ثمار هذه المرحلة رسالته « الآية الكبرى » وفي هذه المرحلة طلق الحياة السياسية وكان يقول دائماً « أعوذ بالله من الشيطان والسياسة » ولكنه مع ذلك لم يتوقف عن نصح السياسيين ورجال الحكم.

تعرف أهل « بارلا » على النورسي، وصار منهم اتباع ومريدون له، وكانت حلقات تلاميذه تتسع شيئاً فشيئاً، وبدأ ينشر رسائل النور سراً باستنساخها وتوزيعها على القرى والمدن، وكان يقول « إنني لست بشيخ طريقة، فالوقت الآن ليس وقت طرق صوفية، بل وقت إنقاذ الإيمان » ولما كثر أتباعه أخذت الحكومة تطاردهم وتسجنهم، ولكن حسن التربية وعمق الإيمان عندهم كان يجعلهم يصمدون على المحنة والبلاء، وكثيراً ما اعتقلت السلطات النورسي وجمعاً من طلابه وقدمتهم للمحكمة على أنهم يؤلفون جمعية سرية تعمل على هدم الثورة الكمالية وتحاول إرجاع الخلافة الإسلامية.

اعتمد النورسي خطة التربية وترك العمل بالسياسة، وكان عمل جماعته التنظيمي ينحصر في تكثير الاتباع وتربيتهم، واستنساخ رسائل النور وتوزيعها على أكبر قدر ممكن من البلاد التركية، وقد شكلوا لهذا الغرض ما سمي بـ« سعاة بريد النور » وكان واجبهم ينحصر في نقل رسائل النور من قرية إلى قرية، ومن مدينة إلى مدينة كما انتظمت وقويت عملية استنساخ الرسائل، حتى أن بعض الطلبة استنسخوا لوحدهم أكثر من ألف رسالة، حتى وصل عدد الرسائل التي استنسخت باليد أكثر من ستمائة ألف نسخة.

٥- آثار النورسي ومؤلفاته

ألف النورسي منذ عام ١٩٢٦ وحتى عام ١٩٥٠ ما يزيد على مئة وثلاثين رسالة باللغة التركية كما ألف خمس عشرة رسالة وكتاباً باللغة العربية. ألف النورسي كتابه « إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز » « ٢٤٠ صفحة » و« المثنوي العربي الثوري » « ٣٢٠ صفحة » وهو يضم إحدى عشرة رسالةو « قزل إيجاز على سلم المنطق »« ٩٦ صفحة »و « الصيقل الإسلامي » « ٢٦٠ صفحة » ويضم الخطوات الست والخطبة الشامية. وهذه الكتب والرسائل باللغة العربية.

أما رسائل النور وعددها « ١٣٥ » رسالة وكان يسمي كل رسالة « لمعة » فقد ألفها بالتركية وضمت في مجلدات من الحجم الكبير وهي كما يلي:

١ - سوزلر « الكلمات » في « ٦٥٠ صفحة » وهي تضم ٣٣ رسالة.
٢ - مكتوبات « المكتوبات » في « ٤٥٠ صفحة » وهي تضم ٣٣ رسالة.
٣ - لمعة لر « اللمعات » في « ٤٣٠ صفحة » وهي تضم ٣٣ رسالة.
٤ - شعاعلر « الشعاعات » في « ٦٤٠ صفحة » وهي تضم ١٥ رسالة رسالة « الآية الكبرى » هي الشعاع السابع منها.
٥ - ملحق بارلا في « ٢١٠ صفحات ».
٦ - ملحق قسطموني في « ٢٠٤ » صفحات.
٧ - ملحق أمير داغ في جزئين « ٢٨٤ » صفحة و« ٢٢٠ » صفحة.
٨ - ختم التصديق الغيبي في « ٢٢٠ » صفحة.
٩ - رسائل صغيرة أو متوسطة، محاكمات « ١٦٢ صفحة »:
« سيرة ذاتية » « ٦٥٠ صفحة ». سنوحات « ٩٨ صفحة ».

مناظرات « ٨٨ صفحة ». « مفتاح لعالم النور » « ٦٢ صفحة ».
« المدخل إلى النور » « ١٥٠ صفحة ». ديوان حرب عرفي.

كان النورسي يملي رسائله على تلاميذه، ثم يتداولها التلاميذ ويقومون باستنساخ نسخ منها باليد لأن سبل الطباعة كانت مغلقة في وجه مطبوعاته المراقبة وكان يصر على أن تكون الكتابة بالأحرف العربية للمحافظة عليها، ولما ازداد طلابه أخذ ينسخون آلاف النسخ من هذه الرسائل ويشترك في ذلك الرجال والنساء على حد سواء، حتى أن بعضهم قضى سبع سنين لم يغادر منزله وهو مكب على استنساخ هذه الرسائل. وقد ساهمت النساء في هذا المجال، وقد أتت بعض النسوة إلى النورسي وقلن له « لكي نشارك في خدمة رسائل النور قررنا القيام بالأعمال اليومية لأزواجنا حتى يتفرغوا كلية لكتابة رسائل النور » وبقيت هذه الرسائل عشرين سنة تطبع عن طريق الاستنساخ وطبعت مرة في المطابع العادية سنة ١٩٥٦، باستثناء « رسالة الحشر » التي طبعت خفية في استانبول قبل ذلك بواسطة أحد طلابه. وكانت تنشر في المدن والقرى بواسطة « سعاة بريد النور » الذين كان واجبهم ينحصر في نقل الرسائل من مكان إلى آخر.

٦- جماعة النور في الميزان

بعد أن طلق النورس السياسة واهتم بالتربية وإنقاذ الإيمان اتجهت دعوته إلى الاتجاهات الصوفية أكثر منها إلى الحركات التنظيمية، وإن لم تخل هذه الحركة من السمات التنظيمية كالتجمع حول رسائل النورسي كمنهج وتداول هذه الرسائل بواسطة الاستنساخ باليد ونشرها في كل مكان بواسطة سعاة متخصصين. ويمكن القول إن الأساس العقائدي لهذه الجماعة كان واضحاً في رسائل النور وعليه قامت مرحلة التربية للأعضاء

والمريدين. وكان النورسي رحمه الله يلح على جماعته بأن لاتربط حركة النور باسمه قائلًا:

« إن هذا ظلم كبير للحقيقة، إن الحقيقة الخالدة لايمكن لها أن تتأسس على كاهل شخص، يجب أن تعلموا انني مجرد « دلال » أنادي على بضاعة القرآن ومعجزاته الموجودة بين يدي الإنسان في كل عصر، إن من أكبر الخطأ اتخاذي مظهراً أو قائداً لحمل هذه الرسالة، إذ أن شخصي معرض دائماً للتهم والنقد والهجوم والإيذاء، وفي ذلك ما يضعف من قيمة رسالة النور نفسها عندما تقرن بي وعلى أنني الموجد لها والمبدع لحقيقتها، لاتربطوا رسائل النور بشخصي الفاني لئلا تضروها بذلك، ولكن اربطوها بمنبعها الأصيل فهو بعيد عن أي متناول ».

وقد غالى طلابه بعد وفاته غلواً كبيراً في تعظيمه حتى أن بعضهم كان يمضي حياته في نسخ رسائل النورسي بخط يده معتبراً ذلك جهاداً لايدانيه أي عمل آخر للإسلام.

وبعد وفاة النورسي تعرضت تركيا إلى موجة من الغزو الفكري والنفسي في محاولة من العدو الصليبي لقطع أية صلة لهذه الأمة بالإسلام، ولم تكن جماعة النور قادرة على مواجهة هذا الغزو نظراً لأن الوهن بدأ يدب في صفوفها محدثاً فيها شروخاً عميقة وانقسامات متعددة، نظراً لأن النورسي كان في حياته قائداً لجنود هذه الجماعة، فلما لم يترك من خلفه قادة قادرين على ملء الفراغ الذي تركه، فترك جماعة جنود بلا قائد وعندما برز « حزب السلامة » في تركيا كواجهة للعمل الإسلامي الحركي تمكن من استقطاب معظم شباب النور، إلا أن أعداء الإسلام عملوا على الإيقاع بين جماعة النور وحزب السلامة فانقسم شباب النور إلى ثلاثة اتجاهات:

- اتجاه التحم مع حزب السلامة التحاماً عضوياً.
- اتجاه بقي على الحياد وتشكل منه حزب النظام الوطني « ملي نظام ».
- واتجاه أعلن عداوته لحزب السلامة وتحالف مع حزب العدالة برئاسة « ديميريل ». ومهما يكن من أمر فلم تعد جماعة النور الجماعة القادرة على مواجهة التحدي الصليبي والعودة بتركيا إلى الإسلام من جديد.

٧- ثورة الشيخ سعيد بيران

ذكرنا أن الشيخ « سعيد بيران » تزعم حركة مسلحة في المناطق الكردية لإعادة الخلافة ومحاربة العلمانيين، وأن الشيخ سعيد النورسي- بالرغم أنه كردي- رفض التعاون مع هذه الحركة، لأنه كان قد طلق السياسة ولأنه كان يرى أنها حركة ضعيفة لايمكن أن تقوى على مواجهة القوات التركية ومن خلفها الدول الاستعمارية، وبالرغم أن حدس الشيخ سعيد النورسي قد تحقق إلا أن ثورة الشيخ سعيد بيران كانت ثورة إسلامية تدافع عن عقيدة الإسلام وشريعته.

لقد كان لسقوط الخلافة الإسلامية أبلغ الأسى في نفوس المسلمين في كل مكان، وكان للإنكليز الدور الأكبر في ذلك، وقام المسلمون في أنحاء مختلفة من الأرض يحاولون معالجة الأمر كل بطريقته، واختلفت المحاولات من الاحتجاج والإدانة إلى الثورة المسلحة.

ففي الهند جاء وفد من مسلميها إلى تركيا يقدم التماساً لكمال أتاتورك أن يعدل عن رأيه في إلغاء الخلافة، واقترحوا عليه أن يتولاها هو بنفسه، والمسلمون على استعداد لمبايعته، ولكن محاولاتهم ارتطمت بتصميمه الجازم على المضي فيما أقدم عليه.

وفي مصر تنادى علماء الأزهر إلى عقد مؤتمر عام يبحثون فيه قضية إلغاء الخلافة وبعد مشاورات ولقاءات نجح بعضها، وأخفق بعضها الآخر بسبب العراقيل التي كان الإنجليز يضعونها في هذه السبيل، انعقد مؤتمر عام « ١٣٤٥ هـ - ١٩٣٦ م » إلا أنه لم يسفر عن شيء، إلا أن أعظم رفض وأعنفه لسقوط الخلافة كان هو التمرد المسلح الذي قاده الشيخ سعيد عام ١٩٢٥ في شرقي تركيا والذي عرف في تاريخ الإسلام المعاصر بـ« الثورة الكردية » زوراً وبهتاناً، فقد نسب المؤرخون المعاصرون هذه الثورة الإسلامية إلى الأكراد انسياقاً وراء التفسير العنصري للتاريخ، بعد أن طغت المفاهيم القومية على أفكار الناس وفي محاولة مريبة لنزع الصبغة الإسلامية عن ثورة الشيخ سعيد، وتقديمها للناس على أنها قامت بدافع عنصري من الأكراد للانفصال عن تركيا وتأسيس وطن قومي لهم، إلا أن القضية ليست كذلك، فثورة الشيخ سعيد قامت على أساس إسلامي، وكانت استجابة طبيعية لما حدث في تركيا، ومحاولة مسلحة لإعادة الخلافة، فالذين قادوها هم علماء الحركة النقشبندية وهي حركة جهاد إلى جانب كونها حركة تعليم وتهذيب، وعلى رأسهم الشيخ سعيد، وغاية الحركة هي: إعادة الخلافة الإسلامية، وقد رشحوا لها الأمير سليم بن عبد الحميد الثاني، مما يدل على أنه ليس لها طموحات عنصرية أو إقليمية، والذين خاضوا غمارها واصطلوا بنارها كانوا يرفعون لواء الجهاد في سبيل الله، حمية لدينه الذي طمس العلمانيون الجدد « اللادينيون » في تركيا معالمه، وتحدوا الأمة في عقيدتها ومقدساتها. قامت الثورة في شباط من عام ١٩٢٥ وما لبثت أن امتدت إلى جميع الولايات الشرقية، وطالب الثوار بإعادة الخلافة ومبايعة الأمير سليم، وتقدموا بنجاح إلى « ديار بكر » و« مأمورية العزيز » كما سقطت في أيديهم مدينة « أمد » ومقاطعة « خربوط » وكان الشيخ سعيد حيثما حل يستنفر الناس للجهاد، ولقيت

نداءاته استجابة واسعة من قبل الجماهير المسلمة.

لكن الحكومة الكمالية- وقد أحاط بها الخطر- استنفرت الجيش بأكمله وزحفت إلى ديار بكر، معقل الثورة، بثماني فرق عسكرية مدججة بالسلاح، وراحت تعيث فساداً وتقتل الأبرياء بقسوة لامثيل لها، وباتت المنطقة طعماً للنار والسيف حيث أحرقت قراها وعذب رجالها وقتلوا، وأتلفت محاصيلها واغتصبت نساؤها. وبعد شهرين تمكن الجيش الكمالي من تطويق المنطقة، مما جعل الثوار يتحولون إلى حرب العصابات، ولقلة الامدادات، وانعدام التكافؤ بين الطرفين في السلاح والعتاد أرغم الثوار ومعهم الشيخ سعيد على الاستسلام ولما يمض على الثورة إلا بضعة شهور، وحوكم الشيخ سعيد في أنقرة محاكمة صورية، وحكم عليه بالإعدام شنقاً مع ستة وأربعين من رجال ثورته من زعماء القبائل، ونفذ الحكم أمام أحد مساجد ديار بكر إمعاناً في الانتقام والحقد، ووقف الشيخ سعيد تحت حبل المشنقة ثابت الجنان شجاعاً مستمداً من إيمانه عزماً حديدياً لمواجهة الموت شهيداً في سبيل ربه، وقبل أن يوضع حبل المشنقة حول عنقه التفت إلى قاضيه وجلاده رئيس المحكمة الذي أصدر عليه حكم الإعدام قائلًا:

سنصفي حسابنا يوم الحساب الأخير، ثم استسلم للموت بصمت.

ولم يكتف أتاتورك بما أوقعه في الأكراد من مجازر ونكبات، فأرسل محكمته «المهزلة» تحاكم الأبرياء بدعوى مساندتهم للثورة، فحكمت على آلاف الرجال بالإعدام، ويذكر المؤرخون أن ضحايا المذابح بلغوا أربعين ألف شهيد، ولم يثن ذلك كله الناس عن عزمهم، فعادوا إلى الثورة من جديد في جبال «ارارات» وحول بحيرة «وان» عام ١٩٢٩ م رافعين راية الجهاد ضد حكام أنقرة اللادينيين، وعادت الجيوش التركية بما يزيد على

خمسة عشر ألف جندي للفتك والقتل والتدمير، وأخمدت الثورة مرة أخرى بقسوة بالغة، وهاجر السكان من بلادهم إلى مناطق نائية وصدرت القوانين الصارمة بالاعدامات والنفي والتهجير.

وبعد: فإن ثورة الشيخ سعيد كانت ثورة إسلامية ضد الحكم اللاديني في تركيا هدفها: إعادة الإسلام وإحياء الخلافة، وليست هي الوحيدة من نوعها، فقد تزامنت مع ثورة الأمير عبد الكريم الخطابي في جبال الريف بالمغرب ضد الإسبان، ومع ثورة البطل الشهيد عمر المختار في الجبل الأخضر بليبيا ضد الاستعمار الإيطالي، كما سبقتها ثورات إسلامية أخرى كثورة الإمام شامل في جبال القفقاس، وثورة عبد القادر الجزائري..

المصادر

١- كتاب سعيد النورسي للسيد مصطفى زكي العاشور.
٢- كتاب الآية الكبرى ترجمة السيد إحسان قاسم الصالحي.
٣- مقالة بعنوان «جماعة النور - تركيا» بقلم السيد فتحي يكن. مجلة الأمة جمادى الآخرة ١٤٠١.
٤- مجلة «الأمة» العدد «١٢» عام ١٤٠١.

ثورة الشيخ الشهيد
عاطف الأسكيليبي

١ - مقدمة

أدركت الصليبية واليهودية منذ الحروب الصليبية الأولى ان قوة المسلمين تكمن في عقيدتهم وقوة وحدتهم وسمو أخوتهم، ولهذا هزموا أمامهم على الرغم من تفوق هؤلاء الصليبيين على المسلمين في العدد والعدة. ومنذ ذلك الوقت أخذوا يخططون لتشكيك المسلمين في عقيدتهم وسلخهم من دينهم وإيمانهم، وتحطيم وحدتهم وتجزئة أوطانهم، وبذر بذور الفرقة والشقاق بينهم حتى يفقدوا رابطة الأخوة في الله، وبذا تتذبذب شخصيتهم وتذوب في شخصية غيرهم من الأمم. ولتحقيق الهدف الأول أخذوا يكيلون التهم لدينهم ويركزون على المتشابه فيه، ويشككون المسلمين في صلاحيته للتطبيق مرة أخرى في الحياة، ويدللون على قولهم بأن هذا العصر عصر العلم ولم تنهض أوروبا من سباتها إلا حينما تركت الدين جانباً وأخذت بالعلم فقط، هذا بالإضافة إلى الغزو الثقافي والعقائدي والتنصيري الذي شنوه على العالم الإسلامي فأدخلوا المبادئ المادية الهدامة كالقومية والعلمانية والشيوعية والاشتراكية في محاولة لتحل محل العقيدة الإسلامية في نفوس المسلمين.

ولتحقيق الهدف الثاني اخذوا يثيرون القلاقل في الدولة العثمانية بواسطة الأقليات غير الإسلامية التي كانت تسكن في هذه الدولة وتنعم بعدلها وحمايتها. واستطاعوا أن يوجدوا لهم بعض الأعوان في المناصب الحساسة في دولة الخلافة، كانوا بمثابة العيون على الدولة العثمانية، كما كانوا معاول هدم يهدمون جبهتها الداخلية، وبواسطة هؤلاء «يهود الدونمة» استطاعوا أن يهدموا الخلافة الإسلامية ففقد المسلمون الراعي الذي يرعاهم والقائد الذي يقودهم ويحميهم، وبذلك أصبحوا كالغنم القاصية فاستطاعت الدول الصليبية أن تستولي على بلادهم وأن تجزئ وحدتها وتسلبها خيراتها.

ولتحقيق الهدف الثالث، بدأ الماسونيون من يهود الدونمة بإثارة النعرات القومية بين شعوب دولة الخلافة وأخذوا يروجون- ابتداء- للقومية الطورانية «التركية» فأخذت الشعوب الإسلامية التي كانت تحت حكم الخلافة تشعر بأن الرابطة الإسلامية التي كانت تربطها بتركيا قد بدأت تضعف، فأخذت كل أمة تنادي بقوميتها فأخذ العرب ينادون بالقومية العربية وأخذت بقية الشعوب تنادي بقوميتها، فانفرط العقد الذي كان يجمع هذه الأمم على الأخوة الإسلامية.

كان المرتكز الأساسي للدول الصليبية في المؤامرة على الخلافة العثمانية، هم يهود الدونمة وهم مجموعة من اليهود أسلموا ظاهراً وبقوا على يهوديتهم باطناً، وعقيدتهم «التقية» عقيدة أصلية في الديانة اليهودية «المحرفة» فهم على استعداد لاعتناق أي دين إذا كان في ذلك مصلحتهم، أما الحقيقة فإن اليهودي يبقى على يهوديته سواء أسلم أو تنصر، وقد لعب هؤلاء دوراً أساسياً في نشر مبادئ القومية الطورانية والماسونية، كما كان لهم اليد الطولى في تأسيس (جمعية الاتحاد والترقي) الماسونية التي كان لها

أكبر الأثر في إسقاط الخلافة العثمانية.

كان رجل جمعية الاتحاد والترقي في الجيش التركي يدعى (مصطفى كمال) الذي سمي (أتاتورك) أي أبو الأتراك، وهو في الحقيقة من يهود الدونمة ومشكوك في نسبة. يقول مؤلف كتاب (الرجل الصنم): إن نسبة احتمال كونه- أي مصطفى اتاتورك- تركياً تقل بكثير عن نسبة الخمسين بالمئة، أما نسبة الاحتمال في أنه لم يكن ابناً للرجل الذي يقدمونه كأب له فتتجاوز التسعين بالمئة، وأن أمه (زبيدة) ولدته في سلانيك- مركز يهود الدونمة- سنة ١٨٨٠ وهي امرأة جميلة في العشرين من عمرها، وعدم حشمتها ثابت بشكل متواتر من الجيل الماضي الذي شهد تلك الفترة، حملت بابنها كمال سفاحاً من أحد العاملين في مزرعة قريبة لها اسمه (حسين أغا) وتختلف الروايات حول نسب هذا الرجل الذي حملت منه زبيدة، فمن قائل انه بلغاري أو صربي أو روماني ثم الصق كمال بالرجل الذي تزوجته أمه فيما بعد واسمه (علي رضا أفندي).

نشأ عدو الله منذ نعومة أظفاره يكره الفضيلة وكل القيم الإسلامية، ويروي أنه كان مرة في فندق (بارك) وكان المؤذن يؤذن في مسجد قريب، فاستشاط كمال غضباً وقال: من قال بأننا مشهورون، وما شهرتنا نحن؟ أنظروا إلى هذا الرجل- يعني رسول الله ﷺ- كيف أن اسمه وشهرته يتكرر في كل لحظة، وفي جميع انحاء العالم، وأمر بالمنارة التي ارتفع الأذان من أعلاها ان تهدم فهدمت.

لم يعلن اتاتورك كرهه وحربه على الإسلام إلا بعد أن ركز أقدامه، فقد خطط له أسياده بأن يركب الموجة الإسلامية في محاولة لضرب الإسلام من الداخل، ففي إحدى المعارك التي اشترك فيها حمل المصحف واخذ يلوح به أمام الجنود ويحثهم على القتال ليكسبهم إلى صفه، وقد حاول ان يكسب

(سعيد النورسي) الزعيم التركي الإسلامي إلى طرفه حينما استدعاه إلى الآستانة فلما وجد أن سعيد قد كشفه، وعرف أنه وجماعته يحاربون الإسلام، وأخذ سعيد يهاجمهم في الصحف التركية، أخرجه من الآستانة ونفاه إلى المناطق الكردية.

ومن الطبيعي أن يتآمر اتاتورك على إلغاء الخلافة الإسلامية، وإزالة الأوقاف الإسلامية وإزالة الأحرف العربية وكتابة التركية بالأحرف اللاتينية، وألغى المحاكم الشرعية واستبدل بقوانينها القوانين الوضعية، وحرم أية دعوة للعودة بتركيا إلى الإسلام، وبإيجاز خلع ربقة الإسلام من عنقه، واتجه بتركيا نحو العلمانية والحضارة الغربية، وليس غريباً بعد ذلك حينما حضرته الوفاة أن يستدعي السفير البريطاني في تركيا ويعرض عليه بأن يسلمه رئاسة الجمهورية بعد موته. ولكن بريطانيا رفضت ذلك.

لقد شن اتاتورك وأسياده حرباً لا هوادة فيها على الإسلام والمسلمين، فحارب الإسلام عقيدة وشريعة وعادات وتقاليد، وشن حملة تصفية جسدية على العلماء المسلمين فأعدم الكثير منهم، ويذكر سعيد النورسي بأنه أعدم أمامه في يوم واحد خمسة عشر عالماً من خيرة علماء المسلمين كما حكم عليه هو بالاعدام ولكن الله سلمه، وفي يوم الخميس ٤ فبراير ١٩٢٦م، نفذ اتاتورك وزبانيته حكم الأعدام في «أربعة وأربعين» عالماً من خيرة علماء المسلمين، كان منهم الشهيد الشيخ «عاطف أفندي الاسكيليبي» لا ذنب لهم إلا لأنهم قالوا لأتاتورك أنت ظالم وخارج عن الإسلام، رحمهم الله رحمه واسعة وأسكنهم فسيح جناته.

٢- حياته

هو محمد عاطف الأسكيليبي المدعو «عاطف أفندي» وكلمة عاطف

وخوجة تعني في تركيا عالم الدين. ولد الشيخ عاطف في قرية « طونجانة » التابعة « لاسكيليب » في الأناضول عام ١٨٧٦م من أسرة عريقة في العلم والنسب، وفتح عينيه على الحياة وقد بدأ يهود الدونمة يتسللون إلى المناصب الرئيسية في دنيا الخلافة، وبدأ صراع الماسونية والصليبية مع سلاطين بني عثمان، وبدأت الدولة العثمانية تضعف شيئاً فشيئاً.

تلقى الشيخ عاطف علومه الابتدائية في قريته، ثم رحل إلى اسكيليب عام ١٨٩١ حيث تلقى علومه الدينية، ثم انتقل إلى استانبول عام ١٨٩٣ وأنهى فيها دراسته الإسلامية ولم يبلغ من العمر السادسة والعشرين، وفي عام ١٩٠٢ حصل على إجازته العلمية، وفي نفس العام دخل امتحان التقدم لكلية الإلٓهيات التي كانت تابعة لجامعة استانبول فكان ترتيبه الثاني على المتقدمين، وفي عام ١٩٠٥ تخرج من هذه الكلية وعين مدرساً بدرجة « مدرس عام » في جامعة الفاتح، فاستغل التدريس لكي يعظ طلابه وينشر ما بينهم المبادئ الإسلامية الصحيحة ويوجههم الوجهة الخيرة.

وفي عام ١٩٠٨ عندما قبل السلطان عبد الحميد الثاني إعلان المشروطية (الدستور) على الأسس الغربية، بدأ أفول نجم الخلافة الإسلامية كما بدأ عهد الماسونية وجمعية الاتحاد والترقي فأخذوا يتصدون لكل عالم ولكل مخلص، وكان الشيخ عاطف من أوائل الذين نالهم الأذى والظلم، فأبعدوه عن استانبول إلى (سينوب) ثم إلى (جوروم) ثم إلى (يوغارليان) ثم إلى (سنقرلو) في بلاد الأناضول، وبقي يتنقل منفياً من بلد إلى بلد حوالى أربع سنوات ثم أطلق سراحه.

لم يفت الاضطهاد والنفي في عضد الشيخ بل بقي يقول للظالم أنت ظالم لا تأخذه في الله لومة لائم، فلما حدثت الانتخابات في عهد جمعية الاتحاد

والترقي انتخبه أهل (جوروم) نائباً عنهم، فاستغل هذه الفرصة لينتقد الماسونيين وحكم الاتحاد والترقي، وكان بنفس الوقت يدرس مادة التفسير في القسم العالي في مدرسة دار الخلافة ومادة حكمة التشريع في مدرسة القضاء في استانبول، كما اشترك في دروس مجلس السلطان (حضور در سلرى) وهي مناظرات عامة يقوم بها العلماء بحضور السلطان العثماني. وأصبح أثناء ذلك مديراً عاماً للمدرسة الابتدائية الداخلية في استانبول وبقي فيها حتى عام ١٩٢٤ أما بعد هذا التاريخ فقد اقتصر في مهامه على التدريس فقط في جامع الفاتح، فعمل فيه واعظاً ومدرساً.

أدرك الشيخ عاطف ان المسجد والمدرسة غير كافية لتوعية الشعب، وان وسائل الإعلام لها أثر في تحريك وتغيير الرأي العام، ولهذا بدأ يكتب في العديد من الصحف والمجلات مثل مجلتي (بيان الحق) و(صراط مستقيم) وهي من أشهر المجلات الإسلامية في الدولة العثمانية، وأكثر من الكتابة في مجلة (محفل) وركز فيها على توعية الشعب التركي بروح الشريعة الإسلامية، والأسس الفقهية والتشريعية التي تقوم عليها بالإضافة إلى الأسس الروحية والسيادية.

كان بيت الشيخ عاطف في استانبول مقصد المسلمين يفدون إليه من كل جهات العالم على أساس أن استانبول مركز الخلافة الإسلامية، فكان يفد إليه المسلمون من اليابان والبلاد العربية وبلاد القرم وغيرها من الدول الإسلامية، يستفتون الشيخ في أمور دينهم، وكان الشيخ بالإضافة إلى كرمه في استضافة زواره كريماً في إجابتهم على اسئلتهم وإيجاد الفتوى لكل معضلة يسألون عنها، مما زاد تعلق الناس في الشيخ فأدرك ان العمل الفردي لا يمكن أن يحقق أهداف الإسلام، ولهذا بدأ يعمل عملاً جماعياً، فأسس (جمعية تعالى إسلام) (أي رفقة الإسلام) كان لها أثر كبير في توعية

الناس بحقيقة واقعهم، كما انها كانت أول جمعية تعمل لرد الغاصبين عن الأراضي التركية.

٣ - استشهاده

بدأ اتاتورك والماسونيون بتطبيق مخطط العلمانية في تركيا، فأصدروا في ١٥ فبراير عام ١٩٢٤ ثلاثة قرارات تضمنت:

١ - إلغاء الخلافة الإسلامية في تركيا، وطرد جميع آل عثمان من البلاد، وقد نفذ هذا القرار في ليلة الموافقة عليه.
٢ - إلغاء وزارة الأوقاف والشؤون الشرعية.
٣ - إلغاء التعليم الديني وتوحيد التعليم في تركيا.

وقد اتخذ اتاتورك هذه القرارات في مجلس من قادة الجيش والأركان ولم يستشر أحداً من ممثلي الشعب.

وفي عام ١٩٢٥ صدر قانون الملابس في تركيا، والذي يستبدل بالطربوش القبعة ولم يستطع الشيخ عاطف أن يقف مكتوف الأيدي أمام هذه القرارات فقد أصدر رسالة بعنوان (تقليد الفرنجة والقبعة) وعلى أثر صدور هذه الرسالة القي القبض عليه وأودع في سجن انقرة وحكم عليه بالاعدام وفي هذا السجن نفذ الحكم يوم الخميس ٤ فبراير عام ١٩٢٦. وقد صدرت الصحف التركية في اليوم الثاني بعناوين بارزة تقول (تم تنفيذ حكم الاعدام في الشيخ عاطف الأسكيليبي مؤلف الكتب الرجعية) ولما ارادت زوجته التأكد من خبر اعدامه جاءها الجواب (مات الشيخ عاطف أفندي) ويعقب أحد الكتاب الأتراك على هذا الرد بقوله (لم يستطيعوا أن يقولوا قتلناه. ذلك أنهم كانوا يخافون من جثته بعد موته).

في تلك السنوات الحالكة حذف الأتاتوركيون دروس الدين من المدارس، كما حذفوا كلمات (الخالق، الرب، الله جل جلاله) من الكتب المدرسية، ووضعوا مكانها كلمات (الطبيعة والتطور، والوطنية والقومية.. الخ) فقد كانت الغاية من هذا تنشئة الأجيال على الالحاد والعلمانية، ولعل من المفيد أن أنقل ترجمة الفقرة الأخيرة من مادة (الله) جل جلاله الواردة في (دائرة معارف الحياة) التركية المطبوعة في استانبول سنة ١٩٣٢. الجزء الأول:

« إن الفكرة التي تريد الأديان الموجودة حالياً أن تبثها هي: ان الله واحد وأنه هو الله خالق الكون، ولكن التقدم العلمي بدأ يوضح شيئاً فشيئاً بأن هذه الفكرة باطلة، وإنه لا وجود لشيء اسمه (الله) وقد انتشرت فكرة عدم الاعتقاد بالله بين أوساط المثقفين ».

٤ - آثاره وأفكاره

يمكن استقراء آراء الشيخ عاطف رحمه الله من خلال مقالاته ورسائله وخطبه وكتبه والتي يمكن حصرها بما يلي:

١ - مرآة الإسلام.
٢ - طريق الإسلام.
٣ - دعوة الإسلام.
٤ - المسكرات في دين الإسلام.
٥ - القوات البرية والبحرية في نظر الشريعة.

ويمكن تلخيص أفكار الشيخ عاطف وآرائه:

أ - انه كان متبعاً وليس بمبتدع: فهو يقول في كتابه « مرآة الإسلام »: « مذهب أهل السنة والجماعة هو الحق، وكل ما عداه باطل، واعتقاد أهل

السنة والجماعة هو الطريق الحق الذي بينه الله تعالى في القرآن الكريم، والذي ذكره الرسول ﷺ بأحاديثه الشريفة، وليس في اعتقاد من اتبع هدا! أي اعوجاج... ».

ب- **الاهتمام بأمر الخلافة:** فمعنى الخلافة وصلاحيات الخليفة وواجباته- زمن العثمانيين خاصة- أخذت طابعاً بدأ يبتعد عن المعاني والأبعاد التي ارادها الإسلام، ولهذا ركز الشيخ عاطف على الحقوق والواجبات الشرعية للخليفة فهو يقول في كتابه (طريق الإسلام): « الخليفة هو خلف لسيدنا رسول الله ﷺ مهمته النظر في أعمال الناس الدينية والدنيوية، وهو الرئيس الأعلى الذي يدير هذه الأعمال، واختيار الخليفة واجب على كل المسلمين، يشترط أن يكون الخليفة مسلماً حراً ذكراً بالغاً قادراً على إدارة أمور الدولة وعلى الحفاظ على البلاد، وعلى تنفيذ أحكام الدين، ويصبح الشخص الذي تتوفر فيه هذه الشروط خليفة بقبول علماء الأمة وعقلائها له خليفة للرسول وحاكماً على الناس، وواجب على عموم المسلمين وغير المسلمين الذين يقبلون التبعية للحكومة الإسلامية إطاعة أوامر الخليفة التي تتفق والشريعة الإسلامية، وأن يكونوا جنوداً وأن يدفعوا الضرائب وأن لا يعصوه ولا يقاوموا ضده، أما الذين لا يخضعون لأوامره المتفقة والشريعة والذين لا يكونون جنوداً ولا يدفعون الضرائب يكونون عصاة مذنبين، أما تنفيذ أوامر الخليفة المخالفة للشريعة فهي حرام ».

أما عن واجبات الشعب تجاه الخلافة فيقول في كتابه (طريق الإسلام): واجبات الناس تجاه الخلافة عشرة واجبات هي:

١ - إطاعة أوامر الخليفة وعماله إذا وافقت الشريعة.

٢- دفع الضرائب الواجب دفعها للحكومة شرعاً مثل العشر والخراج وزكاة الأموال الظاهرة في حينها.

٣- أداء الخدمة العسكرية.

٤- معاونة الحكومة في كل ما هو حق، مالاً وبدناً وفكراً ولساناً وقلماً.

٥- بجانب عدم القيام ضد الخليفة، فالواجب صيانة الخليفة وحمايته من أصحاب الفساد ومن فتن أصحاب الفتنة، وكذلك من مؤامرات أعدائه.

٦- تحويل قلوب عموم التبعة (الشعب) خاصة هؤلاء الذين ينفرون من الخليفة، من العداء له إلى واجبه وطاعته.

٧- اخبار الخليفة بظلم موظفيه وعامليه وبمعاملاتهم السيئة.

٨- إيقاظ الخليفة إذا غفل، ومنعه من الظلم، وإرشاده إلى طريق الحق والعدل بتصحيح خطئه، ومنعه من ارتكاب المعصية.

٩- إظهار الاحترام اللائق للخليفة والدعاء له بصلاح أمره.

١٠- تقديم النصح للخليفة سراً أو علانية.

ويتحدث الشيخ عاطف في نفس الكتاب عن وجوب البيعة للخليفة فيقول:

«إن بيعة المسلمين للخليفة أمر واجب، وهو ثابت بالعقل والشرع، والدليل الشرعي في هذا، هو إجماع الصحابة والتابعين واتفاقهم عليه، ففي يوم وفاة سيدنا الرسول صلوات الله وسلامه عليه اجتمع الصحابة رضوان الله عليهم، قبل دفنه ﷺ في المكان الذي أطلق عليه سقيفة بني ساعدة وتشاوروا في أمر بيعة الخليفة وبايعوا سيدنا الصديق رضي الله عنه بعد أن اتفقت كل آراء الأمة على أنه أحق وأليق الجميع لمقام الخلافة، وقد استمر الوضع على هذه الشاكلة أيضاً في عهد الصحابة وعهد التابعين

من بعدهم، وبناء على ذلك فإن وجوب تعيين الخليفة ثابت بإجماع الأمة بطريق الأدلة الشرعية (شريعة الحضارة، نقلاً عن صادق آل بابران، السائرون والمنفيون في سبيل الشريعة).

وحيث ان الغاية الأساسية في الخلافة، هي تنفيذ أحكام الشريعة وتنظيم شؤون الأمة، ولأن هذا يستلزم الاعتماد على القوة والسلطة فإن الأصل في شروط الخلافة والذي يتقدم على كل الشروط هو: «القدرة والقوة».

ثم يحث الأمة على تحمل مسؤولياتها والقيام بواجباتها تجاه الشريعة والحكومة فيقول: «أيتها الأمة إذا كنتم تريدون التخلص من الظلم، وإذا كنتم تريدون التحرر كلية من الأسر، فأكسبوا أنفسكم القدرة على الوفاء بواجباتكم الشرعية، ثوروا ضد ظلم الظالمين بأي شكل كان، ثوروا ضد كل عمل مخالف للدين يقوم به فرد أو تقوم به حكومة» (المرجع السابق).

ولما كانت فريضة الجهاد ماضية إلى يوم القيامة فإن كل الأمة آثمة إذا أظهرت أي تكاسل أو تراجع عن حرب الأعداء بالمال والرجال. ففي مقالة للشيخ عاطف بعنوان (الجهاد) نشرها في مجلة (بيان الحق) قال فيها:

«إن الأمة المسلمة سواء كانت في منطقة الروملي (أوروبا الشرقية وكانت تابعه للدولة العثمانية) أو في الولايات الأخرى أو حتى في الشرق أو في الغرب، إذا أظهرت هذه الأمة التكاسل في الحرب ضد العدو الغاصب سواء كان هذا التكاسل بدنياً أو مالياً.

وإذا ما تسببت هذه الأمة (في أي مكان هي فيه) في هزيمة الحكومة الإسلامية أو تسببت في انهيارها كلية، فإن أفراد هذه الأمة المسلمة جميعاً آثمون قد ارتكبوا بذلك الذنب الكبير مثل ذلك مثل قتل النفس واكل

لحم الخنزير وشرب الخمر وارتكاب الزنا، وتكون الأمة كلها قد عصت شريعة الله ».

وفي مقالة له بعنوان (القوات البرية والبحرية في نظر الشريعة) نشره في جريدة (صراط مستقيم) في سبتمبر ١٩١٠ جاء فيه.

«لو أن شخصاً دفع عشر بارات من النقود مساعدة للأسطول، ونتج عن هذه المساعدة مسمار في مدمرة اشترتها الدولة الإسلامية أو صنعتها، ومن ثَمّ دفعت هذه المدمرة إلى الحرب، وكان المسمار فيها، فأن الشخص المتبرع بهذا المبلغ له ثواب دائم في حياته وبعد مماته، وكما لو كأنه اشترك بالحرب فعلًا ».

ج- الحث على العادات والأخلاق الإسلامية ومحاربة التفرنج: عاش الشيخ عاطف في وقت شاهد بأم عينه بدء التفلت من العادات والأخلاق الإسلامية والأخذ بالعادات والأخلاق الغربية، ولهذا ركز في كتاباته وخطبه ومواعظه على توعية الناس بأخلاق الإسلام وعاداته ومحاربة التقليد للأفرنج. ففي رسالة له بعنوان (التستر الشرعي) يتحدث عن تستر المرأة المسلمة وحجابها فيقول:

١- المرأة مجبرة على الاشتغال بالأعمال المنزلية وبتربية الأطفال فهذا من وظائفها الأساسية.

٢- ضرورة منع ما يفسد سعادة العائلة من أسباب الكدر والوهم والوقوع في الشبهات، ذلك الذي يحدث عند رؤية رجل عفيف وشريف لعائلته وهي تختلط برجال أجانب عنها فيأخذ منه الشك مأخذاً، ويتولد من هذا السبب حدوث النفور بين الرجل وأهله.

٣- ضمان سعادة الأسرة في اطار العفة والشرف بمنع زيادة سوء الخلق

ومنع الفواحش وظهورها، لذلك يجب منع الذين يعملون للاخلال بهذا قولاً وكتابة وفعلاً، ومعاقبتهم، كذلك الأمر للذين لا يرعون الحجاب من الناس. إن هذا من الواجبات الدينية للإداريين (للمسئولين) الذين تكون مهمتهم حكم الناس.

أما الذين يبدون- من هؤلاء- تسامحاً أو إهمالاً فأنهم يكونون مسئولين أمام الله لأنهم لم يوفوا بواجباتهم الشرعية وهم بذلك يستحقون العذاب الإلهي والجزاء السيء، وإنه لفرض على كل مسلم، كل حسب قدرته، تنفيذ أوامر الدين ونواهيه، بدفاعه وبمواجهة الذين يعملون على إزالة شعار من شعائر الإسلام أو أركانه أو لغوها. ومن الجدير بالذكر ان كتابه (تقليد الفرنجة والقبعة) كان السبب المباشر للحكم عليه بالاعدام.

٥- الصحوة الإسلامية في تركيا

قضى الشيخ عاطف نحبه شهيداً في سبيل دينه وعقيدته إلا أن دمه لم يذهب سدى فقد مد من جسده جسراً عبرت عليه الأجيال التي تلته إلى الله ففي تركيا التي حولها اتاتورك إلى دولة علمانية وسن من القوانين وألف من الأحزاب من يدافع عن هذه العلمانية ويضمن استمرارها.

ومع ذلك فالصحوة الإسلامية في تركيا جزء من الصحوة الإسلامية العالمية، وفي تركيا عودة صادقة إلى الله بالرغم من الحرب الشرسة التي تشنها الماسونية والصليبية على الإسلام والمسلمين في كل مكان وفي تركيا خاصة.

ففي بداية الخمسينات خاض الحزب الديمقراطي التركي- الذي أسسه جلال بيار وعدنان مندريس- الانتخابات، وكانت نتيجته فيها مشرفة

عندما اكتسح الانتخابات أمام حزب الشعب الذي انفرد بالحكم في تركيا لمدة ربع قرن. وسبب هذا الانتصار للحزب الديمقراطي انه وضع في برنامجه الانتخابي بعض البنود التي تذكر المسلمين بالإسلام وتساعدهم على العودة إلى الله. وكان هذا البرنامج يتضمن ما يلي:

١ - عودة الأذان باللغة العربية.
٢ - السماح للأتراك بأداء فريضة الحج.
٣ - السماح للأتراك بقراءة القرآن.
٤ - إلغاء تدخل الدولة في لباس النساء.
٥ - إعادة اياصوفيا مسجداً كما كان من قبل.

٦ - الأنقلاب الأول

ولكن جنرالات الجيش الذين تربوا في أحضان العلمانية والماسونية ساءهم ما صنع عدنان مندريس حينما أراد أن يتوجه بالشعب التركي نحو الإسلام، فقاموا بانقلابهم الأول ضده عام ١٩٦٠ وأعدم مندريس، وكرس جنرالات الجيش مبادئ اتاتورك ولكن جذور الإسلام عميقة في تركيا، فقد أسس الدكتور نجم الدين اربكان عام ١٩٧٢ (حزب السلامة الوطني) وخاض الانتخابات عام ١٩٧٣، وحصل على ثمانية وأربعين مقعداً في البرلمان التركي، وشارك في أول حكومة ائتلافية مع حزب الشعب الجمهوري طوال أربع سنوات حقق فيها من الانجازات ما فشلت الأحزاب غير الإسلامية في تحقيقه طوال سنوات طويلة.

فقد أرسى حزب السلامة قواعد مائتي مصنع للصناعات الثقيلة، وبدأ في انشاء صناعات حربية، وأنشأ ثلاثة آلاف مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم، كما انشأ (٣٥٠) مدرسة للإمامة والخطابة، وعشرة معاهد إسلامية

عالية، كما أدخل دراسة مادة الأخلاق في المناهج المدرسية. وفي الذكرى السادسة والعشرين بعد الخمسمائة لفتح القسطنطينية على يد الخليفة العثماني محمد الفاتح، نظم حزب السلامة احتفالاً في ٢٩/ ٥/ ١٩٧٩، وسارت مسيرة إسلامية ضمت أكثر من مئة ألف شاب من شباب الحزب كان هتافهم هتاف الإسلام الخالد (الله أكبر) وقد تميزت هذه المسيرة بأن اشترك فيها الرجال إلى جانب النساء، كما اشترك فيها الشيوخ المسنون بلحاهم البيضاء إلى جانب الشباب بلحاهم السوداء الذين كانوا يحملون اللافتات الكثيرة المكتوب عليها. (الحاكمية لله) (المسلمون أخوة) (كل شيء من أجل الإسلام) (الإسلام ديني واسمي مسلم) (المستقبل للإسلام) (سيأتي الإسلام وتنتهي الوحشية) (يقظة المسلمين لن توقف) (ستتحطم الجنازير وسيفتح اياصوفيا للصلاة) (النهاية للصهيونية المستعمرة) (لا يسار ولا ماسون، الفكر الإسلامي هو الأول والأخير).

كما قام الحزب في عام ١٩٨٠ بمسيرة إسلامية ضخمة بمناسبة (يوم القدس) طالبوا بإعادة تركيا إلى الحظيرة الإسلامية، كما طالبوا بضرورة قطع كل علاقة لتركيا مع دولة العدو المغتصب لفلسطين.

٧- الأنقلاب الثاني

لقد هال اعداء الله ورسوله من الصليبيين واليهود ما اصبحت عليه تركيا، كما أن الصحوة الإسلامية أرعبتهم، فأخذوا يعملون بالليل والنهار داخل تركيا وخارجها للقضاء على هذه الصحوة أو إيقافها عند حدها. وكما فعلوا مع عدنان مندريس عام ١٩٦٠ فعلوا مع سليمان ديميريل رئيس الوزراء ونجم الدين أربكان، فقام جنرالات الجيش بانقلاب عسكري اطاحوا فيه بالحكومة المدنية عام ١٩٨١ وكان

أول عمل عمله قائد الانقلاب (الجنرال كنعان ايفرين) أن توجه إلى قبر اتاتورك وانحنى أمامه إجلالاً وتقديراً لشخصه ولمبادئه، كما أعلن إن السنة الحالية هي سنة اتاتورك وأنهم سيسيرون حسب المنهج العلماني الذي وضعه، وقال الجنرال كنعان «إن تركيا جزء لا يتجزأ من اوروبا الديمقراطية، ونحن نود أن يثق بنا اصدقاؤنا ويساعدونا في مهمة إعادة تركيا إلى النظام الديمقراطي، إن تركيا جزء لا ينفصل عن اوروبا الديمقراطية الحرة وهي ترغب البقاء على ذلك» وأكد عزمه على الأستمرار في توجيه تركيا تحت لواء حلف شمال الأطلسي.

وقد قدمت السلطات العسكرية نجم الدين اربكان للمحاكمة بتهمة التهجم على المنهج الاتاتوركي اللاديني، والدعوة إلى إقامة حكم إسلامي في تركيا، وطالب المدعي العام العسكري بإنزال عقوبة السجن باربكان لمدة تتراوح بين (١٤ - ٣٦) عاماً وبالسجن لمدة تتراوح بين (٢ - ١٧) عاماً بحق ثلاثة وثلاثين من أتباع اربكان، منهم سبعة عشر عضواً كانوا في آخر برلمان تركي. وقد علقت صحيفة الغارديان على ذلك بقولها: «هكذا يدفع اربكان ثمن مواقفه الإسلامية، فقبل أسبوعين من الإنقلاب العسكري انتقد زعيم الإنقلاب الجنرال كنعان، عدم احترام اربكان لأتاتورك واليوم الوطني التركي».

ومن الجدير بالذكر ان الرئيس الأميركي ريجان قال بهذه المناسبة «إن الولايات المتحدة تؤيد الحكومة التركية العسكرية بصدد مكافحة الارهاب» كما بعث ببرقية تهنئة لقائد الإنقلاب بمناسبة الذكرى المئوية لمولد مصطفى اتاتورك.

وأمام ضغط الرأي العام الإسلامي في تركيا وخارجها اضطرت الحكومة التركية للإفراج عن اربكان في شهر مارس عام ١٩٨٥.

وصدق الله العظيم:

﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾.

المصادر

١ - مجلة المجتمع العدد ٤٨٧، ١٧ شعبان ١٤٠٠.
٢ - كتاب (معركة الدين في تركيا) لصادق آل بايراق (استانبول ١٩٧٥).
٣ - كتاب (المظلومون من الإسلاميين في العهد الأخير) لنجيب فاضل (استانبول ١٩٧٧).
٤ - مجلة (الأمة) الأعداد ٢، ٦، ٨، ١٢ لعام ١٤٠١.

ثورة المجاهد
عبد رب الرسول سياف

١ - الأرض والشعب

تقع جمهورية أفغانستان في آسيا الوسطى وتقدر مساحتها بحوالى سبعمائة وعشرين ألف كيلومتر مربع، وتحدها من الشمال الجمهوريات الإسلامية السوفياتية وطول حدودها معها (١٢٠٠) كم وتحدها من الجنوب باكستان، ومن الغرب إيران، وهي بلاد جبلية مناخها قاري وعاصمتها «كابل» ويصل عدد سكانها إلى حوالي عشرين مليون نسمة وهم متعددو العروق والأجناس:

أ- **الباتان**: وهم سكان أفغانستان الأصليون وهم خليط من العنصر التركي والإيراني ويتكلمون لغة «البشتو» وهي خليط من الأردية والعربية والإنجليزية ونسبتهم ٥٣٪ .

ب- **الطاجك**: وهم من عنصر إيراني تبلغ نسبتهم ٢٦٪ ويتكلمون الفارسية.

ج- **الأوزيك**: وينحدرون من أصل تركي ونسبتهم حوالى ٥٪ .

د- الهزارة: وينحدرون من أصل مغولي ويبلغ عددهم حوالي نصف مليون نسمة.

هـ- البلوش: ويسكن معظمهم في مقاطعتي « هلمإند » و« هرات » وهم من أُصول عربية.

و- الهازاراس: وهي قبيلة صغيرة تسكن وسط البلاد، وتدين بالمذهب الشيعي.

ويعتنق ٩٩٪ من سكان أفغانستان الإسلام وفيهم نسبة ضئيلة من الشيعة.

٢ - موجز تاريخ أفغانستان

تعتبر أفغانستان مهد « الآريين » ولما فتحها المسلمون كانت تحت حكم الإمبراطورية الفارسية، وكانت تعتنق البوذية، وكان فتح المسلمين لها زمن الخليفة عمر بن الخطاب بقيادة القائد المسلم « الأحنف بن قيس التميمي ». ففتحها عام (٢٢ هـ - ٦٤٤ م) وفي العهد الأموي فتح محمد بن القاسم الثقفي بلاد السند، وفي العهد العباسي ظهرت فيها دويلات إسلامية كالغزنويين، وأشهر ملوكهم « محمود الغزنوي » (٣٦٥- ٣٨٧ هـ) ثم خلفهم الأتراك السلاجقة، ثم الغوريون، وانضمت أفغانستان إلى الدولة المغولية عام (١٢٢٣ م) وفي عام (١٧٣٩ م) استطاع محمد نادر شاه سلطان إيران أن يستولي عليها، فاغتاله أحد قواده واسمه « أحمد شاه » واستلم السلطة من بعده وقد حكم من (١٧٤٧ - ١٧٧٣ م) وخلفه ولده « تيمور شاه » الذي اتخذ من كابل عاصمة له، وخلفه « دوست محمد » عام (١٨٣٥ م) بعد أن فرَّ الملك « شجاع » إلى الهند واستعان بجيش إنجليزي أرجعه إلى الملك، إلّا أنَّ الأفغان حاربوا الإنجليز المحتلين فاعتلى العرش نجله الثالث « أمان الله خان » الذي تسمى بملك أفغانستان عام ١٩١٩، ولما أراد أن يتحرر من نفوذ الإنجليز خاض معهم معارك بقيادة السردار « محمد

نادر خان » مما اضطر بريطانيا أن تعقد معه معاهدة عام ١٩٢١ تعترف فيها باستقلال أفغانستان، ولكن « أمان الله خان » هذا كان يميل إلى التفرنج والاقتداء بأتاتورك، مما جعل الشعب الأفغاني يحمل عليه ففر إلى انجلترا، وتولى السردار « محمد نادر » الحكم في ١٥ تشرين أول ١٩٢٩ فكان ملكاً صالحاً أعاد بناء الدولة، ووطد دعائم الإصلاح، وضم ممتلكات الأسرة المالكة إلى أملاك الدولة، وجعل الشريعة الإسلامية مصدر الأحكام إلا أنَّ أعداء الله كانوا له بالمرصاد، إذ استطاعوا اغتياله في ٨ أبريل ١٩٣٣ م. فخلفه ولده « محمد ظاهر شاه » الذي بقي ملكاً على أفغانستان حتى ١٧ يوليو ١٩٧٣ م حينما أطاح به الانقلاب الأول، ويعيش الآن في ضاحية من ضواحي روما.

٣- الأطماع السوفياتية في أفغانستان

كانت روسيا القيصرية تطمح إلى الاستيلاء على الممالك الإسلامية في آسيا الوسطى للوصول إلى المياه الدافئة في المحيط الهندي والبحر العربي، ولذا استولت على « سمرقند » عام١٨٦٨ « وبخارى » عام ١٨٧٣ م ولم يأت عام ١٨٩٣ حتى كانت روسيا قد استولت على جميع البلاد الإسلامية التي تقع على الحدود الشمالية لأفغانستان، ولولا سياسة توزيع مناطق النفوذ بين الشرق والغرب التي بدأت في معاهدة « بطرسبرغ » عام ١٩٠٧ والتي نصت على أن تكون أفغانستان حاجزاً بين انجلترا وروسيا لما تمتعت أفغانستان بالاستقلال. ولمَّا نجحت الثورة الشيوعية بقيادة لينين عام ١٩١٧، كان يحلم بـ« حزام الأمن الأسيوي » ويقصد به إقامة حلف عسكري بقيادة الاتحاد السوفياتي بين جميع الدول الآسيوية، مما يؤدي إلى حصار أوربا والوصول إلى منابع البترول في إيران والخليج العربي.

وورثت أميركا النفوذ الغربي في المنطقة، ولما تولى الجنرال محمد داود رئاسة الحكومة في عهد الملك ظاهر شاه، وحتى يبرر طلبه المساعدة من الاتحاد السوفياتي، قام بطلب مساعدات عسكرية من الولايات المتحدة التي رفضت طلبه على الفور، فاتجه نحو روسيا طالباً المساعدات، فوجدت روسيا بهذا الطلب ضالتها المنشودة للتدخل في شؤون أفغانستان فتدفقت المساعدات السوفياتية على أفغانستان تحمل معها الفنيين الروس والضغط الروسي على سياسة أفغانستان، فحدث خلاف بين الملك وبين محمد داود أُقيل الأخير على أثره من منصبه عام ١٩٦٣، ولكن محمد داود كان قد رسخ أقدامه في الجيش والمخابرات، كما أنشأ بالاشتراك مع الشيوعيين «حزب الانقلاب الوطني» فاغتنم بعض الاضطرابات في البلاد، وغياب الملك في انجلترا فاستولى على الحكم وألغى الملكية وتولى هو رئاسة الجمهورية، وكان كل ذلك بتآمر ومساعدة الاتحاد السوفياتي.

ويمكن القول إنه بالإضافة إلى الأهداف الاستعمارية للاتحاد السوفياتي في أفغانستان فإنه كان يطمع في أن تكون دولة شيوعية، خوفاً من الصحوة الإسلامية التي أصبحت تنافس اليسار في أفغانستان، فقد التف الشباب المثقف حول الحركة الإسلامية وأصبحت جامعة كابل أقوى معاقل هذه الحركة، ويقال إن هناك الكثير من المتعاطفين مع الحركة في الجيش والحكومة، هذا بالإضافة إلى القاعدة الشعبية العريضة التي كانت تقوم عليها هذه الحركة مما جعل روسيا تستعجل وتغامر في إقامة انقلاب يساري في أفغانستان.

وهناك سبب جوهري آخر جعل روسيا تستعجل الاستيلاء على أفغانستان وهو أن الثورة الإسلامية إذا نجحت في أفغانستان فإنها ستمتد إلى شعوب الجمهوريات الإسلامية المتاخمة لحدودها والتي يصل طولها إلى

حوالى ١٢٠٠ كم، وهذه الشعوب تشترك في الدين واللغة والآمال والآلام، وهذه الجمهوريات غنية بمعادنها ومنتجاتها الزراعية.

كما أن الوصول إلى منابع البترول في إيران والخليج العربي كان أحد أهداف التوسع السوفياتي، فبالرغم أن روسيا الآن لديها اكتفاء ذاتي من هذه المادة الاستراتيجية، إلا أنها ستُصبح دولة مستوردة للبترول في القريب. ففي مساء يوم الجمعة ٤ - ١ - ١٩٨٠، وعلى أثر الإطاحة بحفيظ الله أمين، دعا بريجنيف رجال الكرملين إلى دراسة الموقف في أفغانستان، وبدأ كلامه بقوله «نحن نحتاج إلى النفط منذ بداية الثمانينات ونحن منذ الآن نستطيع أن نرفع صوتنا، لماذا النفط العربي للعالم الغربي وحده؟» وختم بريجنيف خطابه بقوله «أما القول بأن وجودنا في أفغانستان على مرمى حجر من آبار النفط العربية، فهذا يستوجب مني استدعاءكم إلى جلسة سرية؟».

وتعتبر أفغانستان خط الدفاع الأول عن باكستان والبلاد العربية وخاصة البترولية، لأنه إذا انهارت الحركة الجهادية في أفغانستان فإن طريق قندهار عبر بلوجستان مفتوحٌ بشرياً وجغرافياً، فإقليم بلوجستان من جوب إلى مكران قد تعب عليه الشيوعيون كثيراً حتى باضت الشيوعية فيه وفرخت. فهناك «غوث بخشى برنجو مري» وهناك «خير الله بخشى مري» زعيم قبائل مري، وهناك «عطا الله منكل» زعيم قبائل منكل، وكل هؤلاء من الزعماء الشيوعيين في بلوجستان الذين يأتمرون بأمر روسيا. ومن الجدير بالذكر أن المسافة من «نوشكي» بلد عطاء الله منكل إلى البحر «المياه الدافئة» لاتتعدى ثلاثمائة وخمسين (٣٥٠) كيلومتراً. وهناك «منظمة الطلبة البلوشية» وهي منظمة شيوعية لها وزنها في بلوجستان ففي ٢٧ ديسمبر ١٩٨٤، هي ذكرى اقتحام روسيا

لأفغانستان، رفعت هذه المنظمة الأعلام الروسية فوق مناطق بلوجستان وأنزلت العلم الباكستاني وبقي الوضع على هذه الحال لمدة أسبوع، وعلى مسمع ومرأى من الحكومة الباكستانية، ولكنها لم تستطع أن تحرك ساكناً.

٤ - الحركة الشيوعية في أفغانستان

ساعد على نشوء الحركة اليسارية في أفغانستان المساعدات التي كان يقدمها الاتحاد السوفياتي، ونشوء الحركة الديمقراطية والتي تدعى «ويخي زالمايان» أي «حركة يقظة الشباب» والتي تأسست عام ١٩٤٧، وكان من بين قادة هذه الحركة «نور محمد تراقي» زعيم الانقلاب الثاني والذي أطاح بمحمد داود، وبابراك كارمل، اللذان كانا من المؤسسين لحزب الشعب الديمقراطي الذي تأسس سراً عام ١٩٥١، وفي يناير ١٩٦٥ عقد هذا الحزب مؤتمره الأول ووضع برنامجاً شيوعياً واضحاً وانتخب لجنةً مركزية من تسعة أعضاء يرأسها نور محمد تراقي كأمين عام ومن أعضائها بابراك كارمل، وفي الوقت نفسه انتخبت لجنة رديفة من عشرة أعضاء كان أمينها العام حفيظ الله أمين. وفي حزيران ١٩٦٧ انقسم حزب الشعب إلى ثلاثة اتجاهات: خلق «الشعب» وبرجم «الراية» والثالث حزب ماركسي لينيني «ستامي ميلي» «الاضطهاد الوطني» وقد انفصل عن الحزب الثالث تيار آخر عرف باسم «شولايي جاويد» أي الشعلة الخالدة وهو موال للصين.

٥ - الانقلابات العسكرية

أراد حزب «برجم» أن يستولي على الحكم في أفغانستان، وكان يريد واجهةً وطنية كمرحلة إلى الشيوعية، فتحالف مع «محمد داود» وهو ابن

عم الملك وزوج شقيقته، وكان الملك قد نحاه عن رئاسة الحكومة- كما ذكرنا من قبل- ولما شعر الشيوعيون أن حكم محمد داود قد قوي، تحالف حزب «خلق» مع «برجم» وقاموا بانقلاب عسكري بقيادة نور محمد تراقي وقتل الشيوعيون محمد داود وخمسة وسبعين شخصاً من أفراد أسرته. وقد رأس الحكومة «تراقي» أما «بابراك» فكان نائباً للرئيس وأما حفيظ الله أمين فكان وزيراً للخارجية.

وكما يقولون «الثورة كالقطة تأكل أولادها» فقد انفرد تراقي بالحكم وأبعد كارمل إلى براغ كسفير، وعين حفيظ الله أمين رئيساً للحكومة، وفي ١٦ - ٩ - ١٩٧٩ احتدم الصراع بين تراقي وحفيظ الله، واستطاع الأخير أن يقتل تراقي ويتسلم رئاسة الجمهورية ولكن هذا التصرف لم يرض الاتحاد السوفياتي، فقامت الجيوش الروسية بغزو أفغانستان وأطاحت بحفيظ الله أمين وأعدمته ونصبت عميلها المخلص بابراك كارمل رئيساً للجمهورية.

ويمكن القول إن أخطر هذه الانقلابات كان انقلاب «محمد داود» إذ حقق الشيوعيون على يديه الكثير من أهدافهم. ففي خطاب «قائد الثورة» عام ١٩٧٥ والذي اتخذته الحكومة دستوراً لها نجد أن الحكم قام على القواعد التالية:

١ - القضاء على الإسلام باسم القضاء على الرجعية في أفغانستان.
٢ - محاربة الإسلام من خلال إحياء الوثنية والمجوسية والبوذية.
٣ - صرف الناس إلى الاهتمام بالفنون الشعبية. لخلق تاريخ لأفغانستان غير تاريخها الإسلامي.
٤ - التركيز على الايديولوجية القومية، كمرحلة إلى الشيوعية.
٥ - استخدام أسلوب البطش والإرهاب ضد الحركة الإسلامية خاصة.

٦ - الحركة الإسلامية في أفغانستان

جذور الإسلام عميقة في نفوس الشعب الأفغاني، وقد وصف أحد المراسلين هذا الشعب بقوله «عندما يحضرون مباراةً لكرة القدم، يتحول الملعب وقت الصلاة إلى مسجد، لأن الكل يصلي». ولهذا نجد أن هذا الشعب صمد بإسلامه أمام جميع الغزاة ومنهم أقوى دولة في العالم «الاتحاد السوفياتي» وكانوا من قبل قد لقنوا الإنجليز درساً لم ينسوه في ممر خيبر، كما لقنوا روسيا الشيوعية درساً أقسى منه في وادي «بنجشير».

وفي العصر الحديث بدأت الحركة الإسلامية في أفغانستان بمجموعة قليلة من الشباب الحركي كان منهم الشاب المؤمن الشهيد «منهاج الدين» الذي بدأ يترجم كتب الشهيد سيد قطب والشهيد عبد القادر عودة إلى لغة «البشتو» وهي لغة يتكلمها ٦٠٪ من سكان أفغانستان كما قام بإصدار جريدة أُسبوعية تدعى «جهيز» أي الفجر الجديد. وكان بعض الطلاب الأفغان يدرسون في مصر وكانت حركة الإخوان المسلمين في أوج نشاطها فتأثر الكثير من هؤلاء الطلاب بأساليب هذه الحركة في العمل للإسلام ومقارعة الاستعمار، وكان على رأس هؤلاء الدارسين والذي رأس الحركة الإسلامية في أول تأسيسها الأستاذ غلام محمد نيازي عميد كلية الشريعة في كابل، والذي حصل على درجة الدكتوراه في علوم الحديث من الأزهر الشريف، وكعميد لكلية الشريعة كان له أكبر الأثر في شبابها، فتأثر به عدد كبير منهم، حتى غدت كلية الشريعة معقلاً من معاقل الحركة الإسلامية، ومن الذين تأثروا وعملوا مع الدكتور نيازي الأستاذ برهان الدين رباني الذي كان محاضراً في كلية الشريعة والأستاذ (عبد رب الرسول) الذي كان طالباً ثم أُستاذاً بنفس الكلية بعد أن حصل على درجة الماجستير من الأزهر في علوم الحديث، كما برز شاب ثالث يدعى عبد

الرحيم نيازي وقد سمى هؤلاء الشباب حركتهم «جوانان إسلام» أي الشباب المسلم، ثم تحول اسمها إلى «جمعية إسلامي أفغانستان» أي الجمعية الإسلامية الأفغانية، وقد فضَّل الأستاذ نيازي أن يختار الشباب واحداً منهم أميراً للحركة فاختاروا الأستاذ برهان الدين رباني أميراً لهم. واستمرت جريدة جهيز الإسلامية بالصدور وكانت اللسان الوحيد الناطق باسم الحركة الإسلامية.

شعرت الحركة الإسلامية بخطر الهجمة الشيوعية العقائدية على أفغانستان، والتي كانت تتم تحت شعار المساعدات السوفياتية، والمنح الدراسية الكثيرة للأفغان في الاتحاد السوفياتي وفي عدد أغسطس من مجلة منبر الإسلام عام ١٩٧١م كتب الأستاذ غلام محمد نيازي مقالاً عن الاستعمار العقائدي جاء فيه:

«للاستعمار مظاهر متعددة منها مثلًا الفكري والسياسي والاقتصادي، وأخطر أنواع الاستعمار هو الاستعمار العقائدي الذي يريد القضاء على الإسلام وأهله، وهو مصدر إلينا من الخارج بعد تخطيط ودراسة وتنسيق وتركيز».

وقد بدأ الهجوم الرسمي على الإسلام في عهد الملك محمد ظاهر شاه الذي أصدر مرسوماً ملكياً عام ١٩٥٩م، يبيح فيه للنساء السفور والتعليم المختلط، كما وضعت المناهج التعليمية على غرار المناهج الغربية، ولما جاء محمد داود رئيساً للحكومة أظهر العداء العلني للإسلام والحركة الإسلامية، فاعتقل مئات الشباب وقتل الكثير منهم، وأغلق مركز البحوث الإسلامية في الجامعة، ومنع الصحف الإسلامية من الصدور وقلل عدد الحجاج الأفغان وأصدر مرسوماً يمنع النهي عن المنكر ويعتبر المساس بالشيوعية

جريمة يعاقب عليها القانون، وفي الوقت نفسه سمح للشيوعيين بممارسة نشاطهم بكل حرية.

انعكست هذه الأعمال الاستفزازية على الشعب الأفغاني المسلم بشكل عام وعلى الحركة الإسلامية شكل خاص وكانت الشعرة التي قصمت ظهر البعير أن وقف أحد الشيوعيين في الجامعة يعترض على الأذان، فقام أحد الشبان المسلمين فأذن للصلاة، وأدى جميع الحاضرين صلاة الظهر، مما أحدث صداماً بين الإسلاميين والشيوعيين، وحاول محمد داود أن يجهض الحركة الإسلامية إلّا أنه فشل، فعمد إلى أسلوب السجن والاعتقال وقدم قادة الحركة الإسلامية إلى محاكم صورية حكمت على ثلاثة من خيرة العاملين بالإعدام، وهم الشهيد حبيب الرحمن الأُستاذ بكلية الشريعة في جامعة كابل، والشهيد الدكتور محمد عمر والشهيد القائد العسكري خواجة محفوظ رحمهم الله وأسكنهم فسيح جناته، وكان ذلك في ١٢ يونيو ١٩٧٧ م، وقد خرجت من مدرسة «زرغونة» الطالبات في مظاهرة صاخبة ضد الشيوعية والإلحاد، تتقدمهم فتاة تحمل علم التوحيد وتهتف ضد النظام العميل للشيوعية، فبادرها جندي غاشم بطلقات بندقيته ولكن سرعان ما أخذت العلم فتاة أُخرى ولم تتركه يسقط، وسقطت شهيدة الغدر والخيانة، وقبل أن تصعد روحها إلى بارئها تسلمت العلم فتاة ثالثة وهرولت مثلهن إلى عالم الخلد والشهادة ولسان حالها يقول:

سأثأر.. لكن.. لرب ودين   وأمضي على سنتي في يقين
فإما إلى النصر فوق الأنام   وإما إلى الله في الخالدين

إن أفغانستان التي أنجبت العديد من العلماء المجاهدين أمثال أبو حنيفة النعمان والإمام أحمد بن حنبل، وأبو داود السجستاني والترمذي

وأبو حامد الغزالي والسرخسي والبيهقي والنيسابوري وجمال الدين الأفغاني، لهي صرح من صروح الإسلام ينجب كل قرن العديد من العلماء المجاهدين الذين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم. يقول إقبال رحمه الله: «إن وسط آسيا كالجسم الحي، وأمة الأفغان هي قلبه النابض بالحياة، والقضاء على الأفغاني يعني القضاء على هذه القارة الضخمة في نموها وازدهارها، وما دام القلب حياً فكل الجسم يتمتع بالعافية، وإلا فإنه يصبح كالريشة في مهب الريح».

أفغانستان التي أنجبت العديد من العلماء والمجاهدين، هي أفغانستان التي أنجبت «عبد رب الرسول» وإخوانه القادة المجاهدين. فمن يكون هذا القائد؟ وما هي آراؤه؟ وكيف جاهد وصمد مع إخوانه في وجه أكبر دولة في العالم لمدة خمس سنوات ليس له مدد إلا الله وما يستولي عليه من أعدائه؟!

٧- من هو «عبد رب الرسول سياف»؟

حياته: ولد عبد رب الرسول سياف في منطقة تبعد عن العاصمة كابل حوالى سبعة عشر كيلومتراً عام ١٩٤٥م، وقد نشأت عائلته وأجداده في تلك المنطقة، ويرجع نسبهم إلى الأصول العربية التي هاجرت مع الفاتحين المسلمين الأوائل، نشأ في أسرة متدينة ولكنه نشأ فقيراً يتيماً لأن والده توفي وعمره حوالى خمس سنوات، تلقى علومه الأولية في القرآن واللغة العربية والفقة في كُتَّاب القرية، ثم دخل المدرسة الابتدائية ولما أنهى المرحلة الإعدادية التحق بإحدى المدارس الثانوية الدينية. ثم التحق بكلية الشريعة في جامعة كابل، ولما أنهى دراسته الجامعية رحل إلى مصر وتخرج في الأزهر بدرجة ماجستير في علم الحديث، ويتقن بالإضافة إلى لغة قومه كلًا من اللغتين العربية والانجليزية، متزوج وله ولدان، ويعيش مع

أمه وزوجته وابنيه في بيت متواضع يحرسه اثنان من أقاربه لدواعي الأمن، لأن بابراك كارمل وضع مكافأة لمن يأتيه برأس سياف حياً أو ميتاً مقدارها خمسة عشر مليون روبية أفغانية «حوالى ٢ مليون روبية باكستانية» ويقول عن نفسه: «إنني لاأختلف عن المجاهدين في أكل أو شرب، وإذا باتوا على الحصير أبيت مثلهم، ولكني اختلف عنهم بأنهم يعيشون في خيمة وأنا أعيش في بيت لأمور أمنية».

جهاده: وفي حوار له مع جريدة الجزيرة في ١٠ محرم ١٤٠٣ هـ، جاء فيه:

س: متى بدأت الجهاد؟ ومع من؟ وكيف بدأتم نشاطكم؟

سياف: أنا ولدت مسلماً ونشأت مسلماً، ولكني بدأت العمل في حقل الدعوة إلى الله وفي ميادين الجهاد منذ سبعة عشر عاماً، وعندما بدأنا حركة الجهاد كنا عدداً يعد على الأصابع وحتى إني أذكر أننا لم نكن نملك في تلك الأيام إلا ما يعادل ثلاثة عشر ريالاً سعودياً، وكنا قد استأجرنا غرفة لعقد جلساتنا فيها، فلم نستطع دفع أجرة الشهر القادم، فتركناها، وكنا نواصل جلساتنا تحت الأشجار، ولكن الله سبحانه وتعالى وفقنا في أن نثبت ونصبر حتى وصلنا بالجهاد الإسلامي في أفغانستان إلى مستوى يستطيع أن يقابل أكبر طاغوت في العالم والحمد لله. ومن ثم قويت حركة جهادنا بسرعة والحمد لله، ولما قويت بدأ الروس يقلقون من هذا، ولذلك جاءوا بعميل بعد عميل وأرادوا أن يقضوا على الحركة الجهادية، ولكنهم لم يستطيعوا والحمد لله، وبقيت حركة الجهاد تواصل سيرها نحو أهدافها.

س: ما قصتكم في مواجهة العملاء؟

سياف: لما اشتد تحركنا في مقابلة التيارات الكفرية جاء الروس بأول عميل لهم وهو داود وأمروه بأن يقضي على الدعوة الإسلامية وعلى القائمين

بها فأخذ يقبض على جميع القائمين بأمر الدعوة وبقي منهم قليل خرجوا من أفغانستان وقد كنت من ضمن المعتقلين فحكمت عليَّ محكمة عسكرية بالسجن ست سنوات ولكن كنا قضينا أربع سنوات في السجن فجاء الروس بعميل أشرس منه وهو تراقي وأطاحوا بداود ولما جاء تراقي أصدر الأوامر بتصفية العناصر المسلمة بصفة عامة ولكن كنا في القفص داخل السجن وفي أيديهم، فأخذ يصدر الأوامر بالإعدام على من بقي من زمن داود فجاءوا ليطبقوا الحكم، وقد كنا ١١٧ ، ١١٥ في عمارة واثنين في عمارة أُخرى - ولما كنت أَؤم الإخوة في الصلاة فقد أخذوني وجردوني منهم ووضعوني في عمارة أُخرى - فلما جاءوا لينفذوا حكم الإعدام فينا نزل الإخوة الـ١١٥ من العمارة ولما أرادوا أن يربطوا أيديهم كالعادة ويربطوا أعينهم للذهاب إلى المشنقة فإن الإخوان لم يرضوا أن يقتلوا وهم ساكتين فهاجموا القوات الحكومية التي وُظفت لتنفيذ حكم الإعدام، وبدأت المعركة في الساعة الحادية عشرة بالليل، وانتهت في الساعة الرابعة صباحاً باستشهاد آخر واحد من إخواني، وبموت بعض المنفذين وجرح البعض الآخر وكان الشهداء ينادون بصوت الله أكبر طوال الليل داخل السجن، وجاء وفد آخر فرأى أن كل الاخوة قد سقطوا شهداء على الأرض، فكتبوا تحت القائمة بأن حكم الإعدام قد نفذ وأن اسمي واسم الأخ الثاني من ضمن المستشهدين ولقد كان الوفد الأول ينوي بعد قتل هؤلاء أن يأتي إلينا أيضاً ولكن الوفد الثاني عندما جاء لم يعرف أن اثنين منهم قد بقيا فكتبوا بأن الحكم قد نفذ.

وبعد شهر واحد أُطيح بتراقي من قبل حفيظ الله أمين، فبدأ المواطنون يطالبونه بالسجناء، وأين هم، فقال لهم قتلهم تراقي، قالوا: أين أسماؤهم، فأخرج أسماء اثني عشر ألفاً من الشهداء، فطلع اسمي ضمن

المجموعة ولكن لم يدم حكم حفيظ أكثر من ثلاثة أشهر حتى جاء الروس وأطاحوا به أيضاً.

ولما جاء الروس أرادوا أن يهدئوا الناس فقالوا بأنهم سيفرجون عن جميع السجناء لأنهم كانوا يظنون بأن العناصر المسلمة قد انتهت وأن الباقين في السجن هم وطنيون أو ما إلى ذلك، فطلبوا الكشف على أسماء المسجونين الموجودين، ولم يذهب اسمي في هذا الكشف، لأني كنت قد قتلت من قبل، وإلا لو ظهر لكنت قتلت لأن بابراك كان يعرفني وكنت خاصمته كثيراً عندما كنت طالباً وكان عضواً في البرلمان في ذلك الوقت، فلما طلبوا الكشف، وضعوا علامات على بعض الأسماء، وقالوا بأن هذا وهذا لايفرج عنهم، اذهبوا بهم إلى عمارة أخرى والباقون تفتح الأبواب أمامهم، وقد فتحوا الأبواب مرةً واحدة حتى يصور المصورون الخارجين من السجن دفعة وعددهم أربعة آلاف، وقد خرجت من بين هؤلاء ولكن بمجرد وصولي إلى البيت علموا.

فلما علموا أرادوا القبض عليَّ مرة ثانية ولكن غيرت البيت ونزلت إلى بشاور، وقد حاصروا البيت باثنتي عشرة دبابة ومائتي شخص مسلح وقد دخلوا البيت وفتشوه ولم يجدوني فهددوا أمي بالقتل ولكنها قالت جاء من السجن وسلم عليَّ وخرج ولم أعرف عنه أي شيء وهكذا انتهت قضية السجن.

س: ماذا كنت تفعل في السجن؟

سياف: عندما كنت في الزنزانة كنت أقرأ القرآن فقط، ولم يكن لي شغل آخر غير أن أعبد الله تعالى وأتلو القرآن الكريم، ولما اخرجونا من الزنزانات إلى فناء السجن أخذت أُدرِّس إخواني الذين سُجنوا معي وأُعلمهم العلوم الدينية واللغة العربية.

س: كيف كانت معاملة النظام الشيوعي للسجناء؟

سياف: كانت المعاملة سيئة للغاية، وكيف يمكن أن تتصور معاملة الشيوعي للمسلم إذا وقع بين مخالبه، قضينا أياماً مريرة في الزنزانات المبللة كالوحل وليس تحت أرجلنا فراش، وكلما كانوا يخرجوننا لقضاء الحاجة كانوا يضعون كيساً من البطانية على وجوهنا حتى لانرى أحداً، وما كنا نرى الشارع.

ويتحدث «المجاهد الشيخ جلال الدين حقاني» عن مرحلة الجهاد الأولى فيقول في حوار له مع مجلة «المجتمع» العدد «٦٢٣» ١٨ شعبان ١٤٠٣:

بدأنا الجهاد سنة ١٩٧٤ بعد انقلاب محمد داود الذي حصل في تموز ١٩٧٣، فهاجمنا مجموعة من الشيوعيين وقتلنا ثلاثة عشر شيوعياً فجاءت الحكومة وحاصرت بيتي فهربت مع ثلاثة عشر مجاهداً، وما زالوا في ازدياد حتى أصبحوا سبعين، وكان من بينهم عبد رب الرسول سياف الذي ظنوا أنه قد قتل منذ زمن، لقد كانت نجاة سياف آية من آيات الله، ليفعل الله به ما يشاء من قيادته للجهاد ونقله القضية الأفغانية إلى الواقع الدولي، وبعد أيام من نجاة سياف علمت الحكومة أنه ما يزال حياً فاقتحمت بيته باثنتي عشرة دبابة إلا أنه كان قد غادر بيته، ولقد حقق الجهاد الأفغاني من انتصارات ما أوصل الروس إلى الاعتقاد بأن الأفغانيين لايموتون وأن أسلحة الروس لاتضرهم ولا تهزمهم.

واستمراراً للحوار الماضي مع جريدة الجزيرة سأل مراسل الصحيفة سيافاً:

س: ماذا علمك الجهاد؟

سياف: علمني الصبر والثبات واتخاذ المواقف الحاسمة لتأييد الحق،

وعلمني التضحية والفداء، كما علمني الاستقامة على طريق الحق.

س: ماذا علمك السجن؟

سياف: علمني أشياء عديدة منها الصبر والثبات على المحن والمصائب والمتاعب.

س: بصراحة، هل استفدت مادياً من الجهاد؟

سياف: لا، أبداً إنَّ كل ما استفدته من الجهاد استفادة معنوية، لأن الله سبحانه وتعالى يقول ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾ أما الاستفادة المادية فإني لا أملك شيئاً. فمواردنا ضعيفة جداً، وليس لنا إلا مورد واحد هو إعانات بعض المسلمين كأفراد.

ومن الجدير بالذكر أن سيافاً قد شغل منصب رئيس اللجنة السياسية للاتحاد الإسلامي لمجاهدي أفغانستان وهو الاتحاد الأول، ولما قام الاتحاد الثاني الذي أصبح يتكون من سبع جبهات إسلامية بويع سياف أميراً للمجاهدين وكان ذلك عام ١٩٨٣م، «٩ - ٨ - ١٤٠٣هـ»، كما حصل على جائزة الملك فيصل الدولية لتقديمه خدمات للإسلام عام ١٤٠٥هـ، وقد خصصها للجهاد والمجاهدين.

٨- المنطلقات الفكرية والعقائدية لسياف

١- يؤكد سياف في معظم أحاديثه بأنه وإخوانه المجاهدين متبعون وليسوا مبتدعين وأنهم إنما قاموا جهاداً في سبيل الله لإعلاء راية لا إله إلا الله وإقامة حكم الله في الأرض وإنهاء حكم الطواغيت، فنجده يقول «مذهبنا جميعاً هو مذهب أهل السنة والجماعة، أما المذاهب والأفكار الأخرى من وطنية وقومية فلا وجود لها داخل الحركة الجهادية، لا يوجد

عندنا مجاهدون وطنيون ولكن عندنا مجاهدون مسلمون » ويتحدث عن ميزة الحركة الجهادية فيقول: « إن ميزة هذا الجهاد هي أن المجاهدين يخوضون هذا الجهاد لإعلاء كلمة الله ولا يقصدون من ورائه منصباً ولا مغنماً، بل يريدون وجه الله فقط، وتحطيم الأصنام والطواغيت وإقامة حكم الله في الأرض » « الراية ٢٧ - ٥ - ١٩٨٢م » ويقول أيضاً « إن جهادنا هذا له منطلق إسلامي بحت، وإن الإسلام وعقيدة التوحيد والإيمان بالله جعلنا نقوم بأمر الجهاد وجعلنا نؤدي هذه الفريضة، فإننا لانجاهد من أجل منفعة ذاتية زائلة، ولا نجاهد لتحرير أرض على فكرة قومية أو وطنية ولا نقاتل لنأتي بحكم علماني أو ديمقراطي، وما إلى ذلك، وإنما نجاهد لتكون كلمة الله هي العليا، وإن جهادنا يهدف إلى إقامة حكم الله وإلى إعلاء كلمة الله وخدمة دين الله »، صحيفة « الجزيرة » ١٠ محرم ١٤٠٢ هـ، ومما لاشك فيه أن من يبتغي بجهاده وجه الله وإعلاء كلمة لا إله إلا الله، فإنه لن يتوكل إلا على الله وحده ويؤمن يقيناً أن النصر من عند الله ومن عند الله وحده. يقول سياف: « نحن نؤمن بأن الله فوق الجميع وهو أقوى من كل قوة عرفت في الدنيا ».

ونحن نؤمن بالقرآن الكريم الذي يقول ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾ وأيضاً يقول: ﴿وما النصر إلا من عند الله﴾ وإن الله سبحانه وتعالى يبين هذه الحقيقة بصيغة الحصر، فيأتي هذا التعبير بالنفي والاستثناء ﴿وما النصر إلا من عند الله﴾. نحن نعتقد أننا لو سرنا في طريق الجهاد ولو وصلنا جهادنا في الخط الإسلامي الأصيل فإن الله يتكفل بجميع الانتصارات، ويتكفل لنا بجميع الامكانيات، ولكن لاسمح الله لو انحرفنا عن الخط الأصيل الإسلامي، وتمكنا من الحصول على جميع الإمكانيات في الأرض وعلى جميع الأسلحة الجديدة المؤثرة فإنها لاتفيد ولا

تجدي، كما ترون فإن دولاً كبيرة تملك السلاح وتملك الامكانيات المادية ولكنها عندما تسمع اسم الروس ترتبك وترتعش، والسلاح ليس وسيلة نجاح المسلم وإن المسلمين مكلفون بأن يعدوا العدة ما استطاعوا ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾.

ونحن أعددنا لهم ما استطعنا، ولم يكن باستطاعتنا فوق ما نملك الآن، فإن الله سبحانه يتكفل بالنصر، وندعو الله أن يثبتنا على الإيمان وعلى السير في الطريق المستقيم، وإلا فإذا توكلنا على الوسائل والإمكانيات المادية والسلاح فأنت تعرف يا أخي، أنه لايوجد هناك أحد يساعدنا بالسلاح والمهمات حتى بالفلوس التي نستطيع أن نسد بها حاجياتنا الأساسية، ولكني أكرر لكم أيضاً بأننا نؤمن بأن النصر من عند الله، ونؤمن بأننا إذا نصرنا دين الله فإن الله ينصرنا، ﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ ونواصل جهادنا بالإمكانيات المتاحة لنا والنتائج موكولة إلى الله، وهو يأمرنا بأن نعد العدة لمقابلة العدو، وطبعاً ما وجد أحد يعطينا السلاح ويساعدنا بالأسلحة المتطورة المكافئة لما يملكه العدو، وما زلنا نجاهد بالسلاح العادي القديم وببعض السلاح الحديث الذي اغتنمناه من العدو، والله الموفق وهو المستعان. «الراية ٢٧ - ٥ - ٨٥» وحول تعاون حركة الجهاد الأفغاني مع الحركات الإسلامية قال سياف «كنا نستقي من مناهل الإخوان المسلمين وكتابات المودودي رحمه الله، وما زال أفراد الحركة الجهادية ينهلون من فكر الإخوان المسلمين والجماعة الإسلامية في باكستان، وحركة الجهاد تتعاطف مع الحركات الإسلامية تعاطفاً أخوياً إسلامياً، ولكننا لم نطلب منهم المشاركة الفعلية في جبهات القتال. ومن الجدير بالذكر أن كتب الإخوان ومنها كتب سيد قطب رحمه الله كانت قد ترجمت إلى لغة البشتو في بداية نشوء الحركة الإسلامية في أفغانستان».

- وسئل سياف عن كيفية تطبيق الإسلام في أفغانستان فقال:

« القول بأن تطبيق الإسلام صعب هو قول باطل لامحل له في أفغانستان، وليس هناك أسهل من تطبيق الإسلام لأنه يتوافق مع الفطرة، والأحوال في أفغانستان مهيأة تماماً للإسلام كمنهج للحياة. وهناك مسألة دقيقة أُحب طرحها، وهي خوض الانتخابات مع أطراف أخرى قد يكون من بينها طواغيت لايمكن أن يستلموا الحكم في أفغانستان إذا فازوا.

وأنا أرى أن من يعتقد بصحة هذا في قلبه وفكره يخرج عن الإسلام، لأنه راض أن يحكم غيره بغير الإسلام، صحيح أن الديمقراطية تكفل حرية العمل السياسي، إلا أنها كنظام سياسي تعد نظاماً مستقلّاً عن الإسلام ».

ولما سئل سياف عن مدى إمكانات الثورة الأفغانية في إدارة الدولة بعد التحرير قال: « إن إدارة الوزارات والهيئات في بلد آمن أسهل بكثير من إدارة المعارك ومن إدارة الجبهات، وكثيراً ما نُتهم بأنه ليس لدينا كفاءات لإدارة الدولة في المستقبل، ونحن نرد عليهم بأن رعاة الغنم بفضل الإسلام أصبحوا قادة الأُمم، إن جنرالات الروس انهزموا أمام رعاة الغنم في أفغانستان، لذلك فإننا لانشعر بأي قلق من هذا الجانب. ومع ذلك فإن أفغانستان حينما تتحرر تكون بلداً لأي مسلم، لأن أي فراغ يملؤه أي مسلم مختص يخدم بذلك إسلامه. لدينا من الكفاءات ما يكفي للدفاع عن كيان الدولة الإسلامية وللاحتفاظ بالاستقرار والأمن وإدارة الدولة الإسلامية، أما الاختصاصات الفنية المختلفة من أطباء ومهندسين وغيرهم، فهم قليلون لأن معظم الخريجين من الجامعات استشهدوا في الجهاد، ولهذا فنحن نتطلع عند قيام دولة إسلامية في أفغانستان إلى دعوة المسلمين

القائمين بأمر الدعوة في مختلف بقاع العالم الإسلامي وغير الإسلامي إلى أفغانستان.

– وحول معنى «التحرير» يقول سياف:

من تتبع أخبار الحركة الإسلامية في أفغانستان، ومن عايش أحوال القائمين بأمر الدعوة إلى الله في أفغانستان أيضاً، يدركون جيداً أن حركتنا الجهادية ليست وليدة الأحداث الأخيرة، أو بعبارة أخرى: نحن لسنا أبناء الأحداث الأخيرة التي تمخضت عن احتلال الروس لأفغانستان. فقد بدأنا جهادنا قبل ذلك بسنين، أيام ظاهر شاه، وكنا نجاهد لتحرير أفغانستان لأننا لم نكن نرى أفغانستان مستقلة أيام ظاهر شاه، وكنا نعتبرها محتلة أيام حكمه أيضاً.

ولهذا، فنحن قمنا بالجهاد في ذلك الوقت، ولكن بسبب عدم توفر الأسباب، وعدم مواتاة الظروف المحيطة بنا يومذاك، لم نستطع أن نقوم بالجهاد المسلح، وكان المجال مفتوحاً أمام الدعوة لمواصلة سيرها. ولهذا لم نحمل السلاح، إلا أنَّ عدم حمله لاينفي الجهاد، فالجهاد بالقلم والجهاد باللسان كان قائماً، كما أن إخواننا سُجنوا في عهد ظاهر شاه، وعُذبوا ولاقوا العنت من رجال نظامه.

وإن فكرة تحرير أفغانستان لم تنشأ في أذهاننا بعد احتلال الروس لأننا – كما ذكرت – نعتبر أفغانستان محتلة، كنا نراها محتلة من طواغيت يحكمون بغير الإسلام كما نراها اليوم محتلة من طواغيت آخرين ولا بد من تحريرها منهم.

وتجب الإشارة هنا إلى أن معنى التحرير عندنا نحن المسلمين يختلف عنه عند القوميين وغيرهم، فنحن نعني بالتحرير إنقاذ بلاد المسلمين من

حكم الطاغوت، سواء أكان هذا الطاغوت شيوعياً أم ماسونياً أو قومياً أم علمانياً أم صهيونياً أم صليبياً أم غير ذلك في حين أن مفهوم التحرير عند غيرنا هو إجلاء الأجنبي عن الأرض، ويعتبر الوطن متحرراً عندهم إذا خرج الجنود المحتلون من البلاد.

وهكذا، فأفغانستان لم تكن مستقلة أيام ظاهر شاه، لأنها لم تكن تحكم بالإسلام وجهادنا مستمر حتى يحكم الإسلام أفغانستان، وإن خرج الروس من أرضها لابل إن جهادنا مستمر لتحرير الأراضي المسلمة كلها، حتى خارج أفغانستان التي نأمل أن نجعلها قاعدة لانطلاق الدعوة الإسلامية.

والجهاد في نظر سياف بمعناه الشامل الجهاد باللسان وبالبيان وبالسنان، ولهذا فهو يرى ضرورة الجهاد الإعلامي للحركة الجهادية فيقول: «إن الجهاد بالكلمة والقلم من أنواع الجهاد، فإبداء كلمة الحق وإظهارها، والرد على الباطل، ودحر الهجمات الكافرة في ساحات الفكر، والرد على تشويهات العدو ومؤامراته وتشويهه للحقائق في أذهان الناس، هذا كله يدخل في إطار الجهاد ما دام الإنسان يقوم بشرح الحقائق وبرد الأباطيل، وبالكلمة الجريئة الحقة في موضعها، هذا كله يعتبر جهاداً».

ويرى سياف أن تسميته حركة الجهاد الأفغاني بـ«الجهاد الأفغاني» أفضل من تسميتها «بالثورة الأفغانية» لأن هناك فرقاً شاسعاً بين معنى الجهاد ومعنى الثورة.

يقول سياف: «هناك اختلاف كبير بين الجهاد وبين الثورة. فالجهاد - أولاً - اسم اختاره الله سبحانه وتعالى لهذا العمل الذي يقوم به المسلم خالصاً لوجه الله، أما الثورة فكلمة دخيلة لاأصل لها في ثقافتنا الإسلامية.

ثانياً: لو قلنا الجهاد لاستغنينا عن أي قيد أو صفة تلحقها، لأن الجهاد

معروف فحيثما ذكر يفهم أنه عمل أو قتال قام به المسلم لإعلاء كلمة الله، ولإزالة الفتنة، ولتطبيق شريعة الله، ونيل رضاه، أما الثورة فلا بد لها من صفة توضحها فيقولون ثورة اشتراكية وثورة شيوعية وثورة قومية وما إلى ذلك. ونحن لانستطيع أن نعبر عن الجهاد بالثورة الإسلامية، لأنه لايجوز لنا أن نغير اسم فريضة سماها الله سبحانه وتعالى بهذا الاسم، كما لانستطيع أن نقول عن الصوم إنه «جوع إسلامي» أو نقول عن الصلاة «حركات إسلامية» أو نقول عن الزكاة «تبرع إسلامي» وهكذا لايمكن أن نسمي الجهاد «ثورة إسلامية» إضافة إلى أن الثورة تقوم بدافع ثأر أو انتقام أو حقد كامن في الصدور، وهي تهدف إلى تسلم الحكم فقط حيث تنتهي مهمتها، بينما الجهاد يهدف إلى إقامة حكم الله ويستمر إلى يوم القيامة، كما قال الرسول ﷺ: الجهاد ماض إلى يوم القيامة.

ثم إن الثورة تعني القفزة أو الوثوب المفاجئ، أما الجهاد فهو الجهد المستمر وتحمل المشاق، ومواجهة المحن والكوارث والمصائب، وترك الراحة وزينة الحياة الدنيا والتضحية بكل ما يملكه المرء، وهكذا يختلف الجهاد عن الثورة في طبيعته وهدفه وشموله.

والجهاد ماض إلى يوم القيامة، أما الثورة فإنها مؤقتة تزول بزوال الأسباب التي أدت إلى قيامها، ولهذا يقول سياف بأننا رفضنا أن نطلب المساعدة من غير المسلمين لأننا بذلك نحتمي بطاغوت لمقابلة طاغوت، وفي هذا المعنى يقول:

هذا كلام مرفوض ونحن بدأنا جهادنا كما قلت من قبل بعقيدتنا وإيماننا ولا يوجد في جبهاتنا عند القتال إلا المسلم الأفغاني ولم نحصل على أي نوع من السلاح لا من غرب الدنيا ولا من شرقها ونحن لانطالب

بمساعدة غير المسلمين. نحن طالبنا المسلمين أن يساعدونا في جهادنا هذا ولكن المسلمين بدأوا يساعدوننا في مجال المهاجرين وندعو الله أن يساعدهم لمساعدتنا في مجال الجهاد هذا.

ونحن لم نسأل أية دولة كافرة لتساعدنا بسلاح أو مال وما إلى ذلك لأننا نعتقد بأننا لانحتمي بطاغوت لمقابلة طاغوت آخر ولا نستمد من صنم لتحطيم أصنام أخرى فنحن لو احتجنا إلى شيء نطالب به إخواننا في العقيدة وإخواننا في الإيمان ولا نطالب به أحداً غيرهم، وكما قلت لكم من قبل بعض الحكومات الإسلامية قامت بتقديم خدمات مشكورة في مجال المهاجرين وإلى الآن لم نحصل على أية مساعدة في مجال القتال وفي مجال الجهاد.

- والكرامات التي تحصل للمجاهدين ليست بدعة، ولكنها نوع من النصر ينزله الله على عباده المؤمنين، وقد زادت الكرامات في عهد التابعين عنها في عصر الصحابة، لأن الناس زمن التابعين كانوا بحاجة إلى ما يزيد إيمانهم ويثبت قلوبهم. ولما سئل سياف عن الكرامات التي تحصل للمجاهدين قال:

«لقد منعت نشر هذه الأنباء، وأنا أرسل من يريد أن يعلم إلى أرض الجهاد ليرى بأم عينه إن كانت هناك كرامات أم لا، وكل هذه الأنباء لم تصدر عن المجاهدين وإنما صدرت عن الآخرين الذين زاروا أرض الجهاد، والمشكلة الحقيقية أن عقولنا عاشت بعيدة عن مثل هذه الأحداث لأنها غرقت في الماديات، لذلك فإنها تستغرب مثل هذه الأنباء، وأنا أقول إن مواصلة الشعب الأفغاني للجهاد ضد الروس طوال هذه السنوات هو من أهم الكرامات».

إن وقوف شعب أعزل إلا من الإيمان لمدة خمس سنوات أمام أعتى قوى الأرض وأشرسها وأمام جيوش تفوقه عدداً وعدة هي أكبر كرامة لهذا الشعب وأعظم بشرى بالنصر، فالجهاد الأفغاني قلب كل المقاييس البشرية، لأن النصر من عند الله ﴿وإن ينصركم الله فلا غالب لكم﴾.

وأخيراً يقول سياف:

إنه لايقلقني شيء، لأنني لاأخاف إلا الله رب العالمين، فمن كان مع الله وسار في طريقة فلا يخاف شيئاً إلا الله. ولكن يقلقني ويزيد اهتمامي ضرورة الاحتفاظ لهذا الجهاد بأصالته وثمراته، لأن الأعداء يريدون أن يقطفوا منا ثماره وأصالته ويريدون أن يحرفوا الحق الأصيل الذي نمشي عليه. وأمنيتي الشخصية أن يوفقني الله في الثبات على الحق وفي تطبيق حكمه وإعلاء كلمته وتطبيق شريعته، وأن يرزقني الشهادة في آخر عمري، وأمنيتي لجميع المسلمين والعالم، هي أن يأتي اليوم الذي يعيش فيه العالم كله تحت راية الإسلام ويحكم العالم كله الحكم الإسلامي الذي يعمر القلوب.

أنا لا أحلم بالرئاسة ولا بأية رتبة ولكن أريد أن أكون مجاهداً يعمل على تحرير بلاده، وبعد التحرير أكون داعية إلى الله. وأتمنى لأبنائي أن ينشأوا مسلمين مجاهدين داعين إلى الله.

٩- المنطلقات الحركية لسياف

مما لا شك فيه أن الإتحاد قوة، ويعزى فشل معظم الثورات إلى انقسامها على نفسها وتوزعها شيعاً وأحزاباً، وتقوم السياسة الاستعمارية تجاه أية ثورة على قاعدة «فرق تسد» ومحاولة ضرب الجبهة الداخلية للثورة، ولهذا ساء سياف ما كانت عليه فصائل الثورة الأفغانية من تفرقة

حينما خرج من السجن، فعمل على توحيد الصفوف والجهود، لأن العدو الذي يواجهونه عدو شرس ويفوقهم عشرات المرات في العدد والعدة.

والاتحاد الذي يريده سياف اتحاد ينبع من القواعد ويقوم على أساس الوعي الكامل بضرورة الوحدة بين فصائل الثورة، ولهذا نجده يقول: «أهم محاولات التقريب توحيد القاعدة والتفاهم مع القادة، وجعل القواعد تضغط على القيادة لتتخلى عن خلافاتها. ولقد بات الجميع يرون ضرورة إنهاء الخلاف وتحقيق الوحدة، وهناك الآن «عام ١٤٠٢» مجلس شورى مكون من أعضاء عدة جبهات يفكرون ويخططون لتوحيد الصفوف».

ومنذ عام ١٩٨٠ بدأت الجهود لتوحيد أحزاب الثورة، ففي مارس من عام ١٩٨٠ تشكل «التحالف الإسلامي الموحد» انضم إليه خمسة أحزاب وخرج منه «حكمتيار» وترأسه عبد رب الرسول سياف، ولكن أهداف الفئات الصوفية المتمثلة في «المجددي» وهو زعيم الطريقة النقشبندية «والجيلاني» زعيم الطريقة القادرية و«محمد بني محمدي» الذي يعتمد على العلماء المتصوفين، لم يستطيعوا أن يستمروا في الاتحاد لأن هدفهم إرجاع الملك محمد ظاهر شاه إلى الحكم في أفغانستان، أما بقية الأحزاب فتعتبر الملك طاغوتاً لا يقل حرباً للإسلام عن روسيا الشيوعية. وتشكلت بعد ذلك «جبهة التحالف الإسلامي» من أربعة أحزاب هي:

١ - حزب الإتحاد الإسلامي «القديم» بزعامة سياف.
٢ - جمعية إسلامي أفغانستان بزعامة الدكتور برهان الدين رباني.
٣ - حزب إسلامي أفغانستان بزعامة محمد يونس خالص.
٤ - تنظيم إسلامي أفغانستان بزعامة المهندس قلب الدين حكمتيار.

وكونت الأحزاب الصوفية جبهة موحدة، إلا أن قواعدها وخاصة الشباب لم يرضوا لهم هذا الانفصال، فخرجت مجموعات منهم وانضموا إلى الاتحاد الحقيقي وهم:

١ - انسحب «محمد مير» - وهو عالم كبير - «جبهة نجاتي علي» انفصل عن صبغة الله المجددي زعيم «الجبهة الوطنية لإنقاذ أفغانستان».

٢ - انسحب «نصر الله منصور» وهو عالم فاضل «جبهة الإنقلاب الإسلامي» انفصل عن محمد بني محمدي «خريج من الأزهر» ويتزعم «حركة إنقلاب إسلامي» أو «الحركة الثورية».

٣ - رفيع الله المؤذن - وهو عالم فاضل - انفصل عن حركة محمد بني محمدي أيضاً.

وقد تكون «الاتحاد الإسلامي لمجاهدي أفغانستان» وضم هذه الأحزاب السبعة، وبعد أن قدم رؤساء هذه الأحزاب استقالاتهم جرت انتخابات لاختيار أمير للإتحاد فبايع القادة وأفراد القواعد عبد رب الرسول سياف أميراً للجهاد. وكان ذلك في ٩/ ٨/ ١٤٠٣هـ.

سُئل سياف عن هذا الإتحاد «الراية ٢٧/ ٥/ ١٩٨٢م» فقال:

«إن الاتحاد كان يعتبر ضرورة هامة بالنسبة لجهادنا وإن الله سبحانه وتعالى يحب أن نقاتل أعداءه في صف واحد كما أنه يقول: ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص﴾ فالأختلاف يعتبر شقاً يدخل الأعداء منه، ولكن إذا وجد الاتحاد فإن أبواب المسلمين تغلق أمام الأعداء، ولا يستطيعون أن ينفذوا إلى مجتمعاتهم ولا أن يتسربوا إلى أسرارهم، فنحن كنا نحاول منذ بداية الجهاد أن نجمع المجاهدين في صف

واحد.. وطبعاً جربنا هذا الاتحاد مرة بعد الأخرى ولكن الله سبحانه وتعالى وفقنا في هذه المرة في أن نجمع الطيبين الخيار من المجاهدين حقاً والعائشين في متن الجهاد وفي ميادين القتال.. أن نجمعهم في خندق واحد وفي صف واحد، وطبعاً لأن يكون هذا الإتحاد محكماً ومتيناً اجتمع حوالي ثلاثمائة فرد من العلماء وعملوا دستوراً إسلامياً لهذا الاتحاد، وفي ضوء هذا الدستور تكون مجلس الشورى لهذا الاتحاد الذي يضم ستين عضواً من خيرة العلماء ومن خيرة المجاهدين والداعين إلى الله، ومن بين مجلس الشورى انتخب أربعة أفراد كأعضاء للجنة التنفيذية، وأعضاء اللجنة التنفيذية كلهم يرأسون لجنة من لجان الاتحاد فعندنا هناك لجنة عسكرية ولجنة مالية ولجنة سياسية، ولجنة ثقافية، ولجنة للتربية والتعليم، ولجنة صحية ولجنة قضائية ولجنة الفتاوى ولجنة التخطيط ولجنة المهاجرين وطبعاً عندنا لجنة التنظيم والدعوى وعندنا أيضاً الأمانة العامة ورئاسة الاتحاد ونيابة الاتحاد.. هذه التشكيلات كلها قد تمت والحمد لله وعين لكل لجنة مسؤولها».

ولما سئل عن المتخلفين عن الاتحاد «٢٩ ربيع أول ١٤٠٤ هـ» قال:

تتحدث الأنباء عن أن زعيم حركة إنقلاب إسلامي محمد بني محمدي قرر تشكيل جبهة موحدة مع حركتين هما «مهازه ملي إسلامي» و«ملي نجاة» وذلك استجابة لنداء الملك المخلوع ظاهر شاه.. ما مدى تأثير هذا القرار على مستقبل الجهاد والوحدة الجهادية في أفغانستان؟

سياف: هم في البداية خرجوا من هذا الاتحاد لأن أهدافهم لم تكن تماثل أهدافنا، لقد خرجوا من الاتحاد لأنهم لم يكونوا على مستوى السير على الطريق الأصيل، ولكن لم يخرج معهم إلا المطرودون والمنبوذون

والمتاجرون بالقضية وبعض المنخدعين، وعندما رأوا ضعفهم الشديد أمام حركة الاتحاد ألقوا بأنفسهم في أحضان ظاهر شاه وهذا لم يكن دليلًا إلا على شعورهم بالضعف والزوال، والمجاهدون لا يقيمون لهم أي وزن ولم يترك قرارهم أي تأثير على المجاهدين والحمد لله.

المجتمع: هل يؤثر هذا العمل الانفصالي على المنظمات الأساسية المندمجة بالاتحاد؟

سياف: لا بد أن نشير أولًا إلى حقيقة هامة ذكرها الشهيد سيد قطب في ظلال القرآن في معرض تفسيره للآية ﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا﴾ حيث يسرد أسباب تأخر النصر عن المؤمنين ومن ضمن هذه الأسباب يتعرض لسبب أساسي هو عدم تميز الخبيث من الطيب في الصف الذي يتحمل تطبيق شرع الله والتصدي للحكم، ونحن نعتقد أن خروج هؤلاء لا يقلقنا أبداً لأن الصف كلما تميز يقترب إلى النجاح والنضج وإيتاء الثمار، ونحن إلى الآن لم نجد أية مشاكل من هؤلاء ولو وجد عندنا من يماثلهم فإن الصف ينبذهم أثناء تحركه إلى الأمام، وهذه طبيعة العمل الجهادي لأن هذا وعد الله فنحن نعتبر ابتعاد البعض عن الصف مرحلة لا بد أن نمر بها لتمييز الصف.

وسأله مندوب « الراية » عن هؤلاء المتخلفين فقال:

- ما هو موقف الذين تخلفوا عن الاتحاد من المجاهدين في أفغانستان وبين صفوف المجاهدين؟

في الواقع الذين تخلفوا عن هذا الاتحاد أولًا: ليس لهم رصيد في ساحات القتال ولا في صفوف المجاهدين وثانياً: بما أن الأتحاد يسير سيراً إسلامياً ويواصل جهوده في طريق إسلامي ويشتغل في حقل الدعوة إلى الله ويريد

أن لا ينحرف عن الخط الأصيل الذي رسمه القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة لذلك فإن من لم يكن مستعداً لمواصلة هذا الجهاد بهذه الطريقة لا يستطيع أن يواصل سيره في الاتحاد ويحس بالعجز عن مواصلة السير مع المجاهدين، ولذلك تخلف عنه من لم يكن يرى في نفسه استعداداً لمواصلة السير في هذا الخط، كما أنهم لم يكن لهم رصيد كما قلت لكم من قبل وليس لهم رصيد الآن بين المجاهدين وفي ميادين القتال.

وطبعاً الذين كانوا قد انخدعوا بهم من قبل هؤلاء أدركوا الأمر وأحسوا بمسؤولياتهم والتحقوا بصفوف المجاهدين، ولذلك نستطيع أن نقول بكل جزم وقطع: إن كل من يحمل السلاح لإقامة حكم الله في أفغانستان فهو انخرط في صفوف هذا الاتحاد وانضوى تحت رايته ولم يبق هناك مجاهد يريد بجهاده وجه الله وهو خارج عن هذا الاتحاد.

وقد جرى الاحتفال بتأسيس الاتحاد وانتخاب قيادته في مسجد «مهابت خان» التاريخي في باكستان، وقد حضر الاجتماع ما يزيد عن ثلاثين ألف أفغاني وأربعة آلاف باكستاني كانوا يرددون اهزوجة الجهاد الخالدة الله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد.

ومن الجدير بالذكر أنه كان لمجموعة من علماء المسلمين الأثر الكبير في إقامة هذا الاتحاد والتوفيق بين الأحزاب الأفغانية مثل فضيلة الشيخ عبد العزيز بن باز، والشيخ عبد الله الزايد، والشيخ عبد الله علي المطوع ويوسف الفرحان وسعيد حوى ويوسف العظم. والشيخ مصطفى مشهور، والشيخ صقر المري، وفضيلة الشيخ عبد الله الأنصاري من قطر وغيرهم من أفاضل العلماء والدعاة في العالم الإسلامي.

وسألت «المجتمع» العدد ٦٥٢ سيافاً عن استقرار الاتحاد.

المجتمع: إن قضية اتحاد المجموعات المجاهدة هي أهم قضية تشغل بالنا وبال جميع من يهتم بقضايا المسلمين وكما تعلمون فإن قضية الاتحاد يعمل لصالحها الأفراد بالنصائح والدعوات، ولكن قضية الاختلاف أو فك هذا الاتحاد تعمل له دول وتعمل له حكومات ومؤسسات وهيئات رسمية مدعومة بالأموال وبالإمكانات، إن جميع من يخالف قيام حكم الله في الأرض يعمل من أجل انهيار هذا الاتحاد وبوسائل مختلفة، ولكنه مع ذلك ولله الحمد فإن الاتحاد قائم ونحن نتغلب على المشاكل يوماً بعد يوم، إن المشاكل موجودة ولكنها لا تسبب أي يأس أو تراجع وإن وضع الاتحاد يبشر بالخير.

وأخيراً تشكل المجلس الأعلى للاتحاد العالمي للمجاهدين الأفغان، وهو قيادة جماعية تتكون من «عبد رب الرسول سياف وقلب الدين حكمت يار، والبروفسور برهان الدين رباني، ومولوي محمد، ويونس خالص» والهدف من تكوين هذا المجلس ليكون أكثر فاعلية ونفوذاً من لجنة العمل المركزية في الاتحاد، ولتكون له حرية وضع خطة عمل مستقلة في أثناء الطوارئ، وليوجه حركة الجهاد الأفغاني ضد الشيوعية بشكل أكثر انتظاماً وفاعلية.

المنطلقات السياسية لسياف ١ - سألت صحيفة «الجزيرة» السعودية سيافاً «١٠ محرم ١٤٠٢» عن أسباب الغزو الروسي لأفغانستان. فأجاب:

«في الحقيقة إن لهجوم الروس على أفغانستان عللاً كثيرة ولكني أريد أن أوجزها في اثنتين:

العلة الأولى التي جعلت الروس تهاجم أفغانستان هي طبيعة الأمة الكافرة ولتطبيق مخططاتهم الاستعمارية أخذوا يفكرون في إبادتنا وفي

القضاء على الفكر الإسلامي وعلى عقيدة التوحيد ولذلك تحول جهادنا من الجهاد باللسان وبالقلم إلى الجهاد بالسيف والسلاح حتى نستطيع أن نجابه التحديات التي كانت تؤيدها وتدفعها أحدث أنواع الأسلحة التي يملكها الروس.

بل نحن قد بدأنا الجهاد قبل ذلك بكثير فعندما بدأت الحركات الإلحادية والتيارات الكفرية تتسرب إلى البلاد الأفغانية وتريد اجتياح عقيدة المسلمين وتريد استئصال أُسسهم ومبادئهم، وهنا فكرنا في كيفية إيقاف التيارات الكفرية وفي كيفية مقابلة الحركات الإلحادية فنحن بدأنا جهادنا أولاً بالكلمة وبالقلم ثم حين كثرت علينا المحن وبدأت الحلقات التعذيبية تُطبق علينا رأينا أن نبدأ الجهاد المسلح حتى نستطيع أن نفتح الطريق للدعوة إلى الله لتواصل مسيرها إلى الهدف ولكن أعداءنا لما رأوا أن حركتنا الجهادية تهدد كيانهم الباطل داخل روسيا وتوقف تياراتهم الإلحادية وكذلك تمنعهم من بث الحقد الذي يكنه أعداء الإسلام في صدورهم ضد المسلمين وأن الله سبحانه وتعالى يحكي عن طبيعتهم هذه فيقول: ﴿ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا﴾.

وكما يقول تعالى: ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾.

فمن طبيعة الكفار أنهم يقاتلون المسلمين لأنهم مسلمون ولأنهم يعتبرون الإسلام حرباً على كيانهم الكفري الباطل.

والعلة الثانية هي أن الروس كانوا يريدون أن يجعلوا من أفغانستان قاعدة لانطلاق فكرهم الاستعماري فهم لا يريدون الاكتفاء باحتلال أفغانستان فقط بل كانوا يريدون أن يتجاوزوا إلى المياه الدافئة ثم يطوقوا العالم الإسلامي.

إن فكرتهم كانت خبيثة وخطتهم كانت أكثر من ذلك خبثاً ولكن الله سبحانه وتعالى قيض لإيقاف هذه الفكرة الطاغية مجاهدين يضحون بأنفسهم ويوقفون هذا التيار ويدحرون هذا العدوان ».

- واستطلعت « المجتمع عدد ٦٥٢ » رأي سياف في المفاوضات مع الاتحاد السوفياتي لحل القضية الأفغانية فقال:

« لقد أعلنا أننا نرفض المفاوضات رفضاً باتاً وقاطعاً لأن المفاوضات لا يمكن أن تحل القضية الأفغانية فالذي يحلها فقط القتال، فنحن قررنا منذ البداية أن يكون الجهاد هو الطريق الوحيد لحل القضية الأفغانية، فعندما دخل الروس غزاة لأرضنا قابلناهم بما نملك، والآن الحل هو خروج الروس من نفس الطريق الذي دخلوا منه وترك الأفغان ينهون القضية فيما بينهم وإن جلوسنا مع الروس اعتراف بحقهم في التدخل بشؤوننا وهذا ما نرفضه نهائياً ».

- وقد سألت « المجتمع العدد ٥٥٠ » ١٣ / ١ / ١٤٠٢ هـ، عما إذا كان هناك بوادر مشجعة على إنسحاب الاتحاد السوفياتي من أفغانستان.

« روسيا مصرة على أن لا تنسحب إنسحاباً يعقبه قيام دولة إسلامية، والمجاهدون مصرون على المضي في الجهاد حتى قيام الدولة الإسلامية، وأميركا ترفض قيام الدولة الإسلامية أيضاً، فكيف ترون الخروج من هذا؟.. ».

فقال:

« يتمنى العدو الروسي الإنسحاب، ولكنه يخشى شيئاً واحداً، لو علم الروس أن القضية تنتهي بخروجهم لخرجوا فوراً، ولكنهم يعلمون أن حكماً إسلامياً سيقوم في أفغانستان إثر خروجهم، وهذا الحكم يهدد كيان

الروس المصطنع ويهدد حكمهم للجمهوريات الإسلامية المتاخمة لحدود أفغانستان ».

وفي « المجتمع عدد ٤٥٢، ٢٩/ ٣/ ١٤٠٤هـ » أجاب سياف على السؤال نفسه:

« كما نسمع فإن أندربوف يظهر الندم ويعترف بخطأ التدخل الروسي في أفغانستان ولكنهم الآن متورطون، لذلك هم يواصلون هذه الحرب ويتبعون سياسة الأرض المحروقة للتعجيل بإنهاء الحرب على حد زعمهم، لقد أحرقوا الحقول والغابات، ولذلك نواجه مشكلة النقص في الغذاء. ومن الجدير بالذكر أن الحرب الأفغانية تكلف روسيا يومياً خمسة وثلاثين مليون دولار ».

- هل ترون الدولة الإسلامية قريبة؟

« عندما أنظر إليها من نافذة الإيمان، ومن نافذة الاطمئنان إلى وعد الله بالنصر فإني أراها قريبة إن شاء الله ».

- س: هناك جماعات تعلن أنها تقاتل لإقامة حكم ديمقراطي غربي، وجماعات تقاتل لإقامة حكم وطني وقومي؟ « المجتمع عدد ٥٥٠ ».

سياف: يقول تعالى ﴿الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله، والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت، فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾ إن جميع الأجهزة الحديثة تدخل تحت كلمة « كيد »، فإذا أخلص المؤمن المجاهد نيته لله وصفا قلبه، ولم يرد بقتاله إلا وجه الله وإعلاء كلمته، جعل الله كيد الأعداء ضعيفاً. ولهذا نجد أن خطة الفلاح أو السائق الأفغاني الذي يقود مجموعة من المجاهدين، تنتصر على خطة الجنرال الروسي الذي اشترك في الحرب العالمية الثانية.

- وفي سؤال لصحيفة «الراية ٢٧ / ٥ / ١٩٨٢ م» عن تأثير الثورة الإسلامية على مسلمي الجمهوريات الإسلامية السوفياتية. قال سياف:

«إن الجهاد أثر في تحريك الشعوب الإسلامية المحتلة تحت سيطرة الروس، فإن كثيراً من موتى الروس طبعاً ينقلون إلى بلادهم، وطبعاً إن الروس أرادوا كثيراً أن يخفوا أمر الجهاد في أفغانستان عن شعبهم، ولكن من كثرة التردد ذهاباً وإياباً من الجنود فإن موضوع الجهاد قد انتشر بين الجمهوريات المحتلة، ووُجد هناك بعث إسلامي ووجدت هناك صحوة إسلامية ولكنها تعتبر تحت أرضية، كما أنه فر من هناك بعض المسلمين وعبروا نهر جيحون ولجأوا إلينا، ونحن جئنا بهم معنا إلى معسكراتنا، وهم يحسون أن هناك تحركاً إسلامياً يبشر بالخير وأن بداية هذا التحرك أقلق الروس، ولذلك هو يلح في البقاء هنا، لأنه يخشى على كيانه داخل أراضيه».

- سمعنا أخيراً أنهم أباحوا فتح المساجد والكنائس والاجتماعات الإسلامية فهل هذا صحيح؟

«ليس فقط هذا.. بل إن راديو موسكو الآن يتكلم عن الإسلام.. فقط إخماداً لتحرك المسلمين داخل روسيا وإرضاء لدوافعهم، ولكنهم لا يستطيعون بذلك أن يوقفوا مسيرة الصحوة الإسلامية داخل أراضيهم، فإن الإسلام سيحكم مرة ثانية وسيعود إلى منصة الحكم هناك إن شاء الله. والمجاهدون الأفغان لا يعلقون مصيرهم بالمسلمين في روسيا، إنهم يواصلون جهادهم من غير أن ينظروا إلى ما يجري في روسيا، وعلى المسلمين أن ينتبهوا إلى مكايد الروس ودسائسهم، وإن بابراك كارمل قبل أن يصل إلى الحكم كان يفر من اسم القرآن واسم الإسلام، وما أخذ

اسم الإسلام مدة وجوده في البرلمان ثماني سنوات ولكن الآن لما رأى قوة المجاهدين وضغط المجاهدين وضغط الشعب المسلم اضطر رغم أنفه أن يبدأ كلمته كل مرة باسم الله، وإن الشعب كله يعرف أنه منافق ولا يذكر اسم الله إلا خوفاً من الشعب والحمد لله ».

- وسألت صحيفة الجزيرة « ١٠ / ١ / ١٤٠٢ » سيافاً عن إمكانية الاتفاق على عودة الملك ظاهر شاه لحكم أفغانستان. فقال:

« هناك فئة تتاجر بالقضية، فتارة تعلن أنها تقاتل لإعلاء كلمة الله، وأحيانا تنادي بأنها تقاتل من أجل إقامة حكم ديمقراطي غربي أو وطني وذلك كله من أجل الحصول على مساعدات من جهات مختلفة، وإيجاد البلبلة في صفوف المجاهدين، ولكن المجاهدين يعتقدون أن ظاهر شاه هو الذي عبَّد الطريق لدخول الروس، وهو الذي بعث بطلبة كثيرين إلى روسيا ليتعلموا، ولما رجع هؤلاء خربوا البلاد، وهو البائع الأول لأفغانستان للروس، ولهذا يعتبره المجاهدون ألد أعدائهم، ولا يسمحون له بالمجيء ».

وقد أجاب على السؤال نفسه لمجلة « المجتمع ٢٩ / ٣ / ١٤٠٤ هـ » فقال:

« إن أنصاف الحلول دائماً تميت القضية، ومنذ البداية قمنا ضد الملك فلا يمكن أن نعود إليه بعد أن تكبدنا أكثر من مليون شهيد، إن الملك نفسه طاغوت والقبول به لا يعتبر مرحلة جهادية، فالأمر واضح والنزول على مبادئ الإسلام واجب لا يجوز أن نساوم عليه أو نفاوض أحداً عليه، فطريقنا واضح لا لبس فيه ».

وأجاب على السؤال نفسه بمجلة «المجتمع «١٨ شعبان ١٤٠٣هـ» فقال:

«نرحب بالملك لنقتله في المطار».

ويعتقد سياف أن للمرأة دوراً في المعركة لا يقل عن دور الرجل، فإذا توزعت الأعمال حسب التخصصات والكفاءات عهد للمرأة بالدور الذي يناسبها، ومع ذلك فقد شاركت المرأة الأفغانية مشاركة فعلية في المعركة، ولم تكتف بالمساعدة فقط بل شاركت بالقتال كما قامت النساء بطهي الطعام وإعداد الخبز وسقي الجرحى في الخطوط الخلفية والأمامية للمعركة.

- أما بالنسبة للقضية الفلسطينية فقد أجاب سياف على سؤال لمجلة المجتمع «٢٩ / ١ / ١٤٠٤» بهذا الموضوع فقال:

«أما بالنسبة للقضية الفلسطينية فهي قضيتنا الأولى وإنَّ انشغالنا بالحرب مع روسيا لم يشغلنا عن فلسطين ونحن قلنا ارفعوا راية لا إله إلا الله نرسل لكم كتائب من المجاهدين الأفغان، وأنا اقترحت على الفلسطينيين أن نرسل كتائب للمساعدة ولكن بشرط رفع راية لا إله إلا الله، والآن إذا خصص لنا جبهة خاصة بالإسلاميين نرسل هذه الكتائب. ومع أننا رأينا مواقف نستحي من ذكرها من قبل مسؤولين في المنظمة وهي مواقف سيئة تجاه قضيتنا وجهادنا ولكن هذا لن يغير من نظرتنا نحو القضية الفلسطينية فالقدس يجب علينا إنقاذها لأن إنقاذها غير متعلق بالمنظمة وغير المنظمة ومواقف المنظمة لن تغير نظرتنا نحو فلسطين.

ويعتقد المراقبون أن سيافاً قد خرج بالقضية الأفغانية من مجالها المحلي إلى المجال الإسلامي فالدولي، ومثَّل أفغانستان في عدد من المؤتمرات الإسلامية والدولية.

ففي ٢٧ - ١ - ١٩٨٠ عقد في إسلام أباد مؤتمر لوزراء خارجية الدول الإسلامية لبحث الغزو الروسي لأفغانستان، وبرزت في المؤتمر آراء شاذة مثَّلتها مجموعة دول الصمود والتصدي العربية، ولكن المؤتمر خلص إلى القرارات التالية:

- إدانة العدوان العسكري السوفيتي على الشعب الأفغاني والتنديد به واستنكاره باعتباره خرقاً فاضحاً لكل القوانين والمواثيق والأعراف الدولية.

- المطالبة بالانسحاب الفوري غير المشروط لجميع القوات السوفيتية الموجودة في الأراضي الأفغانية.

- تعليق عضوية أفغانستان في المؤتمر الإسلامي.

- دعوة جميع الدول الأعضاء في المؤتمر الإسلامي إلى سحب اعترافها بنظام الحكم غير الشرعي في أفغانستان وقطع العلاقات الدبلوماسية معها إلى أن يتم الجلاء السوفياتي.

- مناشدة دول العالم نصرة الشعب الأفغاني.

- توصية الأعضاء بتقديم العون المادي والمعنوي للشعب الأفغاني المجاهد والوقوف إلى جانبه في حربه المقدسة من أجل عقيدته واستقلال بلاده. «المجتمع ٣ - ٣ - ١٤٠٢».

أما في المجال الدولي. فنجد أن الجمعية العامة للأمم المتحدة دعت في القرار رقم ٣٧٧ (٥) الذي أصدرته في ١٤ يناير ١٩٨٠ بأغلبية ١٠٤ أصوات ضد ١٨ صوتاً وامتناع ١٨ عن التصويت إلى الانسحاب التام والفوري وغير المشروط للقوات الأجنبية من أفغانستان من أجل تمكين الشعب الأفغاني من تقرير شكل حكومته بنفسه واختيار نظمه السياسية

والاجتماعية والاقتصادية في حرية دون أي تدخل خارجي ودون التعرض لأي قهر أو قمع أو قيود أياً كانت. وقد أكدت الجمعية العامة قرارها في التصويت الذي تم هذا العام ١٩٨٣ منذ شهر تقريباً وبهذا تكون الجمعية العامة قد أكدت مرة أُخرى بأن احترام السيادة وسلامة الأراضي والاستقلال السياسي لكافة الدول هو مبدأ أساسي من مبادئ ميثاق الأمم المتحدة وأن أي انتهاك له تحت أي زعم أمر يتعارض مع أهداف ومقاصد المنظمة الدولية. « المجتمع ٢٢ - ٣ - ١٤٠٤ ».

محاولات إجهاض الثورة: مما لاشك فيه أن روسيا الشيوعية وأميركا الصليبية تختلفان في كل شيء إلا في شيء واحد ألا وهو قيام حكم إسلامي في أي بلد إسلامي، ولقد قامت الاستراتيجية الصليبية الشيوعية على هذا المبدأ منذ إلغاء الخلافة العثمانية، ولهذا نجدهم يحاربون كل حركة إسلامية تعمل على إقامة حكم الله في الأرض، ولهذا ليس غريباً أن نجد كلًا من الدولتين تحاول إجهاض حركة الجهاد الأفغاني كل بالوسيلة التي تراها مناسبة، وهناك سبب جوهري خاص بروسيا يدفعها إلى إجهاض حركة الجهاد، وهو خوفها من انتشار الثورة الإسلامية بين مسلمي الجمهوريات الإسلامية التي يبلغ عدد سكانها ما يزيد على ستين مليوناً، وهذا ما دفع صحيفة « إزفستيا » السوفياتية «٣ - ٦ - ١٩٨٠ » إلى القول عندما أرادت أن تبرر عملية قمع الثورة في أفغانستان «لعدم السماح بقيام حركات تخريبية يقصد منها التشويش على بعض المناطق داخل الاتحاد السوفياتي ».

١ - دور روسيا

أ- **ضرب الإسلام باسم الإسلام:** حاولت روسيا إنشاء جبهة ضد

المجاهدين بمساعدة زعيم روحي اسمه « بهاء الدين » في حي سكني جديد يدعى « شهرنو » بمدينة قندهار، وقد استقر هذا الزعيم في نقطة عسكرية حيث يقوم مع أتباعه بالاكتشافات الروحية على الجنود الأفغان، لإقناعهم بأن احتلال الروس لأفغانستان إنما هو من إرادة الله تعالى. وقالت مصادر المجاهدين ان بهاء الدين هذا هو شيوعي من حزب برتشم، وقد أظهره الإعلام السوفياتي بأنه زعيم متصوف يخالف حركة الجهاد ضد الروس.

- وكان بعض عملاء السوفيات يدَّعون أنهم خلفاء الزعيم الروحي « بير » فشكلوا نوعاً من التنظيم لجذب عامة الناس إليهم، حيث يعقدون لهم اجتماعات سرية، ويشجعون عمليات السوفيات ضد المجاهدين، وقد هاجم المجاهدون إحدى اجتماعاتهم فقتلوا خمسة جنود سوفيات، وفر بقية العملاء.

- أنشأ السوفيات وعملاؤهم منظمة رسمية تدعى « مجلس شؤون إسلامي » قامت بعقد اجتماع للعلماء المسلمين في أفغانستان، وحضره عدد كبير من أعضاء الحزبين الشيوعيين تحت ستار العلماء بلحاهم الطويلة، ودام المؤتمر يومين تحت حراسة القوات الحكومية خوفاً من مهاجمة المجاهدين له، وهتف « العلماء » المجتمعون مؤيدين حكومة كارمل والغزو السوفياتي، ووصف البيان الصادر عن المؤتمر المجاهدين بأنهم « متمردين » وأن التدخل السوفياتي عملية شرعية، كما عين المؤتمر « سليمان » رئيساً للمجلس، وقد هاجم المجاهدون بقيادة « كماندو ذبيح الله » منزل سليمان هذا بمزار شريف واعتقلوه، وساقوه إلى مركز « الجمعية الإسلامية الأفغانية » حيث سيقدم للمحكمة الشرعية.

وخطة ضرب الإسلام باسم الإسلام، خطة قديمة سلكها المستعمرون على اختلاف أجناسهم. قامت الحكومة الشيوعية في كابل بافتتاح فصول لمحو

الأمية في مختلف القرى والمدن. وقد سارعت أعداد كبيرة للالتحاق بهذه الفصول ولكنهم انفضوا عنها حينما عرفوا أنها لاتريد تعليمهم اللغة العربية والقرآن الكريم ولكن تريد أن تعلمهم مبادئ الماركسية، وكانوا يهدون كل من يداوم على الدراسة في هذه الفصول تمثالاً صغيراً لبريجنيف، وتقول التقارير إن فصول محو الأمية أصبحت شبه خاوية من الدارسين الأفغان، وأن سبب ذلك هو إقبال الشباب على حمل السلاح والانضمام إلى صفوف المجاهدين. «المسلمون ٦ - ٤ - ١٩٨٥».

ب- **عملية غسيل الدماغ**: ذكرت وكالة الأنباء الأفغانية «٢٢ - ١٢ - ١٩٨٢» أن السلطات الشيوعية الحاكمة في أفغانستان ترسل أسبوعياً مئات الأطفال الأفغان إلى البلاد الشيوعية لإجراء عملية غسيل دماغ لهم من معتقداتهم الإسلامية وتربيتهم تربية شيوعية إلحادية وقالت إن «جمعية الصداقة بين الدول الشيوعية» هي التي تنظم هذه العملية، حيث تختار الأطفال الأذكياء في المدارس وتسفرهم دون إذن آبائهم، أما الأطفال الذين يرفضون السفر فإنهم يفصلون من مدارسهم، ويتراوح سن الأطفال الذين يختارون ما بين «٨ - ١٢» عاماً وقد أخذوا خلال الأشهر الأربعة الماضية حوالى عشرة آلاف طفل أفغاني ومن المقرر أن يعيش هؤلاء الأطفال في الدول الشيوعية عشر سنوات يعودون بعدها إلى بلادهم معاول هدم للشيوعية في بنية المجتمع الأفغاني.

ج- **فرق تسد**: ذكر راديو باكستان أن البريغادير المهندس عبد المنان المدير العام لوزارة الدفاع الأفغانية قد فرَّ إلى باكستان، وصرح بأن الجيش الأفغاني الحكومي قد تدنى من ٨٠ - ٢٠ ألف رجل، وأن الكثير منهم انضم إلى المجاهدين أو قتلوا خلال المعارك وقال إن أولئك الذين

لازالوا يخدمون في القوات المسلحة يتعاطفون مع المقاومة. «دونير ٢٤ - ١٢ - ١٩٨٢م».

وقد استغلت الأنظمة الشيوعية هذه الظاهرة، فأخذت ترسل عملاءها من جنود المخابرات إلى المجاهدين بحجة أنهم فروا من الخدمة ويريدون الالتحاق بالمجاهدين، فيعمل هؤلاء على بث الخلافات بين المجاهدين، وقد انطلت هذه الخدعة في بداية الأمر على المجاهدين وأحدثت بعض الفتن بينهم، إلا أنهم تنبهوا لها بعد ذلك، وأخذوا لا يضمون إلى صفوفهم إلا كل من يوثق به من الفارين.

د- **سياسة الأرض المحروقة**: تضاعف عدد القوات السوفياتية الغازية لأفغانستان فهو يتراوح الآن ما بين «٢٠٠ - ٢٥٠» ألف مقاتل كلها قوات مدرعة ومحمولة، ترافقها الطائرات والدبابات الضخمة والصواريخ، وقد شنت هذه القوات حملات مكثفة جوية وبرية على المجاهدين والآمنين، وأحرقت المزروعات حتى تحدث مجاعة داخل أفغانستان، ويضطر السكان إلى الهجرة، فتبقى ظهور المجاهدين مكشوفة للأعداء، وأخذت تدمر القرى والمدن بشكل عشوائي وترتكب مذابح جماعية بحق السكان الآمنين، ففي يناير ١٩٨٥ دخلت القوات الروسية قريتي «عيسى خيل وقصاب كلي» في قندهار وقتلت حوالى «٥٨٥» شخصاً.

وقد أثمرت هذه السياسة في بداية الأمر فضيقت على المجاهدين أرزاقهم حتى إن أمير المجاهدين في الولايات الغربية قال إنه أرسل أربعة جنود إلى أربع قرى للحصول على الخبز فرجعوا بأربعة أرغفة فقط، ولكن تقارير المراقبين الرسميين تفيد أن المجاهدين استطاعوا أن يسدوا هذه الثغرة، وأن يكثفوا هجومهم على الشيوعيين، وقد خسر الروس في

الشهرين الماضيين « المجتمع ١٢ مارس ١٩٨٥ » أكثر مما خسروه في السنوات الخمس الماضية.

هـ- محاولة إعادة الملك: أرسلت روسيا إلى الملك محمد ظاهر شاه تفاوضه للعودة إلى حكم أفغانستان مرة أخرى وهي الدولة التي كانت تعتبره بالأمس عميلًا للغرب. وقد أعلن الملك استعداده للعودة بشرط أن تصفى الساحة في أفغانستان من العناصر التي تطالب بحكم إسلامي، وروسيا تجد أن وجود ملك يدَّعي الإسلام ولا يعمل على تطبيقه وترضى عنه أميركا أفضل لها من وجود المجاهدين الذين يعملون على إخراجها من أفغانستان وإقامة حكم إسلامي فيها، ويكون منهم خطر تصدير الصحوة الإسلامية إلى الجمهوريات الإسلامية السوفياتية.

٢- دور أميركا

أ- ضرب الإسلام باسم الإسلام: عملت أميركا على استقطاب رؤساء الجماعات الصوفية في أفغانستان « المجددي والجيلاني والمحمدي » فانشقوا عن الاتحاد الإسلامي لمجاهدي أفغانستان، وفي الوقت الذي يطالب فيه المجاهدون بإقامة حكم الله في أفغانستان، يطالب هؤلاء بإرجاع الملك إلى الحكم وهؤلاء زعماء دينيون لكن ليس لهم رصيد شعبي وخاصة بين الشباب. ولهذا فإن أميركا تراهن على الحصان الخاسر، ومن الجدير بالذكر أن أميركا لم تتصل بأية منظمة من المنظمات المجاهدة، كما أنها لم تتصل بسياف شخصياً، ولكن اقتصر اتصالها ببعض الفئات التي تحبذ إعادة النظام القديم في أفغانستان.

ب- إرجاع الملك السابق ومؤامرة السادات على الثورة: أوكلت أميركا إلى السادات قبل موته « بشراء الجهاد الأفغاني لحسابها » فأرسل

وراء بعض الزعماء الذين يطالبون بعودة الملك، ووعدهم بعمل حكومة لهم في المنفى ومدهم بالسلاح والمال بشرط أن يبعدوا « سيافاً » ومن معه عن طريق الجهاد، فرجعوا وأصدروا منشوراً ضد سياف، نشرته إذاعات لندن وموسكو وأميركا، وكان ذلك في نهاية عام ١٩٨٠ وكان « مجددي وجيلاني ومحمدي » في الاتحاد الإسلامي فانسحبوا منه بأوامر أميركية وكونوا اتحاداً آخر بنفس الاسم، ولكن خرجت عليهم قواعدهم وانضم قسم كبير من أتباعهم إلى الاتحاد الحقيقي. « المجتمع ١٨ شعبان ١٤٠٣ هـ ».

وقال سياف لصحيفة الجزيرة « ١٠ - ١ - ١٤٠٢ » «لقد حاول السادات والحكومة المصرية أن يتدخلوا، فأيدوا الوطنيين والديمقراطيين، ضد من يقاتل لإعلاء كلمة الله، ووجدنا وثائق تدل على ذلك، كما أن بياناته الأخيرة التي يتهم فيها المجاهدين بالانتساب لأميركا تعتبر دليلاً على معاداته لهم، ولقد وجه السادات الدعوة إلي ولبعض قادة المجاهدين ولكننا رفضنا أن نستجيب لدعوته، فأغاظه ذلك وأخذ يحاول تشويه سمعة الحركة الجهادية فينسبها تارة لنفسه وتارة لأميركا، وتارة يدعى بأنه يساعد المجاهدين وهذا كلام عار عن الصحة. وقد ذهب الثالوث الصوفي إلى مصر قبل مؤتمر الطائف استجابة لدعوة السادات، وأعلنوا إبعادي عن ساحة الجهاد وأنني لاأُمثل المجاهدين وذلك استجابة لطلب السادات حتى لاأمثل المجاهدين في مؤتمر الطائف، وقد علمنا في بيشاور أن السفارة المصرية كانت لها اليد الطولى في تحريض هؤلاء ضدي، ولكن الحمد لله أدرك المجاهدون هذه المؤامرة فلم يستجيبوا لها

ج- **التعتيم والتشويه الإعلامي**: كان موقف الإعلام الغربي من الحركة الجهادية في بداية الأمر موقف التحريض والتشجيع، لأن الغرب كان يريد أن يورط روسيا والمسلمين في معركة هو المستفيد الأول والأخير

منها ، ولكن لما قويت الثورة وأعلنت عن أهدافها ظهر موقف الإعلام الغربي العدائي لها ، فهم يشوهون الحقائق ، ويفرضون التعتيم الإعلامي على أخبار انتصارات المجاهدين ويدبرون المؤامرات ويشاركون الروس في كيفية القضاء على حركة الجهاد الإسلامي، وعدم تمكينها من تحقيق أهدافها .

كما أوعزت أميركا والدول الغربية إلى عملائها في الدول العربية والإسلامية بأن يكون تأييدهم للجهاد الأفغاني تأييداً كلامياً لانفع منه، وذلك امتصاصاً للنقمة التي قد تحصل من الجماهير الإسلامية التي تؤيد العمل الجهادي ، ولهذا لم يصل المجاهدين أيُّ معونة رسمية تذكر ، وكل الذي يصلهم مساعدات من الشعوب الإسلامية فقط ، بل إن الدول العربية والإسلامية وضعت العراقيل في وجه جمع أية تبرعات للمجاهدين، كما أنها جمدت الأرصدة التي كانت قد جمعت، أما دول الصمود والتصدي فقد أيدت روسيا علناً ضد المجاهدين بل إن بعضها أرسل جنوداً من عنده لمقاتلة المجاهدين، كرمز للتعاطف مع الأهداف العدوانية لروسيا على الشعب المسلم في أفغانستان.

كما أوعزت أميركا لعملائها في المنطقة بفرض التعتيم الإعلامي على الجهاد الأفغاني وعلى سياف بالذات، فقد زار سياف بعض الدول العربية فلم يحظ بأي استقبال أو ترحيب رسمي أو إعلامي، وقد وجه كتاباً إلى حاكم إحدى الدول العربية قال فيه: «لو أنني كنت على رأس وفد رياضي - أو فني - لكانت حفاوتكم بي أبلغ وأعظم » (المجتمع ١٣ - ١ - ١٤٠٢ » .

والملاحظ مما سبق أن مخططات روسيا وأميركا منسجمة ومتشابهة وكأنها تصدر عن مخطط واحد.

هل ستنجح الثورة الأفغانية؟ سئل سياف مرةً عن رأيه في إمكانية تحقيق إقامة دولة إسلامية في أفغانستان فقال: عندما أنظر إليها من نافذة الإيمان، ومن نافذة الاطمئنان إلى وعد الله بالنصر، فإني أراها قريبة إن شاء الله؛ ولكن يبقى جانبٌ واحد لتحقيق هذا الهدف هو الأخذ بأسباب النصر، وبمقدار الأخذ بهذه الأسباب يكون النصر قريباً أو بعيداً، لقد كان رسول الله ﷺ مطمئناً في غزوة بدر لنصر الله ووعده، ولكنه كان يخشى من أن يكون بعض الجنود لم يأخذ بأسباب النصر، أو لم يبذلوا الجهد لتحقيقه، ولهذا تجده يرفع يديه إلى السماء يدعو الله أن يحقق له ما وعده ويلح في الدعاء حتى يُرى بياض إبطيه.

وأسباب النصر جمعها الله في آية واحدة من كتاب الله تعالى في سورة الأنفال فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون، وأطيعوا الله ورسوله، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين﴾ «٤٥ - ٤٦ الأنفال».

فالإيمان أول أسباب النصر: ومما لاشك فيه أنه متوفر في المجاهدين على مستوى القاعدة والقمة، فبالإضافة إلى الإيمان بالإسلام كمنهج للحياة، فهم يؤمنون أيضاً بضرورة تحقيق أهداف الإسلام الكبرى في إقامة حكم الله في الأرض، ولهذا فإنهم قاموا يجاهدون في سبيل الله، وتحت راية لا إله إلا الله، وليس تحت أية راية أخرى قومية أو وطنية أو ديمقراطية. كما أنهم يؤمنون بأن معركتهم معركة عقائدية مقدسة لأنهم يحاربون أكبر دولة إلحادية في العالم.

والثبات عنصر ثان من عناصر النصر: ولا ثبات بدون إعداد القوة، القوة المعنوية والقوة المادية، وتتمثل القوة المعنوية بنشر روح الجهاد في سبيل الله بين الشعب وإيجاد رأي عام مؤيد للمعركة مهما طالت مدتها

وفدحت نفقاتها، وأعتقد أن المجاهدين قد استطاعوا تحقيق هذا الهدف، فمعظم الشعب الأفغاني يؤيدهم ويتعاطف مع حركتهم تعاطفاً إيجابياً فيقدمون لهم المساعدات العينية كما يقدمون لهم شبابهم ليكونوا جنوداً في صفوف المجاهدين، كما أنهم تحملوا مشقة الهجرة إلى باكستان والدول المجاورة بحيث هاجر حوالي خمسة ملايين أفغاني وهذا يعادل ثلث سكان أفغانستان، أما الباقون فقد صبروا على مجازر القوات الشيوعية وتهديمها لبيوتهم وحرقها لمزروعاتهم.

وتتمثل القوة المادية بإعداد السلاح، والله جلت مقدرته حينما قال «وأعدوا» قال «ما استطعتم من قوة» وهذا يوحي بأن على المسلم أن يعد من القوة لعدوه قدر استطاعته بدون أي تقصير، وعلى الله سبحانه بعد ذلك أن يكمل النقص من عنده، والمجاهدون أعدوا لعدوهم من القوة على قدر استطاعتهم، وقد مكنهم الله من عدوهم بحيث أصبح المصدر الرئيسي لسلاحهم ما يغتنمونه من أيدي أعدائهم، وقد قاوم المجاهدون القوات الروسية التي تريد الحياة بقوات من الشباب تعشق الموت والاستشهاد في سبيل الله فكان الواحد منهم وهو لايملك سوى بندقية يواجه دبابة فيكمن لها ويقفز عليها ويضع الطين على الزجاج فلا يرى قائد الدبابة شيئاً فيرش عليها المجاهد البترول ويحرقها بمن فيها أو يقتلهم ببندقيته، وقد استعملت روسيا ضدهم كل أنواع الأسلحة المتطوره حتى الممنوع منها كالأسلحة الكيماوية، فكان المجاهدون يبللون أطراف عمائمهم بالماء ويضعونها على أنوفهم فلا تصل إليهم الغازات السامة، ويدل عدد الشهداء - حوالى مليون شهيد - عن مدى التضحيات التي قدمها المجاهدون في سبيل الله وإعلاء لكلمة الله.

وذكر الله تعالى سبب أساسي من أسباب النصر: أن يذكر الله في

لسانه، وأن يكون مع الله في قلبه، وأن يتوكل على الله فلا يسأل أحداً غيره ولا يطلب العون إلا منه، وأن يعتقد أن النصر من عند الله ومن عند الله وحده. والشعب الأفغاني شعب مسلم، جذور الإيمان عميقة في نفسيته ويقول سياف «إن المجاهدين لم يطلبوا المعونة من غير المسلمين، لأنهم بذلك يحتمون بطاغوت ضد طاغوت، وهم لايطلبونها إلا من الله ثم من إخوانهم المسلمين».

وحدة الصف سبب ثالث من أسباب النصر: وقد تمثلت وحدة الصف في الحركة الأفغانية بقيام اتحاد إسلامي بين جميع فصائل الثورة، كما قاموا بإيجاد قيادة لهم بزعامة سياف. ووجود القيادة شرط أساسي لوحدة الصف، كما أن طريقة إيجاد الاتحاد التي قامت على أساس القناعة لدى قادة فصائل الثورة وقواعدها بضرورة توحيد الجهود لمواجهة عدو شرس ملحد. وقد عمل الاتحاد بعد ذلك على إيجاد الشعب المجاهد، فكل الشعب حتى النساء والأطفال في أفغانستان يعرفون كيفية استعمال السلاح، وقد اشرك المجاهدون المرأة في عملية الجهاد ليس فقط في الصفوف الخلفية كقوة مساندة ومساعدة ولكن أيضاً باستعمال السلاح والاشتراك في الدفاع عن مناطق المجاهدين.

يقول سياف «لدينا ثلاثمائة وتسعون» مدرسة في مخيمات اللاجئين، وفي برامجنا تعليم الدين ومبادئ التربية العسكرية تدرس من السنة الأولى في المرحلة الابتدائية، فنحن حينما ندرس لهم الحساب نقول لهم: بندقية + بندقية ماذا يكون حاصل الجمع؟ وذلك حتى يتعود الطفل منذ صغره على الجهاد إضافة إلى اللغة العربية وهناك الكثير من المجاهدين يجيدونها، وأنتم حينما ترون مدارس الأيتام ضحايا الغزو الشيوعي وتستمعون إلى أناشيدهم فإنهم يحركون القلوب الميتة، فإن الطفل اليتيم

هناك يقول: اطمئن يا أبي الشهيد فإني سأنتقم لك باسم الإسلام » « المجتمع ٢٩ ربيع أول ١٤٠٤ هـ ».

وأخيراً الصبر عنصر مهم من عناصر النصر: وأعتقد أن الشعب الأفغاني قد صبر وصابر مدة ست سنوات في وجه أعتى وأقوى دولة ملحدة، وهو والحمد لله لايزال صابراً لم تلن له قناة ولم تفت في عضده المؤامرات، ومن كان الله معه فلا يبالي، هذا بالإضافة إلى عظمة التضحيات التي يقدمها هذا الشعب، فليس هناك أسرة لم ترزأ بفقد واحد أو أكثر من رجالها.

ولم يكتف المجاهدون باللباب بل أيضاً أخذوا بالقشور والمظاهر التي أصبحت من الضرورات في هذا العصر فاهتموا بالإعلام حينما أنشأوا إذاعة تنطق باسم الثورة، ووكالة الأنباء الأفغانية، واتخذت فصائل الثورة عَلَماً مشتركاً ولجاناً مشتركة للعمل، هذا بالإضافة إلى نقل القضية من المجال المحلي إلى المجال الإسلامي والدولي.

إن الملامح الأساسية للثورة تبشر بنجاحها، فالمجاهدون يسيطرون على أكثر من ٨٠٪ من أفغانستان، ويهاجمون القواعد السوفياتية وأماكن تجمع الروس في العاصمة، كما أنهم فازوا بتأييد حوالى ٩٩٪ من الشعب الأفغاني، حتى قال أحد أعضاء الحزب الشيوعي الأفغاني لمراسل وكالة الصحافة الفرنسية « لو أردنا إلقاء القبض على المعارضين لوجب علينا زج كل السكان في السجن ». وإذا كان الروس يسيطرون على العاصمة كابل في النهار فإن المجاهدين يسيطرون عليها في الليل، ويقوم المجاهدون بهجومين أو أكثر كل يوم على المواقع الاستراتيجية في كابل كما استطاعوا نسف السفارة الروسية فيها، ومهاجمة العديد من المطارات وتحطيم عدد

كبير من الطائرات التي تربض فوق أرضها، حتى أصبح الروس والمسؤولين الشيوعيين لايجرؤون على التنقل داخل كابل إلا في سيارات مصفحة محروسة.

لقد استعملت روسيا كل الأسلحة التي لديها الحديثة والمتطورة، كما استعملت الأسلحة الممنوعة من كيماوية وجرثومية، ومع ذلك تزداد خسائرها في الأموال والعتاد والأرواح يوماً بعد يوم والدليل على ذلك أنهم يوقفون حركة المطار في كابل ساعتين يومياً لشحن جثث قتلاهم إلى روسيا. وقد اعترفت صحيفة البرافدا السوفياتية الرسمية بتاريخ « ١٤ نيسان ١٩٨١ » للمرة الأولى بأن حكومة كابل عاجزة عن الإبقاء على الطرق الرئيسية في البلاد مفتوحة. يقول سياف «لعلي أعلن لأول مرة أنني شخصياً خططت لضرب السفارة الروسية في كابل وتابعت خطة ضربها أربعة أشهر، إن كابل الآن محاصرة من المجاهدين « المجتمع ١٣ - ١ - ١٤٠٢ ». لقد استعملت روسيا كل أسلحتها ضد المجاهدين، ولكن دون جدوى، فهل تستعمل ضدهم الأسلحة الذرية؟.

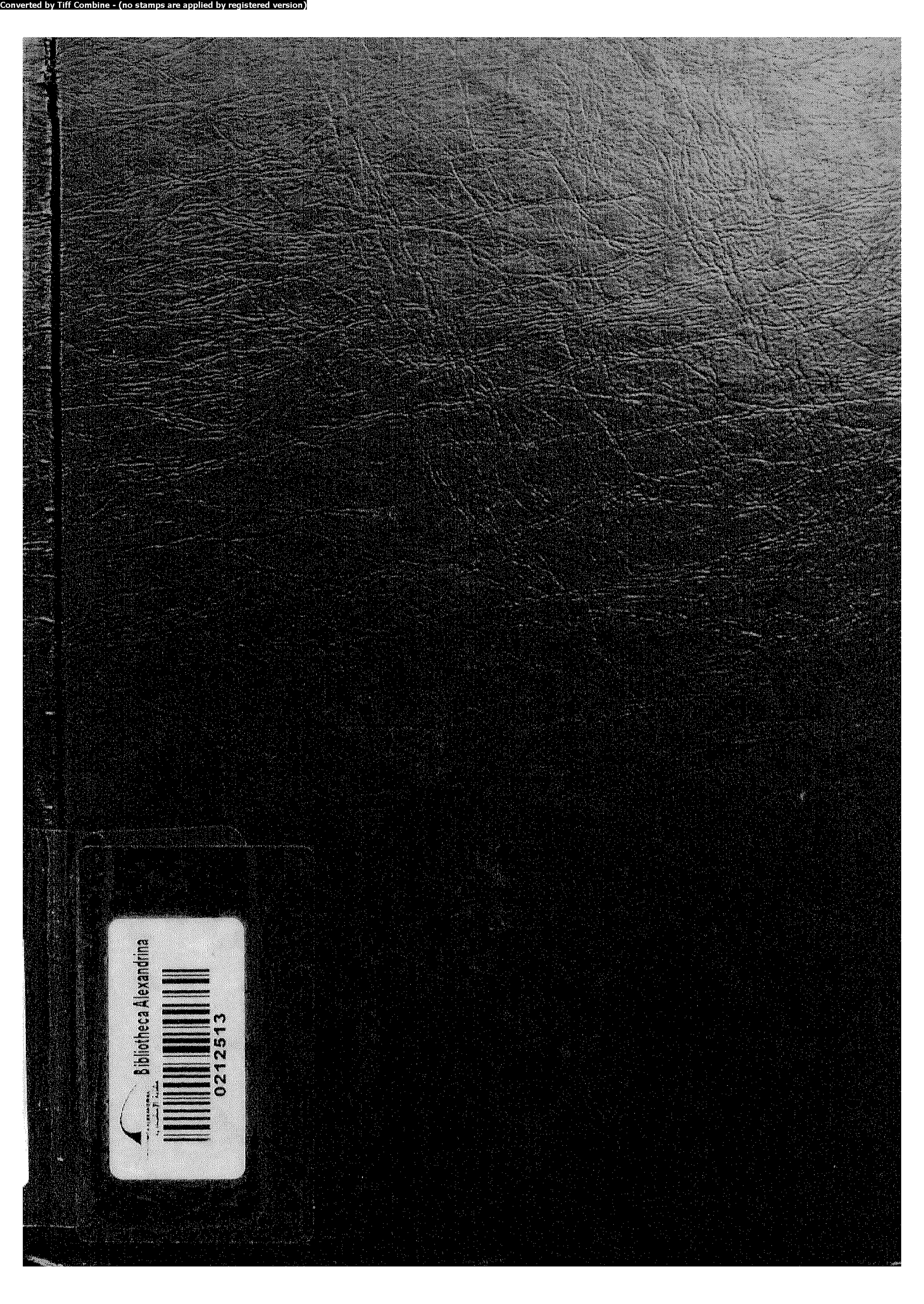
ومع ذلك فإن الله لأعدائه بالمرصاد، وإنه سبحانه وتعالى يدافع عن الذين آمنوا.

محتويات الكتاب








Bibliotheca Alexandrina
0212513